المفرد النفيس
من فوائد جعفر شيخ إدريس
٣

ح دار أطلس الخضراء ، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريف، مبارك حمد الحامد

المفرد النفيس من فوائد جعفر شيخ ادريس . / مبارك حمد الحامد الشريف – الرياض، ١٤٤٠هـ

١٦٣٨ ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٤-٥-٩١٢٣٣-٦٠٣-٩٧٨

١- المقالات العربية أ- العنوان

ديوي ٨١، ١٤٤٠/٦٤١٦

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٦٤١٦

ردمك: ٤-٥-٩١٢٣٣-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م

دار أطلس الخضراء للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية – الرياض

هاتف: ٤٢٦٦١٠٤ – ٤٢٦٦٩٦٣ فاكس: ٤٢٥٧٩٠٦

جوال: ٠٥٤٤٨٩٦٦٥٤

www.facebook.com/DARATLAS

twitter: @ dar-atlas

dar-atlas@hotmail.com

المفرد النفيس

من فوائد جعفر شيخ إدريس

فوائد مختارة من بحوث ومقالات ومحاضرات

جمع وإعداد

د. مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الثالث

دار أطلس الخضراء

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد محاضرات الحضارة الغربية

الفائدة: سعادة الإنسان وتحقيق المجتمع الإنساني في مفهوم النظرية الفردية:

تقول النظرية الفردية في شكلها المتطرف: إن الإنسان أساسًا فرد، وأن وجوده في المجتمع أمر طارئ عليه، وكان مضطرًا إليه، ولذلك فإن أهم ما ينبغي أن يسعى إليه التنظيم الاجتماعي هو تقليل أثر المجتمع على الفرد إلى أقصى حد، وتمكين الفرد من أن يمارس حريته إلى أقصى حد، ومن هنا جاءت فكرة (دعه يعمل) التي كانت حلم الرأسمالية في شكلها السياسي والاقتصادي، والذي حققت منه ما تسنى لها فلم تكن النتيجة أن تحرر الفرد، بل أن ظهرت في المجتمع طائفتان فقدت إحداهما إنسانيتها، بذل البؤس والاستغلال والعبودية وفقدت الأخرى إنسانيتها ببطر الثراء والترف والانغماس في الشهوات الحيوانية، وبقي بالطبع بين هاتين أفرادًا كثيرون لم يبلغوا من الثراء أن يكونوا رأسماليين، ولا من البؤس أن يكونوا مسحوقين، فتفرقوا مذاهب واتجاهات كل حزب بما لديهم فرحون.

- فمنهم الشيوعيون.
- ومنهم الاشتراكيون غير الماركسيين.
- ومنهم المتدينون.
- ومنهم الهيبون.

- ومنهم الرافضون لما أسموه بمجتمع الاستهلاك، الراغبون في مجتمع أكثر إنسانية، وإن كانوا لا يدرون الطريق إليه.

- ومنهم أفراد المفكرين والفلاسفة ذوي الآراء والمذاهب الخاصة، ومنهم ومنهم، ذلك ما آل إليه واقع النظرية الفردية[1].

الفائدة: سعادة الإنسان وتحقيق المجتمع الإنساني في مفهوم النظرية الماركسية:

النظرية الماركسية تقول: إن الملكية الفردية لوسائل الإنتاج والتوزيع هي العامل الأساس الحاسم في المصير المؤسف الذي قادت إليه الرأسمالية. فالعلاج إذن سهل ميسور، وهو الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والتوزيع، فإذا ما تحقق هذا الإجراء الاقتصادي حلت تدريجيًا كل العقد التي أقعدت الإنسان عن تطوره الإنساني، فحلت الأريحية أو الجماعة محل الأنانية والفردية، وحل الإخاء محل التنافس والبغضاء، وصار عمل العامل -شأنه في ذلك شأن الشعر والموسيقى- عملًا خلاقًا يعبر عن جوهر الإنسان ويعلي من قدره، وزالت أمراض الكذب والخيانة والسرقة والإدمان وغيرها.

لماذا لا يحصل كل هذا؟ لأن الوضع الاقتصادي للمجتمع هو أساسه، وكل ما عداه من آداب وفن وخلق وقانون ودين وعلاقات اجتماعية، إنما هي بنى فوقية تابعة لذلك الأساس، فإذا تغير تغيرت معه، ولا أمل في تغييرها إذا ظل هو ثابتًا.

---

(١) الإسلام وتحقيق المجتمع الإنساني، مجلة المجتمع الكويتية (١٦١)، رجب ١٣٩٣هـ - يوليو ١٩٧٣م.

ووجدت الماركسية الفرصة لتطبيق نظريتها وأزيلت الملكية الفردية، وتحققت الملكية الجماعية، أو بالأحرى الملكية الدولية لوسائل الإنتاج والتوزيع وانتظر الناس أن يتغير البناء الفوقي بعد أن تغير الأساس، وطال الانتظار، وبقي البناء الفوقي شامخًا يتحدى الذين زعموا أن أساسه الوضع الاقتصادي، فقد بقي الكذب وبقيت الخيانة وبقي النفاق بل ازداد، وبقيت السرقة والاختلاس، وازداد الانغماس في الشهوات المادية وتفاقم الإدمان، هذا إلى جانب شرور أخرى صاحبت النظام، فبدلًا من أن تكون إزالة الملكية الفردية كسرًا لقيد العبودية وتحريرًا للإنسان -كما تصورها المفكرون الاشتراكيون، ارتبطت الملكية الجماعية في تجربة الاتحاد السوفيتي بأسوأ أنواع القهر السياسي التي عرفتها البشرية، ولم يكتف هذا النظام بخنق الحريات الداخلية وتسليط المخابرات لحصر أنفاس الناس، ومراقبة ألسنتهم وأقلامهم، وعلاقتهم، بل أرسل جنده المسلح لإسكات أي صوت خارج الاتحاد السوفيتي زعم أنه سيجعل للاشتراكية وجهًا إنسانيًا. وبدلًا من أن تكون الماركسية علمية تسلم بنتيجة التجربة التي أثبتت كذب الافتراض، راحت تبحث عن المبررات التي حالت دون ظهور النتيجة المرجوة.

فقالوا مرة: إن الأساس المزال لم تزل معه كل آثاره الفوقية؛ لأن رواسبها بقيت في الرؤوس، وفي الكتب، وفي كثير من العادات والتقاليد، وظلت لهذا تعمل عملها ولكنها لا شك زائلة بالتدريج.

وقالوا مرة: أنه ما دام الأساس الرأسمالي ما زال باقيًا بأدواره الفوقية في

كل البلاد غير الاشتراكية، وما دامت البلاد الاشتراكية مفتوحة لتلقى أثاره ليس من الغريب أن تتأثر به.

وقال بعض الماركسيين خارج الاتحاد السوفيتي: إن النتيجة السوفيتية ليست بالضرورة النتيجة الحتمية لتطبيق الماركسية، نعم، أن السوفييت طبقوا من الجانب الاقتصادي جانب إزالة الملكية الفردية، ولكنهم جعلوها ملكية دولة، وملكية الدولة لا تزيل الاغتراب أو الاستلاب، بل الملكية الجماعية هي التي تفعل هذا.

إن المهم في الاشتراكية أن يكون الإنتاج لصالح الجماعة كلها، وهذا يحتم ارتباط الاشتراكية بالديمقراطية الحقيقة، بحرية التعبير ومشاركة الشعب في صنع القرارات؛ لأنه ما دام المقصود أن يكون الإنتاج لصالح الجماعة فينبغي أن تقرر الجماعة ما تراه صالحًا لها.

وقال بعض هؤلاء: إننا والماركسيين داخل البلاد الاشتراكية لم نكن محقين في أن نتوقع ما توقعناه، لقد أخطأنا فهم الماركسية الحقة وتأثرنا بالتفسير الستاليني لها؛ وذلك أن (ستالين)هو الذي قال: إن العامل الاقتصادي هو الذي لا يؤثر في غيره من البنى الفوقية فحسب، بل هو الذي يحتم شكلها ومصيرها.

أما (ماركس) فلك ما قاله: أنه في الفترة التاريخية التي تقوم فيها العلاقات الاقتصادية على أساس الملكية الفردية، فإن العامل الاقتصادي يكون أهم العوامل في تحديد سائر العلاقات الاجتماعية، أما حين تزول الملكية الفردية فإن العامل المادي يفقد هذه الأهمية، ويبقى الناس أحرارًا في اختيار المجتمع

الـذي يريـدون بعـد أن كسـرت أغـلال الملكيـة الفرديـة، أي أن العامـل الثقـافي الفكري يصبح أهم العوامل، لتأكيد هذا الفهم ودعمه رجع أصحابه إلى كتابات (ماركس) الأولى سيّما مخطوطات عام ١٨٤٤م؛ ذلك ما قيل في الغرب، ولقد كرر شيء من هذا التاريخ في عالمنا العربي، فحين بدأت التجربة الاشتراكية عندنا.

قال المتأثرون منا بالماركسية: أن أخلاقنا ستتغير تبعًا لتغيير أوضاعنا الاقتصادية.

- فقريبًا تحل الأخلاق الاشتراكية محل الأخلاق الرعوية الزراعية المرتبطة بالمفاهيم الدينية الغيبية.

- قريبًا تزول الأنانية وتأخذ مكانتها الجماعية.

- قريبًا يحل التفكير العلمي محل التفكير الخرافي.

فلما مرت السنون ولم تأت النتيجة المرجوة تحول الشعار، فبعد أن كان تبشيرًا بحلول الأخلاق الاشتراكية الناتجة عن الأوضاع الاشتراكية، أصبحنا نسمع نداء مثل: (نحو أخلاق اشتراكية لحراسة منجزاتنا الاشتراكية)، أي أن المنجزات بدلًا من أن تنتج الأخلاق أصبحت هي المحتاجة إليها لتحرسها.

إذن فالنتيجة التي خلصت إليها الماركسية واعترف بها كثير من الماركسيين والمتأثرين بالفكر الماركسي: هي أن إزالة الملكية الفردية لا تكفي وحدها لتحقيق المجتمع الإنساني.

فما هي أذن الشروط اللازمة لتحقيق هذا المجتمع؟

يقولون -كما رأينا-: أنه لا بُد من أن تحل الملكية الجماعية محل ملكية الدولة، ولا بُد - لذلك من توفير الحرية والمشاركة الجماهيرية. هب أن كل هذا حدث فهل يكفي للوصول بنا إلى النتيجة التي نريدها؟ ولنتذكر أن النتيجة التي نريدها -كما ذكرت في صدر هذا الحديث- هي أن يصبح الإنسان إنسانا حقيقيًا، أو بعبارة أخرى أن يصبح المجتمع مجتمعًا إنسانيًا.

ولكن هذا يقودنا إلى سؤال آخر: ما هو الإنسان الحقيقي؟

وقد اضطربت الماركسية في الإجابة إلى هذا السؤال فـ(ماركس)يقول لنا تارة: ليس هنالك ما يسمى الجوهر الإنساني، فطبيعة الإنسان إن هي إلا مجموعة علاقاته الاجتماعية. وبما أن هذه العلاقات تختلف حسب نظريته من طور إلى طور تبعًا لاختلاف الأساس الاقتصادي للمجتمع، فالطبيعة الإنسانية إذن ليست ثابتة، فلكل مرحلة اقتصادية إنسانها المختلف كيفًا عن المرحلة السابقة ولمرحلة اللاحقة، هذا ما يقتضيه القول بأن طبيعة الإنسان إن هي إلا مجموع علاقاته الاجتماعية.

ولكن ماركس يتحدث عن -لاسيّما في مخطوطات عام ١٨٤٤م- عن الإنسان الحقيقي، وإدانته للرأسمالية مرتكزة أساسًا على أنها مسخت هذا الإنسان، وشوهت حقيقته، وجعلته مغتربًا عن ذاته، بل جعلته حيوانًا، وهو لن يعود من غربته ولن يستعيد حقيقته إلا في المجتمع الشيوعي.

وهو يقول في هذا الصدد في كتابه آنف الذكر: وثالثًا هناك الشيوعية التي

تزيل الملكية الفردية إزالة إيجابية فتزيل اغتراب الذات الإنسانية، فهي -لذلك- أن يستعيد الإنسان -من أجل الإنسان- جوهره الحقيقي استعادة حقيقية. هذه هي الشيوعية بما هي عودة الإنسان عودًا تامًا وواعيًا محتفظًا بكل ثراء التطور والسابق للإنسان بما هو كائن اجتماعي، أي كائن إنساني.

الشيوعية بما هي الطبيعية المكتملة هي الإنسانية، وبما هي الإنسانية المكتملة فهي الطبيعة. أنها الحل الحقيقي للعداوة بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والإنسان، إنها الحل الحقيقي للصراع بين الوجود والجوهر، بين الفعل الموضوعي وتأكيد الذات، بين الحرية والضرورة، بين الفرد والنوع، إنها حل معضلة التاريخ وأنها لتعرف أنها هذا الحل.

ويقول بعد قليل من هذا: إن الإزالة الإيجابية للملكية الفردية، واكتساب الحياة الإنسانية، هي إذن لإزالة، الإيجابية للاغتراب كله فهي لذلك عودة الإنسان من الدين، ومن الأسرة، ومن الدولة إلى كينونته الإنسانية أي الاجتماعية[1].

الفائدة: ما هو الإنسان؟ وكيف نصل للمجتمع الإنساني في التصور الماركسي؟

ما هو الإنسان؟ لا مجال هنا ولا داعي للدخول في التفاصيل الشائكة للإجابة على هذا السؤال وفي مناقشة الإجابة الماركسية له. ولذلك فستكتفي

---

(١) الإسلام وتحقيق المجتمع الإنساني، مجلة المجتمع الكويتية (١٦١)، رجب ١٣٩٣هـ - يوليو ١٣٧٣.

بالقدر المشترك بيننا وبينهم في تصور هذا الإنسان الحقيقي غافلين عن نقاط الاختلاف وعن الاضطراب والتناقض الذي وقعوا فيها.

ما هي سمات المجتمع الإنسان الذي يتكون من أُناس حقيقيين غير مشوهين ولا مغتربين؟

أنه مجتمع تزول عنه الأنانية والأثرة، فيعمل فيه كل إنسان حسب جهده؛ ليكفي حاجات نفسه وحاجات غيره من غير أن يغلب الأولى على الثانية ومن غير أن يشعر بالتناقض بينهما. فهو مجتمع تقوم علاقات الناس فيه على الإخاء والحب والتعاون، لا التنافس والتباغض، وهو مجتمع يتسم أفراده بالصدق والأمانة، فلا يكذبون ولا يخونون ولا يسرقون ولا يحاولون الهروب من أنفسهم بالإدمان أو البغاء أو غير ذلك من الملهيات القاتلة، ذلك أهم ما قالته الماركسية، في تصورها للمجتمع الإنساني. والمجتمع الإنساني شيء أعظم من هذا بكثير، ولكن لنقف عند هذا الحد الذي يمثل جزءًا كبيرًا من التصور الماركسي وهو حد نتفق معها فيه وإن كنا نراه ضئيلًا.

كيف نصل إلى هذا المجتمع الإنساني؟

لقد عرفنا من قبل أن مجرد إزالة الملكية الفردية لا توصل ولم توصلنا إليه كما بينت التجربة السوفيتية. فهل تأتي الملكية الجماعية بما عجزت تأتي الملكية الفردية؟ لا دليل نظري على ذلك، ولا واقع عملي يصدقه وهذا بالطبع لا ينفي كون الملكية الجماعية خير من الملكية الدولية.

وماذا عن الحرية؟ إن الحرية بمعنى إتاحة الفرصة للناس كي يعبروا عن آرائهم ولكي يقرروا مصيرهم لا تؤتي هي الأخرى بهذه الثمار، بل غاية ما تفعله هو أن تهيئ المناخ للذين يريدون الوصول إلى ذلك المجتمع. إذن فهي والأوضاع الاقتصادية المناسبة بمثابة الطريق المعد للسيارات فهو وحده لا يكفي لتحريكها، بل لا بُد أن تكون السيارة قادرة على الحركة وأن يكون قائدها راغبًا في تحريكها عارفًا بالجهة التي يقصدها فإذا كانت الجهة معروفة وهي المجتمع الإنساني وإذا كانت الرغبة في السير نحو ذلك المجتمع مفروض توفرها فقد بقي أن تتوفر المقدرة على الحركة والسير.

يبدو من كلام البعض أنهم يفترضون أن هذه المقدرة أيضًا معطاة متوفرة فلا حاجة للبحث عنها أنهم يرون أن لكل شعب قيمًا موروثة قابلة للتطور، وأنه إذا كان النظام الرأسمالي يضاد القيم القومية بإشاعته للأنانية والاستغلال، وإذا كانت الديكتاتورية تفرض على الشعب قيما لا يقبلها فإن -الشعب هو الذي سيصوغ حياته في دولته الديمقراطية- وما دام الشعب هو صاحب الكلمة فإنه سيفرض قيمه في النظام الاشتراكي لا خوف على مصير الشعب ما دام مصيره بيده.

ولكن هذه الإجابة تشير إلى أسئلة كثيرة تكشف عن قصورها أن هذا كلام حسن إذا افترضنا أن لكل شعب قيمًا إنسانية كتلك التي قلنا أن المجتمع الإنساني يتطلبها، وأن كل مشكلة الشعوب أن أوضاعها الاقتصادية القائمة على الاستغلال وأوضاعها السياسة القائمة على الديكتاتورية كان تعوقها عن صياغة

حياتها وفق تلك القيم، فإذا زالت هذه العوائق بالاشتراكية والديمقراطية تمكن الشعب من إبراز قيمه الحبيسة. فهل هذه صورة واقعية؟ إذا سلم لنا صاحب هذا الرأي بأن بعض الشعوب ليس لها مثل هذه القيم،

فالسؤال هو: كيف نجعلها تلتزم بها؟

أيكفي أن نصدر لهم الأوامر تلو الأوامر قائلين كونوا خيرين احترموا الفرد الإنساني كونوا أريحيين ولا تكونوا أنانيين، كونوا أمناء ولا تكونوا خونة... الخ. بالطبع أن هذا لا يكفي - فماذا تفعل وقد اثبتت التجربة أن تغيير الواقع الاقتصادي أيضًا لا يكفي - لجعل الشعوب تلتزم مثل هذه القيم، بل وقد أثبتت لنا التجربة أن الواقع الاقتصادي أو السياسي هو نفسه بحاجة إلى قيم إنسانية تحرسه فأين تجد مثل هذه القيم؟

أن سؤالنا هذا ليس لجاهل بالقيم فنحن قد اتفقنا على أن المجتمع يكون أكثر إنسانية إذا ما التزم بصدق القول، والأمانة في المعاملة وإذا ما قامت على أن المجتمع يكون أكثر إنسانية إذا ما التزم بصدق القول، والأمانة في المعاملة، وإذا ما قامت علاقتهم على الحب والأخوة والإيثار أننا نعرف هذا والذي نبحث عنه هو سبب إذا ما وفرناه كان التزامنا بهذه القيم نتيجة طبيعية له وقد عرفنا الوضع الاقتصادي ليس هو هذا السبب فما هو إذن؟ تلك هي المشكلة البشرية اليوم،

والحل الحاسم الجلي لها إنما في الإسلام[١].

فائدة: مفهوم الأصولية في الإسلام وعند الغربيين:

الأصولي عند الغربيين هو الذي يعتقد أن من أصول الدين الإيمان بأن (الكتاب المقدس) كلام الله حقًا وأنه لا خطأ فيه، والأصولية بهذا المعنى لا تعد شيئًا محمودا عند علماء اللاهوت؛ لأنهم يعلمون أن هذا الكتاب المقدس كتبه مجموعة من البشر وأنه -لذلك- ليس خاليًا من الخطأ، فالاعتقاد بأنه كلام الله وأخذ ما فيه على ما يدل عليه ظاهر اللغة المعهود يجر إلى الاعتقاد ببعض الأباطيل.

لكن الأمر مختلف تمامًا في الإسلام إذ أن القرآن نفسه يقرر في عشرات الآيات أنه كلام الله حقًا، وأنه لا خطأ فيه ولا اختلاف ولا تناقض، وأنه نزل بلسان عربي مبين فآياته تفهم الفهم الذي يدل عليه الظاهر المعهود في تلك اللغة. فالذي لا يؤمن بهذا لا يكون مؤمنًا بالقرآن فلا يكون مسلمًا. ولذلك لا تجد منتسبًا إلى الإسلام إلا وهو مصرح بإيمانه بأن القرآن كلام الله ولا تجده يقول بأن في القرآن خطأ؛ لأنه يعلم أن مجرد التصريح بذلك يخرجه عن دائرة المسلمين، ولهذا صح القول بأن كل مسلم أصولي بالضرورة[٢].

---

(١) الإسلام وتحقيق المجتمع الإنساني، مجلة المجتمع الكويتية (١٦١)، رجب ١٣٩٣هـ - يوليو ١٣٧٣.

(٢) الأصولية والعلمانية والديمقراطية محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا

فائدة: الأصولية تقتضي أن تكون الدولة إسلامية:

الأصولية الاعتقادية تقتضي في الإسلام أمرًا لا تقضيه الأصولية النصرانية، إنها تقتضي أن دولة المسلمين يجب أن تكون خاضعة لأحكام الدين، فهناك إذا منافاة جذرية بين الإسلام والعلمانية وإليك الأسباب:

١- إن القرآن الذي يعتقد كل منتسب إلى الإسلام أنه كلام الله حقًا لم تقتصر آياته ولا أحاديث النبي ﷺ التي هي بيان له على الدعوة إلى تهذيب الأفراد بالمعتقدات والعبادات ومكارم الاخلاق؛ بل جعلت من مقتضيات ذلك تنظيم هؤلاء الأفراد المؤمنين في أمة ملتزمة بمبادئ اقتصادية وسياسية واجتماعية، وجعلت إنكار هذه الأمور التي تسمى في عرف اليوم بالسياسة كإنكار تلك التي تسمى الدينية، كل ذلك كفر مخرج عن الملة الإسلامية، هذه حقيقة عن الإسلام يدركها من له أدنى إلمام به حتى من غير المنتسبين إليه من الغربيين فلا داعي لسوق النصوص الدالة عليها.

٢- وهذه الحقيقية المقررة بجلاء في القرآن الكريم والسُنّة النبوية هي أيضًا قول علماء المسلمين في كل العصور، ومنهم علماء في عصرنا لا يمكن أن يتهموا بأنهم ذوو أغراض أو مطامع سياسية ولا علاقة لهم بأي من الجماعات التي توصف بالأصولية، وقد كان من أصرح هؤلاء في هذه المسألة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي عالم المدينة الكبير عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: «اعلموا أيها الإخوان أن الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد لا فرق بينهما ألبته، فالذي يتبع نظامًا غير نظام الله وتشريعًا غير تشريع الله أو

غير ما شرعه الله وقانونًا مخالفًا لشرع الله من وضع البشر... وهو ومن كان يعبد الصنم ويسجد للوثن لا فرق بينهما ألبته بوجه من الوجوه فهما واحد، كلاهما مشرك بالله، هذا أشرك به في عبادته، وهذا أشرك به في حكمه والإشراك به في عبادته والإشراك به في حكمه كلها سواء»[1].

وهذا هو شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز يقول في رسالة له بعنوان (تحكيم الشريعة ونبذ ما خالفه): «ولا إيمان لمن اعتقد أن أحكام الناس وآراءهم خير من حكم الله ورسوله ﷺ أو تماثلها وتشابهها أو تركها وأحل محلها الأحكام الوضعية والأنظمة البشرية، وإن كان معتقدًا أن أحكام الله خير وأكمل وأعدل».

٣- وتاريخ المسلمين كله منذ عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين إلى الخلافة العثمانية ومن بعدها إلى الدولة السعودية، شاهد على أن الإسلام ليس دينًا بالمعنى الغربي وإنما هو نظام سياسي واجتماعي أيضًا، والدين لم ينفصل عن الدولة في العالم الإسلامي إلا بقوة التدخل الاستعماري.

وهذا الاعتقاد هو اعتقاد جماهير المسلمين المحبين لدينهم على تفاوت بينهم في الاستمساك به في حياتهم الشخصية، فأنت لا تزال تسمعهم يدعون ربهم بأن يوفق حكامهم للعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فائدة: هل تحارب الأصولية من أجل الديمقراطية؟

الحقيقة أن كل دعاة الديمقراطية يريدونها ويحافظون عليها ما دامت

---

(١) الحاكمية في تفسير أضواء البيان، جمع عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس (ص: ٥٢).

ممارستها لا تهدد الايدلوجية التي يقوم عليها النظام. لذلك كانت الديمقراطية ناجحة في البلاد الغربية لاتفاق الناس فيها على إطار عام من القيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفردية وغيرها، حيث لم يعد المحافظ أو الجمهوري الأمريكي يعتقد أن السماء ستسقط على الأرض إذا أتى العمال أو الديمقراطيون إلى السلطة.

لكنني على يقين من أن الأمر كان سيختلف تمامًا إذا نشأ حزب قوي يخالفهم مخالفة جذرية في قيمه وتصوراته مهما كان إيمانه بعد ذلك بالديمقراطية من حيث هي انتخابات وحريات وتعددية. إن الناس ينسون أن العالم العربي كانت فيه ديمقراطية على النمط الغربي يوم كانت الأحزاب فيه كلها علمانية، ولكن ما أن بدأ الإسلاميون يدعون إلى فكرة الدولة الإسلامية، إلا وبدأ أنصار تلك العلمانية من الداخل وأعوانهم من الخارج يدكون حصون الديمقراطية الواحد تلو الآخر ضمانًا لاستمرار العلمانية.

لقد كان هذا واضحًا جدًّا في السودان، فانقلاب نميري ما جاء -بمعاونة الشيوعيين- إلا عقب اتفاق الأحزاب السودانية على مسودة دستور إسلامي. وبعد اختلاف نميري مع الشيوعيين وضربه لهم، تسارع إلى تأييده والتعاون معه خصوم الإسلاميين الذين كانوا يتباهون قبل ذلك بإيمانهم بالليبرالية والديمقراطية. ثم لم يختلف معه كثير من هؤلاء إلا بعد أن توجه هو تلقاء الشريعة الإسلامية، وكثير من الذين يتباكون اليوم على الديمقراطية في السودان

يتناسون أن نهايتها لم تكن بمجيء البشير وإنما كانت بخطاب فتحي -القائد العام آنذاك- إلى رئيس الوزراء يأمره فيه -ويهدده- بأن يوسع دائرة حكومته التي كانت في ائتلاف يضم الأحزاب الثلاثة المكونة لأكثر من تسعين بالمائة من أعضاء البرلمان! لكننا لم نسمع آنذاك تباكيا على الديمقراطية؛ لأن ذلك الخطاب كان في مصلحة جهات يسارية.

يبدو أن الخطأ الذي ارتكبه العسكر الإسلاميون هو أنهم لم ينتظروا في بلاهة حتى يقوم انقلاب علماني يقتادهم وإخوانهم المدنيين إلى حبال المشانق وأقبية السجون، ثم يرمي بالبلاد في حمأة دكتاتورية علمانية يسارية. لكن الدليل الأكبر الذي استبان للعالم أجمع على أن العلمانيين إذا خيروا بين ديمقراطية لا علمانية ودكتاتورية علمانية فأنهم لم يترددوا في اختيار الأمر الثاني.

أقول: إن الدليل الأكبر على فضح دعاوى العلمانيين بأنهم إنما يحاربون الإسلاميين من أجل الديمقراطية هو ما حدث في الجزائر، فقد كان التقدير فيما يبدو أن لا تحصل جبهة الإنقاذ إلا على مقاعد قليلة لا تمكنها من خلخلة النظام العلماني، وتعطي النظام مع ذلك وجاهة أمام الغربيين. فلما تبدد هذا الأمل بالفوز الساحق للجبهة لم يتردد العلمانيون في التضحية بالديمقراطية من أجل الحفاظ على العلمانية. ولم تجد الديمقراطية الموءودة من يتساءل مستنكرًا بأي ذنب قتلت.

أقول: لم تجد نصيرًا غير فئة قليلة منصفة جلهم من الصحافين الغربيين

الذين قال أحدهم صادقًا وساخرًا من فتور رد الفعل الغربي تجاه ذلك مذبحة الديمقراطية: «يبدوا أن الديمقراطية لا تكون حسنة في نظرنا إلا إذا أتت بأصدقائنا». أقول كل هذا لا لأستغربه، فهو في نظري أمر طبيعي؛ بل إنني كنت أقول مثل هذا الكلام قبل أن يحدث ما حدث في تونس والجزائر. كنت أقول إنه لا يمكن أن يضحي العلمانيون -ديمقراطيين غربيين كانوا أو اشتراكيين شرقيين- بمبادئهم في سبيل الديمقراطية، فلما فازت جبهة الانقاذ بالجولة الأولى من الانتخابات وكان باديًا أنها سائرة نحو الفوز في الجولة الثانية، ومن ثم تكوين الحكومة قال أحد الإخوان الذين كانوا يعرفون رأيي: «مسكين جعفر. لقد أبطل الجزائريون نظريته». آه لو أنهم أبطلوها! إذن لكان صاحبها أسعد الناس ببطلانها[1].

فائدة: هل تحل الديمقراطية مشكلتنا في العالم الإسلامي؟

أقول: إن الديمقراطية لن تحل مشكلتنا؛ لأنها إنما تحل مشكلات الأحزاب المتنافسة على الحكم في إطار فلسفة حياة متفق عليها بينها. أما بلاد منقسمة بين إسلاميين وعلمانيين فلن تقوم للديمقراطية فيها قائمة. إذن فالحل إنما هو في مواجهة تلك المشكلة الجوهرية، وعدم النكوص عنها إلى قضايا جانبية. ويوم أن تحل تلك المشكلة ونكون متفقين -بصورة عامة على منهج حياة إسلامي، فسنستطيع بإذن الله تعالى أن نطور أنظمتنا حتى يتوفر فيها أحسن

---

(١) الأصولية والعلمانية والديمقراطية محاضرة، ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

ما في الديمقراطية من مبادئ وقيم؛ ذلك لأن تلك المبادئ والقيم -إذا جردت عن إطارها الغربي- هي قيم إسلامية أصلية[١].

فائدة: الموازين التي نزن بها الحضارة المعاصرة:

عندما تريد أن تزن شيء فينبغي أن يكون البائع والمشتري متفقين على الميزان، وإلا إذا كان البائع يزن بميزان لا يوافق عليه المشتري فلا يصلح الوزن، لذلك سنجعل الميزان شيئًا متفقًا بينا وبين الغربيين، والشيء المتفق بيننا وبين كل إنسان مادام محتفظًا بإنسانيته وبعقله هي الموازين العقلية مثلًا، فالموازين العقلية يتفق عليها كل الناس؛ وكذلك الأشياء الواقعية الحسية يتفق عليها الناس وكون الشيء فيه مصلحة أو ضرر للإنسان خصوصًا إذا كانت الأضرار أيضًا حسية ومعروفة، بمثل هذه الموازين نريد أن نزن الحضارة الغربية، لكن قبل أن نزنها نريد أن نبين ما هو هذا الشيء الذي نريد أن نزنه وربما نزن محتوياته واحدًا تلو الآخر أو بعد أن نبينها جميعًا نزنها مرة واحد[٢].

فائدة: مكونات الحضارة الغربية:

إذا حللنا الحضارة الغربية إلى مكوناتها فما هي هذه المكونات؟ حاولت

---

(١) الأصولية والعلمانية والديمقراطية، محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

(٢) الحضارة المعاصرة في الميزان محاضرة، ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة

أن أضع بعض المكونات وربما أكون قد نسيت بعضها في وقت الأسئلة والتعليقات يمكن أن تضيفوا إلى ما ذكرت أو تنتقدوا بعض ما ذكرت.

أولًا: العلوم الطبيعية هذا أكثر ما تفخر به الحضارة الغربية العلوم الطبيعية، وهذه العلوم الطبيعية تتكون من ثلاثة أشياء، تتكون من حقائق عينية الشيء الفلاني اكتشف، وهذه الحقائق العينية الجزئية قد تكون حقائق طبيعية وهي موضوع حديثنا، وقد تكون حقائق اجتماعية، يكتشف الأمريكان أو الفرنسيون أو الألمان شيئًا عن الحياة الاجتماعية للإنسانية، أو قد تكون حقيقة رياضية هذه أيضًا حقيقة ليست حسية، ولكنها مسألة يدل عليها العقل، فهذه إذا وزناها بميزان العقل يقول لنا اقبلوها ماذا تريد؟ كيف تنكر حقيقة ثبتت لك أنها حقيقة واقعية طبيعية أو حقيقة اجتماعية أو حقيقة رياضية هذه لا يرفضها عاقل، ثم هنالك بعد الحقائق الجزئية قوانين اجتماعية تفسر هذه الحقائق.

هذه القوانين أيضًا معيارنا في تقويمها هو معيارهم هم، وهو أنها تعتبر صالحة كلما نجحت فيما طلب منها؛ لأن كل قانون يطلب منه أن يفسر مجموعة من الجزئيات هذه التي اكتشفناها، نحن نكتشف جزئيات أو نراها مشاهدة، ولكن نريد أن نفسرها فكلما نجح القانون في تفسير الظواهر التي طلبنا منه أن يفسرها كلما كان أحسن، وكلما اكتشفنا ظواهر تدخل في هذا النطاق وعجز عن تفسيرها كلما كان أسوأ وربما نستبدل به قانونًا آخر، فهذا أيضًا لا مشكلة فيه.

ثم هنالك نظريات، والنظريات بتفسير من التفاسير هي درجة بعد القوانين، وهي التي تفسر القوانين نفسها، وهذه النظريات ثلاثة أنواع: هناك

نظريات ثبت بطلانها، مثلًا: نظرية الأثير وسمعت قريبًا أن بعض العلماء الأستراليين عادوا إليها مرة أخرى، لكن كان من الأشياء المشهورة أن نظرية الأثير أو مثلًا إذا أخذنا النظريات القديمة جدًّا التي تجدونها حتى في الكتب الإسلامية والناس متأثرون بها، نظرية العناصر الأربعة، تذكرون ماهي العناصر الأربعة عند القدماء؟ الماء والنار والتراب والهواء، فكانوا يظنون أن كل الأشياء المادية في النهاية تتكون من هذه العناصر الأربعة.

وهذا أثر في التفكير جدًّا حتى في التفكير الإسلامي، وبني عليه كثير من التفسيرات الطبية، مثلًا يقول لك في الطب القديم: تأكل تمر مع العجور؛ لأن التمر طبيعته حارة والعجور طبيعته باردة فهذا ماء وهذا نار، فالتفسير دائمًا يبنى على النظريات هذه، فالنظرية الباطلة باطلة، هم يقولون إنها باطلة، نحن نقول أيضًا إنها باطلة، هم معيارهم للبطلان بالنسبة للنظرية أن لا تنجح في تفسير القانون الذي طلب منها أن تفسره، ومعيارنا نحن نقبل هذا المعيار لكن نضيف إليه معيارًا آخر، وهو السبب فيه أنهم يعتقدون أن المصدر الوحيد للمعرفة هو هذا الكون أو ما جبل عليه الإنسان في عقله، نحن نضيف إليه مصدرًا آخر نستقي منه المعرفة وهو الوحي، الآن لا بُدّ أن نناقشهم في هذا؛ لأنهم قد يقولون كيف تستدلون على أن الوحي مصدر؟ لا بُدّ أن نثبت أولا إن هنالك إله وأن هذا الكلام هو كلام الله حتى نثبت أنه مصدر للمعرفة، لكن لا نناقش هذا الآن، نحن باعتبارنا مسلمين إذا وجدنا نظرية تناقض أو تختلف مع شيء ثبت لنا قطعًا أنه حق، ثبت لنا بحديث صحيح أو بقرآن نعرف معناه، وأقول: هذه المحاذير يعني

تلاحظون أن كلماتي فيها بعض الحذر؛ وذلك لئلا يعجل الإنسان، ما كل آية في القرآن وكل آية ثابتة وهذا ما فيه إشكال، لكن ما كل آية في القرآن نحن قاطعون متأكدون من معناها، نحن نقطع بمعاني كثير من الآيات، لكن بعضها يظل معناها بالنسبة لنا فيه شك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: في التوفيق بين العقل والشرع أو العقل والنقل، أو يمكن أن نقول الآن العقل والعلوم الطبيعية أو الاجتماعية أو كذا، قال: إذا كان الأمران قاطعين فلا اختلاف لا يمكن، نحن متأكدون أن الله سبحانه قال هذا، ومتأكدون أن هذا هو الواقع الذي دل عليه العلم والتجربة والمشاهدة، فهذان لا يمكن أن يختلفان أبدًا؛ لأن هذا كلام الله، وهذا خلق الله، فالذي خلق هذا هو الذي قال الكلام، فلا يمكن أن يقول خلافه إذا كان هنالك خلاف،

فمعنى ذلك أن أحدهما ظني والآخر قطعي أو أن كليهما ظنيين، إذا كان أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا، قال: نقدم القطعي بغض النظر عن كونه هو الوحي أو كونه هو العقل والحس.

مثلًا نحن الآن نقطع بأن الأرض كروية شكلها كروي هذه أصبح ما فيها شك، فإذا كانت هنالك آيات في القرآن الكريم كنا نفهم منها أو نظن أن معناها أن الأرض شكلها مسطحة، فالآن نقدم هذه الحقيقة القاطعة ونفسر بها الآيات التي كان تفسيرها بالنسبة لنا ظنًا، والعكس أيضًا إذا كان هنالك أمر نقطع بأنه من القرآن الكريم ونعرف معناه، أو من السُنّة الصحيحة، وهنا فيه شك فنقدم

اليقيني ماذا نفعل إذا كانا ظنيين؟ قال: نقدم أكثرهما رجحانا يعني وهذه مسألة طبعًا سيختلف فيها الناس، قد يترجح عند إنسان ما لا يترجح عند آخر حسب ما عنده من العلم والتفكر وكذا.

فإذًا بالنسبة للنظريات لا بُدّ أن نقيسها بهذا المقياس وهذا يوضح لكم أننا ينبغي أن لا نطلق الكلام العام تسمعونه عند كثير من الناس يقول لك: العلم يتغير والدين لا يتغير، فإذًا لا نفسر أي شيء ديني بشيء علمي، ما هو العلم الذي تغير إذا نظرنا إلى هذه المكونات الحقائق الجزئية لا تتغير؟ إذا اكتشفنا أن الأرض كرة فهي كرة خلاص ما الذي يتغير، إلا أن يغير الله شكلها فيظل أيضًا اكتشافنا صحيحًا نقول حتى عام ١٤٠٧ وإلا ١٤٠٦ كانت الأرض كرة ثم صارت مكعبة، فالاكتشاف العلم ما تغير وإنما تغير المعلوم، فإطلاق الكلام بأن العلم يتغير كلام غير صحيح.

النظريات تتغير نعم، وتغيرها بطيء ليست تتغير كل عشر أعوام، ولذلك لا محيد من أن نتأثر بهذا العلم الذي نكتشفه، لا يمكن لإنسان مثلًا عالم فيزياء أو عالم طبيعة أو طبيب أو مهندس أو فيزيائي أو كذا أو كذا أو عالم اجتماع، يقرأ القرآن الكريم ويتأمل فيه، ويعمل في هذا المجال الذي تخصص فيه، ويكتشف هنا حقائق ويتعامل معها، ويقرأ في القرآن الكريم كلامًا له علاقة بهذا، ويقول لا هذا دين وهذا علوم، أنا لا أربط لا يمكن أن يفصل دماغه نصفين، فيجعل هذا للدين وهذا للعلوم الطبيعية أو للعلوم الاجتماعية هو بشر هو شيء واحد، والقرآن الكريم ما جاء فقط لناحية من نواحي الحياة، نعم إنه كتاب جاء

للهدى، ولكن الهدي والهدى يقتضي أن يتعرض لبعض المسائل الدنيوية وبعض المسائل الفلكية الكيماوية الطبيعية هكذا فلا يمكن ان نفصل هذا عن ذاك.

٢- ثم بعد العلوم الطبيعية هنالك علوم اجتماعية تشمل علم الاقتصاد والسياسة وعلم النفس والجغرافيا والإدارة واللغات وما أشبه ذلك فهذه نسير عليها بنفس الطريقة ما كان حقائق نقبله حقائق مكتشفه يعني هنالك في علم الاقتصاد وعلم الاقتصاد كسائر العلوم الطبيعية يتكون من بعض الحقائق مثلًا العرض والطلب هذي حقيقة أنه إذا كثرت السلعة في السوق قل ثمنها هذي حقيقة ويعرفها الناس منذ القدم حتى هنالك كلام لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلها حتى نظرية سياسية قال الحاكم كالسوق ما راج فيه جلب إليه يعني لا تقل لي أن الحاكم رجل طيب لكن بطانته سيئة فالحاكم كالسوق لولا أن هذا هو الذي ينفع معه لما جاءه فإذا هنالك بعض الحقائق، أو في السياسة هنالك سياسة وصفية تقول حدث في فرنسا كذا وحدث في انجلترا كذا حدث بالنسبة لتهريب بيع الأسلحة لإيران كذا حقائق فهذه لا ينكرها عاقل وكذلك بالنسبة لعلم النفس أيضًا هنالك حقائق يكتشفها العلماء لكن كمية النظريات والآراء الفلسفية وكذا في العلوم الاجتماعية هي أكثر منها في العلوم الطبيعية.

٣-ثم هنالك التقنية والتقنية مبنية على هذين العلمين على مكتشفات العلوم الطبيعية وعلى العلوم الاجتماعية؛ لأن التقنية ليست أشياء جامدة فقط وإنما يدخل فيها أيضًا الوضع الاجتماعي والإدارة ونوع الناس الذين يعملون

فيها، وكل هذا يقتضي تدخلًا من العلوم الاجتماعية، ثم هنالك الآداب والفنون والعادات والتقاليد ثم هنالك الفلسفات والأديان.

٤- ثم هنالك القيم الخلقية وأنا مررت عليه مرورًا عابرًا وسأتكلم عنها في النهاية، القيم الخلقية أيضًا هنالك قيم إنسانية إذا كان الإنجليزي صادقًا لا نقول إنه كاذب؛ لأنه كافر، هنالك قيم جمالية إذا كان واحدة جميلة لا نقول إنها قبيحة؛ لأنها مشركة نقول جميلة لكنها مع الأسف مشركة، فهذا لا دخل له في هذا ينبغي أن نعترف بالحقيقة كما هي.

٥- بعد هذه العلوم والتصورات هنالك واقع هذا الواقع يتمثل في الأوضاع، ولا أعني العلوم هنا الأوضاع الاقتصادية، الأوضاع السياسية، الأوضاع الاجتماعية، مثلًا الأوضاع في روسيا تختلف عن الأوضاع في أمريكا، بعض الأوضاع في أمريكا تختلف عنها في أوربا وهكذا، ثم لهم مصالح هؤلاء الغربيون باعتبارهم غربيين لهم مصالح مادية مصالح استراتيجية لهم أطماع توسعية وهكذا[1].

فائدة: ماذا نأخذ من الحضارة الغربية وماذا ندع؟

هذه الحضارة المعروضة أمامنا نريد أن نأخذ منها نعتبرها سوبر ماركت فيه هذه الأشياء، ماذا نأخذ منها؟ وماذا ندع؟ نحتاج إلى معيار وإلى ميزان يقول

---

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة.

لنا: هذا خذوه، وهذا دعوه.

فقلت: إذا أردنا أن نزن بميزان موضوعي ونقول للغربيين إن هذا الذي لا يصلح معنا لا يصلح معكم أنتم أيضًا فلا بُد من أن يكون الميزان متفقًا عليه بيننا وبينهم، لكن دعونا الآن في البداية نزن لأنفسنا نحن المسلمين دخلنا هذا المتجر، هذا محل البيع فنريد أن نأخذ منه ما يصلح معنا، سنقيس بالمقاييس التي ذكرناها بالإضافة إلى ما أرشدنا إليه الوحي في كتاب الله أوفي سُنّة الرسول ﷺ، الناس وقفو من الحضارة الغربية ثلاثة مواقف موقف كان موقف الارتياب والرد الكامل، هذا لم يعد الآن موجودًا الذين قالوا إن هذا جاءنا من الكفار، وكل ما جاء من الكفار فهو كافر وفيه شك فرفضوا كل شيء، هذا كما قلت لم يعد موجودًا ولم يعد ممكنا حتى، الإنسان مهما كان منعزلًا الآن في مكان نائي من الأرض لا يمكن إلا أن يأخذ شيئًا من الغرب، ما يستطيع فكروا في الملابس التي نلبسها نحن، الميكرفون الذي نستعمله وغيرها، كل هذه الأشياء من الغرب الذين قالوا نأخذ كل شيء، والذين قالوا هذا لم يكونوا من عامة الناس، بل كان بعضهم ساسة وزعماء كبار وبعضهم مفكرون ومصلحون اجتماعيون.

فيروى عن أتاتورك أنه قال وأنتم تعرفون أنه جعل تركيا بلدًا غربيًا وغير اللبس فقال: نأخذ من الغربين كل شيء حتى الديدان التي في بطونهم، ما هو السبب في هذا وهذه حجة مؤثرة جدًّا حتى ولو لم نقلها بهذه الطريقة، كثيرون منا متأثرون بها ما سببها يقول الإنسان لنفسه مادام هؤلاء قد تقدموا، هذا التقدم المادي الباهر الذي جعلهم يستعمروننا، وجعلهم حتى إذا لم يستعمروننا هم

أقوى منا ونحن نحتاج إليهم ونخاف منهم، فلا بُدّ أن كل ما عندهم أحسن مما عندنا، ولكن هذا كما قلت في مقال كتبته قبل ذلك هذا كإنسان مثلًا يحب الرياضة، ويقول أنا أريد أن أكون كماجد عبد الله، ثم ينظر كيف يسرح ماجد شعره فيسرح بطريقته، ماهي الألوان التي يلبسها فليبس كما يلبس، هل يكون رياضيًا ركز على أشياء لا علاقة لها بالموضوع، فبعض الناس أيضًا يريد أن يكون إنسانًا متحضرًا فينظر ماذا يلبس الغربيون؟ لبسوا جينز، نلبس جينز، عملوا سلاسل في الرقبة، نعمل سلاسل.

وأما الأشياء الحقيقية التي ساعدت الغربيين على هذا التقدم ما عندهم منها نصيب، والغربيون ما تقدموا بالسلاسل التي في رقابهم ولا بالجينز التي يلبسونها ولا بالرقص ولا بالخمر، لكن هكذا يكون البشر ضعفاء، وهذه حقيقة من زمان معروفة، ويعزى الكلام فيها إلى ابن خلدون فقال: إن المغلوب مولع بتقليد الغالب يقلده حتى يعتبر أن لغته أحسن من لغته، وأن دينه أحسن من دينه، ونظرته إلى الحياة أحسن من نظرته، لا يفكر أبدًا التفرقة التي ينبغي أن يفرقها الإنسان العاقل وهي أن يقول: ما سر هذا التقدم؟ ويسأل هذا السؤال لا يمكن أن يكون كل ما عنده من سر تقدمه؛ لأنه إذا درس تاريخ الأمم الغربية سنجد أن بعض الأشياء التي عندهم الآن كانت عندهم من زمان وكانوا متأخرين، فإذًا هي ليست سر تقدمهم، دينهم هذا هو نفس الدين ما تغير فإذًا ليس سر تقدمهم، لغتهم هي لغتهم نعم حدثت فيها كلمات اقتضاها العلم لكن ليست هي سر التقدم، طريقتهم في الملابس هي نفسها بعض عاداتهم الاجتماعية أنهم

لا يتزوجون بأكثر من واحدة وكذا، والذي يعتبرها بعض الناس من مظاهر الحضارة كانت عندهم قبل أن يتقدموا هذا التقدم المادي، فإذًا لا بُدّ من أن نعرف ماهي الأشياء التي ساعدتهم على هذا التقدم المادي؟ فنقول: نعم، إن هذا شيء حسن فنأخذه، إذًا الموقف الثالث هو الموقف الصحيح لا نقول لا نريدها إطلاقًا ولا نأخذ منها كل شيء، وإنما نأخذ منها وندع ونأخذ وندع بمعيارنا العقلي والعلمي الديني وكل هذه أشياء متناسقة لا خلاف بينها؟[1].

فائدة: الفلسفة المادية الإلحادية هي التصور الغالب على الناس في الغرب المثقفين والمفكرين والعلماء في أي ناحية من نواحي الحياة سواء كان في العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية:

وهنا لا فرق بين الشيوعيين وبين الأوربيين، نعم هنالك أديان يهودية، هنالك دين مسيحي؛ لكن هذه الأديان لا تمثل تصور الناس للحياة ولا يذكرونها لا في خططهم السياسية ولا الاقتصادية ولا في مجال العلوم الطبيعية، وإنما هي غاية يعني ما تؤثر فيه بعض العادات الاجتماعية في الزواج والطلاق وكذا وبعض المجاملات والذهاب إلى الكنيسة هذا عند المتدينين، وأما الغالبية العظمى من الناس بل حتى من المتدينين أنفسهم إذا تركوا الكنيسة وجاء إلى المعمل أو المصنع أو كذا فالفلسفة الغالبة عليه (وهي بالمناسبة التي

---

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة.

أثرت فينا) هي الفلسفة التي يمكن أن نقول إنها الفلسفة المادية الإلحادية، ماذا أعني بالمادية الإلحادية؟

هذه الفلسفة فحواها أولا أن الحقيقة الموضوعية التي لا حقيقة غيرها هي الأشياء المادية والأشياء المادية بحسب العلم يتطور مفهوم الناس لها، كان الناس في الماضي مثلًا الماديون يقولون كانوا غلاظ بعض الشيء، كانوا يقولون الموجود الذي لا موجود غيره هو هذه الأشياء المحسوسة التي تدرك إدراكًا مباشرًا بالحواس الخمس، ثم تطور الناس فصار الآن الشيء الغالب هو أن يقولوا إن الأشياء الموجودة حقيقة هي الذرات طبعًا، ثم جاءت مكونات الذرات وكذا لكن الفلسفة الغالبة هي هذه، يعني أن هذه المادة لها مكونات، فمكونات المادة هذه سواء أسميناها ذرات أو ما تحت الذرات هذه هي الأشياء الأساسية، والذي يأملونه هو أن يفسروا كل شيء في الوجود بالرجوع إلى أحوال هذه المكونات المادية، يعني يأمل ليس الفيزيائي فقط ولا الكيميائي هذا شيء معروف، لكن حتى عالم النفس يأمل أن يجيء اليوم الذي يفسر فيه كل الظواهر النفسية بإرجاعها إلى أشياء حسية ولاسيّما الدماغ، وأن يستطيع أن يفسر حركات الدماغ وتصرفاته بإرجاعها إلى مكونات المادة الأولى سواء قلنا إنها الذرات أو ما تحت الذرات، فهذا هو الافتراض حتى لو لم يقله الناس بألسنتهم عندما يقولون نفسر الشيء تفسيرًا علميا، ما هو التفسير غير العلمي عندما تقول إن هذه الظاهرة سببها مثلًا أن الله رضي عن هؤلاء الناس فأعطاهم كذا، هذا تفسير غير علمي أو تقول سببها الجن أو تقول سببها الملائكة أو تقول

أن المطر نزل بسبب الدعاء كل هذا في اعتقادهم هو تفسير غير علمي لكن تذكروا أن قولهم إنه ليس تفسيرًا علميًا راجع إلى هذه الفلسفة، لا إلى العلم يعني إذا خرجتم من كلامي هذا بهذه الحقيقة تكفيني، أقولها مرة أخرى: هم تصوروا أولا قبل أن يأتوا إلى العلم قالوا إنه لا موجود إلا هذه الأشياء وحصروا أنفسهم فيها، فإذًا تصورهم للعلم هو فرع عن تصورهم للوجود كله، فلماذا نأخذ هذا التصور إلا إذا اقتنعنا فعلًا وقلنا إن تصورهم نفسه تصور صحيح، لكن إذا أحببنا أن نقيس هذا التصور بمقياس بالمقاييس التي قلناها، والتي يتفقون معنا عليها نستطيع على الأقل أن نشككهم إن لم نقنعهم بما عندنا، فنقول لهم أنتم تقولون إنه لا يوجد إلا هذه الأشياء المادية، طيب هذه دعوى ما دليلكم عليها؟ كيف تأكدت من أنه ليس هنالك شيء غير مادي؟

إذا قال أنا بحثت في العالم لم أجد شيئًا غير مادي نقول له: إن علمك في أي علم من العلوم الجزئية يقولون لك إن هذا لا يكفي إلا أن يكون النطاق محدود جدًا، نقول مثلًا: هذه القاعة لا يوجد فيها إلا كذا من الأشخاص، فأقول: أنا نظرت في القاعة كلها فما وجدت هذا يسمونه بالاستقراء الكامل، أما الكون هذا من أدراك ربما يكون فيه شيء أحيانًا يقول أنتم الذين تؤمنون ما أعطيتموني الدليل على أن هنالك شيء غير مادي.

نقول لهم: لنفرض أن هذا صحيح، هذا لا يجعلك تقول إنه لا يوجد شيء غير مادي، لكن يجعلك تقول أنا أشك ولست متأكدًا من أن هنالك شيئًا غير مادي، أما أن تقطع به فهذا ليس بصحيح، ثم نأتي إلى الخطوة الثالثة فنقول

له: ونحن المسلمين إن لم يستطع النصارى أو لم يستطع اليهود نحن المسلمين نملك الدليل على أن نبرهن على أن هذا الكون له خالق، وأن هذا الخالق ليس كمثله شيء.

فنرجع مرة أخرى نريد أن نقول: إننا بالنسبة للحقائق الجزئية نأخذها بالنسبة للقوانين ما قلت لكم، وبالنسبة للنظريات ما قلت لكم في كل العلوم في الأشياء الأخرى نقيسها بمعيارنا بمصلحتنا، مثلًا حتى مصلحتنا الوقتية فنستفيد من تجاربهم في الاقتصاد في الإدارة نستفيد من تجاربهم نستفيد من فنونهم، لكن لا نتبناها، وأما الشيء الذي نرفضه رفضًا كاملًا ولا نأخذ منه شيء ولا حتى ما ترتب عليه فهو هذه الفلسفة وهذا التصور، فالذي نرفضه رفضًا كاملًا هو كما قلت لكم هذه الفلسفة وهذا التصور.

إذا رجعنا مرة أخرى إلى مقاييسنا فنقول له: نحن في الإسلام لا نقول إن مسألة الإيمان بالله هي مسألة لا برهان عليها كما يقولون هم في النصرانية، والذي غر كثيرًا من الغربيين وجعلهم يستمسكون بالمذهب الإلحادي أنهم اعتبروا كما اعتبر بعضنا لأنهم متقدمون، فإذًا كل ما عندهم أحسن مما عند غيرهم، إذًا حتى هذا الدين وإن كانوا يعتبرون أنه دين باطل، لكنهم يقولون مادام ديننا نحن المتقدمين باطلًا فما بالك بدين هؤلاء الذين هم من العالم الثالث، البوذية والإسلام وكل هذا يستوي عندهم، ففي هذا الدين أشياء مناقضة للعقل ومناقضة للواقع الحسي، فلذلك أصبح الكثيرون منهم إما أن يفسروا الدين تفسيرًا رمزيا جدًّا لا يكون له علاقة بكلماته، أو أن يرفضوه رفضًا

كاملًا، وفي كلا الحالين فهم قد عطلوه أصبح لا مجال له كبير في الحياة.

نقول لهم: إن هنالك فرق بين ذلك الدين وهذا الدين، نحن عكس النصرانية نقول: إن الأشياء الأساسية عليها أدلة عقلية وحسية، والأشياء الفرعية تقبل بقبول الأشياء الأساسية، يعني إذا قال لي إنسان لماذا نصلي المغرب ثلاثة فلا أستطيع أن أعطيه دليلاً عقليًا مباشرًا، ولكن أستطيع أن أقنعه بأن القرآن كلام الله، أو أن الكون له إله خالق واحد وكذا، فإذا اقتنع أن القرآن كلام الله أقول له: يا أخي إن الذي خلق الكون وخلق الإنسان قالوا صلوا في هذا الوقت ثلاث ركعات، فلا بُد أن تكون هنالك حكمة وإن كنت أنا لا أعرفها، فهذا تفسير عقلي لكنه غير مباشر، كما يذهب إنسان مثلًا إلى الطبيب فبعطيه بعض الأقراص فيستعملها كما أمره الطبيب، فإذا قال له: اثنين بعد الغداء، وواحدة بعد العشاء لا يعكس الأمر، ولا يقول لماذا؟ لأن الطبيب سيقول له يا أخي إذا حاولت أن أفسرها لك لن تفهم، فخذ هذه بالثقة فقط، والناس يتعاملون في كثير من حياتهم بالثقة فأنت إذا اقتنعت بأن الكون له خالق فأول ما ينبغي عليك بالنسبة لهذا الخالق أن تثق فيه.

فكثير من الأشياء الجزئية نأخذها بالثقة التي نسميها الإيمان، ولكن القواعد الأساسية للدين القرآن والسُنّة مليئان بالأدلة العقلية والحسية عليها، وتوسع علماء المسلمين في هذا وأعطيكم فقط بعض الأمثلة مثلًا بالنسبة لوجود الخالق يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥]، فكأنه يقول للإنسان الذي

لا يؤمن بوجود الخالق إن هنالك ثلاثة فروض فقط بالنسبة لأي شيء حدث بعد أن لم يكن أي شيء، يعني إذا كان لم نجد في الوجود إلا هذا الشيء أو قل دعنا يكن تفكيرنا يكون أقرب إلى ما يتناقش فيه العلماء الآن.

النظرية التي يميلون إليها تقريبًا معظمهم يميل إليها، أو غالبهم يميل إليها هي نظرية الخلق التي يسمونها باللغة الإنجليزية (ذا بق بانق): أن كل مادة الكون هذا كانت في البداية في ذرة واحدة كل هذه المادة، ثم من هذه المادة الذرة بعد أن تفجرت تكونت فقالوا الآن إذا كان هذا صحيحًا أصبحت مشكلة الخلق أو السؤال عن الخلق سؤالًا ملحًا، فإذا كان هذه المادة التي تكونت منها الكون كله، فنقول من أين جاءت أم خلقوا من غير شيء؟ جاءت من لا شيء هذا لا يقبله عاقل ولا يقبله العلماء الآن؛ لأننا إذا قلنا أن بعض الأشياء تأتي من لا شيء فمعنى ذلك أننا لا نحاول أن نفسر كل ظاهرة من الظواهر أو إذا فتشنا عن سببها سنة وسنتين ولم نجد، تقول: آه هذه من الأشياء التي تأتي من غير شيء، فنقول مثلًا: أن هذا المرض بحثنا عن سببه ولم نجده فإذا هو يأتي بلا سبب، العلماء لا يقولون هذا حتى لو بحثوا عشر أو خمسين سنة أوستين سنة وما وجدوا يظلون آملين في أن يجدوا السبب لماذا؟ لأن العقل يقول: إنه لا يمكن أن تكون هنالك ظاهرة أو حدث وليس لها سبب، وأن تقول إن الشيء يأتي من لا شيء كلام متناقض، كيف يكون لا شيء وفجأة نشاهد ساعة أمامنا، هل هذه المادة هي التي خلقت نفسها أيضًا؟ مستحيل؛ لأن الشيء لكي يخلق نفسه لا بُدّ أن يكون موجودًا أليس كذلك؟ ولكن إذا كان موجودًا ما يحتاج إلى

أن يخلق فالقول بأن الشيء يخلق نفسه منطو على تناقض؛ لأن الإنسان الذي يقول هذا الكلام يفترضه موجودًا مرة، ويفترضه غير موجود في نفس الوقت، إذًا ما بقي إلا أن نقول إن كل شيء حادث له سبب أو فاعل أو كذا من خارجه.

والسؤال إذا ما هو هذا الشيء الخارجي؟

القرآن الكريم مليء بالحجج على أن هذا الشيء الذي أوجد الأشياء لا بُدّ بمنطق عقلي أن يكون متصفًا بكذا ومتصفًا بكذا، مثلًا ليس كمثله شيء؛ لأنه إذا كان مثل هذه الأشياء فسنسأل عنه نفس السؤال الذي سألناه عنها من أين جاء؟ أما إذا لم يكن مثلها مثلًا هذا الخالق لا بُدّ أن يكون أزليًا وليس حادثًا ولا بُدّ أن يكون أبديًا لا ينتهي هو الأول والآخر وهكذا.

ثم جئنا إلى الرسول ﷺ إذا قال لنا إنسان أنا لا أعتقد أن محمدًا هذا رسول، عندنا من الأدلة التاريخية في سيرته وكذا وأحواله وكلامه ما يدل على أنه رسول، بل عندنا القرآن الذي يدل على أنه رسول، وأيضًا استفدنا كثيرًا وكثير من علمائنا استفادوا من العلوم الطبيعية في هذا المجال، تذكرون ذلك الطبيب الفلبيني الذي أسلم هنا في الرياض في اجتماع المؤتمر الطبي السعودي، أسلم بسبب في غاية المنطق قال: إن فلانًا الأمريكاني المتخصص في علم الأجنة هو كان تلميذًا لهذا الأمريكاني، فقال هذا الأمريكاني عن طريق أظن الأخ عبد المجيد الزنداني وذهابه إلى جامعة الملك عبد العزيز بدأ يعرف كثيرًا عمّا قاله القرآن عن تطور الجنين.

فقال لهذا الرجل: إذا درست طلبتك عن تاريخ الأجنة في المادة هم دائمًا

يركزون على تاريخ اليونان فقال لهم: القرآن فيه أشياء طريفة فأذكرها أيضًا للطلبة، فقال: أنا بدأت أقرأ والآن استمعت إلى ما قاله هؤلاء الزملاء فأنا مقتنع بأن هذا الكلام الذي في القرآن ما كان يمكن أن يعرفه بشر في زمن محمد لماذا؟ قال: لأن الآلات التي اكتشفناها هذه ما عملت إلا في هذا القرآن.

فإذًا كان من المستحيل على أي بشر سواء كان محمد أوغيره أن يعرف هذه الحقائق، إذًا فهذا لا يمكن أن يكون كلام محمد وإذا لا بُدّ أن يكون من خالق لهذا الكون يعرف هذه الحقائق بوسيلة غير التي عرفناها بها؛ لأنه هو الذي خلقها فلذلك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فعندنا بالنسبة لأصول الدين مثل هذه الأدلة.

إذًا سنقول للغربيين بعد أن قلنا لأنفسنا سنقول لهم: نحن نرى أن تصوركم للوجود هذا التصور الذي لخصناه مخالف للعقل وهو ضار بالإنسان؛ لأن نتائجه كما يعرفون هم في الأخلاق وفي السلوك سيئة جدًّا، ومازال الناس يسيرون بالرغم من أنهم من ناحية يسيرون في تطور من ناحية العلوم الطبيعية والاجتماعية وكذا فهم يسيرون في تدهور من الناحية الأخرى.

وهذا معناه أن ما عندهم من الأخلاق كان مرتكزًا على بقايا ما عندهم من دين وما عندهم من فطرة، وأنه كلما تأثر الناس بهذا التصور الجديد كلما أضعف هذا من خلقهم ودعاهم إلى شرب الخمر والمخدرات والزنا وما يترتب على هذا من أمراض نفسية وجسمية وكذا، وكل هذا مرتبط بهذا التصور لأنك إذا قلت للإنسان هذا الكون ليس له خالق وإن هذه الحياة هي الحياة الأولى والآخرة وأنه

لا بعث بعدها ولا حساب ولا كذا فكأنك أغريته بأن يجمع أكبر قدر من الثروة أو الملذات، وأحدثت في نفسه كثيرًا من القلق والشك والتردد.

فإذا هذا التصور مخالف للعقل ومخالف للواقع مضر بالإنسان بصحته الجسمية والنفسية وبأحواله الاجتماعية، وهو بعد ذلك ليس ضروريًا للعلوم الطبيعية؛ لأن هذا الذي أغرى الناس به، الناس ظنوا أنه لا يمكن أن تقوم علوم طبيعية إلا على مثل هذا التصور المادي[1].

فائدة: الخلط بين نظرية دارون في التطور وبين فكرة التطور:

بعض الناس يخلطون بين نظرية دارون في التطور وبين فكرة التطور، فكرة التطور مقبولة بل يبدو أنها سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأشياء، هل رأيتم شيئًا خلقه الله سبحانه كاملًا منذ اللحظة الأولى؟ أبدًا الشجرة تبدأ بذرة، والإنسان يبدأ كذا، والقرآن نفسه يتكلم عنها ثم يتطور ويتطور ثم ينتهي وهكذا.

ففكرة التطور سواء كانت بالنسبة لأفراد المخلوقات أو لجنس من المخلوقات ليس هنالك في الدين ما يمنع من القول بها، بل هي التي يبدو أن الحقائق الظاهرة لنا والحقائق التي اكتشفها العلماء تؤيدها، لكن هنالك فرق بين فكرة التطور ونظرية خاصة في التطور، بعض الناس حتى من العلماء لا يقبلون بعض كلام دارون في التطور، وإن كانوا يقبلون فكرة التطور، يعني

---

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة.

لماذا انقرضت بعض الحيوانات وبقي بعض، وداروِن جاء بنظرية البقاء للأصلح وبعض العلماء لا يقبلون هذا، ويفسرون البقاء أن بعضها يبقى وبعضها يزول بتفاسير أخرى ولا يقبلون كلام داروِن[1].

فائدة: الواجب على الطلاب المسلمين الذين يدرسون في الغرب:

نرجو منكم أن تكونوا أحسن ممن سبقكم أن تعرفوا دينكم وتلتزموا به، فتكون عندكم ثقة به واعتزاز وأنكم على الحق وأن كل من لا يدين بالإسلام على الباطل، فلا يكون الواحد منكم شخصية مهتزة كل ما يقوله لك أي إنسان تعتبر كأنه حقيقة، وما عندك أنت هو الذي فيه شك، كثير من الناس عندما خرجنا من هنا قال لي أحد الطلاب: أنه كان في بريطانيا وناقشت بعض الناس وبعض الكلام الذي قالوه له كلام خرافة، قلت له: يا أخي كما أنهم قالوا لك ما دليلك على كذا وكذا، قل لهم ما دليلكم أنتم على هذا الكلام الذي قلتوه، لماذا أنت تكون دائمًا في موقف الدفاع والمطالب بالدليل؟ إذا قال لك كلامًا لا تسلم بأن كلامه هو الكلام العلمي والكلام العقلي وتخاف قل له ما دليلك أنت.

فنريد أن يتخرج إن شاء الله في العالم الإسلامي شباب يعرفون دينهم ويعتزون به، ويلمون بالحضارة الغربية وبواقع العالم ويأخذون حتى في أشخاصهم بالأحسن والمفيد من العلوم، فيجتهدون كل في تخصصه يجتهد فيه

---

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة.

ويبرز فيه ويحاول أن يكون عالمًا إن شاء الله، لا نريد أن نبقى دائمًا تلاميذ للغربيين نقرأ كتبهم ونترجم إلى اللغة العربية ومجلاتهم، نريد أن يبرز منا ومن بينكم إن شاء الله بعض العلماء الذين تترجم كتبهم إلى اللغات غير العربية، وهذا ليس بالسهل النهضات دائمًا يبدأها أفراد إذا نظرتم في تاريخ الغرب هذا ما بدأ بحكومة وإنما بدأ بأفراد، نيوتن هنا وفلان هنا اجتهد وكان هؤلاء العلماء يعيشون عيشة الزهاد، ومازال بعضهم كذلك وهذه من النواحي الإيجابية في حياتهم علماؤهم هؤلاء لا يفكرون كثيرًا في الدنيا من حيث جمع المال والمظاهر وكذا.

أنا درست مع رجل مكثت معه سنة كاملة ما رأيته غير بدلته، ويأتي في الأسبوع مرة كل مرة يأتي بنفس البدلة؛ لأنه مشغول يكتب ويناقش ليس مهتمًا بالمظهر والزخارف، فلا بُد من أن يتخرج إن شاء الله منكم من هذا النوع الذي يكون مستمسكًا بدينه ومجتهدًا ومبرزًا في العلم الذي تخصص فيه ومعتزًا ليس بدينه فحسب بل حتى بتقاليده، الأشياء التي هي من باب التقاليد لماذا أترك تقليدي إلى تقليده، من السخف مثلًا وإن كان هذه مسألة دينية أن يذهب إنسان مثلًا إلى بريطانيا فيجد الناس يأكلون بشمالهم فيأكل بشماله لماذا؟ ويجد عسرًا في هذا الإنجليزي يأكل بشماله بسهولة لكن هذا ما يستطيع يتعب، لكن يظن أنه سيقال له إنك غير متحضر إذا أكل بيمينه، فحتى الأشياء التي هي من باب التقاليد لا تتركها؛ لأن تركها يدل على الضعف ويدل على أنك تحب أن تقلدهم في كل شيء، ثم إذا درستم هذه العلوم أيضًا ادرسوها بعين ناقدة

لا تكون كالإنسان الذي يسلم بكل ما يقال له، هم أنفسهم أؤكد لكم أن المبرزين منهم لا يفعلون هذا أبدًا، الطلاب الأذكياء منهم والذين يأتون بنظريات جديدة ليسوا هم الطلاب الذين يقبلون كل ما يقال لهم، ويحاولوا فقط أن يحفظوه ثم يكتبوه على ورقة الإجابة أبدًا، الطالب النجيب والذي يرجى منه هو الذي يفكر فيما يقال له ويعلق عليه وينتقده، فنريد أيضًا أن تكون هذه من مزاياكم فإذا عدتم حاولتم أن تطبقوا على مجتمعكم أحسن الأشياء التي درستموها أورأيتموها وأن تنفوا عنه كل شيء يعني أخذه الناس بمجرد التقليد، أنا في رأيي أن هذه أول خطوة وإن شاء الله تتبعها خطوات أخرى[1].

فائدة: أثر مرض الإيدز في خلخلت بعض المعتقدات الغربية:

مرض الإيدز هذا بالمناسبة هذا ليس مرضًا للأجسام فقط، ولكن خلخل بعض المعتقدات الغربية، المعتقد كان الذي ساد في الغرب من مدة أن كل هذه القيود التي وضعتها الأديان أشياء ما لها لزوم، يعني أشياء تعسفية وأن الناس يمكن أن يعيشوا كما يريدون رجالًا ونساء، رجل لرجل، وامرأة لأمرة أي وضع تشكيلة يمكن أن تعيش، وكانت مسألة الجنس هذه لا تعتبر متعة فقط وإنما تعتبر تحرير للإنسان، يعني ارتبطت كأنها مسألة روحية وكثير من القصص التي كانت تكتب كأن الناس كانوا يعتبرون أن كشف الجسم هذا والتعري هذا

---

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة.

تخلص ليس متعة جنسية فقط وإنما (ربيريشن) هو تخلص من القيود التي وضعتها الأديان.

فالإيدز هذا صدمهم صدمة عنيفة فثبت لهم أن المسألة ليست كما تريدون، فكنت أسمع في بعض البرامج عند استعراض لبعض المشاكل العالمية في التلفاز أن أكثر من ستين بالمائة من المصابين بالإيدز هم (الساكشول) وكل الحجج التي تقال لهم من الدين أو غير الدين ما كانوا مقتنعين بها، ويطالبون بحقوق ومظاهرات فهذا الآن زعزع هذه الاعتقاد أن هذه العلاقة ليست بعلاقة طبيعية، فالأسر لا بُدّ أن تكون في أسرة بأنواع هذه العلاقات، فسيكتشفون أنه إما الأسرة وإما هذه العادات[1].

فائدة: معنى الديمقراطية:

معنى الديمقراطية المعروف بين كبار المفكرين الغربيين من كان منهم مؤمنًا بها أو منكرًا لها، منذ عصر اليونان إلى يومنا هذا. الديمقراطية بهذا المعنى هي حكم الشعب، والديمقراطية بهذا المعنى تجيب عن سؤال مهم لعله أهم سؤال في الفكر السياسي، بل في الحياة عامة، وهو لمن الحكم؟ من ذا الذي يحق له أن يقول هذا مسموح به وهذا محظور، هذا واجب وهذا جائز، هذا حلال وهذا حرام؟

---

(١) الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

الإجابة عن هذا السؤال المهم واضحة هي أن الشعب هو الذي يملك هذه السلطة التشريعية، فالشعب هو صاحب السيادة التشريعية. لكن هذا المبدأ الديمقراطي ارتبط في الواقع الغربي المعاصر بأفكار ومبادئ منها ما رأوا أنه من لوازمه، ومنها ما رأوه من وسائله، بل منها ما هو من نقائضه. لكن كل هذا صار في أذهان الناس في الشرق والغرب داخلًا في معنى الديمقراطية، الليبرالية، الرأسمالية، الانتخابات، تداول السلطة، حكم القانون، الشفافية، الأحزاب، حرية التعبير حقوق الإنسان، إلخ. بل إن الأمر صار أكبر من ذلك كما قال أحد الكتاب الأمريكيين: لقد صارت الديمقراطية هي المنصة التي يضع عليها كل أحد قربانه المفضل.

تكاد كل الجوانب المرغوب فيها في الحياة السياسية بل والاجتماعية تمدح بأنها من لوازم الديمقراطية: التمثيل، المحاسبة، المساواة، المشاركة، العدالة، الكرامة، العقلانية، الأمن، الحرية والقائمة تستمر، فالديمقراطية ليست مقصورة على شيء من هذه المبادئ والأفكار التي صارت ملحقة عند كثير من الناس بالديمقراطية، بل صارت عند بعضهم هي الديمقراطية[1].

فائدة: ما مزالق الإيمان بالديمقراطية بمعنى حكم الشعب؟

أول المزالق وأعظمها والأصل الذي تترتب عليه كل المزالق الأخرى هو أن الإيمان بأن الحكم للشعب مناقض لأكبر قاعدة يقوم عليها بنيان الدين الإسلامي كله، إنها القاعدة التي تقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فإذا كانت الإجابة

(١) مزالق الإيمان بالديمقراطية، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم في السودان.

الديمقراطية عن سؤال لمن الحكم هي أنه للشعب، فإن الإجابة الإسلامية هي إن الحكم إلا لله. فالآية لا تقرر فقط إن الحكم لله، وإنما تقول إن الحكم إلا لله، أي إن الحكم لا يكون بحق إلا لله.

والمقصود بالحكم هنا وفي النظرية الديمقراطية إنما هو الحكم التشريعي. أما الحكم التنفيذي فإنما يقوم به أفراد من الناس في كل نظام من الأنظمة. فالشعب يشرع والمسؤولون ينفذون، والله تعالى يشرع والناس يحكمون بما شرع.

هذا الحكم التشريعي هو من خصائص الربوبية التي لا يجوز لأحد أن يدعيها أو يشرك مع الله تعالى أحدًا فيها، لا ملك ولا دكتاتور ولا رئيس جمهورية ولا علماء ولا شيوخ. فكل من اعتقد أن أحدًا من هؤلاء له حق التشريع والتحليل والتحريم يكون قد اتخذه ربًا من دون الله تعالى.

يؤكد هذا قوله تعالى عن بعض اليهود والنصارى في زمن الرسالة المحمدية: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١]، وفسر النبي ﷺ اتخاذهم لهم أربابًا بأنه اتباعهم لهم في تحليلهم لما حرم الله وتحريمهم لما أحل.

ولهذا قال تعالى في تمام الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]، فهم لم يعبدوهم من دون الله تعالى بأنهم سجدوا لهم أو حجوا وإنما عبدوهم بأنهم أعطوهم حق التشريع.

وعليه، فإن كل من أعطي هذا الحق يكون معبودًا لمن أعطاه إياه حتى لو كان ما يسمى بالشعب أو المواطنين.

وإذا أردنا أن نعرف كيف أن هذه الحقيقة، حقيقة إن الحكم إلا لله، هي القاعدة التي يقوم عليها بنيان الدين كله، فلنقرأ الآية بأكملها والتي قبلها ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠]، فالآية الكريمة تدل على أن العبادة، وهي الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، مؤسسة على قاعدة أن الحكم لله.

فنحن نعبد الله تعالى لأنه أمرنا بعبادته، ونحن نطيع أمره تعالى لأننا نؤمن بأن الحكم له، والأمر والنهي له. وتدل على أن الدين القيم مُبناه على التسليم بأن الحكم لا يكون إلا لله. لماذا لا يكون الحكم إلا لله؟ لأن الله تعالى هو وحده خالق الكون وحاكمه قدرًا، فلزم أن يكون هو وحده الذي له حق حكمه شرعًا. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، فكل من آمن بأن للكون خالقًا واحدًا ثم أبى أن يحتكم إلى شرعه، أو اعتقد أنه يجوز لأحد غيره أن يشرع لخلقه يكون قد نقض إيمانه به.

فكيف إذا كان يدعي الإيمان بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾ [النساء:٦٠-٧٠].

ذلك هو المزلق والضلال الأكبر المترتب على الاعتقاد بأن الحكم للشعب. لكنه مزلق تنتج عنه وتترتب عليه مزالق وضلالات أخرى عظيمة. نريد قبل الحديث عن هذه المزالق الفرعية أن نقول إن هذا الضلال الأكبر وما ينتج عنه من ضلالات هو الذي يحرص على دعوتنا إليه وتزيينه لنا بعض أنصار العلمانية ودعاتها في الغرب والشرق، إنه لمن السذاجة البالغة ما يظنه بعض

الناس في العالم الإسلامي أن أمريكا وغيرها من دول الغرب إنما تنفق أموالها وتضحي بأولادها وتشن حروبها وتنشئ وتمول المؤسسات الداعية إلى الديمقراطية من أجل أن ينعم الناس في العالم العربي، أو لإسلامي بانتخابات وأحزاب ومجالس تشريعية، وأجواء من حرية يختار فيها المواطنون ما يرونه صالحًا ومناسبًا لبلادهم.

فهذا أستاذ كبير بمعهد كاتو Cato بواشنطن يقول عن مهمة أمريكا في العراق في بداية محاولتهم لوضع دستور له: «إن أعظم مهمة للمهتمين بمستقبل العراق هي أن يعملوا على أن يكون المجتمع العراقي أكثر تقديرًا لأهمية الحرية الليبرالية في مجتمعه. إن الديمقراطية وسيلة لها قيمتها، لكنها وسيلة فقط. إن الهدف هو مجتمع حر».

ولذلك يرى أنه حتى لو انتهى الأمر إلى أن يكون الدستور وثيقة ليبرالية في مجتمع غير ليبرالي، فلن يكون عديم الفائدة، إن مخططًا كهذا سيقترح غايات مثالية، وسيضع أساسًا قانونيًا لأي إصلاح إذا ما تغيرت الثقافة السياسية.

وينقل في هذا الصدد عن جريدة نيو ربلك New Republic موافقًا لها قولها: «إن كون ١٨٠٠ من الجنود الأمريكان فقدوا أرواحهم لكي تستمع نساء العراق بخيرات القرون الوسطى الدينية أمر ينبغي أن يزعج إدارة بوش والشعب الأمريكي».

وكذلك قول كاتبة أخرى كانت أكثر صراحة Nina Shea: «إنه ينبغي أن

لا يزهق دم أمريكي في سبيل إقامة حكم الشريعة».

هذه هي الأهداف الحقيقية من وراء الاهتمام بنشر الديمقراطية لكنهم قلما يصرحون بها، بل إن بعض مؤسساتهم الداعية إلى الديمقراطية في بلادنا لتظهر بمظهر المؤسسة العلمية الأكاديمية التي تسعى إلى بيان العلاقة الحميمة بين الإسلام والديمقراطية، من هذه المؤسسات واحدة تدعى مركز دراسة الإسلام والديمقراطية يشارك في الإشراف عليها مستشرقون من أمثال جون اسبوزيتو وعلماء من أمثال الدكتور طه جابر، الذي أصدر فتوى تحث المسلمين على إيتاء الزكاة لهذه المؤسسة، نشرتها على موقعها ثم قرأنا بعد ذلك في تقرير لمؤسسة راند شبه الرسمية أن هذا المركز هو أحد المؤسسات التي تدعمها الحكومة الأمريكية لنشر الديمقراطية في العالم الإسلامي!!.

المزلق الثاني: هو أن الاعتقاد بأن الحكم للشعب يؤدي لا محالة إلى الإيمان بالعلمانية؛ لأن العلمانية في كل صورها، وسواء كانت ديمقراطية أو دكتاتورية، إنما تقوم على الاعتقاد بأن التشريع من حق البشر أفرادًا كانوا أو جماعات، فالديمقراطية بمعنى حكم الشعب هي نظرية علمانية لا محالة.

المزلق الثالث: وهو لازم عن الثاني وهو أنه ما دام المواطنون كلهم متساوين في حقهم في التشريع، فيجب أن لا يكون هنالك فرق بين مؤمن وملحد، أو مسلم ونصراني، أو بين مستمسك بدينه ومرتد عنه.

المزلق الرابع: وهذا يؤدي بدوره إلى الاعتقاد بأن الرابطة الأساس بين الناس هي رابطة المواطنة لا رابطة الأخوة الإسلامية التي هي أساس كل الهدي

الإسلامي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، لكن بعض الناس يحاولون أن يجمعوا بين هذين النقيضين كما الحال في دستور السودان الحالي الذي أفتى بعضهم بأنه دستور إسلامي.

المزلق الخامس: أن يسود الاعتقاد بنسبية المصلح والمفسد والنافع والضار؛ ذلك لأن الديمقراطية نظرية لا محتوى لها، إنها إنما تقرر أن الحكم للشعب ثم تترك لكل شعب أن يختار ما يراه مناسبًا. لكن الشعوب تتعدد وتختلف مكانًا وزمانا، فهذا شعب أمريكي بجانبه شعب مكسيكي، ثم هنالك شعب إنجليزي وآخر فرنسي.

وهذا الشعب الأمريكي الآن كان شعبًا آخر قبل عدد من السنين وشعبًا ثالثًا قبل عدد آخر، وفي كل مرة تتغير قيمه فيحرم ما كان قد أحل ويحل ما كان قد حرم، ويقدم ما كان قد أخر ويؤخر ما كان قد قدم، وكل هذه الأحكام ديمقراطية ما دام قد توفر فيها شرط الإجراءات الديمقراطية.

فاختطاف الأحرار واسترقاقهم، واحتلال البلاد واستعمارها وقتل أحرارها ونهب خيراتها كل هذا جائز ما دام قد جاء نتيجة قرارات توفر فيها شرط الإجراءات الديمقراطية. يعبر عن هذا الاضطراب نكتة عن رجل إنجليزي قيل إنه قرر أن يهاجر من بلده فلما سُئل عن سبب قراره، قال: إن الشذوذ كان ممنوعًا، ثم صار مسموحًا به، فأنا أخشى أن يصير بعد قليل واجبًا، هذا عن الديمقراطية، أما في الإسلام فإننا عندما نقول إن الحكم إلا لله، نشير إلى حكم معين مسجل في مصادر معينة فيها تفصيل لأحكام معينة، وفيها قواعد عامة للحكم، وفيها أمر بالالتزام

بمكارم الأخلاق، وحسن معاملة البشر وهكذا.

المزلق السادس: هو أن تصير الثقافة الغربية هي القدوة والمثال الذي يحتذى لا في مجال السياسة وحدها بل في كل مجالات الحياة؛ لأنك إذا آمنت مع الغربيين بأن الحكم للشعب، ثم اعتقدت بأن شعوبهم هي الشعوب الأكثر حضارة؛ لأنها هي السابقة في مضمار الديمقراطية، كان من الطبيعي أن تعتقد أن ما اختاروه هو المناسب للعصر، وأن تريد لشعبك أن يتشبه بهم ويحذو حذوهم. ولذلك تجد أن كلام الكثيرين حتى ممن ينتسبون إلى الإسلاميين صار مجرد ترديد للعبارات والشعارات الغربية السياسية مترجمة إلى اللغة العربية، الديمقراطية، الشفافية، المرأة، تدأول السلطة، حتى صاروا كما قال الشاعر العربي:

ألهت بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

المزلق السابع: هو أن تصير الديمقراطية هي معيار الشرعية الوحيد، فكل ما لا يأتي عن طريقها فهو غير شرعي وغير قانوني. هذا مع أن الغربيين لم يكونوا يبالون بالخروج عليها إذا ما تبين لهم أن المصلحة في مخالفتها. من ذلك ما ذكره فريد زكريا في كتابه (مستقبل الحرية) قال: «كان الاسترقاق والتفرقة العنصرية متأصلتين في الجنوب الأمريكي عن طريق النظام الديمقراطي. ولذلك فإنه منذ قيام الجمهورية واجه الذين يبغضون الاسترقاق مشكلة هي أن غالبية المصوتين في الجنوب كانوا يدافعون عنه بحرارة بالغة. وفي النهاية مات لا لأنه خسر معركة التصويت ،ولكن لأن قوات الشمال سحقت الجنوب. فالديمقراطية عند الغربيين ليست هي المعيار المطلق كما هو الحال عند

المقلدين لهم في بلادنا».

أذكر أن أحد الصحفيين عندنا كتب ذات مرة يقول: إنه على الإسلاميين أن يقبلوا نتيجة صناديق الاقتراع حتى لو جاءت بالحزب الشيوعي. ذكرني كلامه بكلام للفيلسوف البريطاني (برتراند رسل) عندما سُئل إلى حد هو مستعد لأن يعطي الحرية للحزب الشيوعي، فقال: ما لم يصل عن طريقها إلى الحكم؛ لأن الديمقراطية تكون حينئذ متناقضة إذ تمكن من الوصول إلى الحكم من يعمل على قتلها. أو كلامًا هذه فحواه.

المزلق الثامن: هو الخضوع للرغبات التي تؤثر في الانتخابات حتى لو كانت رغبات منكرة وحتى لو كان أصحابها أقلية، هذه نتيجة حتمية لكل من يعتقد أن الحكم للشعب، ومن ثم يريد من الشعب أن ينتخبه.

لقد رأينا هذا واقعا في البلاد الغربية، رأينا أُناسًا المعروف عنهم أنهم محافظون ينكرون أشياء مثل الشذوذ، لكن مرشحهم يخشى إن هو صرح بإنكاره لها أن يفقد بعض الأصوات التي قد تؤثر في نتيجة الانتخابات. إنه لا ينكرها إلا إذا رأى أن عدم الإنكار سيفقده أصواتًا أكثر منها، لكن هذا يتنافى مع المهمة الكبرى للحكومة الإسلامية: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:٤١].

المزلق التاسع: سيقول بعض الناس ماذا نفعل إذن؟ إننا نعيش في مجتمع تعددي، والتعددية هي سمة المجتمعات الحديثة، ولا يمكن مع التعددية التزام

بدين معين؛ لأن معناه إقصاء الآخر، أو إكراهه على الالتزام بدين لا يؤمن به. إنه لا حل في مثل هذه الأحوال إلا الحل الذي اهتدت إليه البشرية، الحل الديمقراطي الذي لا يفرق بين المواطنين بسبب معتقداتهم وفلسفاتهم وقيمهم، كما لا يفرق بينهم بسبب ألوانهم وعناصرهم، إنه النظام الذي يعطي كل المواطنين بغض النظر عن تلك الفروق بينهم حقوقًا سياسية متساوية، صار هذا الكلام عند كثير من الناس كالبدهيات التي لا تقبل نقاشًا، مع أنه في حقيقته من أبطل الباطل، فهو باطل نظريًا ومستحيل التحقق عمليًا؛ وذلك أن كل نظام سياسي لا بُد له من قوانين تحكم علاقات الناس وتصرفاتهم الشخصية والاجتماعية، السياسية والاقتصادية، فتقول إن هذا مباح وهذا محظور. ولا بُد لهم من سياسات تنظم علاقاتهم الخارجية، وفلسفاتهم التعليمية والإعلامية، ومبادئهم القانونية وغير ذلك. فإذا كان المجتمع مكونًا من مواطنين مختلفين اختلافات أساسية في نظرتهم إلى الحياة بسبب دينهم أو فلسفاتهم وقيمهم، لزم أن يكونوا مختلفين في المبادئ التي تقوم عليها القوانين والسياسات. فكيف يمكن إذن أن تكون لهم جميعًا حريات سياسية متساوية؟ كيف يمكن للاشتراكي أن يعمل باشتراكيته وللرأسمالي أن ينظم المجتمع على أساس رأسماليته؟ كيف يمكن أن تكون للعلماني ولصاحب الدين حريات متساوية في تنفيذ ما يؤمنون به؟ هذا أمر مستحيل. ولذلك فإن كل محاولات الوصول إلى حل له فشلت فشلًا ذريعًا.

وقد كان من أشهرها وأكثرها عمقًا محاولة (جون رولز) فيلسوف

السياسة الأمريكي الذائع الصيت في البلاد الغربية، إنه لا يمكن في الواقع إلا أن تكون هنالك نظرة واحدة من تلك النظرات المتعددة تبنى عليها قوانين البلاد وسياساتها، ثم يعطى الآخرون قدرًا من الحرية يختلف باختلاف النظرة الحاكمة إليهم، لا يمكن أن تعطى نظراتهم وأديانهم وفلسفاتهم حقًا مساويًا للنظر أو الفلسفة أو الدين الحاكم. هذا أمر مستحيل. وهذا هو الواقع في المجتمعات الديمقراطية الليبرالية الغربية.

إن فلسفة الحكم السائدة فيها فلسفة علمانية ديمقراطية ليبرالية، فهي تعطي غيرها من الفلسفات والنظرات من الحرية ما يتناسب معها ولا يهددها، نعم إنهم يسمحون لمخالفيهم من أصحاب الديانات والفلسفات الأخرى أن يدعو إلى ما يريدون (في حدود القانون)، وأن ينافسوا في الانتخابات، بل يسمحون لهم أن يشاركوا في الحكم لكن بشرط أن يلتزموا بنظم الدولة العلمانية.

فرئيس الدولة المسلم في بلد علماني ليس رئيسًا له باعتباره مسلمًا، وإنما هو رئيس باعتباره مؤمنًا بدين في الحدود التي تفرضها قوانين الدولة العلمانية التي تقرر بأن الدين في أساسه سلوك شخصي لا علاقة له بالحياة العامة التي تتولى الدولة العلمانية شؤونها[1].

فائدة: معنى الحضارة:

الحضارة كما نستعملها هنا هي الكلمة العربية المقابلة للكلمة الإنجليزية Civilization فالحضارة بحسب ما نراه هنا مكونة من جوهر ومظهر، أما

---

(١) مزالق الإيمان بالديمقراطية، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم في السودان.

الجوهر فهو معتقداتها وقيمها وأنماط السلوك الشائع فيها، وأما مظهرها فهو انجازاتها المادية من قوة عسكرية واقتصادية، ونظم الحضارة بهذا المعنى مفهوم محايد، أعني أنه لا يدل بنفسه على مدح أو ذم، شأنه في ذلك شأن عبارات الأمة، والأئمة، والخُلق والدين وغير ذلك. فالأمة قد توصف بالاستقامة أو الزيغ، والأئمة قد يكونون هداة إلى الحق أو موردين لمتبوعهم إلى النار، والخُلق قد يكون حسنًا وقد يكون سيئًا، والدين قد يكون حقًا وقد يكون باطلًا؛ وكذلك الحضارة قد توصف بالمادية أو الإيمانية، وبالقوة أو الضعف[1].

فائدة: ما الحضارات التي تتصارع الآن؟

لا نستطيع فيما أرى أن نشير في واقعنا الراهن إلى حضارة ماثلة محددة المعالم إلا حضارة واحدة هي الحضارة الغربية؛ وذلك أننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية نستطيع أن نشير إلى دولٍ قائمة تتمثل فيها هذه الحضارة فهنالك دول أوربا الغربية، والولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا ونيوزيلاندا. يجمع بين هذه الدول كونها كلها ذات نظام سياسي واحد هو الديمقراطية الليبرالية العلمانية، وأن بينها علاقات وتعاون، وأن لها تاريخًا واحدًا مشتركًا، وأن الديانة النصرانية هي أكثر الديانات انتشارًا بين شعوبها، بل إن هذه الدول لتشترك شعوبها حتى في أزياء رجالها ونسائها، وفي كثير من أذواقها الأدبية والفنية. هذه الدول في مجموعها هي أقوى دول العالم اقتصادًا، وسلاحًا،

---

(١) صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية، الخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣هـ - الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م.

وتأثيرًا إعلاميًا. حضارتها هذه هي الحضارة الغالبة المهيمنة على العالم.

هل نستطيع أن نقول مثل هذا عن أية حضارة أخري في واقعنا الراهن؟

كلا، نستطيع أن نشير إلى أقطار أخرى إشارات سلبية بأن نقول إن حضارتها ليست غربية بالمعنى الكامل، فاليابان تشبه دول الحضارة الغربية في نظامها السياسي وفي تقدمها الاقتصادي، وتخالفها في تاريخها، وفي الدين السائد بين أهلها. وهي صديقة للغرب ومتعاونة معه مصارعة. وقل مثل ذلك عن الهند، أما الصين فإنها تشبه الدول الغربية من حيث نموها الاقتصادي، بيد أنها تخالفها في نظامها السياسي والاقتصادي. لكن حتى هذين النظامين ليسا بنابعين من ثقافة صينية أو تاريخ صيني وإنما هما مستوردان من فكر غربي هو الفكر الماركسي، مجموعة الدول التي كانت تسمى بالاتحاد السوفيتي كانت متشابهة في نظامها السياسي والاقتصادي، وكانت لها قوة عسكرية ورسالة أيدولوجية ومطامع توسعية، فكانت هي فعلًا المنافسة للغرب، لكنها حتى في أوج عظمتها لم تكن تمثل حضارة متميزة. أما بعد تفكك اتحادها وسقوط نظامها السياسي والاقتصادي وذهاب بريقها الأيدولوجي، فقد صارت دولًا ضعيفة تحاول أن تتأسى بدول الحضارة الغربية في أنظمتها، كما تحاول تحسين علاقاتها بتلك الدول، ولا سيّما الولايات المتحدة، طمعًا في مالها وجاهها ماذا بقي؟ بقيت الدول الإسلامية.

هل نستطيع أن نقول إنها تمثل اليوم حضارة بالمعنى الذي وصفنا به الحضارة الغربية؟

نقول آسفين: كلا، فإنه ليس لها نظام سياسي واحد إسلاميًا كان أو غير إسلامي، وليست ملتزمة كلها بالإسلام في نظمها الاقتصادية أو التعليمية أو الإعلامية أو غيرها. وليس بينها تعاون حقيقي يذكر رغم انضمامها كلها إلى عضوية المؤتمر إسلاميًا فليس هنالك إذن حضارة إسلامية قائمة قيامًا ماديًا يميزها تمييزًا كاملًا عن الحضارة الغربية، ودعك أن تكون في صراع معها. نعم كانت لنا في الماضي حضارة، بل كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية الوحيدة إلى بداية القرن السابع عشر الميلادي، حضارة اعترف بوجودها وقوتها معاصروها، ويعترف بوجودها المؤرخون والمختصون بالدراسات.

وعليه، فنستطيع أن نقول إنه ليس هنالك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية؛ لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي كانت توجد به حضارة الإسلامية فما مشكلتنا مع الحضارة الغربية إذن؟ مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها، ومع أنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية، إلا أن الحضارة الغربية ذات حساسية بالغة من أية بادرة بعث لتلك الحضارة لسبب تاريخي.

إن قادة الفكر الغربي لا ينسون، كما أن كثيرين منا لا ينسون، أن الحضارة الإسلامية كانت كما قلنا هي الحضارة العالمية حتى القرن السابع عشر

الميلادي، ومما يزيد من خوفهم قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي، إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هُزم.

ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟

اختلفت الإجراءات في تفاصيلها بحسب الظروف العالمية، وبحسب التكتيكات الوقتية، لكن أمرين استراتيجيين اثنين لم يتغيرا، هما: ضمان عدم رجوع الأمة إلى فهم صحيح للقرآن الكريم، وضمان استمرارها ضعيفة محتاجة إلى الغرب، أي ضمان عدم توفر الشرطين اللازمين لتمكين الأمة وبالتالي لحضارتها، وهما الكتاب الهادي والسيف الناصر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

في عهد الاحتلال المباشر لبلدان العالم الإسلامي، كان أول ما فعله المستعمرون إقصاء العلم الشرعي عن المدارس والجامعات، وحصره في دوائر ضيقة روعي أن لا يكون لها علاقة بالمجتمع ولا بالعصر.

وفي هذا العهد استغلت ثروات البلاد لتغذي مصانع أوروبا وتقوي اقتصادها بعد انتهاء عصر الاستعمار والدخول في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، انشغل الغرب بعدو ماثلٍ أكبر، فلم ير بأسًا من التعاون التكتيكي مع بعض حملة هذا الفهم الصحيح كما حدث في أفغانستان. لكن الهدف الاستراتيجي لم يُنس أبدًا؛ فقد ظل الغرب الديمقراطي بقيادة الولايات المتحدة هو إلى حد كبير الذي

يصنع الحكومات غير الديمقراطية ويدعمها، مراعاة لمصالحه، وخوفًا من أن تكون الديمقراطية ذريعة لوصول الإسلام إلى السلطة؟[١].

فائدة: تعامل الغرب مع المسلمين، ولا سيّما العرب منهم بعد أحداث سبتمبر؟

حوادث إلحادي من سبتمبر أكدت للغرب وللولايات المتحدة بالذات خطر الإسلام؛ لأنه مهما قيل عن الخطأ الذي ارتكبه من قاموا بتلك العملية إلا أن الحقيقة تبقى أنهم شباب متدينون، وأنهم ابتغوا بعملهم الشهادة، وأنهم فعلوا ما فعلوا انتقامًا للمسلمين من ظلم الحضارة الغربية متمثلة في دولتها الكبرى وقائدتها، لذلك عاد الحديث جذعًا عن المواقف التي ينبغي أن تُتخذ لدرء الخطر الإسلامي.

ومن المسائل التي ذكروها في ذلك محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام هو في رأيهم الذي يغذي عداوة المسلمين للحضارة الغربية، ومن هنا كثر الحديث عن الإسلام الراديكالي، وعن الوهابي وعن السلفية، يقولون: إنه لا يمكن أن يقال للمسلمين تنكروا لدينكم، ولكن الذي يقال لهم هو أن يفهموه فهمًا لا يجعله في صدام مع مقومات الحضارة الغربية، مشكلة المسلمين المتشددين، بحسب هذا الرأي، هي أنهم التي تتطلب -فيما تتطلب- أن تكون Modernity رافضون للحداثة، الدولة دولة علمانية تعددية. فالمطلوب من المسلمين إذن أن يفعلوا ما فعله الغرب؛ ليكتمل لدينهم التصالح مع هذه

---

(١) صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية، الخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣هـ - الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م.

الحداثة كما تم للمسيحية والنصرانية.

كيف يكون ذلك؟

أولًا: بأن لا يعتقد المسلمون أن نصوص دينهم صالحة لكل زمان ومكان بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، بل عليهم أن يتذكروا كما فعل الليبراليون من النصارى واليهود، إن هذه النصوص ذكرت في ظروف تاريخية وثقافية معينة، فلا يمكن أن تكون بحرفيتها مناسبة مع ظروف تاريخية وثقافية مختلفة عنها.

ما الحل إذن؟

الحل هو أن نعيد تفسير هذه النصوص لتتناسب مع العصر، بأن نقول حتى عمّا يبدو أنه وصف لواقع كقصة قوم لوط إن هذا إنما كان كلامًا مجازيًا. فلم يحدث أن دمر الله تعالى قرى أو عاقب قومًا لتوجههم الجنسي، قال أوريلي مدللًا على أن القصة كانت رمزية لا حقيقية: لماذا لم يدمر الله سان فرانسسكو إذن؟

وثانيًا: بأن يفهم المسلمون بأن الحقيقة الدينية حقيقة نسبية؛ لأنك إذا اعتقدت أن الحق كله معك كما يعتقد المسلمون اليوم فستعتقد أن مخالفيك على باطل ويستحقون لذلك أن يقتلوا، هكذا قال الرئيس السابق كلنتون في محاضرة ألقاها في جامعة جورج تاون بواشنطن بعد أحداث إلحادي عشر.

وهذا يعني أن يكون الأفراد داخل الدين الواحد متسامحين مع مخالفيهم

في فهم دينهم؛ لأن لكل إنسان الحق في أن يفهم دينه كيف شاء، وأن يرى الحقيقة من منظاره، وعلى المنتمين إلى الأديان المختلفة أن يكونوا أيضًا متسامحين مع مخالفيهم معتقدين بأن كل دين يهدي إلى الحقيقة بطريقته.

وثالثًا: أن يُمنع بالقانون نشر مثل هذا الفكر وتغلق كل المؤسسات التعليمية التي تنشره، وأن يعاقب الذين يروجون له أو يمولون مؤسساته ومما يساعد الغرب على تحقيق هذه الأهداف أن الأفكار التي تعتمد عليها قد شاعت منذ زمان بين المثقفين المسلمين، بل بين بعض الإسلاميين منهم، فقد صار الكثيرون منا جزءًا من الحضارة الغربية في فكرهم وقيمهم وطموحاتهم السياسية وعاداتهم وتقاليدهم، بل وأزيائهم الرجالية والنسائية؛ لأنهم صاروا يعتقدون أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر التي لا يكون الناس متحضرين إلا بها[1].

فائدة: معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب:

يرى بعض المفكرين السياسيين الغربيين أن هنالك أوضاعًا اجتماعية وسياسية بغيضة إلى الناس في العالم العربي بالذات، وأن الغرب ولا سيّما الولايات المتحدة هو في نظرهم الذي يقف وراء هذه الأوضاع الظالمة ويدعمها فمن الطبيعي أن يكرهوه، ماذا نفعل إذن؟

---

(١) صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية، الخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣هـ - الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م.

يقول بعضهم: إن الحل واضح هو أن نعمل على تحويل أنظمة العالم العربي إلى أنظمة ديمقراطية حقيقية يكون الحكم فيها للأغلبية، وتصان فيها الحريات، ويحارب فيها الفساد المالي.

يقول الرئيس بوش في خطابه الشهير في كلية (وست بوينت): «عندما يأتي الأمر إلى حقوق الناس رجالًا ونساء وحاجاتهم فليس هنالك صدام حضارات. إن متطلبات الحرية تصدق على أفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي كله، إن جماهير الناس في الأمم الإسلامية يريدون ويستحقون أن يعطوا كل الحريات والفرص التي للناس في كل أمة، وعلى حكامهم أن يستجيبوا لطموحاتهم».

يقول آخرون: لكن لا تنسوا أن أغلبية الناس في هذه البلاد كارهون لنا، وعليه فإن الحكومات التي يختارونها في النظام الديمقراطي ستكون معادية لنا، يقول أصحاب الاقتراح:

أولًا: إن هذا الأمر ربما يكون كذلك في البداية، ولكن سيظهر لهذه الحكومات أن من مصلحتها ومصلحة شعوبها أن تتعاون مع الغرب وتكون صديقة له.

وثانيًا: إنه ليس من الصعب علينا أن نأتي بحكومات أغلبية حقيقية تكون في الوقت نفسه صديقة لنا. هنالك وسائل كثيرة لتحقيق ذلك.

هذا ما يراه بعض الساسة الأمريكان أما نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق فله نصيحة أخرى للولايات المتحدة. فهو ينصحها بأن تغزو العراق وتغير نظامها من غير اعتبار للأمم المتحدة، وأما بالنسبة لإيران فإنه يقول: «إنه

بإمكان الولايات المتحدة أن تُحرض على إحداث ثورة ضد النظام الإسلامي المحافظ في إيران بأن تستغل وجود الآلاف المؤلفة من الأطباق الفضائية فيها؛ لتوجيه برامج أمريكية قذرة كتلك التي تذيعها قناة (فوكس) يظهر فيها شباب وشابات حسان في حالات مختلفة من حالات العري، يعيشون حياة مادية بهيجة ويمارسون الجنس بطرق إباحية». هذه مادة هدامة. إن الأولاد في إيران سيحبون أن تكون لهم مثل تلك الملابس الجميلة التي يرونها في تلك الأفلام، سيحبون أن تكون لهم أحواض سباحة وأساليب تلك الحياة الفاتنة[1].

فائدة: البعث الإسلامي الحضاري؟

إذا لم تكن في الأرض اليوم حضارة إسلامية قائمة فعلًا، فإن فرص بعثها ما زالت متوفرة ومشجعة، إن المسلمين ما زالوا بحمد الله تعالى قادرين على الأوبة إلى الكتاب الهادي، وقادرين على السعي لامتلاك السيف الناصر وذلك:

أولًا: لأن انحراف الأمة عن دينها لم يكن وما كان له أن يكون ردة كاملة عامة عن الدين الحق. فهذا دين تكفل الله تعالى بحفظ كتابه كما تكفل بحفظ العاملين من علمائه. فإذا كان الله تعالى قد قال، وقوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فإن رسوله ﷺ قد قال غير ناطق عن هوى: «**لا تزالُ طائفة من أمتي ظَاهرين على الحق لا يَضُرُهم من خالَفهم ولا من خَذَلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون**».

---

(١) صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية، الخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣هـ - الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م.

ثانيًا: لأنه إذا كان جوهر الحضارة أو المدنية وأساسها الذي يُشيَّدُ عليه بنيانها هو رسالتها، هو المعتقدات والقيم التي تستمسك وتعتز بها، فإن الجوهر والأساس الإسلامي ما يزال أقوى من منافسه العلماني الغربي إن الإسلام لا يزال يبرهن عبر تاريخه الطويل بأنه فعلًا فطرة الله التي فطر الناس عليها. فليس على وجه الأرض دين عبر الحواجز الجغرافية والثقافات المحلية ليبقى بين المستمسكين به في جملته الدين الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ. فكتابه هو الكتاب الذي أنزل على رسوله، وصلوات الناس هي الصلوات كانت تقام في زمن النبي ﷺ، وزكاته هي الزكاة، وحجه وصيامه هما كما كانا في أشكالهما ومواقيتهما. وبالرغم مما أضيف إلى هذا الدين من بدع إلا أنه يظل رغم ذلك أكثر الأديان احتفاظًا بحقيقته، وقد كان هذا وحده مما أغرى بعض الباحثين عن الحق بالدخول فيه.

ثالثًا: وما يزال هذا الدين يؤكد هذه الحقيقة بسرعة انتشاره المذهلة حتى في موطن الحضارة الغربية. فهم يقولون إن معدل سرعة انتشاره أكبر من معدل سرعة الزيادة في سكان العالم.

رابعًا: لأنه باعتباره دين الفطرة، ما يزال هو الدين الذي يجد الناس في آيات كتابه عِلمًا بالإله الحق الموصوف بكل صفات الكمال المُنَزَّه عن كل صفات النقص من الولد والوالد التي تطفح بها بعض الأديان، وهديًا بأنه هو وحده المستحق للعبادة الهادي إلى أنواعها وكيفياتها. ويجدون في آيات كتابه وأحاديث رسوله ﷺ عِلمًا بحقيقة أنبياء الله وما كانوا عليه من كمال بشري

أَهْلَهُم؛ لأن يكونوا الأسوة التي يتأسى بها كل سالك طريق إلى الله. لكن الأديان المحرفة تجعل من بعضهم آلهة وأنى للبشر أن يتأسى بالإله؟ وتنسب إلى بعضهم جرائم يستنكف عن ارتكابها عامة عباد الله، فأنى يكونون أسوة لغيرهم؟

خامسًا: ولأنه دين الفطرة فلا يجد الناس فيه تصادمًا بين مقتضيات العقول التي فطرهم الله عليها، ولا مخالفة لحقائق الخلق التي يشاهدونها ويجربونها. فالعقل فيه نصير الدين لا خصيمه، كما هو حاله في بعض الأديان. والعلم التجريبي يشهد له ولا يشهد عليه كما يفعل مع بعض الأديان.

سادسًا: ولأن الناس كما يجدون فيه حاجتهم إلى الإيمان الخالص والعبادة السليمة والأخلاق الحسنة فإنهم يجدون فيه هديًا لتنظيم الحياة الاجتماعية تنظيمًا يتوافق مع ذلك الإيمان وتلك العبادة وهاتيك الأخلاق، ويعبر عنها ويؤكدها ويحميها؛ فهو الدين الوحيد الذي لا يحتاج إلى علمانية تكمل نقصه، أو تتصالح معه.

سابعًا: وهو الدين الذي ما يزال يشهد لأحقيته سلوك المهتدين من أبنائه. فهؤلاء هم أكثر أهل الأرض ذكرًا وعبادةً لله، وأبعدهم عن مساخط الله، وأكثرهم بذلًا لأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأكثرهم رحمةً بصغير وتوقيرًا لكبير وصلةً لرحم.

وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى بعض علماءِ النصارى، ومن أعجبهم (بيتر كريفت) أستاذ الفلسفة بكلية بوسطن، الذي يحث إخوانه النصارى على أن يعدوا المسلمين أصدقاء وأعوانًا لهم في حربهم ضد العلمانية التي يرى فيها

العدو اللدود للدين والخطر الأكبر على الحياة الاجتماعية. يقول هذا الرجل: «لماذا ينتشر الإسلام بهذه السرعة المذهلة؟ سيسارع علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخون والاقتصاديون والديمغرافيون والسياسيون إلى تفسير ذلك النمو تفسيرًا دنيويًا كل بحسب تخصصه». لكن الإجابة بدهية لكل مسيحي ذي صلة بالكتاب المقدس إن الله تعالى يفي بوعده، ويبارك أولئك الذين يطيعون أوامره ويخشونه، ويعاقب الذين لا يفعلون ذلك، إن الأمر في غاية من البساطة التي يعسر على الأساتذة الأكاديميين رؤيتها، قارن بين كميات الإجهاض وزنا المحصنين وغير المحصنين والشذوذ بين المسلمين والنصارى. ثم قارن بين كمية العبادة.

ثامنًا: ولأن كثيرًا من الناس في الغرب بدأوا يشعرون بالخطر الذي تسوقهم إليه الحياة العلمانية المجردة عن الدين، خطر تمكينها للاتجاه الفردي في الناس، وإضعافها للوازع الخلقي، وعبادتها للجنس، وتحويلها الحياة إلى جهد لا معنى له ولا غاية. كل هذا يسبب للناس أنواعًا من الشقاء الروحي، فذهب الكثيرون منهم يبحثون عن دين ينقذهم فلم يجد كثير ممن عرف الإسلام منهم أكثر منه إجابة لمطالبهم الروحية والخلقية بالطريقة التي أشرنا إليها سابقًا.

وعليه، فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت بلادنا فكريًا وخلقيًا وجعلت جزءًا من الصراع بيننا وبينها صراعًا على أرضنا، وبيننا وبين أقوامنا، فإن الإسلام الآن يفعل الشيء نفسه، إنه يغزو أرض الحضارة الغربية ويجعل

الصراع بينه وبينها صراعًا على أرضها وبينها وبين من كانوا بالأمس حماتها المدافعين عن حياضها[١].

فائدة: هل تكفي القوة الصلبة وحدها لتمكين دولة كالولايات المتحدة من فرض نفوذها على الدول الاخرى؟

القوة الصلبة يعنون بها القوة المادية العسكرية والتقنية، ومن المعروف أن الدول الغربية ولا سيّما الولايات المتحدة تملك من هذه القوة ما يجعلها متفوقة تفوقًا عظيمًا على غيرها، ولكن هل تكفي هذه القوة وحدها لتمكين دولة كالولايات المتحدة من فرض نفوذها على الدول الاخرى؟ سأل كثير من المفكرين الغربيين أنفسهم هذا السؤال، وكتبوا في الاجابة عنه كتابات عدة يجيب بعضهم بالنفي ويذكرون أسبابًا نناقش بعضها ونضيف إليها. من هذه الأسباب:

١- القوة الأمريكية ليست نتاجًا محليًا، بل أن أمريكا تعتمد في جلب هذه القوة واستدامتها على علاقتها بدول أخرى؛ ذلك أن البنتاغون كما يقول أحدهم ليس هو الذي يصنع الأسلحة وإنما تصنعها شركات، وأن نصف دخل هذه الشركات آت من منتجات تبيعها في الخارج.

٢- تطورت صناعة الأسلحة -ولا سيّما الكيماوية منها- بحيث صار في مقدور الجماعات الصغيرة بل الأفراد أن يتملكوها، ولهذا لم تعد الأسلحة الثقيلة مهما كثر عددها قادرة على أن تحمي البلد الذي يملكها من اعتداء عليه

---

(١) صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية، الخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣هـ - الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م

من داخله. وقد نبه إلى ذلك بعض المختصين بالولايات المتحدة حتى قبل حوادث ١١/ ٩.

فقد حذر تقرير صدر من لجنة الكونجرس للأمن القومي كتب في مطلع تلك السنة عن أن: «تفوق أمريكا العسكري لا يحمينا من هجوم عدائي على أرضنا فمن المحتمل أن يقتل عدد كبير من الأمريكان على أرضهم».

٣- إن العمل العسكري يحتاج إلى تضحية، وأن هذه التضحية كانت متوفرة في عهود الأمبريالية الأولى؛ لأنه كان يحرك الشعوب الغربية آن ذاك حب المجد، أما الآن فالذي يغلب عليها هو حب الرفاة وهو أمر يتناقض مع البذل والتضحية.

٤- ولعلنا نضيف إلى المسألة السابقة أن الدين كان أيضًا محركًا؛ لأنهم كانوا آن ذلك شديدي الإيمان بالمسيحية، والاعتماد بأنها خير دين، وأنهم ينقذون الشعوب الأخرى بفرضها عليهم. ولكن هذا الأمر أيضًا تغير، ولا سيّما في أوروبا فقد كتب أحد البريطانيين مثلًا كتابا اسماه (موت بريطانيا النصرانية) وحتى أمريكا التي تعد إلى الآن أكثر البلاد الغربية استمساكًا بالنصرانية، ضعف فيها هذا الاستمساك، وصار في غالبه أمرًا شكليًا على حساب العقائد الأساسية.

ولعل من أدل الأدلة على ذلك انتخاب رجل يستعلن بشذوذه قسًا للكنسية الإنجيلية بأمريكا، ولذلك عندما كتب المؤلف اليهودي برنارد لويس كتابه عن العالم الإسلامي الذي أسماه (أين الخطأ؟) والذي رأى فيه أنه لا حل

لمشكلات العالم الإسلامي إلا بسلوك الطريق الذي سلكته أوروبا، قال أحد عقلاء الكُتاب النصارى الذين عرضوا الكتاب: «قد يبدو هذا أمر بين بنفسه ولكن بما أن المجتمعات الغربية قد بدأت تتخلى عن النمط التقليدي للحياة الدينية، وبدأت تفكك مؤسسات الدين التقليدية كمؤسسة الزواج، فإن المرء ليتساءل ما إذا كان على النصارى واليهود أن ينضموا إلى الجوقة التي تحث المسلمين بأن عليهم أن يسلكوا الطريق الذي سلكته الحضارة الغربية منذ القرن الثامن عشر».

٥- ونضيف إليه أمرًا في غاية الأهمية -ولكن قل أن يعترف به أو حتى يذكره المختصون- وهو التدهور الخلقي المتزايد الذي يؤدي حتمًا إلى إضعاف البلد بل إلى انهياره مهما امتلك من أنواع الأسلحة؛ من أمثلة هذا الفساد المريع ما ذكرته طبيبة مختصة بأمراض الفتيان والفتيات قبل سن العشرين، حيث ذكرت في كتاب لها بعنوان (الوباء): «إن الأمراض المتعلقة بالممارسات الجنسية والتي يسمونها اختصار S.T.D تصيب ثمانية آلاف ممن هم في هذه السن كل يوم!» إن الأسلحة لا تعمل وحدها وإنما يسيرها البشر، فإذا فسد البشر لم يكن لقوتها من فائدة.

فكثيرًا ما يذكرنا ربنا في كتابه العزيز بأن القوة المادية لا تنقذ أمة من الهلاك إذا توافرت أسبابه الروحية، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ

﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:٦-١٤]، لكن هذا كله لا يقلل من الأهمية القصوى للقوة الصلبة في أقدار مالكها على الاستيلاء على أرض الآخرين.

ولكن يبدو أن أمريكا -كما قال أحد كُتابها- إنما تلجأ لمثل هذا التدخل السافر حين يكون البلد ضعيفا لا قدرة له على المقاومة كما فعلت في عصرنا هذا وما مثال أفغانستان والعراق عنا ببعيد، وهي إذا لم تلجأ للتدخل السافر فإنها تلوح بقوتها الصلبة هذه مهددة كل من يخالفها حتى لو كان دولة قريبة مثل فرنسا، وفي الأخبار مثلًا أنها قررت استثناء البلاد التي لم تشارك في تأييدها باحتلال العراق من المنافسة في عطاءات ما يسمى بإعمار العراق وهو عمل مربح[1].

فائدة: واقع القوة اللينة (الثقافة) الغربية في عصرنا:

مما لا شك فيه أن الثقافة الغربية صارت في عصرنا هذا هي الثقافة الطاغية في كل أنحاء العالم تقريبًا. الناس في كل مكان يرتدي معضهم أو عدد كبير منهم الزي الغربي، والمثقفون منهم يتكلمون لغة واحدة أو أكثر من اللغة الغربية ويتبنون مناهج الدراسة الغربية، ويستمعون إلى الإذاعات والقنوات الأمريكية أو الإنجليزية أو الفرنسية، تحاول كثير من دول العالم أن تتبنى نظام الحكم

(١) ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟ محاضرة ألقيت في مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير في الخرطوم الذي نظمته وزارة الإرشاد والأوقاف السودانية عام ٢٠٠٣م.

الديمقراطي بشكله الغربي، بل يكاد أن يكون من العقائد الراسخة عند كثير من المتنفذين من السياسيين والكتاب والصحفيين أن النظام الديمقراطي هو خير نظام توصلت إليه البشرية، بل أن بعضهم لا يؤمن بالديمقراطية إيمانًا خرافيًا فيعتقد أنها البلسم الشافي لكل علل الأمة ليس السياسية فحسب، بل الاجتماعية والدينة وغيرها، فما على الناس إلا أن ينتخبوا حكامهم ويرضوا بما تراه أغلبيتهم لتختفي كل مشكلاتهم.

١ - ما الذي أدى إلى هذا الاعجاب بالثقافة الغربية؟

الجواب لأسباب كثيرة لعل من أهمها:

أ- الاعتقاد بالباطل بأنه مادام الغرب قد تقدم اقتصاديًا وعسكريًا فلا بُدّ أن يكون كل شيء في ثقافته من أسباب ذلك التقدم، وقد كنت قد قلت في مقال لي قديم: أن مثل المعتقدين لهذا كمثل شاب يعجب برجل عداء ويريد أن يكون مثله في شدة عدوه فيذهب ويشتري ثيابًا مثل ثيابه.

ب- الاعتقاد الآخر بالباطل الذي يقول أن من كان أكثر مالًا ونعمة فهو أصح مذهبًا ممن هم أفقر منهم، قال تعالى عن الكفار الذين اعتقدوا مثل هذا الاعتقاد الباطل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣]، ثم رد عليهم سبحانه بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم:٧٤]، وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم:٧٥].

الاعتقاد بالباطل -الذي ينشره الغربيون أنفسهم- أن حضارتهم هي حضارة العصر؛ يعني أنها هي وحدها المناسبة لظروفنا المعاصرة وأن كل أمة لا تأخذ بها تكون مختلفة، فهم يخلطون بين التحديث والتغريب وبين ما أسميته في مقال سابق بضرورات العصر وأهواء العصر[1].

فائدة: ماذا يستفيد الغرب من التبعية الثقافية العمياء له؟

مع الاعتراف بأن التبعية الثقافية العمياء للغرب مضرة غاية الضرر بأُناس مختلفين عنه تاريخيًا وكانت لهم ثقافات ليس بأقل من ثقافته، بل قد تكون خيرًا منها، يجعلنا نتساءل ماذا يستفيد الغرب من مثل هذه التبعية؟

والجواب: أنها تعتمد على نوع المستقبلين المقلدين لهذه الثقافة، فمنهم من قد يعتقد أنها مصدر لقوته، ومساعدة له يكون له من القوة والتطور المادي ما للغرب، من غير أن يكون تابعًا له سياسيًا، بل مع استمساكه باستقلاله ووطنيته وشيء من هويته، أن التنافس بين الدول الغربية نفسها شاهد على أن التماثل الثقافي لا ينتج بالضرورة ودًا بين المتماثلين. لكن مما لا شكل فيه أن التبعية الثقافية قد تؤدي أيضًا إلى تبعية سياسية.

إن من الناس اليوم في البلاد العربية من يتمنى أن تغزوا أمريكا بلاده كما غزت العراق لتخلصه من حكم ديني لا يرضى عنه، إن من شأن الاعتداء على الشعوب المستضعفة أنه قد يؤثر ثقافيًا وروحيًا على الشعب المعتدي نفسه، إن

---

(١) ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟ محاضرة ألقيت في مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير في الخرطوم الذي نظمته وزارة الإرشاد والأوقاف السودانية عام ٢٠٠٣م.

أهم ما يعتز به الغرب -ولا سيّما أمريكا- ويتباها به هو قيمة الحرية والديمقراطية، لكن في الوقت الذي تسوغ فيه إدارة بوش مثلًا غزوها للعراق بأنه من أجل تحريره وإسباغ نعمة الحرية والديمقراطية عليه؛ فإنها اضطرت في سبيل ذلك إلى تقييد حرية الشعب الأمريكي نفسه، حتى إن بعضهم ليقول اليوم أن هذه الإدارة لا تؤمن بحرية ولا تتقيد بديمقراطية. والأمريكان والإنجليز لا يختلفون مع رؤساءهم فقط بل أنهم ليتهمونهم بالكذب والغش، قد ألفت في أمريكا كتب كاملة عناوينها أكاذيب بوش. وهذا من شر ما تبتلى به أمة، وقديمًا قال زياد أن كذبت الأمير بلقاء. هذا مع الرجل الذي نظر للإمبريالية الجديدة كان يرى أن يكيل المعتدون بمكيالين يتعاملون فيها بينهم بالصدق والأمانة والشفافية، فإذا اتجهوا إلى غيرهم عاملوهم بالكذب والغش.

ومن آثار الاعتداء على الشعوب كذلك آثاره الخلقية السيئة التي تتمثل في ازدياد الشعور بالغرور لدى الزعماء القائمين على هذا الاعتداء، ولدى الجماهير المؤيدة لهم وما أكثر ما سمعت المسلمين المتصلين بكتاب ربهم يرددون بهذه المناسبة قوله تعالى عن عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥]، وكما أنه كان لهذا الغزو ذلك الأثر السيئ داخل أمريكا فقد كان له أثر مماثل، بل أشد خارجها.

فقد صار كثير ممن كانوا معجبين بقيم الحرية والعدالة والديمقراطية يتشككون اليوم في صدق أمريكا بالالتزام بها، حتى إنه لتدور في بعض البلدان

العربية طرفة تقول إن العلمانيين يقولون نحن كنا نريد أن نكون مثل أمريكا لكن اكتشفنا أن أمريكا هي التي تريد أن تكون مثلنا[١].

فائدة: المرتكزات التي اعتمدت عليها مسوغات اعتداء الحضارة الغربية على الآخرين:

أولًا: العنصرية: فقد انتشر بين فئات من الناس في الغرب انتشارًا واسعًا الاعتقاد بأن الجنس الأبيض جنس متفوق بعنصره على الأجناس الأخرى، وأنه من حقه لذلك بل من واجبه أن يحكم تلك الشعوب ويقودها إلى طريقة الحضارة. كان لهذه العنصرية دعاة يزينونها وينشرونها ويقنعون بها شعوبهم.

من هؤلاء المفكر الفرنسي جول هارمان (Jules Harman) الذي ظل حتى عام ١٩١٠م يقول: «من الضروري إذن أن نقبل من حيث المبدأ، وبداية انطلاق حقيقة أن هناك هرمًا للأجناس والمدنيات، وأننا ننتمي إلى الجنس الأعلى والمدنية العليا مع الاعتراف بأنه إذا كان السمو يعطي حقوقًا فإنه في المقابل يفرض واجبات صارمة. إن الذي يبيح لنا غزو مواطني البلاد الأخرى هو اعتقادنا في تفوقنا، لا تفوقنا الميكانيكي والاقتصادي والعسكري فحسب، بل تفوقنا الخلقي. إن عزتنا تعتمد على هذه الخاصية، وهي التي يعتمد عليها حقنا في توجيه بقية الإنسانية. إن القوة المادية ليست سوى وسيلة لتحقيق تلك الغاية»[٢].

---

(١) ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟ محاضرة ألقيت في مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير في الخرطوم الذي نظمته وزارة الإرشاد والأوقاف السودانية عام ٢٠٠٣م.

(٢) ترجمتي. Quoted in Edward Said, Ibid,p.١٧.

ثانيًا: احتقار الشعوب الأخرى: وذلك الشعور بالتعالي والاستكبار لا ينفك عن احتقار الآخرين. قال ﷺ: «**الكبر بَطَرُ الحقِّ وغمط الناس**»، لذلك كثر في كتابات مسوغي الاستعمار وصف الشعوب التي يستعمرونها أو يريدون استعمارها بكل أنواع المثالب.

من أمثلة ذلك ما قاله الفرنسي بوليي Pau; Lerory Beaulieu في كتاب له عن الاستعمار نشر عام ١٨٩١م[1]: «من المحال أن لا يعد الاستعمار مهمة فرضت على الدول المتحضرة في القرون الأربعة الماضية وبالأخص في عصرنا هذا».

ينقسم عالم اليوم إلى أربعة أقسام بالنسبة إلى نوع حضارته (عدد هذه الأنواع الأربعة ثم مضى ليقول): حال العالم هذا يستلزم بالنسبة للناس المتحضرين حق التدخل... في شؤون الناس المنتمين إلى النوعين الأخيرين... إنه ليس من الطبيعي ولا من العدل بالنسبة للناس المتحضرين الغربيين أن يظلوا إلى الأبد محصورين ومكتظين في الأماكن التي كانت مأواهم الأول. وليس من الطبيعي ولا من العدل أن يجمعوا هنالك روائع العلم الطبيعي والفنون والحضارة، وأن يروا معدل الفائدة يتناقص كل يوم لعدم وجود فرص جيدة للاستثمار، بينما يتركون نصف العالم تقريبًا لمجموعات صغيرة من أُناس جهلاء غير مؤثرين هم بمنزلة الأطفال الضعفاء، أو لأُناس منهوكي القوى

---

[1] S.Rollard et el,Documents of Europcan economic History,Vol ٢,pp.١٦٥-٦٧.(Http: /web.jjay.cuny.edujobrien/erferebce/Ob٣٨.html.

لا نشاط لهم ولا هدف كأنهم أُناس عجائز.

ثالثًا: نشر المسيحية التي كانوا يعتقدون أنها خير دين وأن الأديان الأخرى -التي لم يكونوا يعرفون عنها شيئًا- أديان باطلة لشعوب متخلفة.

رابعًا: التنافس والتكاثر بين الدول الغربية التي لم تكن ترضى الواحدة منها بأن يكون نصيبها من البلاد المستعمرة أو المحتلة أقل من نصيب غيرها.

خامسًا: الضرورات الاستراتيجية التي أدى إليها ذلك التنافس بين الدول الغربية المستعمرة.

سادسًا: الطمع المادي الذي كان يراه بعضهم السبب الحقيقي أو الرئيس للاستعمار، وأن كل ما ذكرنا من أسباب إنما كان لتجميل وجه هذا الطمع. يرى هؤلاء أن الثروة الصناعية أدت إلى سرعة في إنتاج السلع وزيادة فيها، فأصبحت من الكثرة بحيث لا يمكن أن تستهلك في الأقطار المنتجة لها، فلا بُدّ إذن من البحث عن أسواق خارجية لها. كما أن المصانع كانت بحاجة إلى مادة خام لا تتوفر في أقطارها، لتشتريها سلعًا. كما أن الرغبة في زيادة أرباح تلك المصانع استدعى البحث عن أيد عاملة زهيدة الأجور. هذا هو التفسير الاقتصادي للاستعمار كما ذكره الاقتصادي البريطاني هوبسن J.A.Hobson ثم توسع فيه القائد الشيوعي لينن Lenie في كتابه الاستعمار أعلى مراحلة الرأسمالية[1].

---

(١) علاقة الغرب الاستعمارية بالعالم، محاضرة في مؤتمر العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة ٢٠٠٣م.

فائدة: هل مسوغات اعتداء الحضارة الغربية على الآخرين مقبولة؟

هذه المسوغات كلها غير مقبولة خلقًا وغير قائمة على أسس علمية:

فقد أثبتت الدراسات العلمية الغربية نفسها أن دعوى تفوق لون على لون أو جنس على جنس أمر لا مستند له، وأيدت بذلك صحة المبدأ الإسلامي أنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى. لكن هذا الاعتقاد العنصري الباطل ما يزال شائعًا بين الناس في كل بلدان العالم تقريبًا ولا سيّما في أمريكا[1].

أما القول بأن بعض الشعوب متخلفة بالنسبة لغيرها من حيث العلم الطبيعي أو المستوى الاقتصادي، أو القوة العسكرية، فقول صحيح لكن ربط هذا بعنصرهم وعده أمرًا لازمًا لهم، ليس له ما يؤيده من علم ولا تجربة. بل إن تجارب التاريخ تدل على عكس ذلك، فقد ظل الشغب الإنجليزي مثلًا شعبًا متخلفًا إلى أن غزته الإمبراطورية الرومانية فأدخلت في مجتمعه من وسائل المدنية مالم يكن به علم ولا خبرة، وقل مثل ذلك عن شعوب أخرى.

التخلف الاقتصادي إذن مسوغًا خلقيًا لغزو شغب من الشعوب، والحاجة إلى سوق للبضائع أو مصدر للمواد الخام أو عمالة رخصية ليست أيضًا بمسوغ

---

(١) كانت أول صدمة شخصية لي بهذا التعصب العنصري أني ناقشت أحد الشباب الأمريكان وكنا جميعًا طلاب دراسات عليا في جامعة لندن، ناقشته في مسألة فلسفية فيها شيء من التعقيد ففاجأني في نهاية النقاش بأن قال لي: أحب أن أعترف لك بشيء. قلت: ماهو؟ قال: لم أكن أظن أن أناسًا من أمثالكم يمكن أن يكون لهم مثل هذا الفكر.

للاستعمار، وإلا لكانت حاجة الفرد إلى زيادة دخله أو الارتفاع بمستوى معيشته مسوغًا لسرقته مال غيره. ولكن كما أن هذا لا يجوز خلقًا، فذاك لا يجوز خلقًا، إن الذي يقتضيه الخلق الكريم هو أن تتكرم الدول المتقدمة بمساعدة الشعوب المتخلفة مساعده إنسانية لا أن تستعمرها وتذلها وتأكل خيراتها، وتسلبها أرضها. إنه إذا كانت الشعوب التي استعمرت متخلفه ماديًا، فإن الذي يستعمرها ويأكل خيراتها متخلف خلقيًا وإنسانيًا، فأنى يكون عنصرًا ساميًا أو متفوقًا؟

فائدة: الاستعمار الغربي الجديد:

ظن الناس أن عهد الاستعمار والغزو قد انتهى، وأن دول العالم صغيرها وكبيرها ستنعم بعد ذلك بالاستقرار وتعيش في أرضها بسلام وتكون لها السيادة عليه، وأن القوانين الدولية التي تحرم التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة، والتي تحرم ما يسمى بالضربة الاستباقية على أية دولة؛ ستكون موضع احترام بين الدول التي تعد كلها أعضاء في هيئة الأمم. لكن كل هذه الأماني بدأت الآن تتبدد، وبدأت تظهر أفكار جديدة تدعو إلى استعمار جديد. من الذين دعوا إلى هذا الاستعمار الجديد شخصان مهمان أحدهما بريطاني والآخر أمريكي، تأتي أهميتهما من حيث كونهما من المنظرين القريبين من السلطة الحاكمة، وأنهم من الذين يضعون الأسس الفكرية التي تبنى عليها السياسة العملية. داعيًا الاستعمار الجديد هما البريطاني روبرت كوبر، والأمريكي هنري كيستنجر.

يوصف كوبر بأنه دبلوماسي عامل رفيع المستوى، وأنه من أهم

مستشاري رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، وأنه الذي صاغ فكرة العالمية الجديدة التي تمثل النظرة البريطانية الجديدة للعالم والتي كانت لذلك وراء مشاركة بريطانيا في ضرب أفغانستان والعراق. يرى كوبر أن الدول في العالم الآن ثلاثة أنواع، أرقاها ما أسماه بالدولة فوق الحديثة، ثم الدولة الحديثة، ثم الدولة قبل الحديثة. وتتكون الدولة فوق الحديثة من أقطار عدة اختارت أن تجتمع وتتعاون، ورضيت في سبيل هذا التعاون أن تتنازل عن كثير مما كان يعد من ضروريات السيادة في الدولة الوطنية الحديثة. فهي أقطار يعتمد بعضها على بعض وتتعامل بشفافية تقتضي أن تفتح كل منها أبوابها للتفتيش عن الأسلحة، وأن تلتزم بالقوانين التي تصدرها هيئاتها التشريعية، وأن مما تمتاز به الدولة فوق الحديثة هو أنه لن تكون بينها حروب، ولن يطمع بعضها في استعمار بعض. ويرى أن خير مثال لهذه الدولة الحديثة الاتحاد الأوروبي.

ومن الدول التي تعد حديثة أيضًا كندا واليابان وإن كان موقعها لا يساعد على استكمال مقومات الدولة الحديثة، أما عن الولايات المتحدة ففي أمرها شك؛ لأن الذي يبدو أنها لا ترى ضرورة ولا مصلحة في الاعتماد المتبادل والانفتاح ولا التدخل المتبادل بينها وبين غيرها. يلخص كوبر مزايا الدولة فوق الحديثة في المسائل التالية:

١- إزالة الفارق بين الشؤون الداخلية والشؤون الخارجية.

٢- التدخل المتبادل فيما كان يعد شؤونًا محلية لكل دولة؛ وكذلك المراقبة المتبادلة.

٣- رفض العنف وسيلة لحل المشكلات.

٤- اعتماد الأمن على الشفافية والانفتاح والنقد المتبادل واعتماد البعض على البعض.

٥- عدم أهمية الحدود.

أما الدولة الحديثة فهي الدولة الوطنية القطرية التقليدية التي تلتزم بكل مقومات السيادة الوطنية والتي تضع المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار، لكن مشكلة الدول من هذا النوع أنه يمكن أن تثور حروب بينها، أو بينها وبين الدولة فوق الحديثة، وخير مثال لهذه الدول هو الهند وباكستان.

وأما النوع الآخر من الدول فهو الدول الفاشلة التي لا تستطيع أن تضبط الأمور في حدودها، والتي تكون لذلك مطمعًا للجماعات الإرهابية المتاجرين بالمخدرات.

نأتي الآن إلى أهم ما قاله الدبلوماسي البريطاني من كلام مثير دفع بالكثيرين في بلده وحتى من حزبه إلى نقده، ويحسن أن نترجم كلامه ترجمة حرفية. قال: «إن التحدي الذي يواجهه العالم بعد الحديث هو أن يعتاد فكرة المعيارين، فيما بيننا نتعامل على أساس القوانين والتعاون الأمني المنفتح. وأما حين نتعامل مع النوع لأكثر عتاقة خارج القارة الأوروبية فوق الحديثة؛ فإننا بحاجة إلى أن نعود إلى الطرق الخشنة التي كانت سائدة في العهود الماضية العنف، الضربة الاستباقية، الخداع، وكل ما هو ضروري للتعامل مع أولئك

الذين ما يزالون يعيشون في عالم القرن التاسع عشر، عالم كل دولة لنفسها، فيما بيننا نتعامل بالقانون، أما حين نتعامل مع الغابة فيجب أن نلجأ لقوانين الغابة أيضًا»[١].

ويقول هذا الدبلوماسي في أماكن أخرى من مقاله: إن كل مسوغات الاستعمار التي كانت سائدة في القرن العشرين قائمة الآن، لكن فكرة الاستعمار بمعناه القديم صارت غير مقبولة الآن حتى في الدول الأوربية، فلا بُدّ إذن من استعمار جديد يتناسب مع القيم التي صارت سائدة الآن، قيم الحرية وحقوق الإنسان. وإذا كان الدبلوماسي البريطاني في شك من أمر الولايات المتحدة؛ فإن منظريها وصانعي القرار فيها ليسوا في شك من أمرهم.

فقد كتب هنري كيسنجر مقال هو كالمسوغ الفكري لسياسة الولايات المتحدة الجديدة، قال كلامًا فحواه: «إن كل القوانين والأعراف والهيئات الدولية القائمة الآن تمت إلى عصر قد مضى، وأنه قد طرأت الآن ظروف جديدة أهمها أن الولايات المتحدة صارت الآن هي القوة العالمية الوحيدة، وأنه لذلك لا يلزمها أن تتقيد في مراعاتها لمصالحها القومية والاستراتيجية بتلك القوانين، ولا بقرارات الأمم المتحدة. من حق الولايات المتحدة إذن أن تلجأ إلى الضربة الاستباقية التي يحرمها القانون الدولي القائم»[٢].

---

(١) The New Liberal Imperialism, Guardian Unlimited,Sunday, April ٧,٢٠٠٧.

(Http: /www.co.uk/worldvies/O.١١٥٨١.٦٨٠٠٥٩,٠٠,html).

(٢) علاقة الغرب الاستعمارية بالعالم، محاضرة في مؤتمر العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة ٢٠٠٣م.

فائدة: ماذا نفعل نحن المسلمين والعرب بخاصة إزاء هذه الأفكار الجديدة التي بدأت تكون واقعًا جديدًا؟

إن أول ما ينبغي أن نفعله هو أن نضع أمام أبصارنا قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٥٣]، ولقد كان من أكبر نعم الله علينا أن جعلنا أمة عزيزة أن جعلنا أمة عزيزة مستقلة مرهوبة الجانب قدوة تحتذي بها الأمم في كل ما يصلحها من دين وخلق وسياسة واقتصاد وتقدم علمي وتقني. ثم سلبنا الله هذه النعمة فأبدلنا بها تبعية واستعمارًا وضعفًا وتشتتًا وتخلفًا في العلوم والتقنية والقوة الاقتصادية والعسكرية. وما فعل الله ذلك بنا إلا بسبب تغيير أحدثناه في نفوسنا. ولا يمكن أن يكون التغيير الذي استتبع كل هذا العقاب الدنيوي الأليم تغييرًا طفيفًا أو جزئيًا، فما كان الله تعالى ليعذب أمة بهذا العذاب الذي نذوقه بسبب ذنب صغير أو تغيير طفيف، لقد كان التغيير إذن في الأمر الذي رتب الله عليه تلك النعمة الكبرى، أعني أمر الإيمان الاعتقادي والعملي المذكور في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

السبب الأول: لما نحن فيه من ضعف الآن هو إذن سبب يتعلق بأصل الدين، سيقول بعض الناس لكن السبب هو أننا لم نأخذ بأسباب التقدم الحديث

وأننا تفرقنا ولم نتحد وأننا وأننا... وكل هذه قد تكون أسبابًا صحيحة أيضًا، لكننا تعلمنا من كتاب ربنا أن نفرق بين الأسباب الأصلية الأولية والأسباب الثانوية التي هي بمنزلة نتائج للأسباب الأولية. لقد حدثت للمسلمين في زمان النبي ﷺ نكسات في حروبهم مع أعدائهم، وكان لتلك النكسات أسباب ظاهرة، لكن القرآن الكريم كان دائمًا يوجه المسلمين إلى الأسباب الأولية، وكثيرًا ما تكون أسبابًا نفسية. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥].

لقد كان لهذه المصيبة أسباب مادية كثيرًا ما يركز عليها الناس، وهي تحرك الرماة من المكان الذي أمرهم الله تعالى بالثبات فيه. لكن القرآن يقول في سبب الهزيمة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فإرادة الدنيا التي كانت الدافع وراء عصيان أمر الرسول ﷺ كانت هي السبب الأساسي. وكذلك الأمر في تعليل نكسة حنين. كان لها بالطبع أسباب حسية ظاهرة. لكن القرآن الكريم رد السبب إلى حالة نفسية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥]، فلنعالج السبب الحقيقي إذن. لكن معالجة السبب الأصلي لا تعني

إغفال الأسباب الثانوية فلنعتن لها أيضًا. لنعرف ما الأسباب الثانوية التي تجعل الأمة في عصرنا أمة قوية، ولا نصد عنها بالانشغال بأسباب لا علاقة لها بها. لننظر في الأسباب الحقيقية للتقدم المادي للدول الغربية، ولا نلتهي عنها بالتركيز على أحوال صاحبت ذلك التقدم لكنها لم تكن من أسبابه، بل ربما كان التقدم رغما عنها لا بها.

لكن هذه الظروف المصاحبة والتي لا علاقة لها بالتقدم المادي هي التي يزينها لنا بعض الناس ويريدون لنا أن ننشغل بها عن تلك الأسباب الحقيقية، إن من أهم الأسباب الحقيقية لتقدم الغرب الاقتصادي والعسكري هو تقدمه الهائل في مجال العلوم الطبيعية بتحقيقه لما يستدعيه هذا التقدم الذي أدى بدوره إلى التقدم الاقتصادي.

فعلينا إذن أن نأخذ بكل الأسباب التي تجعل من بعض أبنائنا علماء كبارًا في مجالات العلوم الطبيعية، وأن نعمل على توطين هذه العلوم في بلادنا لكي لا نظل أبدًا تابعين فيها للعلماء والمؤسسات الغربية. ومما يستدعيه هذا أن نهتم بالنابغين فيها من أبنائنا وبناتنا، وأن نرعاهم رعاية خاصة، ونوفر لهم كل الظروف التي تساعدهم على تكريس جهودهم لما نبغوا فيه من العلوم. ومما يساعد على هذا أن لا يكون هذا الجهد جهدًا قُطريًا بل عملًا عربيًا ثم إسلاميًا مشتركًا.

أقول: عربيًا أولا لكي تكون لغة هذه العلوم كلها عندنا هي اللغة العربية

الفصيحة. ليس من العسير أن نحول هذا الكلام العام إلى مشروعات مفصلة متجددة تحقق لنا ما نريد. ولما كان هذا الذي نسعى إليه هو تطورونا بوصفنا أمة مسلمة؛ فلا بُد أيضًا من الاهتمام بالنابغين من أبنائنا وبناتنا في مجالات العلوم الإسلامية والعربية. وأن يكون من هؤلاء المختصون في كل العلوم الاجتماعية الحديثة من قانون وعلم اجتماع وعلم نفس وإعلام واقتصاد وفلسفة وغير ذلك، حتى تكون هذه العلوم في إطار إسلامي لا إطار إلحادي كما هي الحال في العلوم الغربية، بل إن ذلك وهذا لا يتحققان إلا إذا كانت هنالك ثقافة مشتركة بين الفريقين أعني أن يكون لعلماء الطبيعة من أبنائنا وبناتنا إلمام بالثقافة الإسلامية.

وأن يكون للمختصين بالعلوم الإسلامية والاجتماعية إلمام بالثقافة العلمية الطبيعية حتى يتمكن الفريقان من فهم بعضهم بعضًا، لكن هذا الجهد لا يؤدي ثماره كاملة ويجعل منا أمة متقدمة دينًا وخلقًا وعلمًا وتقنيًا واقتصاديًا إلا إذا كان جهدًا مشتركًا لا أمرًا يقوم به كل قطر مستقلًا عن الأقطار الأخرى.

لماذا لا تكون من الدول التي وصفها كوبر بالدول بعد الحديثة؟

فإذا كانت الدول الغربية قد اجتمعت رغم اختلاف لغاتها، فلماذا لا نجتمع نحن أصحاب اللغة الواحدة؟ وإذا كانت قد تصالحت رغم ما كان بينها من حروب طاحنة، فلماذا لا نتصالح نحن الذين لم تكن بيننا مثل تلك الحروب؟ وإذا كانوا قد ائتلفوا رغم ضعف استمساكهم بدينهم، فلماذا لا نأتلف نحن الذين لم يبلغ ضعف استمساكنا مبلغهم؟ وإذا كانوا قد رأوا في

الاجتماع حاجة رغم قوة كل دولة منهم، فلماذا لا تشعر دولنا الضعيفة بحاجتها إلى الاجتماع؟ وإذا كانوا قد رضوا بأن يبدأوا في التخلي عن مقتضيات الدولة القطرية الوطنية التي كانوا هم مخترعيها، فلماذا لا نرضى نحن في سبيل قوتنا بالبدء في التخلي عنها وقد كانت أمرًا فرضه الغرب علينا لم تكن له جذور في ديننا ولا تاريخنا؟

ومما يساعدنا كذلك أن الأفكار التي عبر عنها كل من كوبر وكسنجر وأضرابهما لها معارضون أشداء في البلاد الغربية فلنوثق صلتنا بها ولنتبادل الرأي معهم ولنحرص علة كسب مناصرتهم، ولكن إذا كان كل ما ذكرنا مما يساعدنا على الاجتماع والتعاون بل الاتحاد، فلا بُدّ من الاعتراف بأن هناك عوامل لا تساعد عليه:

- منها أن الغرب لا يريد لنا هذا الاجتماع والتقدم ولا يراه في مصلحته، وأن ضعف أقطارنا يجعل الكثير منها يتردد في الإقدام على أمر لا ترضى عنه تلك الدول.

- ومنها أن العلاقات الاقتصادية بين كل قُطر من أقطارنا والدول الغربية استمر إلى مدة طويلة تجعل تحويله من علاقة قطرية إلى علاقة قومية أمرًا صعبا.

- ومنها أن مستويات دولنا الاقتصادية متفاوتة جدًّا تجعل من العسير على الدول الغنية نسبيًا أن تفتح أبوابها؛ لأن تتعاون تعاونًا كاملًا مع الدول الأكثر فقرًا

لكن إذا اقتنعنا بأننا أمة واحدة، وأنه لا مفر لنا من أن تجتمع ونتعاون إذا أردنا أن نعيش في عالم التكتلات؛ فلننظر إلى الأقطار الأقل تقدمًا كما ننظر إلى المناطق المتخلفة في داخل القطر الواحد فنعمل على مساعدتها والرقي بها؛ لأن في ذلك مصلحة لنا جميعا، لكن كل هذا لا يمنع من بداية السير في الطريق، ومن سار على الدرب وصل.

مصادر محاضرات الحضارة

١- أزمة الحرية والتخلف السياسي في العالم الإسلامي[١]:

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن الأسباب التي جعلت الدول العربية تأخذ العلمانية -بمعنى فصل الدين عن الدولة- ولم تأخذ العلمانية بمعنى الديمقراطية؟ الديمقراطية التي تأتي فيها الحكومات بالانتخابات والتي يكون فيها حرية التعبير، وحرية التنظيم، واستقلال القضاء...الخ

٢- الأصولية والعلمانية والديمقراطية (وجهة نظر إسلامية)[٢]:

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن المقصود بالأصولية في المفهوم النصراني، وأنها تختلف عنها في الإسلام، وأنها تقتضي في الإسلام أمرًا لا تقضيه الأصولية النصرانية، إنها تقتضي أن دولة المسلمين يجب أن تكون خاضعة لأحكام الدين، وعلى هذا فهناك إذًا منافاة جذرية بين الإسلام والعلمانية ثم ذكر الأسباب لذلك، ثم ذكر تعلات العلمانيين في إنكار الربط بين السياسية والدين، ثم ختم مقاله بالرد على الادعاء بأن محاربة الأصولية إنما هي من أجل الديمقراطية، والتعددية.

---

(١) محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

(٢) محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

٣- الحضارة المعاصرة في الميزان[١]:

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن مكونات الحضارة الغربية وتقويمها على ضوء التصور الإسلامي، كما اشتملت المحاضرة على حوار وإجابة على أسئلة المبتعثين حول الحضارة المعاصرة.

٤- الغزو الفكري[٢]:

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن بعض القضايا في الفكر الغربي والتي منها قضية الاعتقاد بأن الموجود هو الشيء المادي، واستغرق النقاش في هذه القضية معظم وقت اللقاء.

٥- صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية[٣]:

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن صراع الحضارات، وبدأ حديثه بتعريف الحضارة، ثم تحدث عن الحضارات بهذا المعنى التي تتصارع في عصرنا، ثم ذكر الشيخ بأننا نستطيع أن نقول إنه ليس هنالك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية؛ لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية.

---

(١) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة.

(٢) وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

(٣) قُدم هذا البحث لمؤتمر عقدته مجلة البيان بقاعة الصداقة بالخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣هـ - الموافق ٢٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٢م.

فما مشكلتنا مع الحضارة الغربية إذن؟ مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها.

٦-مزالق الإيمان بالديمقراطية[١]:

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن معنى الديمقراطية بمعناها المعروف بين كبار المفكرين الغربيين من كان منهم مؤمنًا بها أو منكرًا لها، منذ عصر اليونان إلى يومنا هذا. الديمقراطية بهذا المعنى هي حكم الشعب، ثم ذكر الشيخ أن حديثه عن مزالق الإيمان بالديمقراطية، لا عن العمل بالديمقراطية أو تطبيقها. لماذا؟ لأن الديمقراطية بحسب تعريفها العلمي الذي ذكرناه، نظرية يستحيل العمل بها أو يتعذر إلا في مجموعات لا تتجاوز بضع عشرات من الآلاف من الناس، ثم ذكر الشيخ مزالق الإيمان بالديمقراطية.

٧-ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟[٢]

يتحدث الشيخ وفقه الله في هذا البحث عن قوى الحضارة الغربية:

١ - القوة الصلبة.

٢ - القوة اللينة.

---

(١) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم في السودان.

(٢) وهو بحث قدم لمؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير الذي نظمته وزارة الإرشاد والأوقاف بالسودان في الخرطوم عام ٢٠٠٣م.

٨-علاقة الغرب الاستعمارية بالعالم[١]:

تحدث الدكتور في هذا البحث عن علاقة الغرب الاستعماري بالعالم وقسم الدكتور الاستعمار القسمين:

الاستعمار الغربي القديم وذكر مسوغات الاعتداء على الشعوب وأراضيها والتي منها:

أولًا: العنصرية.

ثانيًا: احتقار الشعوب الأخرى.

ثالثًا: نشر المسيحية.

رابعًا: التنافس والتكاثر بين الدول الغربية.

وخامسًا: الضرورات الاستراتيجية التي أدى إليها ذلك التنافس بين الدول المستعمرة.

وسادسًا: الطمع المادي وذكر الدكتور أن هذه المسوغات كلها غير مقبولة خلقًا وغير قائمة على أسس علمية.

الاستعمار الغربي الجديد وذكر الدكتور أبرز منظري الاستعمار الجديد وهما البريطاني روبرت كوبر والأمريكي هنري كسنجر.

ويرى كوبر أن الدول في العالم ثلاثة أنواع: أرقاها ما اسماه بالدولة فوق

---

(١) وهو بحث مقدم إلى مؤتمر العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة والتي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ٢٠٠٣م.

الحديثة ثم الحديثة ثم قبل الحديثة، ويلخص كوبر الدولة فوق الحديثة في المسائل التالية: إزالة الفوارق بين الشؤون الداخلية والشؤون الخارجية، التدخل المتبادل فيما كان يعد شؤونا محلية لكل دولة، رفض العنف وسيلة لحل المشكلات، اعتماد الأمن على الشفافية والانفتاح، عدم أهمية الحدود.

ثم يختم الدكتور بحثه بالسؤال ماذا نفعل نحن المسلمين والعرب من بخاصة إزاء هذه الافكار الجديدة التي بدأت تكون واقعًا جديدًا؟ وذكر الدكتور أن هناك سبب أساسي يتعلق بالدين وأسباب أخرى تتعلق بالتقدم المادي.

فوائد كتب ودراسات الحضارة

فائدة: دعاة التأسي بالغرب في العالم الإسلامي:

في العالم الإسلامي اليوم دعوة إلى التأسي بالغرب لا في تقدمه العلمي أو الصناعي فحسب، ولكن في مناهجه الفكرية وأساليب حياته أيضًا. وأصحاب هذه الدعوة لا يريدوننا بالطبع أن نقلد الغرب في مسيحيته أو يهوديته أوخرافاته اليونانية، وإنما يريدون لنا أن نأخذ عنه ما يعتبرونه سبب في تقدمه العلمي وتفوقه، فالغرب تفوق بزعمهم لأخذه بمبدأ فصل الدين عن الدولة، أو لإطلاقه الحرية للإنسان يفكر ويعبر ويسلك كيف شاء، أو لاتباعه المنهج التحليلي، أو لقدرته على التجربة أو لتركيزه على الواقع المشاهد، بينما نحن لا نزال نعاني من عقابيل المنهج التكاملي، والعجز عن التجريد، والاستغراق في الغيبيات، وتقييد الفكر والتعبير والسلوك بقيود الدين والخلق والاعراف... الخ[1].

فائدة: أسس المذهب المادي:

فيما يلي نحاول أن نعدد العقائد الأساسية التي يدين بها الماديون، ولكن ينبغي أن نذكر أنه إذا كان بعضهم يؤمن بكل هذه العقائد فما كلهم يفعل ذلك، فالبعض منهم يؤمن ببعضها وينكر أو يتوقف في الإيمان بسائرها.

---

(١) الأسس الفلسفية للمذهب المادي، بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

والعقائد هي:

أولًا: لا موجود إلا المادة.

ثانيًا: المادة أزلية لم تخلق ولا تفنى.

ثالثًا: كل ما في الوجود من أشياء تكونت بمحض المصادفة من حركات هذه المادة الأزلية.

رابعًا: وإذن فلا إله ولا ملائكة ولا جن وإذن فالأديان كلها باطلة.

خامسًا: وإذن فلا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء.

سادسًا: طبيعة كل شيء وخصائصه إنما هي نتيجة تركيب معين لذرات هذه المادة.

سابعًا: كل ما نسميه عقلًا أو نفسًا أو روحًا أو فكرًا إنما هو شكل من أشكال المادة.

ثامنًا: تشكيلات المادة وحركاتها خاضعة لقوانين الطبيعة لا تختلف وبها يمكن أن نفسر كل الظواهر الطبيعية، والحالات النفسية، والحوادث التاريخية، من غير حاجة إلى الإيمان بقوة وراء الكون تحفظه وتسيره.

تاسعًا: المادية مذهب علمي وليس مجرد إيديولوجية كسائر الإيديولوجيات والفلسفات والأديان.

عاشرًا: الإنسان سيد نفسه ومالك مصيره فهو وحده المسئول عن أن يشرع

لنفسه في السياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر نواحي حياته. وهذا هو المقصود بعبارة Humanism (الإنسية)[١].

فائدة: نقض عبارة لا موجود إلا المادة:

هذه العبارة هي التي تكاد أن تكون المبدأ المشترك بين كل الماديين - ما الدليل عليها؟

أ- أهي نتيجة بحث علمي استقرائي للكون أثبت أنه لا يوجد فيه إلا ما هو مادي؟ كلا فإن شخصًا يلتزم بالمنهج العلمي لا يمكن أن يدعي هذه الدعوى العريضة فما أحد يستطيع أن يستغرق ببحثه وتفتيشه الكون كله ليصل إلى مثل هذه النتيجة.

ب- قد يقول المادي أن ما ذكرتموه (في الفقرة السابقة) حجج، ولكن الذي أعنيه أنا بهذه العبارة: هو أنني وغيري من العلماء والماديين فتشنا بقدر طاقتنا ووسعنا فلم نجد في الكون شيئًا غير مادي، ولكن إذا كان هذا ما يعتقده فكان ينبغي أن يصير دقيقًا فيعدل العبارة لتصير (نحن لا نعرف موجودًا غير مادي)، أما أن يستنتج من عدم علمه بوجود غير المادة أنه غير موجود فهو استنتاج باطل، وقديما قال علماؤنا: «عدم العلم ليس علمًا بالعدم».

جـ- وأما إذا عدل عبارته كما اقترحنا لتصير «نحن لا نعرف موجودًا غير

---

(١) الأسس الفلسفية للمذهب المادي، بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

مادي» فإنه يهدم الأساس الذي تقوم عليه المادية، إذ أن العبارة الجديدة لا تنفي وجود أشياء غير مادية بل تترك الباب مفتوحًا للبحث عنها وفيها.

د- قد يقول المادي أن من الأسباب القوية لإيماني بالعبارة في شكلها الأصلي أن الذين يؤمنون بموجودات غير مادية لم يفلحوا في التدليل العقلي أو العلمي على وجودها، وأنا لا أستطيع أن أؤمن بشيء لا دليل لي على وجوده من عقل أو حواس، ونقول له: إذا كان من تعرفه من المؤمنين في بيتك مؤمنين بغيب لا يملكون وسائل إثباته العقلية أو العلمية، فما كل المؤمنين بالغيب كذلك، وما كل الأديان تستوي في ذلك، فنحن ندين بدين يقيم الأدلة العقلية القاطعة على صدق مبادئه الأساسية، ثم أن هنالك مسألة في غاية الأهمية فالذي يقول عن شيء ما أنه موجود أو غير موجود أو أنه لا موجود غيره ينبغي أن يكون لديه تصور معين له بحيث نستطيع أن نتثبت بالبحث الحسي أو العقلي من صحة دعواه.

الماديون يقولون أنه لا موجود إلا المادة، ولكن ما هي هذه المادة التي لا موجود غيرها؟ لقد ظل الماديون كما سنرى يتراجعون القهقري في تصورهم أو تعريفهم للمادة. فكلما قالوا أنها كذا وكذا ثبت أن ما وصفوه ليس بالموجود الوحيد. قالوا أولا كما يقول عوامهم اليوم أن المادي هو الذي تدركه الحواس وما لا تدركه فهو غير مادي وبالتالي غير موجود، وأرادوا بذلك أن يقولوا أن الله تعالى وملائكته لا يدركون بهذه الصفة فهم غير موجودين، ولكن تصورهم هذا لا ينفي وجود الله تعالى فحسب، بل ينفي معه وجود الفكر والعقل والمشاعر

الخ وهي أشياء يدركها كل منا، ويدرك أنها ليست مادية بهذا المعنى، لقد حاول الماديون السابقون أن يجدوا مبررات تخرجهم من هذا المأزق فحاولوا أن يقولوا أن الفكر صورة من صور المادة، ولكن هذا أيضًا لا يجدي لأنه إذا كان الفكر وهو شيء غير محسوس صورة من صور المادة، إذن فالمادة يمكن أن تكون غير محسوسة.

وقال آخرون: إن الفكر أثر من آثارها وليس صورة من صورها، ولكن هذا أيضًا لا يجدي لأنه يعني أن في الوجود أشياء غير مادية ولن يغير من الحقيقة شيئًا كونها أثرًا من آثار المادة، المهم أن في الوجود أشياء غير مادية وهذا متناقض مع الأساس الأول للمذهب المادي الذي يقول بأنه لا موجود إلا المادة، ولكن العلم الحديث زاد من إحراج الماديين.

فالعلماء يتعاملون مع أشياء لا يصدق عليها وصف المادة بذلك المفهوم الذي يعتبر المادي هو الذي تدركه الحواس، إن الذرات وجزئياتها لا تدرك بالحواس وبعضها كما سنرى لا كتلة له. فهل نقول أن العلم يتعامل مع كائنات وهمية؟ هذه نتيجة لا يرتضيها الماديون؛ لأن مذهبهم يعتمد على دعوى التوافق بينه وبين العلم. فكيف الخروج من هذا المأزق إذن؟

اقترح (لينين) تعريفًا جديدًا للمادة يواكب في رأيه كل تطور علمي. المادي في رأيه هو كل شيء يوجد وجودًا موضوعيًا أي أنه الشيء الذي لا يعتمد في وجوده على عقلنا أو على وعينا به، هذا التعريف اللينيني للمادة يخرج الماديين فعلًا من مأزق مخالفة العلم ولكنه يوقعهم في مأزق موافقة

الدين. أنهم كما رأينا يريدون أن يعرفوا المادة تعريفًا تكون نتيجته أن الله تعالى ليس موجودًا ولذلك قالوا أولا أن المادي هو المحسوس وبما أن الله غير محسوس فهو غير موجود.

ولكن هذا التعريف أخرج -كما رأينا- من دائرة الموجودات أشياء يتعامل معها العلم. ثم جاء تعريف لينين ليدخل هذه الأشياء العلمية ولكنه أدخل معها - من غير أن يشعر - أشياء دينية. كيف؟ أن الله تعالى لا يعتمد في وجوده على وعينا به. هذه من البدائه الدينية، فالله هو خالق الإنسان وخالق وعيه وكان الله تعالى ولم يكن إنسان. ويبقي وكل من عليها فان، فإذن وجوده لا يعتمد على شيء سواه فضلًا عن أن يعتمد على وعينا به.

فتعريف (لينين) للمادي يدخل فيه وجود الله تعالى، لعل السبب في أن (لينين) لم يلتفت إلى المأزق الذي وقع فيه وهو اعتقاده بأن كل من لا ينتمي إلى المذهب المادي فهو مثالي، والمثالي هو الشخص الذي يعتقد بأن الوجود الحقيقي للإنسان إنما هو وجود عقلي، وأن وجوده الموضوعي الخارجي تابع لهذا الذهني ومعتمد عليه. ولكن هذا أن كان مذهبًا لبعض شذاذ الفلاسفة فهو ليس المذهب السائد عند جماهير المؤمنين.

فالمؤمن بالله تعالى ليس مثاليًا بهذا المعنى بل هو واقعي يؤمن بأن الأشياء لا تعتمد كلها في وجودها على كونها مدركة لعقل من العقول[1].

---

(١) الأسس الفلسفية للمذهب المادي، بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

فائدة: نقض دعوى أزلية المادة:

إن تطور -أو بالأحرى تقهقر- فكرة أزلية المادة من أطرف ما يقرأ الإنسان في دحض الإدعاء بأن العلم التجريبي يسند قضية الإلحاد إذ الواقع عكس ذلك تمامًا، فتطور هذا العلم يؤازر قضية الإيمان ويضعف، بل يقوض أهم الأسس التي يقوم عليها الإلحاد وهو الزعم بأن المادة أزلية لا بداية لها، أبدية لا فناء لها. ولكن ما هي هذه المادة الأزلية؟ ظل الماديون طوال القرون في أمر مختلف بالنسبة لأزلية المادة، فقد ظنوها بادئ الأمر هذه النجوم والكواكب الضخمة التي يشاهدون والتي يخيل لمخلوق ضعيف معدود الأيام كالإنسان أنها أزلية؛ لأنها فيما يظن بقيت على حالها التي عرفها آباؤه وأجداده، وكل البشر قبله.

فما المانع إذن من أن كانت على هذه الحال منذ الأزل؟ وما المانع من أن تظل هكذا إلى الأبد؟

وإذا كانت أزلية فإنها لا تحتاج إلى خالق وهذا ما عناه الفلاسفة القدماء من أمثال أرسطو حين قالوا بقدم العالم، وإذا كان الفلاسفة القدماء من أمثال أرسطو حين قالوا بقدم العالم، وإذا كان الفلاسفة قد قالوا بقدم هذه الأجرام السماوية فإن آخرين -منهم البابليون الذين جادلهم سيدنا إبراهيم- قد قالوا بألوهيتها وعبدوها، وقد كان المفكرون المتدينون فيما مضى يجهدون أنفسهم في استخراج الأدلة العقلية على بطلان هذه الفكرة من ذلك قول الغزالي في

تهافت الفلاسفة[1].

«ما تمسك به جالينوس إذ قال لو كانت الشمس مثلًا تقبل الانعدام لظهر فيها ذبول في مدة مديدة، والأرصاد الدالة على مقدارها منذ آلاف السنين لا تدل إلا على هذا المقدار، فلما لم تذبل في هذه الآماد الطويلة دل على أنها لا تفسد».

الاعتراض عليه من وجوه:

الأول: إن شكل هذا الدليل أن يقال إن كانت الشمس تفسد، فلا بُدّ أن يلحقها ذبول، لكن التالي محال -وهذا قياس يسمى عندهم الشرط المتصل- وهذه النتيجة غير لازمة؛ لأن المقدم غير صحيح... ولا نسلم له أنه لا يفسد الشيء إلا بالذبول، فالذبول هو أحد وجوه الفساد ولا يبعد أن يفسد الشيء بغتة وهو على حال كماله.

الثاني: أنه لو سلم له هذا، وأنه لا فساد إلا بالذبول، فمن أين عرف أنه لا يعتريها الذبول؟ أما التفاته إلى الأرصاد فمحال؛ لأنها لا تعرف مقاديرها إلا بالتقريب، والشمس التي يقال أنها كالأرض مائة وسبعين مرة أو ما يقرب منه[2]، لو نقص منها مقدار جبال مثلًا، لكان لا يتبين للحس، فلعلها في الذبول وإلى الآن قد نقصت مقدار جبال فأكثر والحس لا يقدر على أن يدرك ذلك؛ لأن تقديره في علم (المناظر) لا يعرف إلا بالتقريب.

وهذا كما أن الياقوت والذهب مركبان من العناصر عندهم وهي قابلة

---

(١) تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م (ص:١١٢).

للفساد، ثم لو وضعت ياقوتة مائة سنة، لم يكن نقصانها محسوسًا. فلعل نسبة ما ينقص من الشمس في مدة تاريخ الأرصاد كنسبة ما ينقص من الياقوتة في مائة سنة؛ وذلك لا نظير للحس فدل أن دليله في غاية الفساد.

وهذا الذي ذكره الغزالي احتمالًا قد أثبته العلم الآن يقينًا، فمن المُسلَم به الآن أن الإشعاع الصادر عن الشمس من كتلتها، وإن كان القدر الذي ينقصه ضئيل جدًّا «تحويل ١٪ من كتلة الشمس من الهيدروجين إلى الهيليم يمدها بطاقة تكفي لإبقائها مضيئة لمدة ١٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ عامًا»[1].

وإذا كانت كل هذه الأجرام الكبيرة من شمس وأرض وسائر النجوم والكواكب ليست أزلية بل أن لها تاريخًا -ولها بالضرورة نهاية فما هو الأزلي إذن؟ أهو العناصر التي تتكون منها هذه الأجسام من ذهب وحديد وهيدروجين وهيليوم... الخ؟ ربما كان هذا هو المظنون بادئ الأمر ولفظة عنصر تشير إلى هذا المعنى، ولكن العلم في تطوره اكتشف أن هذه العناصر هي بدورها مركبة من جزئيات وأن الجزئيات مركبة من ذرات.

فهل الأزلي هو هذه الذرات؟

هكذا ظن العلماء إلى ما بعد زمان نيوتن بسنين، فالذرة كانت تسمى بالجزء الذي لا يتجزأ وكان المظنون أنها جسم صغير مستدير مصمت لا فجوات فيه فلا أجزاء له، ولكن العلم أبطل هذا الظن أيضًا فقد تبين أن الذرة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية، طبعة ١٩٦٣م.

نفسها مركبة من أجزاء أخرى عرفنا منها أولا الإلكترون والنيوترون والبروتون، ثم تبين أن ما تحت الذرة من أجزاء أكثر من هذا بكثير فقد وصل تعدادها حتى الآن إلى ما بعد المائة بقليل.

قد يقول قائل وإذن فقد وصلنا أخيرًا إلى المادة الأزلية، إلى الجزء الذي لا يتجزأ أنه هذه الأجزاء التي تكون الذرة.

والرد على هذا من ناحيتين:

أولاهما: أنه قول بغير علم إذ ليس في أجزاء الذرة ما يستدل به على أزليتها بل أن بعض العلماء يعتقد أنها هي الأخرى مركبة وهم يبحثون عن مكوناته.

ثانيًا: إذا كان الشيء أزليًا لا بداية له فهو بالضرورة مستغن عن غيره، أعنى أنه لا يعتمد في وجوده ولا استمرار وجوده على غيره، وإذا كان الشيء قائمًا بنفسه مستغنيًا في وجوده عن غيره فأنه لا يفني ولا يتغير ولا يتبدل. لماذا؟

لكني نجيب على هذا السؤال يحسن أن نسأل سؤالًا آخر هو متى يفني الشيء وينتهي من الوجود؟

خذ مثلًا عود ثقاب وأشعله، أنه يستمر مشتعلًا لمدة ثوان ثم ينتهي. فلماذا أنتهى؟ انتهى إما لأن العود الذي كان يمده بالوقود قد احترق كله وأما لأن الأكسجين قد انتهى، وأما لأن أحدًا نفخه نفخًا شديدًا فأبعد الشعلة عن العود وأما... وأما.

ملخص القول: أن الشعلة انقضت حين تخلف شرط من شروط وجودها،

فالشعلة لا تستمر متقدة إلا إذا وجدت وقودا فالوقود إذن شروط ضروري لوجودها ولا تستمر إلا إذا وجدت الأكسجين فهو إذن شرط ضروري لوجودها وهكذا.

نعود إلى سؤالنا: متى يفنى الشيء؟ والجواب الآن واضح أنه يفنى إذا تخلف شرط من شروط وجوده.

ولكن هذا يعني أن الشيء الذي يفني هو بالضرورة شيء يعتمد في وجوده على غيره فهو إذن غير مستغن بنفسه، ولكنا قلنا أن الشيء الأزلي من الضروري أن يكون مستغنيًا بنفسه، وإذن فكل شيء جاز عليه الفناء استحالت عليه الأزلية. وإذن فإذا أردنا أن نختبر شيئًا ما لنعرف ما إذا كان أزليًا أم لا، فما علينا إلا أن نتساءل أهو شيء يمكن أن يفنى وينقضي.

فإذا كان الجواب نعم، فالنتيجة أنه غير أزلي، والآن هل نعرف مادة معينة يصدق عليها القول بأنها لا تفنى؟

لقد رأينا أن المادة في شكل أجسام كبيرة وفي شكل عناصر وفي شكل جزئيات وذرات قابلة للفناء، بل إنها لتفني فعلًا واستدللنا بذلك على أنها لا يمكن ان تكون أزلية. ولكن ماذا نقول عن أجزاء الذرة؟ إن العلم كما قلنا لم يثبت بعد أن لها مكونات ولكنه أثبت ما هو بالنسبة لموضوعنا أهم من ذلك، لقد أثبت أن هذه الأجزاء قابلة؛ لأن تتحول إلى طاقة وأن الطاقة نفسها قابلة؛ لأن تتحول إلى مادة، ولكن قابلية التحول هذه تعني أن بقاءها في هيئتها المعينة

كان معتمدًا على ظروف خارجة عن ذاتها فلما زالت تلك الظروف زالت تلك الهيئة، إذن فهي ليست معتمدة في وجودها على نفسها، إذن فقد استحال أن تكون أزلية. إذن فالمادة في كل شكل من أشكالها المعينة قابلة للفناء فهي إذن حادثة. إذن فالمادة تستحدث وتفني... ولكن هذه النتيجة تخالف تلك الكلمة التي حفظها الطلاب منذ المرحلة الثانوية وصورت لهم على أنها الدعامة التي يقوم عليها البناء العلمي كله، بل على أنها هي نفسها حقيقة علمية لا شك فيها، أعني قولهم المادة لا تستحدث ولا تفنى[1].

فائدة: خطأ عبارة أن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم:

الذي لا شك فيه أن العبارة غير صحيحة وأن العلم لا يحتاج إليها، وأنها ليست من نتائجه ولا قواعده، وإنما هي عقيدة فلسفية يونانية تزيت بزي العلم وجازت على كثير من الناس وإليك بيان هذا كله:

١ - أما أن العبارة غير صحيحة فهو أمر قد فرغنا منه من قبل حيث أثبتنا أن المادة في كل شكل من أشكالها المعينة التي يمكن أن تشير إليها -ليست أزلية بل هي قابلة للتحلل أو التحول إلى مواد أو طاقات أخرى، وكل ما يتحلل أو يتحول فليس بأزلي غير حادث بل هو بالضرورة حادث، إذن فالمادة المعينة حادثة فانية.

---

(١) الأسس الفلسفية للمذهب المادي، بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

لقد كررت عبارة المعينة لأميز بين المادة التي نشاهدها أو نعرف آثارها ونتعامل معها في حياتنا اليومية أو في مجالاتنا العلمية والمادة الفلسفية الذهنية التي لا وجود واقعيًا لها، وكثيرًا ما يخلط طلاب العلوم بل وكبار العلماء بين المادتين فيتحدثون عن المادة الذهنية الفلسفية في الوقت الذي يريدون الحديث عن المادة الواقعية، إذا قلت لإنسان له إلمام بعلم الكيمياء أو الفيزياء أن المادة تفنى وضربت له مثالًا على ذلك بموته هو مثلًا أجابك على الفور أنني لم أفن وإنما تحولت إلى مواد أخرى، فإذا قلت له ولكن هذه المواد الأخرى أيضًا تفنى قال محتجًا، ولكنها هي بدورها تتحول إلى مواد أخرى. فإذا استمررت قائلًا وهذه بدورها تفني وما تتحول إليه يفنى ظل مصرًا على رأيه بأن هنالك وراء كل هذا مادة لا تفنى، فإذا قلت له وما هي؟ لم يستطع أن يجيبك؛ لأنه في الحقيقة لا يتحدث عن مادة واقعية وإنما يتحدث عن مادة ذهنية فلسفية، ولكي يتضح لك هذا أضرب لك مثالين فقط:

أولًا: هب أنه مات لامرأة طفلها العزيز فهل يعزيها أن تقول لها أن ابنك لم يتته ولم يفن وإنما تحول إلى مادة أخرى؟ بالطبع لا. لماذا؟ لأن الذي فقدته وأسيت على فقده هو مادة في صورة معينة وخصائص معينة ومما لا شك فيه أن هذه المادة إذا افترضنا جدلًا أن الإنسان مادة فحسب قد فنيت وانتهت. وما يقال عن الإنسان يقال عن كل مادة معينة أخرى فكل مادة في شكل معين لها خصائص تعرف بها فإذا تحللت أو تحولت زالت هذه الخصائص فزالت بزوالها تلك المادة التي كنا نعرفها؟

إذن فكل مادة ذات خصائص وصفات معروفة فهي قابلة كما تدلنا التجارب العلمية على التحلل أو التحول. فما هي المادة الأزلية إذن؟ إنها المادة التي لا خصائص ولا صفات لها ولكن هذه مادة موجودة في الأذهان ولا وجود لها في الأعيان ونحن في حياتنا اليومية والعلمية إنما نتعامل مع مادة عينية لا مادة ذهنية. ولكي يصير الأمر أكثر وضوحًا فهب أنه لا وجود للمادة إلا في ثلاثة أشكال فقط هي م١، م٢، م٣، وأن كل واحد من هذه قابل؛ لأن يتحول إلى الآخر فإذا انتهى م١ صار م٢ أو م٣، وإذا انتهى م٢ صار م١ الخ فما هي المادة الأزلية؟ أنها ليست م١ وليست هي م٢؛ لأن م٢ قابل لأن يصير م١ وليست م٣.

وبما أن كل واحد منها قابل للتحول والفناء فكل واحد منها مستحدث. وإذا افترضنا أن فناء كل واحد منها إنما يعني تحوله إلى أحد الأشكال الأخرى فكل ما نستطيع أن نقوله أنه لن يزال في الوجود م١ أو م٢ أو م٣ وأن هذه الثلاثة لا تفني كلها جميعًا، ولكن هذا نفسه يعني وبالضرورة أنها تعتمد في وجودها على غيرها؛ لأن تحولها من شكل إلى آخر يدل على أنها ليست مستغنية بنفسها بل معتمدة على غيرها.

ثانيًا: إذا أحرقت رطلًا من الورق ثم وزنت رماده فوجدته أوقيتين فقط فأين تكون ذهبت العشر أوقيات؟إن الرجل الذي لا معرفة له بالكيمياء أو الفيزياء قد يظن أن كمية المادة الموجودة في العالم نقصت بمقدار عشر أوقيات، ولكن آلاف التجارب التي نجريها تثبت أن هذا الظن غير صحيح؛ لأننا إذا جمعنا كل المواد التي تحلل إليها الورق المحترق ووزناها في نفس المكان

الذي وزنا فيه الورق كان الوزن رطلًا كاملًا، وإذا حللنا تلك المواد إلى أخرى واستطعنا أن نجمعها ونزنها في نفس المكان كان وزنها أيضًا رطلا كاملًا.

وهذا هو الذي دعا العلماء إلى افتراض أن كمية المادة الموجودة في العالم ثابتة. وعبارة «المادة لا تستحدث ولا تفنى» المقصود منها أنها تعبر عن هذا المبدأ ولكنها كما ترى لا تقتصر على تقريره وإنما تقول أكثر منه بكثير.

وهذه الزيادة التي تقررها العبارة لا يحتاج إليها العلم وهي التي تخالف الدين. فهي لا تقتصر على القول بأن كمية المادة ثابتة، ولكنها تقول: أن هذا الثابت هو مادة أزلية لم تخلق ولا تفني والفرق بين الاثنين كبير كما أن من الواضح أن أولاهما لا تستلزم الثانية.

يقول الأستاذ أنتوني كونتيون ناقدًا هذه العبارة: «الحقيقة أن مبدأ ثبات كمية المادة لا يتضمن القول بمذهب ذري متكامل لأشياء أزلية. إن حسابًا جاريًا بالمصرف قد يبقى كما هو لا يتغير إذا كانت كل المسحوبات تعوض حالًا بإيداعات، وحجم الماء بالصهريج قد يظل كما هو إذا كان الماء المصبوب فيه من جانب مساويًا للماء الخارج عنه من الجانب الآخر، وقد أوضحت هذا بعض التأملات الكونية الحديثة، فنظرية الخلق المستمر تقول: أنه بالرغم من أن الطاقة تفني بالفعل في عمليات التحولات الذرية تحت درجات الحرارة الهائلة فإن هذا النقص يعوض بخلق طاقة جديدة في مكان آخر»[1].

---

(١) الأسس الفلسفية للمذهب المادي، بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

فائدة: كل ما نسميه عقلًا أو نفسًا أو روحًا أو فكرًا إنما هو شكل من أشكال المادة (إذا كان المقصود بهذا أن العقل والنفس والروح والفكر أشياء مادية محسوسة أو معلومة القدر والعدد).

إذا كان المقصود أن هذه الظواهر متصلة بأشياء مادية كالكائنات الحية فهو بالطبع صحيح ولكنه لا يخدم للماديين قضية، وإذا كان المقصود أن هذه الأشياء كلها لا توجد إلا متصلة بهذه الكائنات المادية بالطريقة التي نعدها فهو قول بغير علم. ثم ماذا يعني أن نقول أن العقل مثلًا شكل من أشكال المادة مادامت المادة نفسها لم تعد (مادية) بالطريقة الغليظة التي كان يتصورها غلاة الماديين؟[1].

فائدة: دعوى بأن المادية مذهب علمي:

من الحيل المعروفة على مدى التاريخ أن المدافعين عن المذاهب الباطلة والأفعال الفاسدة والسلع الضارة لا يسمون أشياءهم بمسمياتها بل يلبسونها زورا أزياء زاهية جذابة، ولما كان العلم الطبيعي سلعة رائجة في زماننا فإن كل صاحب مذهب باطل يحاول أن يلتجئ إليه ويلوذ بحماه ولكن هيهات.

فالمادية كما قدمنا مذهب تقوم قاعدته الأولى على مجرد الدعوى التي لا يسندها دليل بل التي يبطلها الدليل، فأين العلم ممن هذا؟ والمادية كما

---

(١) الأسس الفلسفية للمذهب المادي، بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

أوضحنا مذهب يسير العلم في خط مضاد له، فالعلم هو الذي ما فتئ يبطل تعريفاتهم للمادة حتى ما يستطيعون أن يقولوا ما هي هذه المادة التي يريدون لها الاستغناء عن الخالق الذي جاءت بالدعوة إلى الإيمان به رسل الله تعالى، والعلم هو الذي هدم دعواهم بأزلية الأجرام السماوية ثم بأزلية الجزء الذي لا يتجزأ، والعلم هو الذي اقترب من المنهج الديني حين اتخذ الأثر دليلاً على طبيعة المؤثر، ولم يشترط رؤية الأخير رؤية مباشرة، والعلم هو الذي يتجه الآن لتفسير ظواهر طبيعية وقوي بشرية لا تقع تحت نطاق ما عرف من قوانين الطبيعة الحسية[1].

فائدة: هل الإنسان هو سيد نفسه ومالك مصيره فهو وحده المسئول عن أن يشرع لنفسه في السياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر نواحي حياته؟

هذا كلام لا يصح إطلاقه حتى على افتراض أن الإنسان لا خالق له فكيف وقد ثبت أن له خالقًا، وهو لا يصح على ذلك الافتراض؛ لأن الواقع الذي يحسه كل فرد منا أنه رغم قوى الإنسان العقلية الفائقة، ورغم اطراد تقدمه العلمي واتساع فهمه للكون الذي يعيش فيه فإنه ما زال محكومًا في الجزء الأكبر من حياته بعوامل خارجة عن ذاته. فلا أحد منا كان مختار في أن يجئ إلى هذا الكون، ولا أحد منا يدري متى يفارقه، ونحن نجئ إليه بتكوين طبيعي لم

---

(١) الأسس الفلسفية للمذهب المادي، بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

نصنعه ولا قدرة لنا على تغييره، وهذا التكوين الطبيعي يفرض علينا نظامًا معينًا للحياة فلا بُدّ من أكل وشرب ونوم ويقظة وعمل الخ.

ونحن لا نجيء إلى الكون مكتفين ذاتيًا بل أن متطلبات حياتنا خارجة عن ذواتنا وليست بخاضعة لقوانا وإرادتنا، تلك بداهة ما ينكرها عاقل فما ينبغي له إذن أن يقول أنه سيد نفسه ومالك مصيره. ثم إن تجربة الإنسان الذي افترض أنه سيد نفسه وذهب يضع لنفسه مناهج حياته ويخطط مسار سلوكه تجربة مؤسفة باعتراف أصحابها الذين ذاقوا ويلاتها. أفلا يكفي هذا دليلاً على بطلان الافتراض الذي قامت عليه؟ المادية مذهب إلحادي فماذا يقدم الإلحاد للإنسان؟ إنه يقول له أنك جئت من لا شيء، وإن كنت جئت من شيء فقد جئت مصادفة، فليس لوجودك غاية، ولا لك في الحياة مهمة، وأنك صائر إلى لا شيء، فما بعد الموت من حياة.

والإلحاد بهذه العقائد السلبية يزيح عن قدمي الإنسان الأرضية التي تقوم عليها حياته كلها، فالإنسان بطبعه مخلوق ذو غاية وهدف لا يكاد يعمل عملاً لا يعرف الغرض منه والغاية من ورائه، والإلحاد يقول له ولكن الواقع أن حياتك في مجملها لا هدف لها، والإنسان مفطور على حب الخير وكراهية الشر وعلى جزاء الإحسان بالأحيان، ولكن الإلحاد نقول له أن مصير المحسنين والمسيئين في النهاية واحد، فيخلق في نفسه صراعًا بين نزوعه الطبيعي نحو فعل الخيرات وعبث هذا الفعل الذي يقتضيه استواء مصير المحسنين والمسيئين.

والإنسان بطبعه مخلوق ضعيف لا تكاد حياته تسلم من داء مؤلم أو عدو

مؤذ أو عيش ضنك أو فراق صديق عزيز أو قريب حميم، وهو في حالات ضعفه هذه كلها بحاجة إلى ملجأ يلوذ به ويعتمد عليه وينشد عنده العزاء والسلوان. ولكن الإلحاد يقول له: الواقع أنك تقف وحدك لا خالق لك تعتمد عليه وتصدق الملجأ إليه. وحين يسحب الإلحاد من تحت أقدام الإنسان هذه الأرضية فإنه يجعل حياته تعيسة ويمزق ذاته شر ممزق، فلا غرو أن يحاول الهروب من نفسه بالمسكرات والمخدرات والملهيات المزعجات، ولا غرو أن يهرب من بني جنسه فيعيش وحده ذرة تائهة بين ذرات، ولا غرو أن تتفاقم لهذا كله مشاكله وأدواؤه النفسية. إن الارتباط بين فلسفة العبث التي يقتضيها الإلحاد وبين مشاكل الإنسان المعاصر التي أشرنا إلى طرف منها أصبح من المسلمّات عند المفكرين الغربيين[1].

فائدة: نسبية الثقافة:

تعرف حقوق الإنسان بأنها حقوق للإنسان بما هو إنسان لا بما هو منتم إلى عنصر أو دين أو مكان معين، يلزم عن هذا المفهوم لحقوق الإنسان أن هنالك قيمًا أخلاقية عالمية مطلقة هي الحاكمة على الثقافات والعادات والتقاليد المحلية. لكن من الكتاب الغربيين أنفسهم من ينكر هذا ويقول إن المعايير الخلقية معايير نسبية. فلكل أهل ثقافة (وهي عبارة تشمل الأديان

---

(١) الأسس الفلسفية للمذهب المادي، بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

والقيم والعادات والتقاليد) الحق في أن يقوموا الأمور بمعاييرهم، ولا يحق للآخرين أن يحاكموهم إلى معاييرهم هم أو يفرضوها عليهم، ويعدون هذا نوعا من الاستعمار الثقافي.

وعليه، فإنهم يرون أن ما يسمى بحقوق الإنسان إنما يعبر عن وجهة نظر حضارة معينة هي الحضارة الغربية، وأنه لا يجوز لذلك أن يفرض على أصحاب الثقافات الأخرى، بما في ذلك الثقافة الإسلامية[1].

فائدة: بطلان دعوى ضرورة التزام المسلمون وغيرهم بما جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

وهذه الدعوى غير صحيحة؛ وذلك للأمور التالية:

أولًا: هل هذه الحقوق المعلنة إنسانية؛ لأن الإعلان قال إنها كذلك، أم أن الإعلان قال إنها حقوق؛ لأنها كانت حقوقًا قبل الإعلان؟

وبعبارات أخرى: هل الإعلان هو الذي جعل منها حقوقًا، أم أنه كان مقرًا لكونها حقوقًا؟ هل كان الإعلان منشئًا ومانحًا لها أم كان معبرًا عنها؟ لا بُد أن يكون الأخير هو الصواب.

ثانيًا: أنه من حق كل إنسان ينكر هذه الحقوق كلها أو بعضها أن يعطى أدلة قوية على كونها حقوقًا ينبغي عليه أن يؤمن بها، فإذا ما كانت الأدلة في نفسها

---

(١) الأسس الفلسفية للمذهب المادي، بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

من شأنها أن تقنع كل إنسان عاقل، فلا يضر بعد ذلك عدم اقتناع بعض الناس بها. أما أن يقال لدولة تحفظت على بعضها، أو لأشخاص مفكرين مخلصين في تحفظهم عليها إنه يجب عليهم أن يؤمنوا بها فذلك مما ينبغي ألا يقول به عاقل.

ثالثًا: هل هذه الحقوق جامعة مانعة بحيث لا يمكن أن يزاد عليها ولا ينقص منها، أم أن ذلك ممكن؟ لا بُد أن يكون ممكنًا، فلا أحد يقول عن اجتهاد بشري إنه قد كتب له الكمال، وإذا كان الأمر كذلك فلا بُد أن يكون للداعي إلى إضافة أو حذف حجة يعتمد عليها. فماذا يمكن أن يقول، إذا لم يكن لهذه الحقوق المعلنة مستند غير كونها مما أعلنته هيئة الأمم المتحدة؟

رابعًا: أن هذه الحجة تقيم الدعوة إلى حقوق الإنسان على أساس واه لو كان هو وحده أساسها لما آمن بها ولا احترمها ولا التزم بها إلا قلة من الناس، إذ ما أكثر القرارات التي تتخذها هيئة الأمم ثم لا تجد من يصغي لها.

لكننا نعرف المشكلة التي اضطرت كثيرًا من هؤلاء الكتاب والكاتبات إلى هذا الموقف. إنهم إن أرادوا إرساءها على قاعدة فلسفية مشتركة بين جميع الأمم فلن يجدوا إليها سبيلًا، وإن أرسوها على فلسفة غربية فقدت صفة العالمية، بل واتهموا بأنهم عملاء للاستعمار الثقافي[1].

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان، مناقشة لأفكار غربية الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام روما، إيطاليا، ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ - الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م.

فائدة: الحداثة والعالمية:

من الكتاب الغربيين من يرى أنه بما أن مفهوم حقوق الإنسان مفهوم جديد فإنه لا يمكن أن يوجد في شيء من الثقافات الماضية التي يعدون منها ما يسمونه بالإسلام التقليدي، لكنهم مع ذلك يصرون بأن هذه الحقوق حقوق إنسانية لا يكون الإنسان إنسانًا كريمًا إلا بها. وهذا تناقض؛ لأنها إذا كانت بهذه المثابة فيجب أن تكون معلومة للناس منذ أن وجد الناس.

إذ كيف تكون للإنسان حقوق بهذا اللزوم لكرامته ثم تغفل عنها كل الثقافات والأديان الماضية ولا تكتشف إلا في القرن العشرين؟ نعم إنه من البديهي أنها لم تكن لتوجد بأسمائها لحديثة، وبالصياغة التي صاغها بها محام فرنسي في العصر الحديث. أما أصل الكثير منها وحقيقته فلا بُد أن قد كان موجودًا في الثقافات الماضية.

إن بعض الكتاب الذين يرون أنها لا يمكن أن توجد فيما يسمونه بالإسلام التقليدي أو إسلام ما قبل الحداثة، يقترحون على المسلمين طرقًا لإعادة تفسير دينهم ليكون دينًا حديثًا يتمشى مع هذه الحقوق المعاصرة. لكن المسلم الصادق مع نفسه لا يمكن أن يلجأ إلى الأساليب التي يقترحونها[1].

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان، مناقشة لأفكار غربية الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام روما، إيطاليا، ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ - الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م.

فائدة: كيف يقرر المسلم ما إذا كانت الحقوق التي في إعلان الأمم المتحدة متوافقة مع دينه أم غير متوافقة؟

إن بعض الكتاب الغربيين يقترحون على المسلمين أن يبدؤوا بالتسليم بأن هذه الحقوق المعلنة في النظام العالمي لحقوق الإنسان هي حقوق يجب الإيمان بها والالتزام بها، ولكن بما أنها لا يمكن أن توجد في دينهم التقليدي فلا بُد لهم من إعادة تفسيره ليجعلوه متوافقًا مع ما يسمونه بالمعايير العالمية لحقوق الإنسان، لكن هذه الطريقة لا تليق بإنسان أمين مسلمًا كان أم غير مسلم، إنه من الافتراء أن تنسب إلى بشر ما كلامًا لم يقله.

فكيف بالله خالق البشر؟ لو أن فيلسوفًا ما معجبًا بفلسفة أرسطاليس يحاول دائمًا أن يعيد تفسيرها ليجعلها متوافقة مع بعض ما يشيع عصره، لاعتبر رجلا غير أمين، وغير جدير بأن يعد في زمرة دارسي الفلسفة الأكاديميين. فكيف بالافتراء على الله رب العالمين. كيف؟ والمسلم يقرأ في كتاب ربه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس:٦٩]، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٤].

إن للعالم المسلم منهجًا علميًا يتبعه لمعرفة ما هو من دينه وما ليس منه، إنه أولا يأخذ كلام ربه مأخذ الجد، فيجتهد ويخلص في معرفة مراد الله تعالى بكلماته التي أنزلها، موقنًا بأن كل ما يقول الله تعلى أو يقول رسوله ﷺ فهو

الحق الذي لا ريب فيه، وأن كل ما يأمر به الله أو رسوله فهو الخير الذي لا ريب فيه، معتقدًا اعتقادًا جازمًا بأن الله علام الغيوب، وأنه لم يربط هداه بمرحلة زمنية معينة، أو رقعة أرضية معينة، وإنما جعله هدى ورحمة للناس كافة منذ أن بعث رسوله، وإلى قيام الساعة. ويكون همه بعد سلوك الطريق الصحيح لمعرفة ما أنزل الله تعالى أن يؤمن به ثم يجتهد في العمل به إن كان يقتضي عملًا ظاهرًا. إنه يأتي إلى كتاب ربه وسنة نبيه ليهتدي بهما لا ليهديهما ولا ليقترح عليهما، إنه لا معنى للإيمان ولا للتدين إلا هذا.

وكلما عرضت للعالم المسلم مسألة جديدة فكرية كانت أم عملية، كقضية حقوق الإنسان، فإنه يرجع إلى كتاب ربه وسُنّة نبيه ليلتمس فيها الهداية. فإن وجد في نصوص الكتاب والسُنّة ما يؤيد الأمر آمن به، وإن وجد فيهما نصوصا تبطله أنكره، وإن لم يجد لا هذا ولا ذاك اجتهد بحسب قواعد اجتهاد علمية معروفة في علم يسمى أصول الفقه ليصل إلى الحكم الإسلامي في المسألة.

فالاجتهاد ليس كما يريدنا أن نفهمه بعض الغربيين من المهتمين بالإسلام وسيلة لتحريف الدين وتبديله ليتناسب مع أهواء العصور المتغيرة، إنه منهج علمي لاكتشاف الحقيقة التي تدل عليها النصص، وهو في هذا أشبه ما يكون بمنهج علماء الطبيعة في اكتشاف الحقائق الكونية، أما إذا اعتقد الإنسان أن في القرآن أو في السُنّة ما يتناقض مع مسائل عصرية يراها مهمة وضرورية لتحقيق

مصالح الناس، فما عليه إلا أن يكون شجاعًا ويعلن عدم إيمانه بأن القرآن كلام الله، وأن محمدا رسول الله، لأنك لا يمكن أن تعتقد بإخلاص أن القرآن كلام الله، وأن محمدًا رسول الله ثم تعتقد مع ذلك أن فيهما ما هو باطل أو مضر[1].

فائدة: مقتضيات العصر وأهواء العصر:

أنصار الفكر الغربي في بلادنا وكثير من أئمته في بلاده يُصورون الحضارة الغربية على أنها حضارة العصر، لا بمعنى أنها الحضارة السائدة والمسيطرة فيه، فذلك أمر حسي لا ينكره إلا مكابر، ولكن بمعنى أن فكرها وقيمها هي القيم التي يقتضيها العصر، والإنسان بطبيعته يميل إلى أن يكون ابن عصره، يلبس كما يلبس أبناء العصر، ويسكن كما يسكنون، ويتكلم كما يتكلمون، ويتعلم كما يتعلمون ما يُعينه على أن يعيش كما يعيشون، والأمم تميل مثل هذا الميل فلا تريد التخلف عن ركب الأمم المعاصرة لها في مسكن ولا ملبس ولا قوة ولا علم يسهل الحياة ويوسع الآفاق وينير البصائر، ولكن البون شاسع بين المعاصَرة والإمَّعيَّة.

إن المفهوم الصحيح للمعَاصَرة كما أتصوره هو أن تكتسب الأمة تلك العلوم والمهارات والأدوات والأشياء التي يقتضيها العصر، يقتضيها بمعنى أن الأمة التي لا تكتسبها تكون متخلفة بالقياس إلى أمم معاصرة لها في إنتاجها المادي، وقوتها العسكرية، وأثرها الثقافي، وتكون لذلك أمة ضعيفة لا تستطيع

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان، مناقشة لأفكار غربية الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام روما، إيطاليا، ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ - الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م.

الدفاع عن نفسها، بل أن تنشر فكرها وثقافتها. فإذا شعرت أمة كالأمة الإسلامية أنها تخلفت عن ركب التاريخ فعزمت على اللحاق به فمن الطبيعي أن تنظر في حال الأمم التي سبقتها لتعرف سر تفوقها فتتعاطاه كي تكون مثلها، ولكن هذا هو الموطن الذي زلت فيه أقدام كثير من القادة والمفكرين من أبناء الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم التي أرادت أن تحذو حذو الغرب لتلحق به، وسبب الزلة أنهم حسبوا أن كل ما في الغرب فهو من لوازم العصر ومقتضياته ولم ينظروا نظرة الباحث المتروي الذي يحاول جهده أن يفرق بين مقتضيات العصر وأهواء العصر، أو بين أسباب التقدم الحقيقية وملابساته العرضية.

فكان مثلهم كمثل رجل سبقه آخر في مباراة الجري فقال لكي أكون عداء مثله فلا بُد أن اتخذ قميصًا كقميصه وتُبانًا كتبانه شكلًا ولونًا وحجمًا. لا تستغربوا ما أقول فأنا أصور واقعًا ولا أرسم (كركتيرًا).

ألم يروِ لنا الفيلسوف والأديب المصري الشهير الدكتور زكي نجيب محمود عن نفسه أنه مر عليه زمان كان يرى فيه: «أنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترًا، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علمًا وحضارة ووجهة نظرٍ إلى الإنسان والعالم، بل إني تمنيت عندئذ أن نأكل ما يأكلون ونجدُّ كما يجدون ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون، على ظن مني آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ، فإما أن نقبلها من أصحابها وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع وأما أن نرفضها وليس في الأمر خيار بحيث ننتقي جانبًا ونترك جانبًا كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال».

إن هذا الأستاذ ليس شاذًا بين مثقفي العالم الإسلامي، وأقواله هذه ليست فلتات عابرة وإنما هي تعبير عن حال فريق كبير من مثقفي هذه الأمة وعوامّها. ولكن أصحيح أن كل ما في الغرب من فكر هو من مقتضيات العصر، بحيث يصبح الذي يرفضه متخلفًا عن ركب عصر، أو عائشًا خارج التاريخ كما يقولون؟ لكي نجيب على هذا السؤال لا بُدّ أن نلقي على الفكر الغربي نظرة تحليلية فاحصة لنرى مما يتكون هذا الفكر؟ ولنعرف مكوناته لازم لعصرنا وأيها طارئ عليه[1].

فائدة: مكونات الحضارة الغربية:

إن الحضارة الغربية تتكون على وجه الإجمال مما يلي:

أولًا: حقائق رياضية أو طبيعية أو اجتماعية أو نفسية ثبتت صحتها بالتجربة الحسية أو البرهان العقل.

ثانيًا: نظريات عملية عن الطبيعة أو الإنسان فردًا وجماعة وهي ثلاثة أنواع:

أ- نوع نجح في تفسير كثير من الظواهر ولم نجد ما يدل على بطلانه وإن

---

(١) الدعوة الإسلامية والغزو الفكري، أُلقي هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عُقد بالخرطوم (٢٢-٢٦ جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ - الموافق ٢٨ مارس- ١ إبريل ١٩٨١م) بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري. ثم نُشر في مجلة هذه سبيلي، العدد (٥)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ثم نشرته رابطة الشباب المسلم العربي في عام ١٩٨٧م على شكل كتيب صغير.

كنا لا نقطع بصحته.

ب- نوع ما زال في طور التجربة

ج- نوع ثبت بطلانه.

ثالثًا: تقنية تكاد تشمل كل جوانب الحياة أدى إليها تطور العلوم الطبيعية والرياضية.

رابعًا: مهارات تقنية وإدارية على تلك العلوم.

خامسًا: تصورات دينية أو فلسفية للوجود ومكانة الإنسان فيه وللقيم الخلقية والجَمالية ولعلاقة الفرد بالمجتمع.

سادسًا: أوضاع سياسية واقتصادية وعلاقات اجتماعية وعادات وتقاليد تسوغها تلك التصورات.

ثامنًا: ولكن الفكر الغربي بشقيه الليبرالي الرأسمالي والأممي الشيوعي ليس مجرد خليط من الأفكار والتصورات المتماثلة القوة والفاعلية، بل إن منه ما يمكن اعتباره الفكر المسيطر المهيمن على غيره، والذي يمثل الأصل والإطار التصوري الشامل للفكر الغربي، ويمثل في ذات الوقت معياره التقويمي للحق والباطل، وللخير والشر، لما ينبغي أن يبحث وما ينبغي أن يهمل، ولما يقبل وما يرفض، بل ويمثل الإطار الذي توضع فيه الحقائق العلمية ومن ثم تفسر تفسيرًا يتناسب معه وتستنتج منها نتائج توافقه هذا الفكر السائد المهيمن فكر إلحادي مادي فحواه:

أ- إن الواقع الموضوعي يتكون في النهاية من لبنات مادية متناهية الصغر في حجمها متحركة في فراغ.

ب- إن كل ما في الوجود فهو إما هذا اللبنات، وإما أشياء مركبة منها، وإما علاقات بينها وما سوى ذلك فلا وجود حقيقي له.

ج- إن طبيعة هذه المركبات سواء كانت أجسامًا جامدة أو كائنات حية، أو جماعات بشرية تفسرها في النهاية طبيعة اللبنات المكونة لها، هذا على الرأي السائد بين جمهرة المشتغلين بالعلوم الطبيعية وهنالك رأي لكثير من فلاسفة العلوم يقول أن المركبات تكتسب بحكم تركيبها طبيعة جديدة لا يمكن ردها إلى الأجزاء المكونة

د- أنه ينبغي لذلك أن نلتمس تفسير الظواهر النفسية والاجتماعية والحيوية والفيزيائية في أسباب ضمن هذا الكون المادي، أي أن الكون المادي كون مكتف بنفسه، غير محتاج إلى قوة خارجه تخلقه أو ترسم مساره أو تدير أمره.

هـ- ولذلك فإن كل عبارة تنطوي على دعوى تخالف في ظاهرها هذا التصور، فإما أن نحكم ببطلانها وإما أن نُعيد تفسيرها، بحيث نجد لها مكانًا داخل هذا الإطار الإلحادي المادي.

و- وكل ظاهرة يُدَّعي أنها خارقة لقوانين الطبيعة فهي إما كذب أو وهم لا أساس له

ز- وكل تفسير للظواهر النفسية أو الاجتماعية... الخ بأسباب خارج هذا الإطار لا يُعتبر تفسيرًا علميًا، أي أن التفسير العلمي هو بالضرورة تفسير إلحادي، حتى أن كلمة العلم أصبحت في العالم كله تقريبًا عَلَمًا على هذا التصور الإلحادي للعلم، ولهذا أمكنت المقابلة بين العلم والدين. هذه الفلسفة الإلحادية تمثل كما قلت إطار الفكر الغربي كله، بما في ذلك الحقائق العلمية، فحتى هذه توضع داخل هذا الإطار ومن ثم ينظر إليها من خلاله، وتفسر تفسيرًا يتناسب معه، ولا يستنتج منها إلا النتائج التي توافقه، إن كثيرًا من الناس يعتقدون أن الحقائق الجزئية المشهودة هي وحدها المهمة وأن لها الغلبة على التصورات الفلسفية، ولكن الحقيقة أن الإطار التصوري الخاطئ يؤثر على نظرة الإنسان إلى الحقائق الجزئية، ويحجب عنه مدلولاتها الحقيقية.

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٤٠] أفلم يكونوا يرونها؟ بل كانوا يرونها، وكيف لا يرى الإنسان بلدًا كاملًا وهو يمر عليه ذاهبا وآيبًا؟ ولكنهم لم يستنتجوا من رؤيتهم لها العِبرة التي ينبغي أن تُستخلص؛ لأن تصورهم المُنكِر للبعث يمنعهم من هذا الاستنتاج، ويقف بهم عند حدود الظواهر.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم:٧]. المثقفون في الغرب كله بشطريه -إلا فئة قليلة- متأثرون على درجات متفاوتة بهذه الفلسفة الإلهية، فمنهم من يقبلها قبولًا كاملًا ويعلن كفره بالله وبالدين في صراحة، ومنهم من يعتبرها منهجًا علميًا ينتهجه إذا دخل معمله أو كتب بحثه،

أو ناقش زملاءه، ثم يخلعه إذا ذهب لكنيسته أو بيعته، ومنهم من يقبله حقيقة ولكنه ينتمي إلى الدين اسمًا؛ لأنه يفسر كل المفاهيم الدينية تفسيرًا لا يخرجُ عن هذا الإطار.

أنا لا أُنكِر أن من المفكرين الغربيين من ينكر الفلسفة المادية وينتقدها، ولكني أقول ما كل من ينكر الفلسفة المادية فهو مؤمن، بل إن من أشد أعداء الفلسفة المادية قوم ملحدون، والذين ينكرونها على أساس ديني ينتمون إلى أديان شركية خرافية[1].

فائدة ماذا نأخذ من الحضارة الغربية وماذا ندع:

يرى فريق من المثقفين في العالم الإسلامي -كما رأينا من قبل- أننا ينبغي أن نأخذ هذه الحضارة كلها بما في ذلك إطارها الفلسفي، ونطرح كل ما خالفها من دين وتراث وعادات وتقاليد، لماذا؟ لأن إطارها الفلسفي هو الذي يمثل فلسفة العصر، لا بمعنى أن التصور السائد بين جمهرة المشتغلين في الغرب بالعلوم الطبيعية أو البشرية وفلسفتها، فذلك أمر هين وقد يكون حقًا، ولكن بمعنى أنها التصور الذي يقتضيه العصر والذي يعتبر متخلفًا عن عصره كل من لا يقول به.

---

(١) الدعوة الإسلامية والغزو الفكري، أُلقي هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عُقد بالخرطوم (٢٢-٢٦ جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ - الموافق ٢٨ مارس- ١ إبريل ١٩٨١م) بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري. ثم نُشر في مجلة هذه سبيلي، العدد (٥)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ثم نشرته رابطة الشباب المسلم العربي في عام ١٩٨٧م على شكل كتيب صغير.

ولكن أصحيح أن هذا التصور الإلحادي لازمة العصر؟

إن هذا التصور ليس جديدًا وإذا ثبت أنه ليس جديدًا فقد ثبت أنه ليس مما أنتجه عصرنا، وإنما هو مما أخذه بعض أبناء هذا العصر عن أسلافهم الملحدين ثم روجوا له وألبسوه ثوب العلمية والمعاصرة.

ودليلنا على عدم جدته أن الناس منذ قديم العصور منقسمون في تصوراتهم للوجود إلى فريقين:

- فريق يرى الكون المادي فقيرًا غير مُكتَفٍ بنفسه، شاهدًا على خالقه، الذي ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وأن هذا الكون المرئي ليس كل ما خلق هذا الخالق الحكيم، فإن له مخلوقات أخرى منها ملائكة ومنها جن، ومنه جّنة تختلف طبيعة الأشياء فيها عن تلك التي نعرفها في عالمنا هذا وإن اتحدت الأسماء.

- وفريق يرى أنه لا حق إلا ما أدرك بالحس المباشر، وأن الكون غنيٌ بذاته، وأنه لا خالق ولا بعث ولا ملائكة ولا جن.

- وفريق ثالث يتردد بين هذين الموقفين اللذين لا يمكن الجمع بينهما فيميل هنا تارة وهنالك تارة أخرى، فتأتي أقواله متناقضة ومواقفه متعارضة.

لنا على قِدم هذا التصور الإلحادي أدلة كثيرة، نكتفي ببعض ما رواه لنا القرآن الكريم من أقوال الأمم الكافرة، وببعض ما قاله أصحاب الفلسفة المادية من فلاسفة اليونان، وببعض أقوال الذين تأثروا بهؤلاء ممن سُموا بفلاسفة الإسلام.

- يروي لنا القرآن الكريم أن الكفار من بني إسرائيل بنوا كفرهم على أساس أنهم لم يروا الله الذي يحدثهم عنه موسى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]، وكرر بعض كفار العرب نفس القول فاشترطوا لإيمانهم أن يأتي الرسول بالله والملائكة قبيلًا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١]، ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء:٩٢].

واشترطوا لإيمانهم بالبعث أن يُبعث من مات من آبائهم كي يروهم عيانًا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الجاثية:٢٥]. وفي مجال الزعم بأن الكون مكتف بنفسه غير محتاج إلى قوة من خارجه قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]؛ وكذلك فسروا حوادث التاريخ بأنه مصادفات من فعل الدهر لا أقدار خالق حكيم. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٦].

قال ابن كثير: «وقالوا قد مسنا البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات...».

وأما الفكر اليوناني الذي يمثل أقوى جذور الفكر الغربي المعاصر فقد

كان فكرًا شركيًا إلحاديًا وقد وجدت في هذا الفكر جذور الفلسفة المادية الإلحادية في شكل المذهب الذري الذي قال به (ليو سيبس) في حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، كما قال به من بعده واشتهر به (ديمقريطس).

خلاصة هذه الفلسفة: إن كل الموجودات تتكون من ذرات مادية صلدة لا تنقسم، وإن هذه الذرات أزلية في ذاتها وفي حركاتها وأنه لا خالق لها ومدبر لأمرها. وأرسطو الذي انتقد هذا المذهب كان هو نفسه معتقدًا بأزلية الكون وأزلية الحركة وهو اعتقاد يتنافى مع وجود الخالق ويتسق اتساقًا تامًا مع المادية الإلحادية.

وكما أن **بعض من سموا بفلاسفة الإسلام** من أمثال ابن سينا تأثروا بالفلسفة الأرسطية وقالوا كما قال بأزلية العالم، فقد تأثرت بعض الفرق الإسلامية بالمذهب الذرى فقالوا إن الكون مكون من ذرات، وأن الخَلْقَ إنما هو جمع وتفريق لهذه الذرات. ولم يقتصر تأثر المسلمين بالفلسفة المادية الإلحادية على هذا فقط بل إن بعض من سموا بفلاسفة الإسلام كانوا يحاولون جهدهم أن يفسروا كل شيء إسلامي في هذا الإطار الإلحادي اليوناني، فقالوا لذلك إن الملائكة هي قوى الخير والجن قوى الشر، والله هو العقل الفعّال والوحي قوى نفسانية إلى غير ذلك من المسائل التي كفّرهم بسببها علماء الإسلام.

- الفريق الثاني من المتأثرين بهذا التصور هو فريق المنتسبين إلى الإسلام صدقًا أو نفاقًا، والذين يتصورون الوجود، بل ويحاولون تفسير الإسلام ضمن هذا الإطار الإلحادي كما فعل أسلافهم ممن سموا بفلاسفة الإسلام -هؤلاء في

نظري أخطر من الفريق الأول، فالفريق الأول عدو سافر، وهذا عدو مستتر.

فنقل الإلحاد إلى جماهير المسلمين بوساطتهم أيسر وتلبيسهم عليهم أشد. ولا يستغربن أحد ما أقول، فإن مؤرخي الفكر الغربي يَرُدون جذور الإلحاد إلى فلسفات (ديكارت) وكانت رغم أنهما كانا يؤمنان بوجود الله، ولكن العِبرة ليست بما يؤمن به الكاتب في داخل نفسه بل بما يدل عليه قوله وما يلزم عن هذا القول.

أنا لا أريد أن أقول إن كل ما يفسر الإسلام ضمن هذا الإطار ملحد حقًا، مظهر للإسلام -إن أظهره- نفاقًا؛ ذلك لأنني أظن أن الكثيرين منهم يقبلون هذا الإطار على أنه الإطار العلمي وهم حين نحسن الظن بهم يريدون أن يُبينوا أن لا تعارض بين الإسلام والمنهج العلمي والحياة المعاصرة، ولذلك فإنهم يقدمون تفسيراتهم هذه على أنها التفسير الذي يقتضيه العلم وتقتضيه مسايرة الإسلام لظروف العصر، لا على أنه التفسير الإلحادي للدين وهم في هذا سالكون منهج كثير من المفكرين المسيحيين مشابهون لهم أو متَشبهون بهم، هذا الفريق نوعان منهم من قبل هذا الإطار لا في مجال التشريع العملي فحسب، بل وفي مجال العقيدة أيضًا، ومنهم من قبل لوازمه في مجال التشريع، وإن لم يقبلها في مجال العقيدة أو ظل على الأقل صامتا عنها في هذا المجال[1].

---

(١) الدعوة الإسلامية والغزو الفكري، أُلقي هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عُقد بالخرطوم (٢٢-٢٦ جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ - الموافق ٢٨ مارس - ١ إبريل ١٩٨١م) بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري. ثم نُشر في مجلة هذه سبيلي، العدد (٥)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ثم نشرته رابطة الشباب المسلم العربي في عام ١٩٨٧م على شكل كتيب صغير.

فائدة: كيف نواجه الحضارة الغربية؟

كيف نواجهها فنكف أثرها السلبي عنا، وكيف نواجهها فنقومها ونصلحها لكي تكون حضارة إنسانية حقا. لقد قلت إن هذا لا يتأتي إلا إذا صرنا أمة قائدة وتحدثت عن الخطوة الأولى نحو تلك القيادة وفيما يلي نستكمل بقية الخطوات وبإيجاز شديد:

أولًا: الحكم بالإسلام ومن أهم عناصر هذا الحكم:

أ- الاستقلال وعدم التبعية للدول الكبرى سواء كانت تبعية سافرة أو مقنعة، ولعل هذا الاستقلال هو الآن أصعب الأشياء منا لا فهو يحتاج مع الأخذ بكل الأسباب المادية اللازمة له إلى إيمان راسخ وتوكل على الله تعالى وتذكر دائم لقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧].

ب- حرية سياسية تشعر المواطن بأنه عزيز في بلده، بين أفراد مساوين في الحقوق الإنسانية وإن علوه ببعض المناصب الدنيوية، وتمكنه من أن يفكر بحرية ويشارك بفكره وجهده في إصلاح حال بلده، يقول للمصيب أصبت، والمخطئ أخطأت مهما كان منصبه، ثم يذهب لينام قرير العين لا يدهمه بالليل طارق يقتاده إلى الحبس إرضاءً لنزوة حاكم.

إن فقدان الحرية السياسية يفقد المواطنين الشعور بالانتماء لبلدهم ويولد

فيهم الإحساس بأن البلد مُلك الحاكم، من رضي عنه نال الحظوة، ومن سخط عليه فلأمه الهبل، ولا يُتصور من إنسان يشعر بهذا الشعور أن يقوم بعمل جليل كالذي نريد.

جـ- عدل اجتماعي، وهو جزء مكمل ولازم للحرية السياسية، كما أنه عامل فعّال في زيادة الإنتاج، إن الجور الاقتصادي كالجور السياسي ينافي علاقة الأخوة التي هي العلاقة الأساسية بين المسلمين في الدولة، ويولد فيهم مشاعر سلبية لا اجتماعية تؤثر فيما تؤثر إلى إنتاجهم الاقتصادي.

د- أمر بالمعروف ونهي عن المنكر نسخر له وسائل الإعلام ومناهج التربية والتعليم ومؤسساتها، وتُستغل لتحقيقه كل الأساليب التي تحبب المعروف إلى الناس وتُكره المنكر إليهم مع عناية خاصة بالصلاة في جماعة. ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤١].

هـ- إقامة الحدود كفًا للمعتدين واستدرارا لرحمة رب العالمين.

ثانيًا: تغيير العلوم إسلاميًا:

أ- بتنقيتها من شوائب التصورات المادية الإلحادية وسائر التصورات المخالفة للإسلام والتي تمثل إطارها الفلسفي وإن لم تبرز في مضمونها الحرفي.

ب- بإطراح كل النظريات التي لم يثبتها واقع والتي تخالف حقائق قررها الإسلام، ولا بأس من دراستها للنقد.

جـ- باستبدال الإطار الفلسفي الإلحادي بإطار توحيدي.

د- باعتبار الوحي مصدرًا من مصادر الحقيقة وهذا يستتبع إدخال كل ما أثبته القرآن وصحيح السُنّة في مضمون العلوم، كل حقيقة بحسب العلم المناسب لها.

هـ- بالسعي نحو الإصالة في كل ما نعالج من مشاكل وما نعطي من أولويات.

و- بصياغة العلوم كلها طبيعيها وإنسانيها بلغة عربية فصيحة حتى تكون اللغة العربية لغة العلوم، كما هي لغة الدين والأدب.

ثالثًا: دراسة الغرب، تاريخه، وواقعه، مستقبله، تجاربه، من وجهة نظر إسلامية:

إننا الآن نقول عن الغرب ما يقوله هو عن نفسه، بل نقول عن الشرق ما يقوله المستشرقون وقد آن لنا أن نعكس الأمر فيكون لنا مختصون بشؤون الغرب يعالجون قضاياه على أساس إسلامي، وأعني بالإسلامية هنا الحقائق التي جاء بها الإسلام كما أعني بها مصالح المسلمين الوضعية.

رابعًا: المرجو من محاولات صياغة العلوم على أساس إسلامي ومن الدراسات الغربية أن تساعدنا في الاستفادة الرشيدة من الحضارة الغربية، ولكن يمكن أن نجمل فيما يلي ما ينبغي أن يؤخذ وما ينبغي أن ينبذ من هذه الحضارة.

- أما ما نأخذه فهو:

أ- المنهج العلمي (بعد تنقيته من الشوائب الإلحادية).

ب- والحقائق الجزئية التي كشفتها العلوم ومعرفتها لا يمكن أن تعزل عن معرفة العلوم التي أدت إليها.

جـ- وما بنى على هذه العلوم من تقنية في صورة آلات ومهارات وما أدت إليه هذه التقنية من تصنيع.

ثم لا بُدّ لنا من الاستفادة من تجربته في كل مجالات الحياة المعاصرة: المؤسسات التعليمية والإعلامية والاقتصادية والعسكرية والفنون الإدارية على أن نكيف ما نأخذه مع إطارنا الإسلامي ولا نغير هذا الإطار بالنقل الحرفي لكل ما عندهم كما يحدث الآن في العالم الإسلامي.

أما البيانات والفلسفات والآداب والفنون والعادات والتقاليد، فلا علاقة منطقية أو نفسية بينها وبين ما سبق.

ولكنني أرى مع ذلك أن لا تقطع صلتنا بها قطعًا كاملًا، بل ينبغي دراستها باعتبارها واقعًا ينبغي أن نعرفه باعتبارها هديا نستهدي به، ولذلك أرى أن لا يفتح لها باب الولوج إلى الجماهير الإسلامية بل ينبغي أن تكون موضع دراسة المختصين.

إن أشد أسلحة الغرب الفكرية خطرًا علينا وتدميرًا لنا، بل خطرًا على الغربيين أنفسهم وتدميرًا لهم، هو التصور الإلحادي للوجود الذي كاد أن يصبح سمة العصر والذي لا يكاد يخلو منه جانب من جوانب الحياة المعاصرة

العلمية أو الفنية أو العلاقات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وهو أكبر تحد يواجه الدعوة الإسلامية والمفكرين الإسلاميين، فإذا نجحنا في التصدي له بالنقد العقلي العلمي المستنير، وإذا استطعنا أن نقدم تصورنا الإيماني بديلاً لهذا الإطار الإلحادي، وأقمنا الحجج العلمية الشواهد الواقعية على أنه الإطار المناسب للمنهج العلمي ولحقائق العلوم الطبيعية والبشرية وللثقافة الإنسانية، وبالتالي للحياة السعيدة تكون قد أسدينا خدمة كبيرة لا لأمتنا الإسلامية فحسب، ولكن للمجتمع الإنساني كله؛ وذلك أن هذا المجتمع يقترب من الدمار كلما ساد فيه فساد التصور الذي يؤدي إلى فساد السلوك، وكلما خبأ فيه نور الرسالة المحمدية. ولكن هذا عمل عظيم يحتاج إلى صبر ويقين، يحتاج إلى يقين بأنه تصورنا الإيماني هو الحق الذي لا ريب فيه وأن التصور الإلحادي بكل لوازمه وفي كل صوره وأشكاله تصور باطل مفسد. ويحتاج إلى صبر في مواجهة هذا التصور والتصدي له وعدم مسالمته أو مداهنته بحجة المعاصرة أو الحضارة أو التجديد، مهما طال الزمن وضجت الدعايات وسقط المنهزمون. والصبر واليقين هما الشرطان اللازمان لكل من يريد أن ينال شرف القيادة الفكرية المهتدية بهدي رُسل الله. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤][1].

---

(١) الدعوة الإسلامية والغزو الفكري، أُلقي هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عُقد بالخرطوم (٢٢-٢٦ جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ - الموافق ٢٨ مارس - ١ إبريل ١٩٨١م) بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري. ثم نُشر في مجلة هذه سبيلي، العدد (٥)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ثم نشرته رابطة الشباب المسلم العربي في عام ١٩٨٧م على شكل كتيب صغير.

فائدة: المنهج العلمي الذي كان اتبعه علماؤنا السابقون الذين تعرضوا لنقد مخالفيهم من المسلمين وغير المسلمين:

مما تميز به هذا المنهج:

أولًا: أن أصحابه كانوا حريصين على أن يقرروا أقوال مخالفيهم كما هي فلا يزيدون عليها ولا ينقصون منها. وهذا أمر مهم؛ لأن الذي يحرف كلام خصمه لا يكون قد انتقده بل انتقد شخصًا اخترعه من خياله، وهذا أمر قد يزيد الخصم إصرارًا على رأيه الذي يراه الناقد باطلًا، وقد يكون فيه تضليلًا للذين يثقون بالناقد فيظنون أن ما قاله عن خصومه حق. من أمثلة ذلك ما فعله الشهرستاني.

ثانيًا: كان من القواعد التي التزموا بها أن لازم القول ليس بقول. وعنوا بذلك أنه لا ينسب إلى الخصم قول يلزم لزومًا عقليًا عن قوله ما دام هو لم يصرح به.

من أوضح الأمثلة على ذلك: قول المعتزلة إن الإنسان يخلق أفعاله الاختيارية. يلزم عن هذا القول أن هنالك أشياء لا يخلقها الله تعالى، وهذا مخالف لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهل نقول إن المعتزلة ينكرون هذه الآية؟ كلا لأنهم لم يصرحوا بشيء كهذا.

ثالثًا: كانوا يميزون بين ما في كلام الخصم من حق وما فيه من باطل فينتقدون الثاني ويزيفونه ولا يترددون في إقرار الأول.

من أمثلة ذلك: ما قاله الإمام الغزالي في مقدمة كتابه تهافت الفلاسفة. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القسم الثاني ما لا يصدم مذهبهم فيه أصلًا من أصول الدين، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل منازعتهم فيه، ثم ذكر مثالًا على ذلك بكسوف القمر»، ثم قال: «وهذا الفن أيضًا لسنا نخوض في إبطاله إذ لا يتعلق به غرض، ومن ظن أن إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعّف أمره، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية لا يبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها... إذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيها وإنما يسترب في الشرع، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه. وهو كما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل».

رابعًا: وكان منهم من ينتقد دعاوى المخالفين نقدًا عقلانيًا بحتًا كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه التي رد فيها على المخالفين ككتاب (الرد على المنطقيين) وككتابه الكبير المسمى (درء تعارض العقل والنقل).

خامسًا: وكان الكثير منهم يقارن بين الأفكار التي ينتقدها ليبين أنها رغم بطلانها فإن فيها ما هو أقرب إلى الحق من غيره.

سادسًا: ومما لا شك فيه أنهم كانوا يقارنون بين الفكر الذي ينتقدونه والقول الحق الذي يعتقدونه، لكن هذه المقارنة أيضًا كانت عند الكثيرين منهم مبنية على حجج وبراهين.

سابعًا: مما يتطلبه هذا المنهج العلمي بيان الآثار المترتبة على الأقوال حسنة كانت أم سيئة.

نقول أخيرًا:

إن هنالك أمرًا يجب التنبيه إليه هو أن التزام المنهج العلمي لا يعصم من الخطأ حتى في العلوم الطبيعية، ولذلك تجد الملتزمين به يرد بعضهم على بعض ليبين خطأه ويبين الصواب الذي اعتقده، وهذا ما كان يفعله أولئك العلماء المسلمون[1].

فائدة: التيارات في الفكر الغربي:

في الفكر الغربي تياران كبيران:

أحدهما: هو التيار الغالب في المؤسسات والشخصيات الأكاديمية ولاسيّما في أوربا، وهو الفكر الذي بدأ في القرن الثامن عشر وانتشر في أوربا كلها ثم في أمريكا، وهو الفكر الذي سماه أصحابه بالفكر التنويري والذي غلب عليه الصدام مع الدين.

والتيار الآخر: هو التيار المحافظ الذي ظل مرتبطا بالدين النصراني نوعًا من الارتباط والذي ما يزال له تأثير كبير على السياسة ولاسيّما في الولايات المتحدة.

لكن الفكر الغربي كانت وماتزال فيه تيارات مخالفة لهذين التيارين الغالبين كتيار الفكر الماركسي، ثم إن كونه غربيا لا يعني أنه الفكر الذي يسير في

---

(١) نقد للفكر الغربي بمنهج علمي، بحث نشر التقرير الاستراتيجي من إصدارات البيان عام ١٤٣١هـ.

ضوئه كل الغربيين إذ أن من الغربيين من ظل منتميا إلى الدين كما قلنا، ومنهم من أنكر أساس هذا الفكر بفطرته[1].

فائدة: ما هي الحركة التنويرية؟

سمى الغربيون الفكر الجديد هذا بالفكر المستنير وسموا عهده بعهد العقل، واعتقدوا أن العقل هو الذي يمثل المشروعية والمرجعية النهائية في كل نواحي الحياة البشرية من أخلاق وسياسة واقتصاد وعلوم طبيعية واجتماعية وقضايا دينية وفلسفية، ولما كان استعمال العقل والاعتماد عليه يقتضي أن يكون الإنسان حرًا لا تقيده قيود تشل تفكيره وتعبيره فقد ركزوا تركيزًا كبيرًا على قضية الحرية، ولما كان هذا الاتجاه العقلاني رد فعل للتقليد الذي كان سائدًا في مجال الدين والفلسفة بل وحتى العلوم الطبيعية، فقد تميز بحدة نقده للأفكار المتوارثة وتشجيعه للناس عامة بأن يستعملوا عقولهم ويحرروا أنفسهم من التبعية العمياء، وكان يهدف لذلك إلى إعطاء عامة الناس حرية أكبر تتمثل في ما أسموه بحكم الذات والحقوق الطبيعية والقانون الطبيعي والربوبية الطبيعية أو الإله الطبيعي.

وقد كانت هذه المبادئ ثورة على اللاهوتية والإليكاركية (حكم الأقلية) والارستقراطية والقانون الإلهي للملوك، لقد كان عهد التنوير عهدًا مفارقًا للقرون الوسطى التي تميزت بالسلطة الدينية والاقتصاد الموجه، والرقابة على

---

(١) نقد للفكر الغربي بمنهج علمي، بحث نشر التقرير الاستراتيجي من إصدارات البيان عام ١٤٣١هـ.

الآراء، إلى عهد الكلام العقلاني والتقويم الشخصي والجمهورية والليبرالية والطبيعيةNaturalism والمنهج العلمي والحداثة.

ولما كانت التنويرية حركة اشترك فيها عدد كبير من المفكرين، فإنها لم تكن تمثل فكرًا واحدًا متسقًا، بل كان هنالك تناقض بين أقوال مؤسسيها. لكن المبدأ الذي كان يجمعهم هو عدم التسليم بالموروثات الدينية والفلسفية وغيرها، والتشكيك فيها ونقدها نقدًا عقلانيًا كما يتصورون في التنويرية القليل مما هو حق ومفيد والكثير مما هو باطل وضال، وكثير من هذا الأخير كان بسبب الظروف الخاصة بأوروبا.

إذا كان المنتمون إلى الحركة التنويرية مختلفين بل متناقضين كما تقول مراجع هذا الفكر، فإن منهم من كان أكثر شهرة وتأثيرًا من غيره، من هؤلاء الفيلسوف الألماني الشهير عمانيويل كانت.

سنبدأ بما كتبه في مقدمة مقال له بعنوان (إجابة عن السؤال: ما التنويرية؟) الذي تقول المراجع إنه كان من أكثر كتاباته ذيوعًا وتأثيرًا؟ يقول (كانت)، وأنا هنا أترجم عن إحدى الترجمات الإنجليزية المنشورة على الشبكة: «إن التنويرية هي خروج الإنسان من عدم النضج الذي فرضه على نفسه. عدم النضج هو عدم مقدرة الإنسان على أن يستعمل فهمه من غير إرشاد من غيره، يكون عدم النضج هذا مفروضًا على الإنسان من نفسه عندما لا يكون سببها عدم الفهم، ولكن عدم العزيمة والشجاعة في أن يستعملها من غير إرشاد من غيره، لتكن لك الشجاعة على استعمال فهمك». هذا هو شعار التنويرية.

هذا في مجمله كلام صحيح لا يعترض عليه المسلم، بل يجد له أصلًا في دينه وكلام علمائه كما سنبين، لكنّ هنالك فرقًا بين أن يعطل الإنسان عقله ويعتمد على غيره في فهمه، وبين أن يستعين بغيره على الفهم. **الأول**: هو المذموم، **وأما الثاني**: فلا يمكن أن يكون فهم مستقيم إلا به، وإلا كان على كل إنسان أن يبدأ من جديد كلما أراد أن يفكر في أمر من الأمور، لكن كانت كما يقول أحد مقدمي مقاله: هذا كان كسائر التنويريين يعني بهذا الاستقلال أن لا يعتمد الإنسان على تشريع ديني بل ولا حتى على إرادة الله تعالى، وإنما يعتمد فقط على عقله؛ لأن العقل مكون بطريقة تمكن صاحبه من الوصول إلى الحقائق بغير استعانة بتلك المراجع الدينية.

هذا الاعتقاد الذي ساد كما ذكرنا في القرن الثامن عشر، كان فيما يبدو لي الأساس الذي اعتمدت عليه كل أنواع الفكر الغربي في كل نواحي الحياة تقريبًا سواء في ذلك ما كان منها حسنًا وما كان سيئًا، فالدعوة إلى اعتماد الإنسان على نفسه في الفهم قادت إلى الفردية ثم إلى الأنانية، وكانت أيضًا سببًا في الدعوة إلى المساواة ثم الدعوة إلى أن يكون الناس هم الحاكمين لأنفسهم لا يعتمدون في ذلك على رضى ربهم ولا على تشريع منزل من عنده، ولا يرضون بأن يكون الحكم ملكيًا أو حكم قلة.

وهذا هو الذي دعاهم لأن يعودوا إلى الحكم الديمقراطي الذي كان سائدًا في أثينا لفترة من الزمان، وعدم الثقة بالأديان وكثرة النقد الموجه لها أدى إلى التسامح الديني؛ لأنه إذا كان كل دين مشكوكًا في صحته، فما مسوغ شدة

الخلاف بسببه، وما مسوغ امتناع أي أحد في أن يختار منه ما شاء؟

وقد اغتر كثير من الغربيين بالدعوة إلى الاعتماد على العقل فلم يميزوا بين استعمال العقل والسير مع الهوى، بل حسبوا أن كل ما يخطر ببال أحدهم مما يراه محقق لما يظن أنه مصلحة، أو ما يراه مشبعًا لما هو شهوة إنما هو دليل على استقلاله واعتماده على عقله[1].

فائدة: ما علاقة الديمقراطية بالحركة التنويرية؟

من المؤكد أن الحركة التنويرية لم تكن هي التي اخترعت النظام الديمقراطي. لكنها كانت السبب في بعثه بعد ألفي عام من موته في مهده أثينا. لماذا بعثوه؟ لأنهم رأوا أنه أكثر النظم تمشيًا مع مبادئهم ولاسيّما مبدأ الحرية. فهم قد رفضوا الحكم الدكتاتوري ملكيًا كان أو غير ملكي. ورفضوا ما يسمونه بالأولغاركية Oligarchy وهو حكم قلة متسلطة، فوجدوا أن الديمقراطية هي حكم الشعب لا حكم فرد أو بضعة أفراد، لكن السبب الأعظم في اختيارهم للديمقراطية فيما يظهر هو كونها تؤيد دعواهم بأن البشر ليسوا بحاجة إلى تدخل من قوة إلهية لتسيير شؤونهم، بل هم قادرون على ذلك بحكم تكوينهم البشري. يظهر هذا جليًا في الحجج التي يسوقها مفكروهم لتسويغ الديمقراطية.

تنقسم هذه الحجج إلى نوعين: حجج فكرية فلسفية ساقها المفكرون من أنصار الديمقراطية، وحجج عملية قال بها بعض السياسيين.

---

(١) نقد للفكر الغربي بمنهج علمي، بحث نشر التقرير الاستراتيجي من إصدارات البيان عام ١٤٣١هـ.

تتلخص الحجج الفكرية الفلسفية في خمس حجج: هي العلم والمساواة والحرية وحكم الذات، وكون الديمقراطية أحسن الخيارات المتاحة. وبما أننا لن نستطيع أن ندخل في تفاصيل هذه الحجج في مقالنا هذا فقد رأينا أن نركز على واحدة منها نراها أهمها، وأما الحجج الأخرى فقد تعرضنا لها في كتيب عن (مشكلات الديمقراطية وبدائلها الإسلامية) نرجو أن ييسر الله تعالى إكماله وإصداره.

العلم والأمانة: العلم والأمانة شرطان لا يكون الحكم محققًا للغاية منه إلا بهما؛ لأن الذي يحكم بأن الأمر الفلاني يجب أن يفعل أو أن يجتنب إنما يقول هذا أو إنما يجب أن يقوله لما يعلم من النتائج التي تترتب على فعله أو تركه. لكن العلم وحده لا يكفي بل يجب أن تصحبه الأمانة، أي يجب أن يكون الحاكم قاصدًا للحق أو الخير فلا يحكم بما يرى فيه مضرة ويدعي أن فيه مصلحة. القول بأن الحكم للشعب يفترض أن كل المواطنين عندهم من العلم والأمانة ما يجعلهم أهلًا لأن يكونوا هم المشرعين لأنفسهم. **لكن هذا الافتراض عليه إشكالات كثيرة منها:**

١ - أنه لو كان الأمر كذلك ما كنا لنحتاج إلى اللجوء للأغلبية؛ لأن الذين يتساوون في العلم والأمانة لا بُد أن يحكموا حكمًا واحدًا لا اختلاف فيه، أي أن يكون كل حكم لهم بإجماعهم، لكن اللجوء لحكم الأغلبية يفترض أن هنالك اختلافًا بين الحاكمين، والخلاف لا يكون إلا بسبب الجهل أو سوء القصد أو هما معًا، إذن فإن حكم الأغلبية الذي يعد اليوم جوهر الديمقراطية يتناقض في

حقيقتها مع أهم مسوغ من مسوغاتها.

٢- وأنه لو كان كل المواطنون في كل وطن عالمين بمصالحهم لما احتاجوا إلى اكتساب علم جديد يساعدهم على تصور أحسن لما هو خير لهم ولمجتمعهم، لكن الواقع أن الناس يسعون لاكتساب العلم ويعترفون بمدى تأثير ما اكتسبوه من معلومات على مواقفهم السياسية، فاكتساب العلم يؤثر إذن في نوع التشريع أو الحكم الذي تحكم به الأغلبية، وكما أن العلم يؤثر فكذلك القيم تؤثر، فإذا ما سادت في المجتمع قيم غير التي كانت سائدة في قبل ذلك تغيرت أحكامهم بسبب للمعايير الجديدة التي تبنوها.

٣- وإذا ادعى مدع بأن العلم مهما كان نوعه لا تأثير له في ما يحكم به الشعب، يقال له هذا كلام يشهد العقل ببطلانه، فالذي يقوم يصوت بنعم معبراً عن قبوله لأمر ما بناء على تصوره بأنه يزيد من فرص الوطن في اكتساب الثروة مثلاً، سيصوت عليه بـ(لا)، معبراً عن رفضه له بناء على معرفة جديدة بأنه يفعل عكس ذلك تمامًا. إنه من المستحيل عقلاً أن يكون سبب ما العلة في قبول شيء ويكون نقيض ذلك الشيء هو أيضًا علة في قبوله، ثم إن هذا معناه أنه لا داعي لاكتساب معارف جديدة إذا كان اكتسابها لا تأثير له في الأحكام.

٤- وإذا لم يكن العلم ولم تكن الأمانة في الشعب كله، فمن أين لنا أن نعلم أنهما في أغلبيته؟ لندع حسن القصد الآن جانبًا، هل العلم وبالتالي صواب الحكم هو دائمًا في جانب الأغلبية؟

يقول نقاد الديمقراطية: كلا، ويجعلون هذا من دعامات رفضهم لها.

فلنبدأ بأول هؤلاء في التاريخ، أعني أفلاطون الذي يقول مبينًا جهل الحكام في النظام الديمقراطي: تصور شيئًا كالآتي يحدث في سفينة أو قافلة من السفن، مالك السفينة أكبر وأقوى من أي راكب، لكنه يعاني من ضعف في السمع والبصر ولا يدري كيف يبحر بالسفن، البحارة كلهم يتشاجرون في من يجدر به أن يكون ربان السفينة، كل واحد منهم يرى أنه يجب أن يكون هو ربانها بالرغم من أنهم لم يتعلموا فن الملاحة... بل إنهم ليصرون على أنه ليس هنالك من فن ملاحة يمكن أن يتعلم، ولذا فإنهم مستعدون أن يمزقوا إربًا كل من يدعي غير ذلك.

ما يزالون جميعًا متجمهرين حول مالك السفينة يرجوه كل واحد منهم بأن يترك الدفة له، وأحيانًا عندما يكون غيرهم في موضع القيادة فإنهم يقتلونه أو يرمونه في البحر. ثم إنهم يمخرون بالسفينة بعد أن قد خدروا المالك بالخمر أو العقاقير أو بشيء آخر يمخرون بالسفينة، يقضون على كل مؤن السفينة، ويجرون بالسفينة بطريقة تتوقع من أُناس أمثال هؤلاء... إنهم لا يدرون ألبتة أن الربان يجب أن تكون له معرفة بالفصول، وبالسماء، وبالنجوم، وبالرياح، وكل شيء آخر عن السفن إذا كان له أن يكون متحكمًا في السفينة، ولا يدرون أن هنالك فنًا يمكن الربان من أن يقرر في أي اتجاه يوجه السفينة، بغض النظر عمّا إذا كان الآخرون يريدون الذهاب إلى هنالك أم لا، ولا يعتقدون أن أحدًا يمكن أن يتقن مثل هذا الفن.

نقد أفلاطون للديمقراطية من أكثر أنواع النقد إحراجًا للغربيين؛ لأن قائله من أعظم فلاسفتهم بل ربما عده بعضهم أعظمهم حتى غلا فيه فيلسوف وعالم

رياضيات بريطاني كبير فقال: إن كل الفلسفة الغربية لا تعدو أن تكون هوامش على كتابات أفلاطون. وما يزالون يدرسون كتبه ويكتبون عنه كأنه رجل معاصر. ومع أن هذا النقد فيما يبدو هو نقد للحكم التنفيذي لا التشريعي الذي هو محل اهتمامنا، إلا أنه يمكن القول بأنه إذا جهل بعض الناس فن الحكم التنفيذي فحري بهم أن يكونوا أجهل بالحكم التشريعي.

يقول بعض المدافعين عن الديمقراطية من منظريها المحدثين: إن نقد أفلاطون وأمثاله غير مقبول لأسباب منها:

أولًا: أن القرارات السياسية قرارات خلقية، وأن أفلاطون كان يفترض خطأ أنه من الممكن العلم بالقيم الخلقية، لكننا في هذا العصر نرى أن هذا العلم غير متيسر، وبالتالي لا نرى أن هنالك خبراء فيه كالخبراء في المسائل الحسية أو الطبيعية، وما دام الأمر كذلك فلا رأي أجود من رأيي في الأمور الخلقية، وعليه فمن حق الناس جميعًا أن يحكموا، وعليه فإن الديمقراطية التي تأخذ برأي الأغلبية هي خير طريقة للوصول إلى القرار السياسي.

لكن بإمكان المدافع عن رأي أفلاطون أن يقول: إذن فالديمقراطية في رأيكم هذا إنما تصلح لمن كان موافقًا لكم في أن العلم بالصواب الخلقي مستحيل، فالديمقراطية لا تصلح إذن إلا في جو ثقافي مثل هذا الذي نسبتموه إلى العصر ولا بُدّ أنكم تعنون العصر في البلاد الأوربية، وإلا فإن الناس في العالم كله ما يزالون يعتقدون بإمكانية العلم بحسن الأخلاق وسوئها. بل إن

هنالك أعدادًا كبيرة ربما كانت الأغلبية حتى في الغرب نفسه ما زالت تؤمن مثل هذا الإيمان، وإلا فلماذا يكون موضوع الإجهاض في أمريكا موضوعًا سياسيًا ساخنًا، بلغ من الحدة بحيث أن بعض من يسمون بأنصار الحياة قتلوا طبيبًا معروفًا بإجراء عملياته واعتبروه قاتلًا، ثم إن القرارات السياسية ليست كلها أخلاقية.

وعليه، فحتى لو سلمنا بأن الناس في الغرب اليوم لا يعتقدون بإمكانية العلم بحسنها وسوئها، فإن المشكلة ما تزال قائمة. أفكل ما يقدم للمجالس التشريعية من مشاريع قوانين ودراسات حولها إنما هو مسائل خلقية بحتة لا تؤثر فيها الحقائق والأرقام والحجج العقلية؟

وبإمكانه أن يقول إن الدعوى بأن الحكم بقبول شيء أو رفضه حتى في المجال السياسي هو حكم خلقي بحت ليس بصحيح، ونحن نرى الناس يبنون أحكامهم على ما يعدونه بحسب ما توفر لديهم من معلومات خادمًا لمصلحة شخصية أو عرقية أو حزبية أو قومية.

ثانيًا: يرى النفعيون أنه حتى حين تكون القرارات خلقية فإن الديمقراطية هي خير الإجراءات؛ وذلك أنهم يجعلون القرارات على درجتين الدرجة الأولى التي يعبر كل إنسان فيها عن اختياره، عمّا يرى أنه في مصلحته الشخصية، وكونه محققًا لسعادته، هذا قرار لا علاقة له بالأخلاق. أما الدرجة الثانية فهي التي تحسب فيها قرارات المرحلة الأولى ويحكم بأن القرار النهائي

هو الذي يحقق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، وهذا هو القرار الأخلاقي.

بإمكان نصير أفلاطون أن يقول: لكن رأي النفعيين هذا قائم على افتراض أن كل إنسان أعلم بمصلحته وما يحقق له سعادته، وهو افتراض باطل؛ وذلك لأن العلم بالمصلحة ليس مجرد شعور وهوى وإنما هو أمر مرتبط بحقائق موضوعية لا يتوفر العلم بها لكل الناس بل ولا لأحد منهم، ثم إذا كانت الديمقراطية إنما تحقق مصلحة الأغلبية فإنها تكون ظالمة للأقلية، فلا تكون هي حكم الشعب بل حكم فئة منه.

ثالثًا: يقول بعضهم: إن حجة أفلاطون تعتمد على افتراض أن الغاية هي تحقيق ما هو أصلح للمجتمع، لكن هب أن هذه ليست هي الغاية، أو أنها ليست الغاية الوحيدة، فالحجة إذن لا تستقيم. مثلًا إذا كنا نريد أن نتملق الجماهير، أو نتودد إليهم، أو نسكن من غضبهم، أو نعطيهم إحساسًا ما بأنهم يتحكمون في مصائرهم، أو نتفادى غضبهم أو أسئلتهم، أو نشعرهم بأنهم مهمون، فإن وسائل أخرى قد تكون أجدى.

وعليه، فإن من الوسائل ما قد يكون أقل جودة في نتائجه من حيث الحقيقة، لكنه يحقق نتائج أحسن إذا لم تكن الحقيقة هي الغاية.

وعليه، فإن فقدان الحقيقة لن يكون نقدًا مناسبًا لهذه الوسائل، إلا إذا كان توخي الحقيقة ذا أهمية أكبر من الغايات الأخرى، لكن كون هذا كذلك أو لا،

يعتمد بصفة عامة، على ما نريد أن ننجزه.

وأقول: لولا أنني وجدت هذا الكلام في كتاب يعد من أحسن الكتب في فلسفة الديمقراطية لما صدقت بأن إنسانًا عاقلًا يمكن أن يعده حتى مجرد احتمال جدير بالمناقشة.

يبدأ الاعتراض بعبارة (إذا كنا نريد...) من أنتم الذين تريدون هذا؟ إن حديثنا هو عن الشعب كله، فهل الشعب هو الذي يريد هذا؟ هل الشعب هو الذي يريد أن يتملق الشعب؟ هل الجماهير هي التي تريد أن تتودد إلى الجماهير؟ وهل... وهل؟ لا بُد أنكم تتحدثون عن فئة من الناس تريد أن تفعل هذا كله، ومن المؤكد أنه من شرط نجاحها فيما تريد أن تخفي هذا كله عن الجماهير، إذ أنها لا تستطيع أن تصارحهم بأنها إنما تريد أن تتملقهم أو تتودد إليهم، أو... أو... بل لا بُد أن يكون هذا كله قائمًا على الكذب عليهم وإظهاره في صورة ترضى عنها الجماهير، لكن كل هذا يؤكد رأي أمثال أفلاطون بأن الناس لا يعلمون كلهم، وإلا لما استطاعت قلة منهم أن تخدعهم مثل هذا الخداع. بل إن المتفقين مع أفلاطون قد يقولون إن نظامًا سياسيًا يجعل هذا ممكنًا لهو النظام الذي ينبغي أن يرفض.

رابعًا: أنه حتى على افتراض أن المعرفة هي القيمة الكبرى التي على أساسها ينتخب الحكام، وعلى فرض أن هنالك من هو أعرف من غيره، فيجب لكي ننصبهم حكاما أن نعرف من هم، ولكن يبدو أنه ليس هنالك من وسيلة لتحديد هؤلاء الذين يعلمون. كيف نعرفهم؟

نقول هذا: وإن كان أمرًا صعبًا ولا سيّما إذا كان الحكم علمانيًا فإنه ليس من المتعذر، بل لعله من الممكن حل هذه المشكلة حتى في نطاق النظام الديمقراطي إذا ما استحدثنا فيه مبادئ جديدة غير معهودة الآن لكنها غير متناقضة مع فكرة الديمقراطية.

خامسًا: أنه قد تكون هنالك حالات ولا سيّما حالات جماعات صغيرة لا يكون الفرق في المعرفة أو الخبرة بين أعضائها كبيرًا، فمما لا شك فيه أن رأي الأغلبية في مثل هذه الحال سيكون الأقرب إلى الصواب.

نقول: هذا أمر لا شك فيه، لكن لا يلزم ناقد الديمقراطية باعتبارها نظام حكم أن يكون رافضًا لكل شيء فيها في كل حال من الأحوال. وهذه منها.

سادسًا: أنه قد تكون هنالك حالات لا يكون المعول فيها على مجرد العلم أو الخبرة، بل يحسن فيها اعتبار قيم أخرى، مع المعرفة أو بدونها.

نقول: وهذا أيضًا نقد مقبول إذا كان موجهًا لأفلاطون بالذات، لكن قولنا فيه هو قولنا في سابقه، بل إن هذا لأمر معتبر في الإسلام.

من أقوى الأدلة على بطلان كون الشعب أو أغلبيته عالم بمصالحه مؤتمن عليها أنه لا أحد من الآخذين بالنظام في العالم كله يسلم بهذه الدعوى أو يأخذها مأخذ الجد، إن الدليل على أنهم لا يعتبرون الأغلبية مؤتمنة على صيانة الحقوق أنهم في الغرب وفي البلاد المقلدة له لا يؤمنون بالديمقراطية على إطلاقها بل يقيدونها بالليبرالية فديمقراطياتهم ديمقراطية ليبرالية. ما معنى ذلك؟

معناه أن حكم الشعب مقيد بكون ضمن إطار قيمي معين هو الإطار الليبرالي.

ماذا تقول الليبرالية؟ تقول إن للإنسان الفرد حقوقًا جوهرية غير قابلة للمساومة ولا يجوز لأحد أن يتغول عليها حتى ولو كان هذا المتغول هو الأغلبية (سواء كان أغلبية المواطنين في استفتاء عام، أو أغلبية نوابهم في مجلس تشريعي).

سنبين حين نأتي لمناقشة الليبرالية أن هذا فوق كونه ينقض الافتراض بأن الشعب أو أغلبيته عالمة بما هو مصلحة مؤتمن على التعبير عنها، فإنه ينقض فكرة الديمقراطية نفسها؛ لأن الديمقراطية مبنية على أن السيادة التشريعية للشعب، لا لدكتاتور، ولا لفئة من الناس، بل ولا لكتاب منزل وإنما هي للشعب. فكيف يقال إن هذا الشعب صاحب السيادة التشريعية محكومة قراراته بقيم الليبرالية؟ ما أساس هذه القيم خيرًا كانت أم شرًا؟ هل هي مما شرع الله؟ هل هي مما رأته فئة من المواطنين؟ على كل حال فإنها مهما كان مصدرها تتناقض مع مبدأ سيادة الشعب التشريعية[1].

فائدة: ماهي الرأسمالية؟

حديثنا هنا ليس عن النظام الاقتصادي الرأسمالي السائد في العالم اليوم والذي بدأت بعض أعمدته تنهار وبدأت أخرى تهتز في الولايات المتحدة وفي

---

(١) نقد للفكر الغربي بمنهج علمي، بحث نشر التقرير الاستراتيجي من إصدارات البيان عام ١٤٣١هـ.

أوروبا وغيرها، حديثنا ليس عن هذا النظام وإنما هو عن النظرية الفلسفية التي يقوم عليها، والتي كان الاهتداء بها هو السبب الحقيقي لما يعاني منه النظام الرأسمالي من مشكلات.

نقول: إن الكارثة الاقتصادية الراهنة كانت دليلاً يضاف إلى أدلة أخرى على فشل النظرية التي قام عليها الاقتصاد الرأسمالي، **وهي دليل من ناحيتين:**

- من ناحية أن العمل بالنظرية هو الذي أدي إلى الكارثة.
- ومن ناحية أنه اتضح أن علاج الكارثة تطلب الخروج على ما تقتضيه.

تقول النظرية: إن الاقتصاد الناجح هو اقتصاد سوق يسمح بالملكية الفردية وبالبيع والشراء والادخار ويترك للسوق تحديد أسعار السلع، وإن هذا كله ينبغي أن يكون في حرية كاملة لا يحد منها أي تدخل من الدولة.

كان الفيلسوف والاقتصادي الاسكتلندي آدم سميث الذي عاش في قرنهم الثامن عشر هو أكثر من اشتهر بالقول بهذه الفلسفة الرأسمالية، لكن المؤرخين يقولون إنه هو نفسه تأثر بكتابات (ماندافيل) الذي كان أكثر منه غلوًا في هذا الأمر فهو المشهور بقوله: «إن الرذائل الفردية هي فضائل اجتماعية في مجال الاقتصاد».

كان سميث وغيره يقولون: إنه لا بأس على الفرد أن يندفع لتحقيق مصالحه بدافع الأنانية، بل قال بعضهم بدافع الطمع ليحقق مصالحه وأن النتيجة ستكون بفعل يد خفية أمرًا لم يخطر على بال الفرد، هو الصالح العالم،

لكن الواقع أن هذه اليد الخفية لم تقم بالمهمة التي عزاها إليها سميث وغيره، وإنما أدى ذلك الطمع الفردي المتروك له الحبل على غاربه إلى تقسيم الثروة تقسيمًا ظالما بحيث أن قلة قليلة من المواطنين تصل أحيانًا إلى عشرة بالمئة تمتلك ما يصل أحيانًا إلى تسعين بالمئة من الثروة، ولا يمتلك التسعون بالمئة الباقون إلا عشرة بالمئة منها، مما جعل بعض الاقتصاديين الأمريكيين يقولون ساخرين إنه يبدو أن شيئًا أصاب تلك اليد فشلّها. وقد بدأت الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد حدتها منذ سنين مما جعل بعض الاقتصاديين يقولون: إنه إن استمر التفاوت على تلك الوتيرة فسيؤدي حتمًا إلى كارثة اجتماعية.

إن الأمر المثالي للنظرية الناجحة أن تكون النتيجة أحسن فأحسن كلما كان واقع العمل بها أقرب إلى مثالها النظري. لكن الغريب في النظرية الرأسمالية أنه لو كان الواقع قريبًا من مثالها ودعك أن يكون مطابقًا له لكانت الكوارث أكثر فأكثر، الصورة المثالية لهذه النظرية الرأسمالية هي أن لا يكون للدولة أدنى تدخل في النشاط الاقتصادي، لكن هذا معناه أن لا تفرض الدولة على الناس ضرائب، ولا تضع قوانين تقيد بها النشاط الاقتصادي، كأن تمنع صنع بعض الأشياء الخطرة أو المتاجرة بها، وكأن تحدد الأماكن التي تبنى فيها المصانع، وتضع لها شروطًا صحية وبيئية وغير ذلك، لكن كل هذه القيود ما زالت تحدث إلى حد ما في الدول الرأسمالية، الدولة إذن تدخلت لكن تدخلها لم يكن بالقدر الذي يرفع الظلم، بل كانت تميل دائمًا إلى إعطاء حرية أكبر للأغنياء مهما أدى ذلك إلى التضييق على الفقراء.

خذ نظام الضرائب في الولايات المتحدة مثلًا، إن الضريبة لا تؤخذ من رأس المال كما هو الحال في الزكاة وإنما تؤخذ فقط من دخل الفرد في العام المالي، وهذا معناه أنه إذا كان هنالك شخصان أحدهما يمتلك مليوني دولار والآخر لا يمتلك شيئًا، لكن دخل كل منهما في السنة المالية كان مئة ألف دولار، فإن نسبة ما يؤخذ منهما ستكون متساوية، أي أن الضريبة لا تتعرض لرأس المال الذي كان موجودًا قبل السنة المالية.

قال (كيفن فلبس) في كتابه عن (الديمقراطية والثروة): إنه لو أخذت ضريبة مقدارها ثلاثة بالمئة على رؤوس الأموال في أمريكا وحدها لما بقي على وجه الأرض فقير! ولعل القارئ لاحظ أن هذه النسبة قريبة جدًّا من نسبة الزكاة التي تفرض فعلًا على رؤوس الأموال.

لكن دعاة الرأسمالية في الغرب ما يزالون يدافعون عنها رغم كل ما يرون من آثارها الضارة، أتدرون ما السبب في هذا؟ السبب إنهم ظنوا أن البديل الوحيد للنظام الرأسمالي الذي عهدوه هو النظام الاشتراكي الذي عرفوا صورًا منه في الاتحاد السوفيتي وفي الصين قبل التعديلات التي أحدثها الصينيون فيه. وهم بهذا يخلطون بين كون الرأسمالية اقتصاد سوق وبين كون كل اقتصاد سوق هو بالضرورة اقتصاد رأسمالي.

لكن الحقيقة هي أن هنالك بديلًا ثالثًا هو الاقتصاد الإسلامي الذي هو اقتصاد سوق، لكنه سوق منضبط بضوابط القيم الإسلامية وهي قيم يغلب عليها

مراعاة مصالح الفقراء مما يجنب المجتمعات الآخذة بها ذلك التفاوت الفظيع الذي نتج عن النظرية الرأسمالية. في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥].

بيان لهذين الأمرين ففي إحلال البيع إقرار باقتصاد السوق، وفي تحريم الربا تقييد له بقيم إسلامية هي في مصلحة الفقراء. ثم تأتي الزكاة التي هي أيضًا في مصلحة الفقراء، بل تأتي القاعدة العامة التي تأمر بأن لا يكون المال دولة بين الأغنياء، وإذا كان الغربيون لم يعرفوا النظرية الرأسمالية إلا في صورتها التي قال بها سميث وغيره، فإننا نعلم من القرآن الكريم أنها نظرية قديمة كان من بين من قالوا بها قوم شعيب الذين رفضوا دعوة نبيهم لهم إلى العدل في معاملاتهم المالية بحجة أن المال مالهم فلهم الحق أن يفعلوا فيه ماشاؤوا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٤-٨٧].

شعار الفلسفة الرأسمالية يكاد يكون ترجمة لقول قوم هود هذا. فقوم هود يريدون أن يفعلوا ما شاءوا والفلسفة الرأسمالية تقول: (دعه يعمل) Laissez

Fair أي لا تتدخل في نشاطه الاقتصادي. رفض الإسلام الفلسفة (دعه يعمل) التي احتج بها قوم هود على أساس أن المال ليس مملوكًا ملكية مطلقة للبشر وإنما هو مملوك لله الذي يأمر البشر بأن يتصرفوا فيه تصرفًا عادلًا وفق أوامره سبحانه.

من الآثار الحسنة التي نتجت عن هذه الكارثة أن كثيرًا من المفكرين من اقتصاديين وغير اقتصاديين لم يعودوا يؤمنون بالنظرية الرأسمالية القحة؛ بل صاروا يدعون إلى تدخل من الدولة لإقرار العدل وصاروا يذمون الأنانية والطمع الذي كان من أسباب هذه الأزمة. فالفكر الاقتصادي بدأ بهذا يقترب من الهدي الإسلامي الذي يقر اقتصاد السوق في حدود قيم العدالة.

والمأمول أن يكون في هذا عِبرة لإخواننا المسلمين يعيد إليهم الثقة بتعاليم ربهم ويشجعهم على الاستمساك بها في نشاطهم الاقتصادي لكي يضربوا للناس مثلًا عمليًا بحسنها وجدواها. وقد بدأ الاهتمام بتعاليم الإسلام الاقتصادية في المجالات الأكاديمية في الغرب، بل إن الأمثلة العملية للمؤسسات الاقتصادية الإسلامية بدأت تبدي نجاحها بالنسبة لوصيفاتها الغربية كما يحدثنا البروفسور علي خان أستاذ القانون بجامعة ووشبيرن بولاية كنساس الأمريكية في مقال له عن الكارثة الاقتصادية[1].

---

(١) نقد للفكر الغربي بمنهج علمي، بحث نشر التقرير الاستراتيجي من إصدارات البيان عام ١٤٣١هـ.

فائدة: علاقة الديمقراطية بالرأسمالية والليبرالية؟

الديمقراطية السائدة في الغرب الآن تسمى بالديمقراطية الليبرالية كما أنها ديمقراطية مرتبطة بالرأسمالية، وقد كتب المفكرون الغربيون أنفسهم في ما يرونه من تناقض بين هذه المبادئ، فالليبرالية تتناقض مع الديمقراطية؛ لأن الديمقراطية تجعل الشعب هو السلطة التشريعية العليا، لكن الليبرالية تقول إن لكل فرد من الناس حقوقًا لا يجوز حتى للأغلبية أن تتغول عليها.

من الذي أعطى الأفراد هذه الحقوق؟

هذا سؤال لم يستطيعوا الإجابة عليه، فمنهم من قال: لأنها حقوق صدر بها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، لكن على أي أساس صدر ذلك الإعلان نفسه؟ ثم ألا يجوز للأمم المتحدة التي أصدرته أن تغير فيه وتبدل؟ ومنهم من يقول إنها حقوق أجمع الناس عليها في العالم كله، ولكن لو كان الأمر كذلك لما كانت هنالك من حاجة؛ لأن يصدر بها إعلان أو تجعل في قوانين، إن المسلم يؤمن بحقوق للإنسان يوافق بعضها بعض ما جاء في ذلك الإعلان لكنه يقول إنه حقوق أعطاها الخالق لعباده فلذلك لا يجوز لهم أن يحرموهم منها[1].

فائدة: الفكر الغربي؟

أحسن ما عند الغربيين من فكر هو الفكر العلمي المستند إلى أدلة حسية وعقلية، والذي يسمى سيئس Science، وهو في مفهومه العام يشمل العلوم

---

(١) نقد للفكر الغربي بمنهج علمي، بحث نشر التقرير الاستراتيجي من إصدارات البيان عام ١٤٣١هـ.

الطبيعية من فيزياء وكيمياء وأحياء وغيرها، لكنه يشمل أيضًا كل علم اجتماعي سار على مناهج هذه العلوم.

كيف ينظر المسلم إلى هذه العلوم وكيف يقومها؟ ينظر إليها نظرة المتقبل المقدر لها الآخذ بها. لماذا؟

أولًا: لأن منهج هذه العلوم منهج يقره دينه. فالله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

هذا معناه أن الحس والعقل هما الوسيلتان اللتان يكتسب بهما الإنسان العلم سواء كان علمًا دينيًا أو كان علميًا دنيويًا، وهذه العلوم تقوم على المشاهدة والتجربة وعلى قوانين عامة ونظريات تختبر صحتها بتلك المشاهدة والتجربة، فما أبطلته كان باطلًا، وما شهدت له كان صحيحًا، لكن لا يشترط في الصحة أن تكون أمرًا يقينيا بل يكفي فيها غلبة الظن. وكل هذه أمور مقبولة في الإسلام.

ثانيًا: لأن هذه العلوم علوم مفيدة كما دلت على ذلك تجربة الغربيين معها، وكما دلت على ذلك تجربة المسلمين قبلهم معها، فالأمة التي لا تأخذ بها ولا بما يبنى عليها من تقنيات تظل متخلفة في مجالات الاقتصاد والقوة العسكرية والإعلام وغيرها بالنسبة للأمم التي تأخذ بها، وكل أنواع القوى هذه أمور يحتاج إليها المسلمون لبقاء دينهم وللدفاع عنه ولتبليغه.

ثالثًا: لأن لهذه العلوم مكانة كبيرة في التاريخ الإسلامي، كما يدل على ذلك ما كتبه المسلمون وغير المسلمين في تاريخ العلوم، وكيف أن الغرب الذي تفوق على المسلمين الآن فيها كان هو في البداية قد أخذ عن المسلمين وتأثر بكشوفاتهم ونظرياتهم، ليس هذا فحسب بل إن المسلمين رغم تأخرهم فيها بالنسبة للغرب ما يزالون يشاركون في تطورها بتجاربهم وكتاباتهم في المجلات العلمية حتى في البلاد الغربية، لكن كل هذا لا يرضي طموح المسلم المتطلع إلى أن يصير للمسلمين القدح المعلى في هذه العلوم وتقنياتها، ولذلك فإنه يأمل أن يتطور الفكر العلمي في بلاده في كل مجالاته، مجال المؤسسات التي ترعى هذا العلم، ومجال التخصصات الدقيقة فيه، والمجال العام الذي يجعل من الفكر العلمي هذا فكرا جماهيريا بقدر المستطاع.

رابعًا: لأن المسلمين بدأوا يجدون في ما توصلت إليه هذه العلوم من حقائق تؤيد ما جاء في كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله ﷺ، وأسسوا لذلك علمًا أسموه بالإعجاز العلمي. والمقصود بالإعجاز هنا كون القرآن والسُنّة سبقتا إلى تقرير بعض الحقائق التي اكتشفتها العلوم الطبيعية لاحقًا، والتي ما كان من الممكن أن يعرفها بشر في زمن النبي ﷺ بالوسائل المتاحة للناس في ذلك الزمان، ومن أحسن الأمثلة على ذلك مسألة تطور الجنين التي يقول عنها العالم الكندي كيث مور كما نقل عن الأستاذ الدكتور زغلول النجار:

«إن التعبيرات القرآنية عن مراحل تكون الجنين في الإنسان لتبلغ من الدقة والشمول ما لم يبلغه العلم الحديث، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل علي أن

هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا كلام الله، وأن محمدًا رسول الله».

في مثل هذه الكشوف تصديق لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

خامسًا: ولأننا نريد أن نصحح مسار هذه العلوم بأن نخلصها من الفلسفة المادية الإلحادية التي صارت إطارًا لها، تتمثل هذه الفلسفة الإلحادية في القول بأن العالم مكتف بنفسه لا يحتاج إلى تدخل من خارجه، وأن حوادثه يجب تفسيرها بظواهر من النوع المشهود فيه، لكن هذا معناه أن عدم قبول أي دليل من داخل العالم على حقيقة في خارجه.

وإذا كان عصر تنويرهم لا يؤمن إن آمن إلا بإله لا يتدخل في الكون ولا يرسل رسلًا، فإننا نؤمن بإله لا يحدث شيء في الكون إلا بإذنه وعلمه وإرادته وقدرته، ونؤمن بأن هذا الإله هو الذي أرسل محمدًا بالدين الحق، ولذلك فإذا كان الملحدون الماديون يحصرون مصادر المعرفة في الكون وحده، فإننا نؤمن بأن للمعرفة مصدرين هم: خلق الله وكلام الله تعالى، وقد رأينا كيف أن حركة الإعجاز العلمي قد أثبتت توافق الحقائق الكونية مع الحقائق الشرعية[1].

---

(١) نقد للفكر الغربي بمنهج علمي، بحث نشر التقرير الاستراتيجي من إصدارات البيان عام ١٤٣١هـ.

فائدة: هل تحكم (نظرية المؤامرة) في تفكير المسلمين من أسباب نشوء سوء التفاهم مع الغرب؟

هناك جماعة من المسلمين تقول بهذه النظرية، ولكن ليس في يد هؤلاء أي سلطة تتيح لهم الحركة في اتجاه مواجهة الغرب، أما الغرب فهو الذي له القدرة على تنفيذ ما يراه من سياسات ومخططات، بما يمتلك من آليات التنفيذ. وهذا المفهوم سبق لي أن كتبت عنه، وفيه كثير من الوهم، إذ لا يمكن أن نتخيل أن الغربيين يحركون الأشياء والأشخاص كقطع الشطرنج، وأنهم يعرفون كل كبيرة وصغيرة في هذا العالم وأن كل شيء يستطيعون تسييره بأمرهم وأن تخطيطهم يتحقق وفق ما يريدون، فهذه أمور تدخل في علم الله؛ لأنه ليس لأي إنسان مهما كانت قدراته أن يكون له علم كاف، يضمن له نجاح كل مخططاته وسياساته. فنحن نعيش في الغرب، ونعرف أنهم كغيرهم من الناس في أي مكان من العالم يختلفون وتتضارب آراؤهم وتخيب توقعاتهم وتتغير سياساتهم حسب تقديراتهم للمواقف المختلفة وهي تقديرات قد تكون صائبة، ويمكن أن تكون خاطئة.

فائدة: العلاقة المستقبلية بين الإسلام والغرب:

من واقع استقرائك لمجريات الأحداث... كيف ستكون طبيعة العلاقة المستقبلية بين الإسلام والغرب، هل هي علاقة صدام أم حوار؟ شكل هذه العلاقة يحدده الناس، ونظرتهم إلى مصالحهم، والوسائل التي تتحقق بها هذه المصالح، فالكاتب الأمريكي هنتيجتون في تحليله ينطلق من كونه عالم اجتماع

يرصد الواقع ويفسره، فانتهى من تحليله إلى أن الصدام القادم سيكون بين الحضارة الغربية من جهة والحضارتين الإسلامية والكنفوشيوسية من جهة أخرى، ويعتمد في تحليله على أن الدول الإسلامية بدأت تتعاون مع الصين واليابان وأنهما ستمدان هذه الدول بالأسلحة، وإذا افترضنا صحة هذا التحليل، فإن السبب في ذلك يكون الغرب؛ لأنه لا يريد للدول الإسلامية أن تتطور أو أن تمتلك ما تدافع به عن نفسها، وإذا كان هنتيجتون يرى الدين مكونًا من أهم مكونات الحضارة فإن ذلك يعني أن المسافة أقرب بين الغرب والإسلام، من تلك المسافة التي بين الإسلام والكنفوشيوسية؛ لأن النصارى واليهود نسميهم نحن المسلمين أهل الكتاب، ولهم منزلة خاصة في الدين الإسلامي.

وإذن فإن السبب الحقيقي للتعاون القائم بين المسلمين وأصحاب الحضارة الكنفوشيوسية ليس نابعًا من طبيعة الحضارتين، بل من معاملة الحضارة الغربية لهما. وأنا استبعد الصدام وبخاصة الصدام المسلح، لأن من المعروف أن الأسلحة التي تمتلكها الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تكفي لتدمير العالم كله عدة مرات، فكيف إذا أضيف إليها ما لدى الدول الغربية الأخرى، والصين وروسيا، وغيرها، فليس هناك من أحد سيستفيد في حالة حدوث صدام شامل، وأعتقد أن الغربيين حريصون كغيرهم على الحياة، ولن يكون أي صدام في صالحهم، ولكن هذا لا ينفي أنه سيكون هناك صدامات وحروب محلية، كما هو الحال اليوم[1].

---

(١) حوار مع مجلة الفيصل العدد (٢٥٧).

فائدة: لو حدث انهيار للحضارة الغربية كما يراهن على ذلك بعض المسلمين فمن المستفيد إذا حدث ذلك؟

انهيار الحضارة الغربية إذا حدث سيكون بسبب الانحلال الأخلاقي، فانهيار الاتحاد السوفيتي السابق، ربما يقال إنه لعامل اقتصادي، أما انهيار الغرب - إذا حدث- فسيكون لأسباب خُلقية. فأنا أرى أن قضية المخدرات من أخطر القضايا التي تهدد الغرب، وأذكر أنَّ واحدًا ممن هداهم الله إلى الإسلام قال لي: إنه عندما تخرج قبل ثلاث سنوات أو أربع كانت نسبة الذين يتعاطون المخدرات بصفة دائمة تصل إلى ٤٠٪، إضافة إلى أن جميع الطلاب يمكن أن يكون قد تعاطوها مرة واحدة على الأقل، أما الآن، فإن الذين لا يتعاطون المخدرات أصبحوا يمثلون الأقلية وهناك مشكلة التفكك الأسري أيضًا من مهددات الحضارة الغربية، فإذا فسد الفرد بالمخدرات وانحلت الأسرة، ماذا بقي في المجتمع؟

ولكن لماذا تقول انهيار، ولا نقول: إن الله يمكن أن يهديهم إن شاء الله إلى الإسلام أو على الأقل أن يتأثروا بالقيم الإسلامية التي بدأوا يعرفونها، وعلينا أن نرجو لهم الهداية؛ لأنهم إذا اهتدوا حافظوا على كل هذه الإنجازات المادية التي حققها الإنسان في هذا العصر، ومن الخطأ الظن أن انهيار الحضارة الغربية يعني آليا سيطرة المسلمين؛ لأن من الممكن أن تؤول السيطرة إلى حضارة أخرى مثل الحضارة اليابانية أو الصينية، وقد تكون الحضارة البديلة أسوأ من الحضارة الغربية، إذ ليس من الإنصاف أن ننكر أن هناك قيمًا إنسانية تلتزمها

الحضارة الغربية على الرغم من كل علاتها، وسواء بقيت الحضارة الغربية أو انهارت، فإن مشكلاتنا ستظل قائمة، لأنها نابعة من داخلنا، وليس الغربيون هم الذين يمنعونا من أن نجعل أمتنا أمة شامخة، فالمسلمون منقسمون بين من يريدون بناء الحياة على أساس الإسلام ومن يريدون تبني العلمانية الغربية، وأحمّل أصحاب الفكر العلماني مسؤولية ما نحن عليه من ضعف لما أحدثوه من انشقاق في داخل العالم الإسلامي[1].

فائدة: إيجابيات الحضارة الغربية:

هذه الحضارة تنطوي على كثير من الإيجابيات، ولو أن بداية الحضارة الغربية كانت بالمخدرات والتفكك الأسري ما كانت لتتطور أبدًا، فهذا التطور المادي يحتاج إلى شيء من الخُلق، فلا ننكر ما للنظام الديمقراطي من مزايا، على الرغم مما فيه من عيوب بسبب ارتباطه بالعلمانية، ولكن أن يحتكم الناس إلى القانون من دون أي فوارق، فهذا يمثل جانبًا إيجابيًا مهمًا، كما أن حرية التعبير ليست مسألة سياسية فحسب، وإنما لها آثارها التربوية، فالطفل في ظل الكبت ينشأ على الخوف، والخوف يدفعه إلى الكذب، ومحاولة تسويغ الأخطاء، وقد لاحظت أن الشباب الأمريكي الذي يهديه الله إلى الإسلام يبدو أكثر جرأة في التعبير عن آرائه، ولا يعتريه الخوف، مهما كان عدد الذين يتحدث إليهم ولا يعرف أغلبهم الكذب، ومثل هذه الفضائل كانت موجودة في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وقد رسّخها الإسلام، ولذا لا يمكن أن ننزع من

---

(١) حوار مع مجلة الفيصل العدد (٢٥٧).

الحضارة الغربية ما تتمتع به من قيم إيجابية كثرت أم قلت[١].

فائدة: دور المناهج التربوية في ترسخ بعض القيم السلبية في شخصية الطفل المسلم؟

إن طريقتنا في التربية كثيرًا ما تكون على أُسس غير دينية، كما أنها لا تعتمد تجارب علمية، فمثلًا، القسوة الشديدة مع الطفل يولّد في نفسه الخوف وعدم القدرة على الاستيعاب. ويحضرني مثال حي، هو أحد الإخوان ذكر لي أنه كان يحفظ القرآن الكريم كاملًا قبل أن ينتهي من المرحلة الابتدائية، ولكن بمجرد أن أنهى دراسته نسي ما حفظه، لأن الحفظ ارتبط في ذهنه بالضرب والقسوة.، ولا أدري من أين أتينا بهذه الأساليب في التربية، فهي ليست من ديننا ولا من تاريخنا، فالنبي من أخلاقه أنه لم يضرب بيديه الكريمتين طفلًا ولا خادمًا ولا امرأة إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى، فيروي عن خادمه أنس أنه ﷺ لم يسأله أبدًا عن شيء فعله لماذا فعله، ولا عن شيء تركه لماذا تركه. فالأطفال ينبغي أن نغرس في نفوسهم عدم الخوف، ولا ندفعهم بقهرنا لهم إلى الإصابة بما يعرف بالخجل المرضي، فالقسوة تولد التردد، وعدم الثقة بالنفس، وتدفع إلى الكذب[٢].

---

(١) حوار مع مجلة الفيصل العدد (٢٥٧).

(٢) حوار مع مجلة الفيصل العدد (٢٥٧).

فائدة: افتقاد عالمنا الإسلامي إلى أدبيات الخلاف، لا تؤهله لإقامة حوار حضاري مع الآخرين؟

هذا صحيح وقد عانيت شخصيًا منه، فما إن تنتقد إنسانًا، وتُبدي له وجهة نظر مخالفة لما يراه، حتى يضعك في خانة الأعداء، وقد تدربت في المدارس الثانوية وفي جامعة الخرطوم على أيدي أساتذة غربيين على أنْ أقول الصدق. ولكن حين مارست هذا الصدق في بعض المواقف وجدت أن مردوده سلبي جدًا!.

فقد كتبت مرة عن رجل أحبه كثيرًا، هو الأستاذ سيد قطب الذي له فضل كبير عليّ، وانتقدت بعض آرائه وفق ما يقتضيه المقام من أدب واحترام، إلا أني فوجئت بأن هناك من كتب عني كما لو كنت مارقًا من الإسلام أو عدوًا للأستاذ سيد قطب.

ولو أن الأطفال مارسوا النقد الموضوعي في المراحل الدراسية المختلفة، واعتادوا احترام الرأي الآخر، فإن هذا سيكون له أثره الإيجابي في تطور الفكر، لأنه لا يتطور الفكر الإنساني من دون نقد بنّاء إذ كيف يتاح للناس أن يكتشفوا الخطأ ويعرفوا الصواب، ما لم يعبروا عن آرائهم بكل صدق، فلولا اختلاف الآراء والحوار من أجل اكتشاف الأصلح منها، ما تقدم الاقتصاد أو السياسة، أو عرف الناس الصواب في أمور دينهم، أو تطورت العلوم الطبيعة، وهذه العلوم الطبيعية هل كان لها أن تتطور إذا اعتقد كل من جاء بنظرية من النظريات أنها صحيحة مائة في المائة، وأبى أي تعديل عليها، ظانًا أنه أتى بما لم تأت به

الأوائل. ولكن ما جعل العلوم تتطور، هو وجود النقاش والجدل وتبادل الآراء، وتقبل العلماء لذلك كله بروح طيبة، وهذا ما ينبغي أن يكون في كل ناحية من نواحي الحياة[1].

(١) حوار مع مجلة الفيصل العدد (٢٥٧).

مصادر كتب الحضارة

١- صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي[١]

وقد قسمت هذه المقالات والموضوعات إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: الحضارات...صراع أم تعايش؟ ويحوي الموضوعات التالية:

١- العولمة وصراع الحضارات[٢]:

٢- موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى[٣]:

وقد صدر الدكتور محاضرته بسؤال والإجابة عليها، وهو هل صدام الحضارات أمر لازم؟ وذكر الاختلاف في ذلك، ثم تحدث عن طبيعة العصبيات الثقافية والموقف الإسلامي من الحضارات من حيث المبدأ:

١- الموقف من المعتقدات.

٢-الموقف من المعتقدين (أ- من المسلمين، ب- من غير المسلمين)

---

(١) وهذا الكتاب قام بإصداره مركز البيان، وهو عبارة عن مجموع مقالات في مجلة البيان وموضوعات أخرى سبق أن نشر بعضها في كتب وبعضها في مجلات عربية وإسلامية.

(٢) وهو عبارة عن مقال نشر في مجلة البيان، العدد (١٦٩)، رمضان ١٤٢٢هـ - الموافق نوفمبر / ديسمبر ٢٠٠١م، وأشرنا إليه في قسم المقالات.

(٣) وهي عبارة عن محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مهرجان الجنادرية الحادي عشر عام ١٤١٦هـ، بعنوان موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى رؤية شرعية وقد قامت الإدارة العامة للحرس الوطني بطباعة هذه المحاضرة مع مجموعة من المحاضرات ضمن إصدارات المهرجان الوطني للتراث في الكتاب عام ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، بإشراف الدكتور عبد الرحمن السبيت.

ثم ختم الدكتور المحاضرة بالموقف في الظروف الراهنة لخصها في أربع واجبات:

١ - الدعوة إلى الحق.

٢ - إعداد القوة الرادعة.

٣ - الجنوح للسلم وحل المشكلات بالتفاهم والعدل والقسط.

٤ - تبادل المنافع.

٣- صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية[١]:

بدأ الشيخ بحثه بسؤال ما الحضارات التي يقال إنها تتصارع الآن؟ وخلص الشيخ إلى أنه ليس هناك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية؛ لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي توجد به حضارة إسلامية.

ثم يسأل الشيخ فما مشكلتنا مع الحضارة الغربية إذن؟ والإجابة هي أن مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا ألا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. فهم يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء للحضارة الإسلامية التي كانت سائدة، ومما يزيدهم خوفًا قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي إن للإسلام مقدرة

---

(١) وهو عبارة عن بحث قدم لمؤتمر عقد في قاعة الصداقة بالخرطوم في ١٧ رجب ١٤٢٣هـ- الموافق ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٢م.

عجيبة على العودة كلما هزم. ثم يورد الشيخ سؤال ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟

ثم تحدث الدكتور عن كيفية تعامل الغرب مع المسلمين ولاسيّما العرب منهم؟ ثم ذكر المواقف التي ينبغي أن تتخذ لدرء الخطر الإسلامي منها:

١- محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام

٢- معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب.

ثم أشار الدكتور إلى القضية الفلسطينية وأثرها في عداوة الشعوب الإسلامية ولاسيّما العربية للولايات المتحدة الأمريكية، كما أشار إلى الفكر الأمريكي المعارض وأثرها المحدود في أمريكا الواسعة، ثم ختم البحث بالبعث الإسلامي الحضاري وأن المسلمين مازالوا بحمد الله قادرين إلى العودة الاستمساك الصحيح بدينهم.

٤- ودوا لو تكفرون كما كفروا[١]

يقول الدكتور في هذا المقال يتساءل كثيرٌ من المسلمين اليوم عمّا إذا كانت الحرب الأمريكية الغربية على ما يسمونه بالإرهاب حربًا دينية؟ الإجابة تعتمد فيما أرى على المقصود بالحرب الدينية. فإذا كان المعني بها أن الغرب يريد أن يحارب الإسلام باسم المسيحية أو أنه يريد نشر المسيحية؛ فإن حربه

---

(١) وهو مقال ذُكر في الكتاب أنه نشر في مجلة البيان، العدد (١٧١) ذو القعدة ١٤٢٢هـ، ولم أعثر عليه في إصدارات مجلة البيان وإنما نشر في موقع الشيخ جعفر شيخ إدريس على الشبكة العنكبوتية بتاريخ ٢٩شعبان ١٤٢٤هـ - الموافق ٢٠٠٣م.

ليست دينية؛ لأن الواقع أن إيمان الغربيين بالمسيحية أو اليهودية صار أضعف بكثير مما كان عليه في الماضي، بل إن جمهرة كبيرة من قادتهم ومسؤوليهم لم تعد تؤمن بها ولا بأمثالها من الأديان. بَيْدَ أنهم وحتى الملحدين منهم لهم نوع من الانتماء إلى هاتين الديانتين باعتبارهما جزءًا من تاريخهم ومكونًا مهمًّا من مكونات حضارتهم التي يفاخرون بها ويعُدُّونها خيرَ حضارةٍ عرفتها البشرية. ثم يقول الدكتور إذا ماذا يريدونه منا؟

قادة الحضارة الغربية يريدون منا معاشر المسلمين أن نلبي لهم ثلاثة مطالب:

أولها: أن تكون العلمانية منهج حياتنا كما هي منهج حياتهم، وأن لا يحتلّ الإسلام إلا مكانًا ضيقًا في إطارها.

ثانيًها: لكن هذه العلمانية يجب أن تكون ليبرالية ديمقراطية في السياسة، رأسمالية حرة في الاقتصاد، إباحية في القيم.

ثالثًها: أن تكون هذه العلمانية العربية أو (الإسلامية) خادمة لمصالح الدول الغربية ولا سيّما الولايات المتحدة الأمريكية؛ وذلك لأن الدولة قد تحقق ذينك الشرطين السابقين لكنها تكون مع ذلك دولة قوية مستقلة منافسة للدول الغربية.

٥- تصور إسلامي للتعايش السلمي[١]

وذكر الشيخ في هذه المقالة أن التعايش السلمي مع الأديان غير الإسلامية مبدأ إسلامي أصيل دلت عليه النصوص وطبقه المسلمون طوال تاريخهم، ثم ذكر الشيخ الحقائق والمبادئ الإسلامية التي قام عليها هذا المبدأ، ثم ذكر الشيخ حفظه تاريخ التسامح عند المسلمين وأسباب الحروب الإسلامية، وأشكال الظلم الذي دعا الإسلام لمحاربته، ثم ختم مقالته بالحاجة إلى التعايش السلمي في عصرنا.

٦- أصول إسلامية للعلاقات الدولية[٢]:

وهذه الورقة كما أشار الدكتور هي في الأصول الإسلامية التي تؤسس عليها العلاقات الدولية، فهي أشبه ما تكون الآن بما يسمى بفلسفة العلاقات الدولية، ثم تحدث الشيخ عن التصور الإسلامي للإنسان وذكر شيئًا من الآثار السياسية لهذا التصور الإسلامي للإنسان، ثم ختم هذه الورقة بمسوغات الإذن بالقتال في الإسلام.

---

(١) وهي مقالة نشرت في ٢٦ يونيو ٢٠٠٧م ولم يذكر مصدرها.

(٢) وهو بحث مقدم لندوة الإسلام في شرق آسيا حضارة ومعاصرة، تايبيه بتايوان ١٤٢٥هـ- الموافق ٢٠٠٤م.

القسم الثاني: أسس الفكر الغربي ونقدها، ويحوي الموضوعات التالية:

١-نقد الفكر الغربي بمنهج علمي[١]

وقد ذكر الشيخ في هذا البحث مميزات المنهج العلمي في نقد الفكر الغربي، ثم تحدث عن الفكر الغربي، والحركة التنويرية، ولماذا وقف التنويريون من الدين ذلك الموقف شبه العدائي؟، ثم تحدث الشيخ عن القيم الغربية، ثم تحدث الشيخ عن الديمقراطية، وضرورة العلم والأمانة وإنهما شرطان لا يمكن أن يكون الحكم محققًا للغاية منه إلا بهما، ثم تحدث عن الرأسمالية وعلاقة الديمقراطية بالرأسمالية والليبرالية، ثم ختم بحثه بالحديث عن الفكر العلمي عند الغربيين.

٢-عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية[٢]:

ذكر الشيخ في مقدمة بحثه أن القادة السياسيين في الغرب يعتقدون أن الإسلام هو الآن العدو الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ثم يذكر الشيخ أن هناك عناصر مشتركة تمثل القيم بينهم، وذكر إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك، ثم تحدث الشيخ عن الفكر اليوناني، والديانة اليهودية والديانة النصرانية والحضارة الرومانية وحركتا الإصلاح والبعث وحركة التنوير والليبرالية والديمقراطية والعلوم الطبيعية، ثم

---

(١) وهو بحث نشر في التقرير الاستراتيجي للبيان ١٤٣١هـ - الموافق ٢٠١٠م.

(٢) وهي ورقة كتبت لمؤتمر تعظيم حرمات الإسلام الذي عقد في الكويت من ٢٢-٢٤ يناير ٢٠٠٧م.

تحدث الشيخ عن طبيعة القيم الغربية، وختم بحثه بالعمل الذي ينبغي على المسلمين فعله.

٣-الدعوة الإسلامية والغزو الفكري[١]:

القسم الثالث: البعث الإسلامي ويحوي الموضوعات التالية:

١- وحدة لصد الحرب الغربية على الإسلام[٢]:

في هذا البحث بدأ الشيخ حديثه عن الوحدة الكاملة المثالية للمسلمين وهي أن يكونوا كما كانوا في عهد النبي ﷺ أمة واحدة ذات عقيدة لا يخالطها شرك وعبادة خالية من كل بدعة وخلق حسن وعمل صالح، ثم ذكر الشيخ مشروع لمحاربة الإسلام اسمه Muslim World Outreach وأشار الشيخ إلى تكتيك السي آي إي الأمريكية، ثم تحدث الشيخ عن مسؤولية العلماء ومسؤولية الحكومات ومسؤولية المنظمات الإسلامية الرسمية ومسؤولية المنظمات الإسلامية الشعبية ومسؤولية الإعلام.

---

(١) وهو بحث قدم هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عقد في الخرطوم ٢٢-٢٦-جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ - الموافق ٢٨ مارس - ١إبريل ١٩٨١م بمناسبة القرن الخامس الهجري، وقد نشر قبل ذلك في مجلة هذه سبيلي، العدد الخامس ،١٤٠٣/ ١٩٨٣م التي تصدر في المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم طبعته رابطة الشباب المسلم العربي (اللجنة الثقافية) سلسلة البحوث والدراسات عام ١٩٨٧م في كتيب صغير، وقد أشرنا اليه من قبل.

(٢) وهو بحث قدم لمؤتمر وحدة الأمة الإسلامية الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي عام ٢٠٠٥م.

٢- حوار حول صراع الحضارات[١]:

والحوار مع الشيخ حول الحضارة الغربية وكيف ستكون العلاقة بين الإسلام والغرب.

٣- حوار حول الفكر الإسلامي والفكر الغربي[٢]:

وهي حوارات كما هو عنوانها حول الفكر الإسلامي والفكر الغربي.

٤- ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟[٣]

وفي هذا البحث يتحدث الشيخ وفقه الله عن قوى الحضارة الغربية:

١-القوة الصلبة.

٢- القوة اللينة.

٥- المستقبل لنا[٤]

---

(١) وهو مقابلة أجرتها مجلة الفيصل مع الدكتور جعفر شيخ إدريس العدد (٢٥٧).

(٢) مقابلة مع مجلة البيان العدد (٥٥)، ربيع الأول ١٤١٣هـ - الموافق١٩٩٢م، والعدد (٥٦) ربيع الآخر ١٤١٣هـ - الموافق أكتوبر ١٩٩٢م.

(٣) وهو بحث قدم لمؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير الذي نظمته وزارة الإرشاد والأوقاف بالسودان في الخرطوم عام ٢٠٠٣م.

(٤) مقالة في مجلة البيان العدد (٢٣٩)، رجب ١٤٢٨هـ - الموافق يوليو٢٠٠٧م، وقد أشرنا لها في قسم المقالات.

٦- الدعوة الإسلامية والغزو الفكري[١]:

وقد احتوت هذه الرسالة على:

مقدمة ذكر فيها أن الغرب يرمي العالم الإسلامي بوابل من سهامه الفكرية وهذه مصيبة كبيرة، ولكن المصيبة الأكبر هي قبولنا لهذا الفكر كله وعدم التفرقة بين خيره وشره، ولذلك يرى الشيخ أن عبارة الغزو الفكري لا تصف الواقع وصفًا دقيقًا -فالذي حدد العنوان لجنة المؤتمر- إذ لو كنا نعتبره غزوا لأعددنا لمواجهته ما استطعنا من قوة وقاومناه بقدر الوسع والطاقة، ولكن مشكلتنا أننا لا نعتبره غزوا يستعبد بل قوة تنقذ وتحضر وتحرر، ثم تحدث الشيخ عمّا اسماه مقتضيات العصر وأهواء العصر، وما المفهوم الصحيح للمعاصرة، وكيف يمكن لأُمة تشعر أنها تخلفت عن ركب التاريخ كالإسلامية أن تلحق بهذا الركب فتعرف سر تفوق الأمم التي سبقتها فتتعاطاه كي تكون مثلها. ثم تحدث عن مكونات الحضارة الغربية وذكر أنها تتكون على وجه الاجمال من:

أ- حقائق رياضية أو طبيعية أو اجتماعية.

---

(١) وهو كتيب صغير طبعته رابطة الشباب المسلم العربي (اللجنة الثقافية) سلسلة البحوث والدراسات عام ١٩٨٧م، وهو في الأصل بحث قدم في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عقد في الخرطوم ٢٢-٢٦ جمادى الأولى ١٤٠١هـ - الموافق ٢٨ مارس-١ إبريل ١٩٨١م بمناسبة القرن الخامس الهجري، وقد نُشر قبل ذلك في مجلة هذه سبيلي العدد الخامس ١٤٠٣/ ١٩٨٣م التي تصدر في المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية.

ب- ونظريات علمية عن الطبيعة أو الإنسان.

جـ- تقنية تكاد تشمل كل جوانب الحياة.

د- مهارات تقنية وإدارية مبنية على تلك العلوم.

ح- تصورات دينية أو فلسفية للوجود ومكانة الإنسان فيه والقيم الخلقية والجمالية ولعلاقة الفرد بالمجتمع.

ز - أوضاع سياسية واقتصادية وعلاقات اجتماعية وعادات وتقاليد تسوغها تلك التصورات، وغيرها من المكونات الأخرى.

ثم فصل الشيخ في ماذا نأخذ من هذه الحضارة وماذا ندع؟

ثم تحدث الشيخ عن أسباب التبعية للغرب وحضارته، ثم تطرق إلى الحل في ذلك.

ثم ختم الشيخ مبحثه بكيفية مواجهة الحضارة الغربية؟

٧- الأسس الفلسفية للمذهب المادي[١]:

يتحدث الشيخ في هذا البحث عن الأخذ بالمذهب المادي في صورة من صورة المتعددة، ثم يذكر الشيخ أن هذا المذهب هل يصلح بديلًا عن الدين الإسلامي؟ وهل يفي بحاجات البشر؟ وهل يحقق لهم السعادة التي ينشدون؟ ثم يقول لكي نجيب على هذه الأسئلة ينبغي أن نعرف أولا بشيء من التفصيل

---

(١) وهذه الدراسة بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن، شوال - ذو القعدة ١٣٩٦هـ - الموافق أكتوبر - نوفمبر ١٩٧٦م.

ما هي العقائد الأساسية التي يقوم عليها هذا المذهب، ثم ننظر فيها لنتساءل أهي حقائق تدركها الحواس أم هي نتائج تستخلصها العقول؟ أهي متناسقة فيما بينها؟ أهي موافقة لحقائق العلم ومناهجه؟ أهي كافية للتدليل على بطلان الدين؟ ثم تحدث الشيخ عن أسس المذهب المادي بشيء من النقد والتحليل.

٤-الإسلام وحقوق الإنسان[١]:

تحدث الشيخ في هذه الدراسة عن نسبية الثقافة، وعن عالمية حقوق الإنسان، وذكر أن للعالمية معنيان ليسا بمتلازمين؛ فهي قد تعني كون الشيء موجودًا أو منتشرًا في العالم كله، وقد تعني كون ذلك الشيء متعلقًا بفطرة الناس ومهم لها. فالشيء قد يكون عالميًا بالمعنى الأول ومضرًا بالناس. وقد يكون عالميًا بالمعنى الثاني وغير منتشر في العالم، ثم فند حجة من يرى ضرورة أن يلتزم بها المسلمون وغيرهم. وهذه الحجة حجة واهية، ثم تحدث الشيخ عن الحداثة والعالمية، ثم ختم بحثه بالحديث عن حقوق الإنسان في الإسلام.

٥-كتاب: بناء الدولة لفوكوياما[٢]:

هذا البحث عبارة عن تلخيص وعرض لكتاب بناء الدولة لفرانسيس فوكوياما، كيف تبنى دولة قد تهدمت؟ وكيف تقوى دولة قد ضعفت؟ وكيف

---

(١) مناقشة لأفكار غربية، الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام روما، إيطاليا ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ - الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م.

(٢) عرض كتاب بناء الدولة الحكم والنظام العالمي في القرن الواحد والعشرين، تأليف: فرانسيس فوكوياما، تلخيص: أ. د. جعفر شيخ إدريس ١٠ نوفمبر ٢٠١٣م.

تزداد دولة قوية قوة في بعض النواحي التي ضعفت فيها؟ هذا هو موضوع الفصلين الأولين من هذا الكتاب، فيذكر الشيخ أن الكاتب يُلخص ما توصل إليه المختصون في كل مسألة من مسائل هذه القضية، ويحاول أن يضع ما توصلوا إليه في نظريات عامة يمكن الاستعانة بها على جعل ما توصلوا إليه قابلًا للتعميم، لكنه يعترف بأن هذا ليس ممكنًا في كل المجالات (كمجال الإدارة العامة مثلًا)، لا لأن هنالك تقصيرًا في الدراسة ولكن لأن المادة نفسها ترتكز إلى حد كبير على ظروف محلية وظروف متغيرة لا يمكن الإحاطة بها.

فوائد مقالات العلوم الطبيعية

فائدة: إطلاق القول بتغير الحقائق العلمية إطلاق غير صحيح، بل هو خطأ محض:

شاع على ألسنة كثير من إخواننا المتدينين القول بأن الحقائق العلمية (ويعنون بذلك حقائق العلوم الطبيعية) حقائق متغيرة، فما يثبته العلم اليوم ينفيه غدًا، وما ينفيه اليوم يثبته غدًا، لذلك يجب أن لا يكون لها اعتبار في فهم الحقائق الدينية الواردة في الكتاب والسُّنّة، وأن لا تستخدم دليلاً على الإعجاز العلمي. لكن إطلاق القول بتغير الحقائق العلمية إطلاق غير صحيح، بل هو خطأ محض؛ وذلك لأن العلوم الطبيعية كما هو معروف منها ما هو حقائق جزئية تقوم عليها أدلة حسية أو عقلية قاطعة، ومنها ما هو حقائق جزئية، أو قوانين عامة تقوم عليها أدلة راجحة لا قاطعة، ومنها ما هو نظريات هي المعرَّضة للتغير، ولا سيّما ما كان ذا دليل غير قوي[1].

فائدة: حقائق العلوم التجريبية كلها حقائق شرعية:

حقائق العلوم التجريبية كلها الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية التي شهد

---

(١) حقائق العلوم التجريبية... حقائق شرعية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٥٩)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٤٩).

لها الحس أو العقل شهادة قاطعة هي حقائق شرعية، بل إن ما قام عليه منها دليل راجح وإن كان غير قاطع، هي مما يعد بميزان شرعنا علمًا يعمل به. فما دليلنا على ذلك؟

دليلنا أولًا: أن الشرع قضى بأن كل الحقائق دينية كانت أم دنيوية إنما يكتسبها الإنسان بحسه وعقله. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، فإذا كانت الحقائق إنما تكتسب بالحس والعقل، فمن البديهي أن يقال: إن كل ما شهد له الحس والعقل فهو حقيقة، وما لم يشهد له فليس بحقيقة.

ولذلك فإن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذم الكفار المنكرين للحقائق المحسوسة ووبخهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧]، ونحن نعلم أن أحاديث الآحاد تعتبر علمًا مع أن ثبوتها ليس قطعيًا كثبوت الأحاديث المتواترة، ومما استُدِلَّ به على أن الظن الراجح يعد علمًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة:١٠]؛ وذلك لأن علم البشر علمًا مباشرًا بإيمان شخص لا يكون إلا ظنيًا. لكن الامتحان يرجح هذا الظن نفيًا أو إثباتًا، ولذلك يبنى عليه هذا الحكم المهم المذكور في الآية الكريمة.

ومعنى ذلك أننا نأخذ كما يأخذ غيرنا حتى بالنظريات العلمية إذا كان ثبوتها راجحًا ولم يكن قطعيًا ما دامت لا تتعارض مع نصوص شرعية قطعية[1].

فائدة: ما لم يأت عن طريق الحس والعقل فلا يعد علمًا:

قد يستغرب البعض القول بأن ما لم يشهد له الحس والعقل، أو قل: ما لم يأت عن طريق الحس والعقل فلا يعد علمًا، ويقولون: أين الوحي إذن؟

وأقول: إن سبب هذا الاعتراض هو خلط يقع فيه كثير من الناس، وقد نبَّهت عليه في كثير من كتاباتي وأحاديثي. الخلط هو عدم التفرقة بين وسائل اكتساب العلم، وهي الحس والعقل، ومصادر العلم، وهي الوحي والخلق؛ فالوحي مصدر للعلم؛ لكننا إنما نعرف أنه وحي بالحس والعقل، وإلا لم يكن لنا معيار نميز به بين النبي الصادق ومدعي النبوة، ولا بين ما هو كلام الله حقًا، وما هو من القول على الله تعالى بغير علم.

أعود إذن إلى قولي: بأن حقائق العلوم التجريبية التي تقوم عليها أدلة قطعية حسية كانت أم عقلية هي حقائق ثابتة لا تتغير. تُرى: هل سيأتي يوم يقول فيه العلماء إنهم كانوا مخطئين في زعمهم بأن الأرض كروية، بعدما استطاعوا أن يروها كرة، وأن يصوروها لمن لم يرها؟ هل سيأتي عليهم زمان يكتشفون فيه أن الماء لا يتكون من الهيدروجين والأوكسجين كما يزعمون الآن؟ وهل يجوز

---

(١) حقائق العلوم التجريبية... حقائق شرعية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٥٩)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٤٩).

لإنسان عاقل أن يكابر في وجود شيء بعدما رأى دليله الحسي؟ إن مثل هذه المكابرة أمر مذموم شرعًا كما أنه مذموم عقلًا، بل إن كل ما هو مذموم عقلًا فهو مذموم شرعًا. إن إنكار الحقائق الحسية سواء منها ما يشاهده الشخص العادي، أو تثبته العلوم التجريبية طبيعية كانت أم اجتماعية أم نفسية أم غير ذلك هو هدم للشرع؛ لأنه هدم للبراهين الدالة على صحته، واللازمة للعمل به، والفارقة بينه وبين الدعاوى الباطلة.

إن كتاب الله تعالى مليء بتوجيه الناس إلى التفكر في خلقه، والاستدلال به على كثير من أصول الدين، كوجود الخالق سبحانه، ومعرفة صفاته، وبعثه لعباده، ومصير المكذبين لرسله. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]، ففي هاتين الآيتين الكريمتين ربط بين مظاهر طبيعية وبين الإيمان، وهو ربط لا يتسنى إلا لمن يشاهد هذه الظواهر ويوقن بوجودها، ثم يكون إنسانًا ذا عقل، وتفكُّر؛ فأولو الألباب هم الذين ينتقلون من المشاهدة إلى التفكر إلى الإيمان.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي

أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:٩٥-٩٩].

في الآية الأولى: من هذه الآيات الكريمة ربط بين حقائق طبيعية وبين الإيمان لا ينكره إلا المأفوكون.

وفي الآية الثانية: ربط بين حقائق طبيعية وبين صفتين من صفات الله تعالى.

وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة: ربط بين حقائق طبيعية وبين العلم والفقه والإيمان؛ فلا يكون عالمًا ولا فقيهًا ولا مؤمنًا من ينكر هذه الحقائق بعد رؤيتها. لا يقولن لي معترض بأننا إنما آمنا بهذه الحقائق الطبيعية؛ لأن الله تعالى قررها. كلاَّ! فإن العلم بها سابق للإيمان بالقرآن الكريم ومستقل عنه؛ فهو أمر مشترك بين المسلمين وغير المسلمين.

والقرآن الكريم جعل علمنا هذا بها دليلاً على قدرته وحسن صفاته. فلو كان علمنا بها مبنيًا على تصديقنا بالقرآن لما صلحت دليلًا، ولكان في الكلام دور.

وأنت تجد في الآيات التالية مثل هذا الربط الذي ذكرناه بين الحقائق

المشاهدة والبعث، وبينها وبين تصديق الرسول ﷺ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧].

والحقائق الحسية لها تعلق آخر مهم بأصول الدين؛ وذلك من حيث كونها معيارًا للتفريق بين الصدق والكذب؛ لأن القول الصادق إنما هو الذي يوافق الواقع ولا يخالفه، فإذا كان الواقع المتحدَّث عنه واقعًا محسوسًا، وكان القول مخالفًا له علمنا أن القول كذب.

هذه قاعدة بدهية يعرفها كل عاقل، ولذلك فعندما ألَّف الطبيب الفرنسي موريس بوكاي كتابه المشهور عن العلوم الطبيعية والتوراة والإنجيل والقرآن ذكر في مقدمته كلامًا فحواه أنه قال لنفسه: مادام الله تعالى هو خالق الكون فلا يمكن أن يوحي إلى بشر بكلام يخالف الواقع الذي خلقه ويعلمه، ولذلك فإنني سأحاكم هذه الكتب الثلاثة بمعيار الحقائق القطعية التي أثبتتها العلوم الطبيعية، فما وجدته منها مخالفًا لشيء منها علمت أنه ليس من عند الله تعالى، وكانت النتيجة أنه وجد في كتابَي اليهود والنصارى مثل هذه المخالفات، ولم يجد منها شيئًا في القرآن الكريم، بل وجد أن القرآن الكريم سبق العلوم المعاصرة بتقرير بعض الحقائق، ثم جاءت هي مؤيدة لها.

فهل نقول لمثل هذا العالم: إن منهجك غير صحيح؛ لأن حقائق العلوم الطبيعية حقائق متغيرة؟ وبمثل هذا المنهج انتقد النصارى الليبراليون إخوانهم الأصوليين، فالليبراليون يقولون: إن كتابهم المقدس لا يمكن أن يكون كله كلام

الله كما يزعم الأصوليون، ويستدلون على ذلك بمواضع فيه جاءت مخالفة لحقائق محسوسة أثبتتها العلوم التجريبية، ومن غريب ما سمعت في عدم اعتبار الحقائق المحسوسة استدلال بعضهم على هذا الزعم بحديث: «**وكذب بطن أخيك**».

والحديث كما رواه البخاري في كتاب الطب من صحيحه عن قتادة عن أبي سعيد: «**أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ. فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا، ثُمَّ أَتَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ اسْقِهِ عَسَلًا، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا، ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. فقال: صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ اسْقِهِ عَسَلًا، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ**».

استدل الزاعم بأن الحقائق المحسوسة لا اعتبار لها في النصوص الإلهية، بقول الرسول ﷺ لهذا الرجل: «**صدق الله وكذب بطن أخيك**» فكأنه يريد أن يقول: إنه مهما كانت الوقائع مخالفة للوحي فلا اعتبار لها، بل يجب على المؤمن الصادق أن يؤمن بكلام الله تعالى مهما رآه مخالفًا للواقع المحسوس؛ لأن كلام الله تعالى هو الصدق، والواقع كبطن أخ السائل هو الكذب. فكأن هذا القائل يفترض إمكانية مخالفة الوحي للحس أو العقل، وهو افتراض باطل، بل هو طعن في الشرع؛ لأن صدق الكلام إنما يعرف كما ذكرنا بموافقته للواقع. فالمخالف للواقع كذب لا محالة. والرجل إنما جاء للرسول ﷺ طالبًا شفاء أخيه من الإسهال، والشفاء أمر محسوس. فلما رأى أن أخاه لم يُشْفَ عاد فسأل. لكن الرسول ﷺ كان موقنًا بأن كلام الله حق أي إن العسل لا بُد أن يشفيه، وإن بدا الأمر أولا على غير ذلك. وصدَّق الله كتابَه ورسولَه فشُفي

الرجل، أي إن الحقيقة الحسية جاءت في النهاية موافقة للآية القرآنية. لكن مقتضى كلام أخينا المشكك في الحقائق المحسوسة، أن الرجل لو سقي عسلًا مائة مرة فلم يزده شربه إلا إسهالًا، ولو أن كل مريض شرب عسلًا لم يزده شربه إلا مرضًا فلا بُد أن يؤمن الناس بأن في العسل شفاءًا؛ بل الحقيقة أنه لو حدث هذا لكان فيه أكبر دليل على أن القول بأن في العسل شفاءًا لا يمكن أن يكون قولًا للخالق سبحانه.

فانظر كيف تؤدي الحجج الباطلة بصاحبها إلى الطعن في الدين من حيث يريد هو الانتصار له. هنالك حديث طريف يدل على أن الرسول ﷺ كان يستدل بالحقائق الواقعية في تقرير المسائل الشرعية.

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ الأَسَدِيَّةِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغِيلَةِ حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلا يَضُرُّ أُولادَهُمْ**».

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: «وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي الْمُرَاد بِالْغِيلَةِ فِي هَذَا الْحَدِيث وَهِيَ الْغَيْل، فَقَالَ مَالِك فِي الْمُوَطَّأ وَالأَصْمَعِيّ وَغَيْره مِنْ أَهْل اللُّغَة: أَنْ يُجَامِع اِمْرَأَته وَهِيَ مُرْضِع. يُقَال مِنْهُ: أَغَالَ الرَّجُل وَأَغْيَلَ، إذا فَعَلَ ذَلِكَ وَقَالَ اِبْن السِّكِّيت: هُوَ أَنْ تُرْضِع الْمَرْأَة وَهِيَ حَامِل يُقَال مِنْهُ: غَالَتْ وَأَغْيَلَت».

قَالَ الْعُلَمَاء: سَبَب هَمّه ﷺ بِالنَّهْيِ عَنْهَا أَنَّهُ يَخَاف مِنْهُ ضَرَر الْوَلَد

الرَّضِيع. قَالُوا: وَالأَطِبَّاء يَقُولُونَ: إِنَّ ذَلِكَ اللَّبَن دَاء وَالْعَرَب تَكْرَههُ وَتَتَّقِيه. وَفِي الْحَدِيث جَوَاز الْغِيلَة فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَنْهَ عَنْهَا، وَبَيَّنَ سَبَب تَرْك النَّهْي وَفِيهِ جَوَاز الاجْتِهَاد لِرَسُولِ الله ﷺ، وبه قَالَ جُمْهُور أَهْل الأُصُول. وَقِيلَ: لا يَجُوز لِتَمَكُّنِهِ مِنْ الْوَحْي وَالصَّوَاب الأول.

فالحديث يدل على أن سبب ترك النهي هو التجربة، تجربة أمم غير العرب، كانوا يفعلون شيئًا لا تفعله العرب، ولم يضرهم فعله؛ فتجربتهم هذه دليل على أن هذا الفعل لا ضرر فيه، فلا ينهى عنه[1].

فائدة: أنواع الحقائق التجريبية التي يقرها الشرع:

إن الحقائق التجريبية التي يقرها الشرع نوعان: نوع يقره إقرارًا عامًا ولا يبني عليه أمرًا من أمور العبادات، ونوع يقره ويبني عليه بعض العبادات، فهو شرعي بمعنى خاص.

مثال ذلك: أننا نعلم الآن أن ضوء الشمس لا يصلنا إلا بعد ثماني دقائق من مشاهدتنا لها، ونعلم أننا لا نرى الشيء إلا إذا وصلنا ضوؤه. ومعنى ذلك أننا عندما نرى الشمس تشرق أو تغرب تكون قد فعلت ذلك قبل ثماني دقائق. هذه حقيقة لا يكذبها الشرع. لكن الشرع بنى مواقيت الصلاة على الشروق

---

(١) حقائق العلوم التجريبية... حقائق شرعية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٥٩)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٤٩).

والغروب كما يظهران للناس، لا على حقيقتهما الفلكية المستقلة عن الرؤية البشرية. لكن ما بُني الشرع عليه هو أيضًا حقيقة علمية، بل هي حقيقة يحسها كل إنسان مبصر.

ومثال آخر: هو ميلاد الهلال ورؤيته. فالميلاد حقيقة علمية تجريبية قطعية كما عرف الناس منذ مئات السنين، وكما أقر بذلك كثير من علمائنا السابقين. لكن الشرع رتب الصيام على الرؤية لا على ميلاد الهلال، ولا على إمكان الرؤية، مع أنها حقائق علمية.

ماذا نفعل إذا كنا نعلم أن الهلال لم يولد، ثم زعم أُناس أنهم رأوه؟ القاعدة العقلية والشرعية هي أن القطعي مقدم على الظني؛ فما دمنا نعلم يقينًا أن الهلال لم يولد، فإننا نعلم يقينًا أنه لا يمكن أن يُرى، ولذلك نرد شهادة من زعم أنه رآه؛ لأنها ظنية. فالذين يرون الأخذ بالحساب في النفي هم المحقون بحسب هذه القاعدة وإلا وقعنا في ورطة الاعتقاد بأن الحقائق القطعية تتعارض؛ أو أن ما يقرره الشرع قد يخالف ما يقطع به الحس أو العقل[1].

---

(١) حقائق العلوم التجريبية... حقائق شرعية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٥٩)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٤٩).

فائدة: سبب حصول الخلط في فهم الحقائق أو في تصورها هو عزو المعاني إلى الألفاظ التي لا تحملها:

المعاني أهم من الألفاظ، لكن المعاني لا تأتينا مجردة إنما تصل إلينا محمولة على ألفاظ؛ فإذا ما عزونا إلى الألفاظ معاني غير التي تحملها، أو غير ما تعنيه في سياق معين، حصل خلط في فهمنا للحقائق أو في تصورنا لها. لذلك كانت العناية بالألفاظ أمرًا ضروريًا لحماية المعاني[1].

فائدة: من أسوأ أنواع الخلط اللفظي ما حدث للفظي (العلم) و(المعرفة) في لغتنا العربية الحديثة:

عندما ظهر العلم التجريبي الطبيعي في أوروبا أرادوا تمييزه عن العلم الذي تدل عليه كلمات مثل كلمة نولج Knowledge في اللغة الإنجليزية، فاختاروا له لفظة تدل عليه بخصوصه وتميزه عن العلم بصفة عامة هي لفظة سيَنس Science ذات الأصل اللاتيني. لكن المترجمين العرب فعلوا العكس تمامًا عمدوا إلى أكثر الكلمات دلالة على العلم بصفة عامة وأعطوها هذا المعنى الخاص، فصارت كلمة (علم) تعني (سيَنس). ثم أرادوا أن يميزوا بين هذا المعنى الخاص والمعنى العام فعمدوا إلى كلمة أخرى هي كلمة (معرفة) فأعطوها المعنى العام الذي تدل عليه كلمة (نولج). هذا مع أن كلمة (معرفة)

---

(١) علاقة العلم بالدين، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٤٤٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٤٩).

أخص من كلمة (علم).

أدى العبث بمعاني هذه الألفاظ المهمة إلى خلط تصوُّري عظيم ولا سيّما في العلاقة بين العلم والدين. إن كلمة (العلم) من أهم الكلمات القرآنية وأكثرها ورودًا في الكتاب العزيز، لكنها عندما أُعطيت ذلك المعنى الخاص معنى كلمة سينس حدث لَبْسٌ عظيم من أمثلته: أننا صرنا نسمع بعض الناس يقولون: هذه مسألة علمية لا دينية. بل سمعنا من يقول: إن القرآن كتاب هداية لا كتاب علم. ثم أدى هذا إلى شنائع أخرى هي أنه في سبيل الدعاية للعلوم الطبيعية وبيان اهميتها وعدم مخالفتها للدين صار كثير من المتحمسين لها من أهلها ومن غير أهلها يستدلون على أهميتها بآيات مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٧-٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١][1].

---

(١) علاقة العلم بالدين، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٤٤٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٤٩).

فائدة: ترجمة العلم بمعناه العام إلى المعنى الخاص (ساينس) والمعرفة إلى (نولج) أدى إلى خلط تصوُّري عظيم ولا سيّما في العلاقة بين العلم والدين.

من أمثلة هذا الخلط أننا صرنا نسمع بعض الناس يقولون:

١- هذه (مسألة علمية لا دينية):

وهل يقوم الدين الحق إلا على الأدلة العلمية على الآيات البينات، والبراهين الساطعات، والحجج القاطعات؟ وإذا كان الدين كله بمعزل عن العلم فلا مجال لتمييز دين حق منزل من السماء عن دين باطل خرافي من اختراع البشر. وإذا كانت هذه هي النتيجة التي يريد أن ينتهي إليها أعداء الدين ولا سيّما في البلاد الغربية؛ فما بال المستمسكين من المسلمين بدينهم الحق؟

٢-القرآن (كتاب هداية لا كتاب علم):

يا ليت شعري! وهل تكون الهداية إلا على أساس علمي؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤]. فجعل الإيمان قائمًا على العلم، وجعل الهداية إلى الصراط المستقيم راجعة إليه. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨]. أفكل من اختص بشيء من العلوم الطبيعية كان ممن يخشون الله تعالى، وكان ممن يرفعهم الله درجات؟ لعمري إن هذا من أبطل الباطل:

أولًا: لأنه مخالف للواقع المشهود، فهو بذلك كلام غير علمي حتى بمقياس الـ(سينس). كيف يكون علميًا ونحن نرى أن بعض هؤلاء العلماء الطبيعيين من أكثر الناس إنكارًا حتى لوجود الخالق سبحانه؟ من أشهر هؤلاء عالم الأحياء الإنجليزي الداروني (دوكنز) الذي ظل منذ سنوات طويلة يكتب مدافعًا عن الإلحاد، وقد ألف مؤخرًا كتابًا في هذا الموضوع وُصِف بأنه من أكثر الكتب انتشارًا.

وثانيًا: لأنه ما كل علم ينتج عنه عند كل إنسان إيمان بالله وخشية له، بل إن بعض العلم قد يكون لبعض الناس فتنة تصدهم عن قبول الحق. ألم يقل الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر:٨٣]. وقد حدث هذا لبعض علماء الطبيعة؛ إذ كان من بين ما دعاهم إلى الإلحاد أو إنكار الوحي أنهم استكبروا فظنوا أنهم هم وحدهم أصحاب الكلمة الأخيرة في ما يمكن وما لا يمكن أن يكون في الكون، فكرهوا لذلك أن يؤمنوا بإله هو خالق لهذا الكون ومتصرف فيه.

وثالثًا: لأن الأدلة سواء كانت كونية أو عقلية أو آيات منزلة لا تُلْزِم هي وحدها أحدًا بقبولها أو الاعتراف بموجباتها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

قال أكثر المفسرين: (لا يؤمنون) أي علِمَ الله أنهم لا يؤمنون، ولكنهم لم يعنوا بذلك أن الله تعالى أجبرهم على عدم الإيمان أو خلقهم بحيث يكون عدم الإيمان من طبيعتهم، وإنما المقصود أنه سبحانه علم أنهم يصرون على عدم

الإيمان، والله تعالى إنما يهدي من يعلم أنه يستحق الهداية.

ولذلك قال القشيري في تفسيره لهذه الآية الكريمة: الأدلة وإنْ كانت ظاهرة فما تغْني إذا كانت البصائر مسدودةً، كما أن الشموسَ وإن كانت طالعة فما تُغْني إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل: وما انتفاعُ أخي الدنيا بمقلته إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ؟

من أعجب ما قرأت حديثًا عن أحد الملحدين من علماء النفس أنه اعترف بأن هنالك حقيقة أثبتها علماء الأنثروبولوجيا هي أنه ما من أمة من أمم العالم إلا والناس فيها يؤمنون بوجود الخالق.

واستنتج من هذا باعتباره عالمًا نفسيًا أنه يدل على أن لهذا الاعتقاد أصلًا في النفس البشرية، واعترفَ بأن كل حال أو اعتقاد أو سلوك له أصل في النفس البشرية (يعني أشياء مثل الخوف أو الحب أو الميل الجنسي) لا بُد أن تكون فيه فائدة للإنسان لكنه أصر على إلحاده؛ لأنه لم يجد للإيمان بالله فائدة للإنسان!!

رابعًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨] معناه أن الذين يخشون الله تعالى هم العلماء به حقًا. فالآية جعلت الخشية دلالة على العلم لا العكس.

ولذلك قال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعليقًا على هذه الآية الكريمة: «كان يقال: كفى بالرهبة علمًا». فالخشية تدل على العلم الحقيقي الذي يدخل القلب فيؤثر فيه. أما علم اللسان فقد يتصف به حتى المنافق. وقد حدث خلط آخر في علاقة العلم بالقرآن الكريم والسنَّة المطهرة نذكره بهذه المناسبة.

كثيرًا ما تسمع قول بعضهم عن آية من آيات الكتاب العزيز كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، إن الناس لم يعرفوا معناها في زمن النبي ﷺ؛ لأن هذا المعنى إنما كشفته العلوم الطبيعية الآن. الذين يقولون هذا يخلطون بين أمور ثلاثة هي: عَقْلُ المعنى الأولي للآية، وفهم الآية، وتأويل الآية. المعنى الأولي للآيات يعقله كل متحدث باللغة التي يرسل الله بها رسولًا من رسله؛ لأن الله تعالى لا يُنزل على رسوله كلامًا لا يمكن لأحد من المخاطَبين أن يعرف معناه. كيف؛ والحجة إنما تقوم بفهم المعنى؟ وكيف؛ والله تعالى يقول عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] أي تعقلون معناه. هذا العقل الأولي للمعنى أمر يشترك فيه كل المخاطَبين ممن عرف لغة القرآن كفارًا كانوا أو مسلمين؛ لأن الإنسان إنما يصدِّق الكلام أو ينكره بعد أن يعرف معناه؛ ولذلك فإن الله تعالى إنما يرسل كل رسول بلسان قومه ليبين لهم.

قال تعالى في ذم بعض الكفار: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]. أما الفهم وهو ما يمكن للإنسان أن يستنبطه من الآيات بعد أن عرف المعنى الأولي لها فأمرٌ يختلف فيه الناس اختلافًا عظيمًا، وهو أمر لا يتأتى إلا بالتدبر الذي أمر الله تعالى به.

من الأدلة الواضحة على الفرق بين الفهم وإدراك المعنى الأولي ما جاء في صحيح الإمام البخاري من رواية أبي جُحَيفَة وهب بن عبد الله السّوائي قال:

قلت لعليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة! إلا فَهْمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن. وأما التأويل فهو الواقع الذي يتحدث عنه النص، وهو شيء مختلف عن معناه. إذا قال لك إنسان: إن بالمكان الفلاني شجرة غريبة طولها كذا وألوان أوراقها وأحجامها كذا وكذا فإنك تعقل ما قال. وأما إذا أراك إياها فتكون قد أدركت تأويل ما قال لك. ونحن الآن نعقل معنى الآيات التي تحدثنا عن عجائب ما في الجنة وإن لم نرَ تأويله.

والله تعالى قد يخبر المخاطَبين في زمان نزول الوحي بكلام لا يظهر تأويله إلا في المستقبل مثل ما أخبرهم به تعالى من غلبة الروم على الفرس. ومثل قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

والمكتشفات العلمية المؤيدة لما أخبر به الله تعالى كلها أو معظمها من هذا النوع. إنها لا تعلمنا معنى كلام ربنا، لكنها تُظهر لنا بعض حقائقه التي أخبر بها. كيف تعلمنا المعنى ومعرفة المعنى شرط في معرفة موافقة الخبر العلمي له.

كيف تعرف مطابقة قوله تعالى: ﴿يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] لما كشفه العلم إذا كنت لا تعرف المعنى اللغوي لهذه العبارة؟ نقول بعد هذا: إنه لم يكن قصدنا من هذا المقال التشكيك في العلوم الطبيعية أو التقليل من شأنها وأهميتها، وإنما كان القصد منه وضع الأمور في نصابها الصحيح.

إن العلم هو كل دعوى موافقة للواقع سواء كان هذا الواقع غيبًا أو شهادة، وسواء كان حسيًا أو نفسيا أو عقليًا. والعلوم وإن صدق عليها كلها هذا التعريف إلا أنها تختلف باختلاف مجالاتها وباختلاف طرقها التي تحتمها عليها تلك المجالات. والمسلم يعترف بكل حقيقة دل عليها واحد من تلك العلوم إذا ما قام عليها دليل صحيح. والعلوم الطبيعية المسماة (سيَنس) هي من هذه العلوم، بل هي نفسها علوم مختلفة في بعض طرقها. فعلم الفلك ليس كعلم الأحياء، وعلم الكيمياء ليس كعلم الفيزياء. وهي كلها علوم مفيدة، بل إن منها ما هو ضروري للمسلمين في هذا العصر. وكما أنها مهمة في مجال الحياة الدنيوية فهي مفيدة في مجال الإيمان بالله وبرسوله؛ فقد أيد كثير من حقائقها ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن هنا نشأ العلم الذي سمي بالإعجاز العلمي، فما قلناه عن العلوم الطبيعية ليس المقصود به إذن إنكارها أو تحقيرها أو التقليل من شأن الاهتمام بها، وإنما المقصود به وضعها في موضعها الصحيح.

مصادر مقالات العلوم الطبيعية والإنسانية

١- حقائق العلوم التجريبية[١]:

يبين الشيخ حفظه الخطأ الشائع على السنة الكثير من المتدينين القول بأن الحقائق العلمية (ويعنون بذلك حقائق العلوم الطبيعية) حقائق متغيرة، فما يثبته العلم اليوم ينفيه غدًا، وما ينفيه اليوم يثبته غدًا. لذلك يجب ألا يكون لها اعتبار في فهم الحقائق الدينية الواردة في الكتاب والسنة، وألا تستخدم دليلاً على الإعجاز العلمي. لكن إطلاق القول بتغير الحقائق العلمية إطلاق غير صحيح، بل هو خطأ محض؛ وذلك لأن العلوم الطبيعية كما هو معروف منها ما هو حقائق جزئية تقوم عليها أدلة حسية أو عقلية قاطعة، ومنها ما هو حقائق جزئية، أو قوانين عامة تقوم عليها أدلة راجحة لا قاطعة، ومنها ما هو نظريات هي المعرَّضة للتغير، ولا سيّما ما كان ذا دليل غير قوي فحقائق العلوم التجريبية كلها الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية التي شهد لها الحس أو العقل شهادة قاطعة هي حقائق شرعية. بل إن ما قام عليه منها دليل راجح وإن كان غير قاطع، هي مما يعد بميزان شرعنا علمًا يعمل به ثم يذكر الشيخ حفظه الله الأدلة على ذلك.

---

(١) حقائق شرعية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٥٩)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٥٧٦).

٢-علاقة العلم بالدين[١]

بيَّن الشيخ في هذا المقال أنه بسبب العبث في ترجمة بعض الكلمات المهمة مثل كلمة (العلم) أدى هذا إلى خلط تصوُّري عظيم ولا سيّما في العلاقة بين العلم والدين.

إن كلمة (العلم) من أهم الكلمات القرآنية وأكثرها ورودًا في الكتاب العزيز، لكنها عندما أُعطيت ذلك المعنى الخاص معنى كلمة سينس حدث لَبْسٌ عظيم من أمثلته: أننا صرنا نسمع بعض الناس يقولون: هذه مسألة علمية لا دينية، بل سمعنا من يقول: إن القرآن كتاب هداية لا كتاب علم ثم استطرد الشيخ في بيان هذه القضية.

---

(١) علاقة العلم بالدين، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٤٤٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٤٩).

فوائد محاضرات العلوم الطبيعية

فائدة: هل للعلم منهجًا واحدًا متفقًا عليه بين كل العلماء الذين يدرسون الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية دراسة علمية؟

النظرة الساذجة الشائعة حتى بين كثير من المثقفين منا، بل ومن المثقفين الغربيين، بل وحتى بين كثير من المشتغلين بالعلوم سواء منها الطبيعي والاجتماعي تقول إنَّ للعلم منهجًا واحدًا متفقًا عليه بين كل العلماء الذين يدرسون الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية دراسة علمية، وأن هذا المنهج يُمكّن سالكه من الوصول إلى الحقائق الواقعية وتصويرها كما هي تصويرًا أمينًا، وتفسيرها التفسير الصحيح الذي يتناسب معها، تصويرًا وتفسيرًا لا علاقة لهما بمعتقدات العالِم الباحث المفسر، ولا بآرائه الفلسفية، أو قيمه الخُلقيّة أو أهدافه الذاتية، أو حقبته التاريخية، أو بيئته الثقافية.

ويظن كثير من عامة المثقفين الذين لا يشتغلون بهذه العلوم، ولا يعرفون شيئًا عن تاريخها وفلسفتها أن أصحابها لا يختلفون فيها اختلاف الفقهاء الذين يكثرون من ترديد عبارة (في المسألة قولان).

وهذا يعني أن قضية المنهج العلمي قضية قد بُتّ فيها ولم تعد تحتاج إلى نظرٍ جديد، وأنه ما علينا إذا أردنا أن نكون علماء، إلاّ أن نعرف هذا المنهج ونلتزم به في المجالات التي نريد دراستها لكي نصل إلى حقائقها وندرك تفسيرها.

هذه النظرة الساذجة للموضوعية هي سرٌ من أسرار تلك الصدمة الشديدة، والحسرة البالغة التي شعر بها كثير من المثقفين في عالمنا الإسلامي إثر سماعهم بالدعوة إلى إسلامية العلوم. لقد سوّل لهم شيطان تلك النظرة أن الدعوة إلى إسلاميّة العلوم لا تعدو أحد أمرين:

(أ) أن تكون مظهرًا من مظاهر النظرة الدينية الضيقة المتزمتة التي أفسدت علينا -بزعمهم- حياتنا الاجتماعية والسياسية وتريد الآن أن تمد يدها إلى الحقائق الموضوعية العلمية فتزيفها بأن تلوي أعناقها لتتواءم مع دعواها الدينية.

فمشروع إسلامية العلوم حسب هذه النظرة هو أشبه ما يكون بفعل عالم الأحياء السوفيتي لايسنكو الذي حاول أن يجعل علم الأحياء موافقًا للأيدلوجية الشيوعية فأنكر بعض الحقائق المتعلقة بعلم الوراثة واستغل منصبه الإداري ليمنع نشر أي دراسة تخالف نظرياته، فأدّى ذلك إلى تدهور هذا العلم في البلاد الروسية حتى اضطرت الدول الشيوعية فيما بعد إلى تدارك الأمر فأفسحت المجال للعلماء لكي يعبروا عن اعتقادهم بصحة ما أنكر لايسنكو.

(ب) أن تكون دعوة جوفاء لا حاصل لها إلا تبديل أسماء بأسماء، أي أن الداعي إلى الإسلامية في أي علم من العلوم سيأخذ بما قال الغربيون من حقائق، وبتفسيرهم لتلك الحقائق أو بأخذ منهجهم العلمي في إدراك الحقائق الطبيعية والاجتماعية، ثم يُسمّي ذلك علم نفس أو اقتصاد أو اجتماع إسلامي. ما جوابنا

عن هذا؟ هل نُسلِّم بصحة تلك الصورة الشائعة فيلزمنا إذن أن نلتزم نتائجها؟ أم ننكرها كلها فنقول إن هذه العلوم لا تقوم على شيء من الموضوعية، وإنها لا نعدو أن تكون وجهات نظر في العلم كتب لها أن تسود لأسباب اجتماعية تاريخية لا علاقة لها بصلب العلم؟ أم أن هناك مخرجًا ثالثًا؟ هذه هي القضية.

يحسن قبل أن نصدر حكمًا على صحة الصورة الشائعة أو خطئها وقبل أن ندعو إلى بديل لها أن ننظر في واقع هذه العلوم كما يمارسها أصحابها حسبما وضعها مؤرخوها وفلاسفتها وبعض المشتغلين بها من العلماء الغربيين.

فأول ما نبدأ به القول بأنه إذا كان المقصود بالتجرد من الاعتقادات والميول والأفكار أن يخلي العالم ذهنه من كل هذا ويُقبِل على بحثه بعقل مجرّد، فهذا شرط يستحيل تطبيقه، وعلى فرض إمكانه فإنه لا يكون شرطًا لحصول العلم بل سببًا في عدم حصوله.

أقول: أنه شرط مستحيل التطبيق لما يعلمه كل إنسان عن نفسه من أنَّه لا يستطيع أن يكف لحظة واحدة وهو يقظان عن حديث مع نفسه أو حديث مع غيره وكلا الحديثين صادر عن أفكار واعتقادات، فكيف والقضية التي يبحثها العالم قد تستغرق منه أشهرًا بل سنين؟ فهل يستطيع أن يكف طيلة أيام بحثه هذه عن حديث مع نفسه أو مع زوجه وأولاده وأصدقائه وزملائه؟ وهو سبب في عدم حصول العلم، لأنَّ العِلم وإن سُمِّيَ تجريبيًا إلا أن التجربة والمشاهدة لا تكون - كما يُنبّه إلى ذلك المختصون المناهج العلمية- إلا في ضوء سؤال أو افتراض.

إن العالِم لا يبدأ بحثه بالمشاهدة ولا بالتجربة، ماذا يشاهد؟ وماذا يجرب؟ إنه يبدأ بفكرة ثم يشاهد من الطبيعة أو المجتمع ما يراه متعلقًا بتلك الفكرة أو يجري تجربة معينة ذات علاقة بإثبات تلك الفكرة أو نفيها؛ ولأن العلم كما يقولون أمر تراكمي أي أن الجديد المكتشف منه يضاف إلى قديم سبقت معرفته، بل إن القضية الجديدة التي يُراد البحث فيها إنما تنشأ عن معرفة سابقة، والتجربة التي تجري تفترض صحة معلومات سابقة، فلو أن كل باحث بدأ تجربته وهو خال الذهن حتى من تلك المعلومات الخاصة بمجال بحثه لما نمى العلم وما تطور.

وأما إذا كان المقصود بالتجرد أن يكون الإنسان مستعدًا؛ لأن يقبل ما دلت عليه المشاهدة وما كان نتيجة للتجربة أو لازمًا عقليًا من لوازمها، وأن يكون أمينًا في نقل ما جرّب وشاهد واستنتج وإن خالف ذلك اعتقادًا سابقًا له أو للمجتمع الذي يعيش فيه، وأما إذا كان المقصود به أن يشاهد الإنسان ويجرب بذهن متفتّح غير مقيد باعتقادات في باطنه تحدد له ما يمكن وما لا يمكن أن يكون، وما يصح وما لا يصح من التفسيرات، فهذا أمر ممكن مرغوب فيه بل هو في رأينا المثل الأعلى للمنهج العلمي، ولكن المثل الأعلى شيء وممارسات العلماء الواقعية شيء آخر، كما ثبت ذلك لمؤرخي العلوم وفلسفتها من الغربيين.

ولعلنا نستطيع أن نجعل ما تقرّر في هذا المجال في أن العلماء الغربيين كانوا دائمًا يضعون أنفسهم -عن وعي منهم أو غير وعي- في داخل أطر

أيديولوجية ويتأثرون ببيئاتهم الاجتماعية وحقبهم التاريخية[١].

فائدة: أطر العلم الأيديولوجية:

تختلف هذه الأُطر في سعتها وشمولها فهنالك الإطار العام الذي يحدد للإنسان تصوّره العام للوجود، وهناك أُطر مختلفة داخل هذا الإطار الكبير بحيث أن الذين يشملهم هذا الإطار قد يختلفون في انتماءاتهم.

في ضوء الإطار الكبير الذي يمثل ما يسمّى في الاصطلاح الحديث بفلسفة الإنسان في الحياة، يتحدد اعتقاد الناس لما هو موجود وما ليس بموجود ثم يتحدد تبعًا لهذا مفهومهم للعلم والمنهج العلمي والتفسير العلمي وما إلى ذلك من مفهومات أساسية، فالعلم هو العلم بنوع الموجودات التي حددها الإطار، والمنهج العلمي هو المنهج الذي يوصلنا إلى معرفة هذا النوع من الموجودات، والتفسير العلمي هو الذي يعدّ ما يحدث لبعض هذه الموجودات أثرًا لموجودات أخرى من نوعها.

وعليه، فكل كلام عن موجودات غير التي حددها الإطار فهو كلام غير علمي، وكل ما يدّعى أنه حق فلا بُد أن يأتي عن طريق هذا المنهج العلمي، وإلا فهو دعوى بغير دليل، وكل تفسير لظاهرة من الظواهر التي حددها الإطار بسبب خارج عن نطاق الموجودات التي اعترف بها فهو تفسير غير علمي. إذا ما ساد

---

(١) إسلامية العلوم وموضعيتها، مجلة المسلم المعاصر السنة الثالثة عشر، العدد الخمسون ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ، الموافق ديسمبر ١٩٨٧م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٩٥٠).

إطار ما في بيئة ما أو عصر ما، وتربّى عليه الصغار وشاب عليه الكبار غفل معظم العلماء وطلاّب العلم عن أنهم يعملون داخل إطار حددته لهم نظرة ما وراثية، وأعطَوا مفهومات العلم والمنهج والتفسير العلمي التي درجوا عليها صفة الإطلاق والعموم، وحسبوا أنها دون غيرها هي المفاهيم الصحيحة التي يجب على كل مبتغ للبحث العلمي أن يلتزم بها، وإلا فما هو بعالم.

وعليه، يصبح من اللازم على كل من يريد الانضمام إلى زمرة العلماء في تلك البيئة أو ذلك العصر، أن يعمل في داخل هذا الإطار، حتى لو لم يكن مؤمنًا به، وإلا كان من المبعدين عن زمرة العلماء ولا يكون إبعاده -خصوصًا في المجتمعات الديمقراطية- بقرار سياسي، ولكن بما يسمّى بالإرهاب الفكري، والاستغراب وربما المقاطعة والسخرية، إلى أن يأذن الله بأن يستبدل الإطار الفلسفي إطار جديد.

ما الإطار الفلسفي العام الشائع في عصرنا الآن، والذي يعمل في داخله علماء الطبيعة والإنسان؟ لكي نجيب على هذا السؤال ينبغي أن نتذكر أن هذه العلوم وإن تكن قد انتشرت اليوم في العالم كله، إلا أنها في منشئها -ومن غير إنكار للجهود التي سبقتها وأهمها جهود العلماء المسلمين- عمل أوروبي وما زالت قيادتها الفكرية عند الغربيين.

ينبغي أن نتذكر أن هذه العلوم لم تستوِ على سُوقِها وتُؤتِ أُكُلَها إلا بعد معارك عنيفة مع الدين النصراني ممثلاً في الكنيسة ورجال الدين، وأن هذا الدين

كان فيه شيء من الحق المختلط بكثير من الأباطيل، وأن العقائد الدينية فيه كانت ممتزجة بالاعتقاد في السحر والكهانة، وأن القائمين على هذا الدين من رجال الكنيسة كانت لهم مصالح دنيوية في أن ينفردوا بالسلطة التي يُرجع إليها في الأمور العلمية، وأنه لما تغلب العلم الجديد في النهاية على النصرانية عُدّت غلبته عليها غلبة على كل تفسير خرافي لظواهر الطبيعة، وعدّ الدين أيًّا كان أحد هذه التفسيرات لا فرق في ذلك بينه وبين السحر والكهانة والتنجيم وما إليها.

جاءت هذه العلوم إذن نتيجة صراع مع الدين، وكانت كلما انتصرت عليه في معركة أمعنت في البعد عنه، حتى أسس بنيانها في النهاية على قواعد مخالفة لقواعده، كأن مؤسسيها كانوا يعتقدون أن كل قرب من الدين هو ابتعاد عن الطريق الصحيح للعلم بحقائق الوجود.

ولذلك وصفت هذه العلوم بأنه لا دينية أو دنيوية Secular، في مقابل علم اللاهوت الذي يهتم بالدين وبأمور الآخرة، وسُمِّيَت بالعلوم أو الفلسفة الطبيعية إشارة إلى أن الطبيعة هي مجالها، بل هي مصدرها الذي تأخذ عنه حقائقها؛ وذلك في مقابل المصادر الدينية من وحي وعلماء الدين. يرى أحد مؤرخي العلوم أن العلم مرّ في تطوره بمرحلتين:

أولاهما: مرحلة تطور تقني حدث في القرن السادس عشر.

وثانيتهما: مرحلة ثورة فلسفيّة حدثت في القرن السابع عشر.

لكنه يقول: «إن تصّور المعرفة الذي كان سائدًا (يعني في القرن السادس

عشر) كان لا يزال مختلفًا اختلافًا جذريًا عن مفهومها اليوم».

ثم يقول في شرحه لذلك المفهوم: «بما أن العالم المحسوس كان متأثرًا تأثرًا شديدًا بالقوى الفاعلة الإلهية والجنيّة والسحرية، كان الغوص في أسراره كذلك آثار من مهمة دنيوية».

ثم يقول معلقًا على هذا الذي قرره وهو موضع استشهادنا: «بما أن بعض جذور المفهوم الحديث للعلم كانت في الصراع ضد هذه النظرة إلى العالم، فمن الصعب أن نتصوّر كيف كان من الممكن وجود نظرة علمية في داخلها. وعلى كل فإن المؤرخ يظل حبيس مقولاته المؤقتة إلى أن يتسنّى له الوصول إلى تفاهم مع هذه النظرة».

أما الثورة التي أشار إليها فهي التي قادها بيكون الإنجليزي، وجاليلي الإيطالي، وديكارت الفرنسي وهي التي جاءت بنظرة جديدة إلى الوجود مخالفة للنظرة المسيحية فحواها أن عالَم الطبيعة عالَم ميّت خالٍ من أي خصائص روحية أو شبه بشرية، وأنه ليس من الممكن لذلك أن يكون بيننا وبين الطبيعة أي نوع من الجوار سواء عن طريق الكشف الروحي أو الوحي الإلهي.

واتفق جاليلي وديكارت على أن العالَم مكوّن من أجزاء مادية هي من الصغر بحيث لا يمكن أن ترى، وأن الظواهر الكونية كلها هي نتيجة تفاعل بين هذه الأجزاء التي لا إدراك لها ولا هدف، وأن تفاعلها لذلك هو بمثابة التصادم الذي يحدث بين مجموعة من الكرات، لكن حتى في ذلك القرن كانت الصلة ما

زالت وثيقة بين العلم الجديد والدين؛ لأن العلماء والفلاسفة كانوا لا يزالون يصفون القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية (قوانين خلق الله)؛ ولأن روّاد الثورة الفلسفية الجديدة، ونيوتن الذي جاء بعدهم، والذي وضع علم الفيزياء الحديث، كانوا جميعًا من المؤمنين بالدين المسيحي.

لم تكن هذه الفلسفة إذن نتيجة العلم الجديد، كما قد يتبادر إلى أذهان الكثيرين، «وإنما كانت تسليمًا مسبقًا بمبدأ ميتافيزيقي" هو الذي وضع -مع نهاية القرن السابع عشر- الثقافة الأوروبية، بما في ذلك العلوم الطبيعية على طريقة العلمانية الكاملة».

نعود إلى سؤالنا مرة أخرى: ما الإطار الفلسفي الذي تُوضع فيه العلوم في عصرنا؟ إنه كما رأينا:

١- إطار فلسفة لا دينية، فلسفة ترى أن الظواهر الكونية ينبغي أن تفسّر بأسباب من داخل هذا الكون، أي بأسباب طبيعة لا دخل فيها للإرادة الإلهية، ولا للتجارب الروحية. إذن فعل العالم الطبيعي أن يبدأ باستبعاد مثل هذا التفسير، أي إن عدم فاعلية القدرة أو الإرادة الإلهية ليس شيئًا استنتجه العالِم من دراسته للطبيعة وإنما هو شيء يبدأ بافتراضه ثم يحاول أن يبني عليه مشاهداته ونظرياته. هذا أمر يعرفه ويعترف به كثير من العلماء وفلاسفة العلم الغربيين.

أ- يرى أحدهم مثلًا أن دارون في محاولته إيجاد نموذج لنظرية يفسّر بها تطور الكائنات الحية «كان يبحث عن عملية طبيعية صرفة لا يتضمن أنموذجها

تدخل القدرة الإلهية».

ب- ويرى آخر أن تفسير دوركايم للظاهرة الدينية بإرجاعها إلى فكرة التضامن مع النظام الاجتماعي مبنيٌ على حجة إلحادية فحواها أن «الأشياء التي يذكرها المنتمون إلى دين ما، يجب أن لا تؤخذ على أنها إخبار عن الله -لأنه من حيث المبدأ- لا يمكن أن يكون هنالك إخبار كهذا». وعليه فيجب تفسيرها بطريقة أخرى، والتفسير الذي يقترحه دوركايم هو: «أنها تعبير عن الإخلاص».

٣- وهي ليست فلسفة لا دينية بمعنى سلبي، بل هي فلسفة معادية للدين ينتقده أنصارها باسم العلم، ويهاجمونه ويسعون لمحاصرته، ويعملون جاهدين على إبعاده عن مجال العلم، ويحرصون على رفض كل نظرية علمية يخشون أن يكون فيها شيء من التأييد للدين.

يقول فرد هويل أن علماء الأحياء التقليديين لن يقبلوا نظريته في التطور المخالفة لنظرية دارون، والتي فحواها أن تطوّر الأحياء على أرضنا لا يسير بالمصادفة وبلا هدف كما تدّعي تلك النظرية، بل أن سيره محكوم بقوى واعية خارج أرضنا، يقول أن هؤلاء العلماء لن يقبلوا هذه النظرية، رغم وجود جبال من الأدلة على صحتها، لأنها قد تؤدي إلى إيحاءات دينية؛ «ولأن العلماء التقليديين مهتمون بمنع الرجوع إلى الغلّو الديني الذي حدث في الماضي، أكثر من اهتمامهم بالتطلع إلى الحقيقة. إن النظرة الجهنمية التي وصفناها آنفًا قد سيطرت على التفكير العلمي خلال القرن الماضي كله».

لكن معظم الباحثين في صلة العلوم الطبيعية أو الإنسانية بوجهات النظر الفلسفية والقيم والمعتقدات الغيبية اكتفوا ببيان هذه الصلة في نظريات علمية معينة، إما لمجرد بيان الأصل التاريخي للنظرية، أو لاتخاذ هذا البيان ذريعة إلى نقد النظرية.

وإليكم الآن أمثلة مما قالوا أظن أن بعضها سيكون مثار دهشة للقراء:

قالوا إن نظرية مالثوس المشهورة التي انتهي فيها إلى أن الفقر والعناء أمور حتمية ناتجة عن أن عدد السكان يزداد بمتواليات هندسية، بينما الموارد الغذائية تزداد بمتواليات حسابية، كانت في الحقيقة احتجاجًا على قوانين صدرت لصالح الفقراء.

ثم جاء سبنسر فحوّل نظرية مالثوس إلى نظرية في التطور الاجتماعي، فحواها أن الطبيعة تنتخب أو تنتقي الأصلح للبقاء، وتتخلص مما سوى الصالحين، قال: «إذا كانوا كاملين بحيث يصلحون للحياة فإنهم سيحيون، ومن الخير أن يحيوا؛ وإذا لم يكونوا كاملين بما يهيئهم للحياة فسيموتون، ومن الخير أن يموتوا».

هذا ما في رأيه هو مجرى الأمور الطبيعي الذي ينبغي أن لا نتدخّل فيه. أظن أن الكثيرين منكم تذكروا قول الله تعالى عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

ثم جاء داروين فاستفاد من النظرتين، ففسر التطور في عالَم الحيوان بالانتخاب الطبيعي، ثم عاد سبنسر وأصحابه فوجدوا في نظرية دارون تأييدًا علميًا لنظريتهم الاجتماعية، التي سُمِّيت بعد ذلك بالدّارونية الاجتماعية، وقالوا: إن هنالك صلة بين تفسير دارون للصفات المتفقة وبين المذهب الفردي الذي كان سائدًا آنذاك في النظريات السياسية البريطانية، وأن الأصل في هذا التفسير هو الدفاع عن تقسيم العمل الذي دعا إليه آدم سميث، وأنه بهذا التفسير حوّل نظرية سياسية إلى صورة للعالم الطبيعي.

ولذلك قال انجلز: «إن كل ما فعله دارون في قوله بالصراع من أجل البقاء هو أن حوّل من المجتمع إلى الطبيعة مبدأ هوبز القائل بالمبدأ الاقتصادي البرجوزاي في التنافس، ونظرية مالثس في السُكان ثم لما اكتمل أداء عملية الساحر -هذه- حُولت النظريات نفسها مرة أخرى من الطبيعة العضوية إلى التاريخ وادّعى الآن أن البرهان قد قام على صدقها بكونها قوانين خالدة للمجتمعات الإنسانية».

وقريب من قول انجلز هذا رأي الفلكي الفيزيائي المعاصر فرد هويل الذي يقول في كتاب له حديث: «بإمكاني أن أبدًا ببياني أن أفكار نظرية دارون كان قد سبق أن احتلت لها مكانًا منذ عام ١٨٣٠م، أي قبل ما يقرُب من ثلث قرن قبل نشر كتاب (أصل الأنواع) لدارون في عام ١٨٥٦م، ولكن بينما كانت الأفكار قد وجدت فإن حال المجتمع لم يكن قد تهيّأ لها. كانت هنالك حاجة إلى تغيير مهم قبل أن تستدعي هذه الأفكار، ثم يبين أن هذا التفسير كان في

ظهور الشركات التي كانت تتنافس في تجويد منتجاتها؛ لأن هذا التجويد كان وسيلة البقاء بالنسبة لها».

ثم يقول: «لقد كانت الخطوة قصيرة من تجربة عملية في التجارة إلى مفهوم تحسين النوع عن طريق الانتخاب الطبيعي»، ثم يُعلِّق على هذا التشابه تعليقًا مهمًا فيقول: «إن كل الناس -إلا قلة من العلماء- أغفلوا خطوة خطيرة في قياس الانتخاب الطبيعي على الانتخاب التجاري. إن الانتخاب التجاري إنما يحدث لأن وراءه عقول بشرية تدأب على تحسين نوع منتجاتها ومداها. الانتخاب التجاري بعيد إذن كل البعد عن الانتخاب الطبيعي، ذلك الشيء الذي لا هدف له كما يفترض في علم الأحياء».

اختلاف العلماء داخل الأطر الفلسفية:

وإذا كانت الأطر الأيديولوجية تختلف من عصر إلى عصر، فهنالك اختلافات بين العلماء داخل الإطار الواحد وفي نفس العصر الواحد:

أ- فهنالك اختلافات وطنية، ومما يذكرونه في هذا المجال مقال كتبه الفيزيائي الفرنسي بيير دويم قارن فيه بين طريقة الفيزيائيين النظريين في كل من بريطانيا وفرنسا في تناول المشكلات المتعلقة بالنظريات الكهربائية، فأوضح فيه أن الفرنسيين يميلون إلى وضع هذه النظريات في قالب رياضي بينما يميل البريطانيون إلى البحث عن نماذج عملية تساعد على فهم الظواهر الطبيعية بطريقة مرئية أو حسية غير رياضية. وقال إن هذين الاتجاهين ليسا قاصرين على

علم الفيزياء بل يشملان مجالات فكرية وحياتية أخرى.

ب- واختلافات في دلالات التجارب، خذ مثلًا لذلك التجربة التي تجري على الفئران فيما يُسمّى بصندوق اسكنر -نسبة إلى العالم السلوكي الشهير-، هذا صندوق مزوّد بجهاز فيه قضيبين كلما ضغط عليه الفأر سقطت إليه قطعة طعام، فلوحظ أن الفأر يظل يردد ضغطه على القضيب ويأكل قطع الطعام الساقطة إليه حتى إذا شبع كف عن الضغط. يستنتج السلوكيون من هذه التجربة وأمثالها ن السلوك الحيواني -بما في ذلك سلوك الإنسان- يقوم على قاعدتين هما: التنبيه (الضغط على القضيب)، والاستجابة (وصول الطعام).

ويستنتجون من ذلك: أنه لا داعي لافتراض مؤثرات غير مادية كالقرار والإرادة وحتى العقل، لكن خصوم السلوكيين يقولون إن ما استنتجوه من أمثال هذه التجارب ليس هو كل ما تدل عليه المشاهدة وأن هنالك تجارب أخرى تدل على أن دوافع الأفعال ليست محصورة في توقع هذه الجزاءات المادية.

فيقول أحدهم: «إن كل من درس حيوانًا في صندوق اسكنر يلاحظ أولا أن الضغط على القضيب يستغرق أقل قدر من وقت الحيوان، فهنالك بالإضافة إلى هذا أنواع أخرى من السلوك المميز للحيوان، كالجري، والانتصاب على الرجلين الخلفيتين، والاستشمام، واستكشاف الصندوق، إن علماء النفس السلوكيين يعتبرون كل نوع من هذه الأنواع السلوكية أجنبيًا على موضوع التجربة من الناحية العلمية.

إن السلوك الوحيد الجدير بأن يُشار إليه فيما يبدو هو عدد المرات التي يضغط فيها الفأر على القضيب لينال مكافأة هذا العمل. إن الذي يحدث في هذا الوضع المصطنع هو أن المجرّب قد اعتمد على تعريف انتقائي للسلوك».

وأما إذا أخرجنا الفأر من هذا الوضع المصطنع وتركناه على طبيعته بأن وضعناه على منضدة مثلًا فإن هذا التعريف المنتقى لا يصلح لتفسير سلوكه، ثم يذكر أمثلة أخرى تدل على أن السلوك الحيواني لا يمكن أن يفسّر كله في نطاق أنموذج التنبيه والاستجابة، ثم يقول: «منذ أكثر من خمس وعشرين عامًا والسلوك الإنساني يفسّر على أساس فهم خاطئ لمشاهدة الفئران والجرذان».

جـ- إن العلوم الطبيعية التجريبية أضبط -كما هو معروف- من العلوم الإجتماعية والإنسانية، وأكثر العلوم الطبيعية دقة وأقربها إلى المثال الرياضي وأساسها وقاعدتها هو علم الفيزياء، لكن حتى هذا العلم المثالي بعيد كل البُعد عن تلك الصورة الساذجة الشائعة. والفيزيائيون بشر يخطئون، بل قد يجمعون على الخطأ لفترة من الزمان، فقد كانوا جميعًا إلى قُرب نهاية القرن التاسع عشر يعتقدون بوجود مادة اسمها الأثير تملأ كل مكان بين الكواكب، وكل مكان بين النجوم، وتُمثّل الوسيط الذي ينقل الموجات الكهرومغناطيسية.

ولقد قال الفيزيائي الاسكتلندي الشهير ماكسول (الذي اكتشف المعادلات الأساسية التي تحكم القوى الكهربائية والمغناطيسية): «مهما كانت الصعاب التي نجدها في إعطاء صورة متسعة لتكوين الأثير فليس هناك من شك في أن المكان بين الكواكب أو بين النجوم ليس فارغًا بل يحتله جوهر مادي أو

جسم هو بالتأكيد أكبر وربما كان أكثر الأجسام التي نعرفها تماثلًا واتساقًا».

وهذا شيء طبيعي، فالذي يُميّز العالِم سواء كان عالِم طبيعة أم مجتمع أم شريعة ليس هو العصمة من الخطأ وإنما الإذعان للدليل والرجوع عن الخطأ، وإذا كان الفيزيائيون يخطئون فإنهم أيضًا يختلفون في تفسيرهم لما يشاهدون ويُجربون، وقد تكون أقوالهم في المسألة الواحدة أكثر من أقوال الفقهاء وأشد تناقضًا، فهؤلاء علماء الميكانيكا الكمية يختلفون في الحقيقة التي تدل عليها حقائقها الواقعية إلى أقوال أوصلها بعضهم إلى ثمانية:

- فمنهم من يقول إنها تدل على أنه ليس وراء الظاهر الشاهد من حقيقة أعمق.
- ومنهم من يرى أن الحقيقة تحدثها المشاهدة.
- ومنهم من يرى أن الحقيقة كلٌّ لا يتجزأ.
- ومنهم من يرى أن هنالك عددًا متزايدًا ومتواريًا من العوالم.
- ومن يرى أن العالَم مبني على منطق غير المنطق البشري المعهود.
- ومن يرى أن العالَم مكّون من أشياء مثل الأشياء المعهودة في العالم المشاهد.
- ومن يرى أن الحقيقة ينشئها الوعي.
- ومن يرى أن العالَم مزدوج فهو مكّون مما هو بالقوة وما هو بالفعل.

والذين قالوا بكل هذه الأقوال والذين قالوا أنه قد تكون الحقيقة مخالفة لكل هذه الأقوال ليسوا فلاسفة ولا رجال دين، وإنما هم فيزيائيون مختصون بل أن بعضهم من كبار رجال هذا العلم ومؤسسيه[1].

فائدة: مسوّغات إسلامية العلوم.

بعض إخواننا من دعاة إسلامية العلوم يعجبهم اعتراف الغربيين هذا بعُسْر الموضوعية أو تعذرها، ويرون فيه أكبر مسوّغ لدعوتهم، فكأنهم يقولون للغربيين: إذا كنتم تنظرون إلى الواقع من خلال أيديولوجيتكم وفلسفاتكم وتفسرونه في ضوئها، فلماذا تعيبون علينا أن نفعل ما تفعلون؟ هذه حجة ضعيفة غايتها أن تفحم الخصم لكنها لا تصلح أن تكون مسوّغًا لإسلامية العلوم لأنه يلزم عنها:

١ - أما القول بعدم وجود حقيقة موضوعية نسعى لإدراكها ولذلك يجوز لكل إنسان أن يقول ما شاء حسب دينه ومذهبه وهواه، وهنا يكون الموقف أسوأ من موقف جماهير العلماء والفلاسفة الغربيين؛ لأنهم وإن اعترفوا بعُسْر الموضوعية لكنهم لا يقولون باستحالتها.

٢- أو القول بأن هناك حقيقة موضوعية لكنه من المتعذر معرفتها كما

---

(١) إسلامية العلوم وموضعيتها، مجلة المسلم المعاصر السنة الثالثة عشر، العدد الخمسون ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ، الموافق ديسمبر ١٩٨٧م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٩٥٠).

هي، بل أنها لا تدرك إلا مصطبغة بصبغة المنظار الأيديولوجي الذي يضعه المشاهد على عينيه.

٣- بل يلزم عنها التشكيك في الحقائق الكبرى التي يقوم عليها الدين نفسه، لأننا لا نريد أن نقول أن الإيمان بالله وبالدار الآخرة وبنبوّة محمد ﷺ إنما هو وجهات نظر لجماعة من الناس يُسمون بالمسلمين، وأنها ليست حقائق موضوعية يمكن أن يُقام عليها دليل عقل صحيح.

إن مسوّغ الإسلامية لا يقوم على التسليم بالنسبية أو القول بالذاتية؛ لأن اختلاف الأطر من عصر إلى عصر، ومن بيئة ثقافية إلى بيئة، ومن حضارة إلى أخرى، لا ينهض دليلاً على المساواة بينهما أو على استحالة تقويمها هي نفسها تقويمًا عقلانيًا.

إن مسوّغ الإسلامية يقوم على الاعتقاد بأن الموضوعية ممكنة، وأن بعض الأطر -بالقياس العقلي- خير من بعض، وأن الإسلامي -بالقياس العقلي- هو خير تلك الأطر وأصلحها.

لكن صلاحية الإطار الإسلامي لا تعني أن الأُطرَ الأخرى تحول دون إدراك أية حقيقة بموضوعية أو تصبغها بصيغتها، لأن الإنسان مهما بلغت اعتقاداته من الفساد يظل قادرًا على إدراك بعض الحقائق واكتساب نوع من العلم، يقول الله تعالى عن منكري الآخرة: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

فهم إذن يعلمون شيئًا مما يتعلق بالحياة الدنيا رغم حبسهم لأنفسهم في إطار لا يعترف بوجود دار آخرة، كن هذا الإطار يحول دونهم ودون إدراك حقائق أخرى ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٤٠]، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾؛ بلي كانوا يرونها وكيف لا يرى ذو عينين قرية وهو يمر عليها؟ إنهم يرونها فيعلمون شيئًا هو الذي وصفته الآية الأولى بالعلم الظاهر، لكن إنكارهم للآخرة يحول دونهم ودون تفسير هذا الذي يرونه تفسيرًا صحيحًا، يحول دونهم ودون إدراك ما يدل عليه ويشير إليه هذا الواقع المشاهد.

وعدم الإدراك هذا نقصان في العقل سببه ذلك الإطار الذي يُنكر الآخرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ﴾ [العنكبوت:٣٥]، أي من تلك القرية، ﴿ءَايَةً﴾ أي دليلاً وشاهدًا ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، فرؤية ما بقي من القرية على أنه آية يحتاج إلى كمال في النظرة العقلية لا يتأتى لمن يحبس نفسه في إطار أيديولوجي لا مجال فيه للآخرة.

في ضوء هذه الحقيقة، يمكن أن نجيب على شبهة كثيرًا ما تُذكر لتأييد الإطار الإلحادي أو لإنكار الإطار الإيماني. يقول أصحاب هذه الشبهة: «إن العلوم الطبيعية قد حقق إنجازات كبيرة»، فنقول نعم.

ويقولون: «ولو لم تكن قائمة على حق في تقريرها للواقع وفي تفسيرها له لما نتجت عنها هذه الإنجازات؟»، ثم يخلصون إلى القول بأن هذا دليل على صحة الإطار الإلحادي الذي وضعت فيه أو يدل على أقل تقدير على أن هذا

الإطار هو الإطار المناسب لمثل هذه العلوم وإن كانت له مشكلاته في مجالات أخرى.

هذا الكلام يصح حُجة على من يزعم أن الملحد لا يمكن أن يدرك أي نوع من العلم، وقد قلنا بغير ذلك. ويصح لو ثبت أن ما أدرك في حيّز الإطار الإلحادي من علوم لا يمكن أن يدرك في حيز الإطار الإسلامي ولا دليل على ذلك، إن الكافر والمؤمن كليهما يعلمان بوجود الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والأشجار والأنهار، ويعلمان كثيرًا من الأسباب الطبيعية ويأخذان بها، فهنالك إذن علم مشترك بين الإطارين.

إذن فما يعترف به الإطار الإلحادي من حقائق ليس شيئًا خاصًا به أو ناتجًا عنه وحده، وإنما هو أمر مشترك بينه وبين الإطار الإيماني؛ لأنه ليس في الإطار الإيماني ما يمنع من إدراك أية حقيقة تدرك في حيز الإطار الإلحادي، لكن ميزة الإطار الإيماني -وهو إطار العقل الكامل- أنه يساعد على إدراك حقائق ومؤثرات وتفسيرات أخرى لها نتائج نافعة في حياة الناس العلمية والعملية والنفسية لا مجال لها داخل الإطار الإلحادي.

والدعوة إلى إسلامية العلوم هي إذن دعوة إلى تأكيد الموضوعية لا إلى التخلّي عنها؛ لأنها دعوة إلى أن يكون إطارها الفلسفي نفسه قائمًا على حقائق موضوعية، إنها دعوة إلى أن يفكر العالِم ويشاهد ويجرب ويستنتج وهو مؤمن بالله، وبأن محمدًا رسول الله ﷺ، وأن القرآن كلام الله؛ لأن هذه نفسها حقائق موضوعية عنده دليل عقلي على صحتها، إنها ليست دعاوى اعتقادية بل هي

إيمان بقوم على علم ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤].

وإذا كان بعض الناس لا يؤمن بهذه الحقائق لجهلهم بها أو لعنادهم، فإن الباحث المسلم لا يرجئ إيمانه بها حتى يذعن الآخرون جميعًا ويسلموا، كما أن أصحاب الإطار الإلحادي لم ينتظروا حتى يصير الناس جميعًا ملحدين، بل أن إيمانه بها وإعلانه لهذا الإيمان وهو يبحث ويفكر ويجرِّب ويكتب ويناقش سيكون من أقوى الأدلة على أنه لا تناقض بين البحث العلمي والاعتقاد الديني الإسلامي، بل إن ما ينتج عن الالتزام بهذا الإطار من ثمار علمية واقعية ونظرية سيكون هو نفسه من أقوى الأدلة على فضله وتفوقه على الإطار الإلحادي المادي.

وإذا كان المسلمون الممارسون للعلم سيفعلون ذلك وهم متفقون على صحة الإطار الإسلامي، فإن إخوانهم المشتغلين بفلسفة العلوم وتنظيرها ومناهجها، أو الجامعيين بين الأمرين جميعًا سيهتمون بالحديث عن هذا الإطار وإثبات حقائقه وبيان فضله على غيره من الأطر، أي أن ما كان يُسمّى بعلم الكلام أو علم أصول الدين سيكون كثير منه جزءًا مما يُسمّى اليوم بالفلسفة العلمية، وهذا لم يُعد اليوم أمرًا غريبًا.

لقد تطورت بعض العلوم -سيّما الفيزياء والأحياء- إلى حدٍ جعل كثيرًا

من المشتغلين بها يضيقون بالإطار المادي، ويفتحون باب الحديث مرة أخرى عن دلالتها على وجود الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد كان مجرد الحديث في هذه الأمور يُعد -إلى عهد قريب- نوعًا من الخيانة للعلم، بل كان يقال أن السؤال عن وجود خالق للكون سؤال غير مشروع فضلًا عن أن تكون له إجابة صحيحة أو خاطئة.

وحين يُبيِّن المُنظِّر أو الفيلسوف المسلم فضل الإطار الإسلامي على غيره، فإنه لا يتحدث لإخوانه المسلمين فحسب، ولا يقول إن الإطار الإسلامي صالح لعلم دون علم، أو لأمة دون أخرى، بل إن هدفه أن يُبيّن صلاحية هذا الإطار للبحث العلمي أيًّا كان، وللباحث أيًّا كان.

وعليه، فمن الخطأ أن ينظر إلى إسلامية العلوم على أنها علوم خاصة بالدين الإسلامي، أو بأحوال المسلمين الراهنة، أو بتاريخهم، فهذا خطأ؛ أولًا: لأنه يُسلِّم بصحة النظرة النسبية، فكأنه يقول للغربيين أن نظرياتكم في العلوم الإنسانية صالحة لمجتمعاتكم ونظرياتنا صالحة لمجتمعاتنا.

إن العالم الغربي الذي يؤمن بالموضوعية يعتبر نظريته صالحة لتفسير الظواهر التي يتحدث عنها حينما وُجدت، ولا يعتبر علمه خاصًا بالمجتمعات الغربية، كما أن زميله في العلوم الطبيعية لا يعتبر علمه عِلمًا غربيًا بمعنى أنه يصلح للغربيين وحدهم، أو يفسّر الظواهر الطبيعية المتعلقة ببلادهم.

إن عالِم الاجتماع الغربي يعتبر (القوانين) التي توصّل إليها؛ قوانين

للمجتمعات الإنسانية أيًا كانت، ونحن كذلك نريد أن نضع أنفسنا في الإطار الإسلامي ونحن نبحث في علوم الفيزياء والكيمياء وسائر العلوم الطبيعية، وأن نضعها في هذا الإطار، ونحن نبحث في علم النفس الإنسانية وعلم الاجتماع الإنساني وعلم الاقتصاد الإنساني وعلم التاريخ الإنساني، لا نفوس المسلمين ومجتمعات المسلمين واقتصادهم وتاريخهم فحسب.

إن القرآن الكريم يتحدث عن الإنسان في أصله الفطري: الإنسان المسلم، وغير المسلم، فحين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١]، فإنه لا يعني الإنسان المسلم، لأنه يقول بعد ذلك: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:٢٢]، بل إنه لا يتحدث عن الإنسان في أصله الفطري لأنه تعالى يقول في آية أخرى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧]، والرسول ﷺ يقول: «**كل مولود يولد على الفطرة**»، من حديثٍ رواه البخاري.

ومن هنا، نخرج بتصوّر عام للإنسان فنقول إنه في أصله الفطري، كذا وكذا، وإذا حاد عنه صار كذا وكذا، وإذا أسلم كان إسلامه امتدادًا لذلك الأصل فصار كذا وكذا، وكذلك حين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، فإنه يعطينا قانونًا اجتماعيًا عامًا شاملًا لكل المجتمعات الإنسانية وليس خاص بالمجتمعات الإسلامية.

إن ميدان علماء الاجتماع المسلمين لا يقتصر على المجتمعات الإسلامية، بل يشمل المجتمع الإنساني كله، بما في ذلك المجتمعات الغربية، فهم يبحثون في مشكلاتها الاجتماعية والنفسية، ونُظمها السياسية، وعلاقاتها الاجتماعية

والدولية، وتاريخها، ومستقبلها، ويطلعون على ما يكتب علماء الاجتماع الغربيون ويناقشونهم، لكنهم يفعلون كل ذلك وهم مستشعرون لإيمانهم بالله وبأن محمدًا رسول الله ﷺ وأن القرآن كلام الله، كما أن الباحث الغربي يدرس تاريخ المسلمين وواقعهم الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي وقد وضع نفسه في إطار غير الإطار الإسلامي.

والإطار الإسلامي لن يعصم العالم المسلم من الخطأ، ولن يجعل كل ما يقوله موافقًا للإسلام، ولن يمنع من تعدد الآراء والنظريات واختلاف العلماء المسلمين وتخطئة بعضهم لبعض، لأنه إذا كان كل هذا يحدث في مجال الفقه «والأدلة الشرعية التفصيلية أقرب إليه» فكيف لا يحدث لمن لا يملكون مثل هذه الأدلة التفصيلية ولمن يكتفون -في معظم الأحيان- بمجرد وضع علمهم في داخل الإطار الإسلامي.

وإذا كانت الدعوة إلى إسلامية العلوم لا تخالف الموضوعية بل تؤيدها، فإنها تضع للعالم المسلم حلًا لمشكلة نفسية لا يشعر بها العالِم الملحد ولكن يشعر بها كثير من العلماء المؤمنين بالنصرانية أو المعتقدين في وجود الخالق وفاعليته، أعني مشكلة الانفصام بين شخصية الإنسان وهو يبحث في مجاله العلمي ويكتب ويناقش، وشخصيته وهو يتلو كتاب الله تعالى ويصلي ويصوم ويتزوج ويعاشر الناس.

والانفصام سببه: **إن الحالة الأولى:** تفرض عليه أن ينسى إيمانه أو يعلقه.

والحالة الثانية: تدعوه إلى أن يذكر هذا الإيمان ويستشعره.

والإنسان لا يرتاح إلى الشتات في الأمور الفكرية، فكيف به في الأحوال النفسية؟ فإذا كان العلماء الطبيعيون يبحثون -تخلصًا من الشتات وسعيًا إلى الوحدة- عن مبدأ واحد أو نظرية واحدة ترجع إليها سائر النظريات الأساسية حتى تفسّر مظاهر الطبيعة بمبدأ واحد ترجع إليه حقول القوى الطبيعية الأربعة المعروفة حتى الآن، أعني الجاذبية والكهرومغناطيسية والحقل القوي والحقل الضعيف.

وإذا كانوا يبحثون وراء مظاهر المادة المختلفة الأشكال والألوان والأحجام والخصائص عن اللبنات الأساسية التي ترجع إليها هذه المظاهر، أفلا يسوغ -بل أليس من الأحرى- أن يبحث العالم عن تصور الكون بجمع شتات نظراته الطبيعية والاجتماعية والفردية، بحيث لا يعيش في انفصام بين شخصه وهو باحث علمي، وشخصه وهو رجل اجتماعي، وشخصه وهو ربّ أسرة، وشخصه وهو متأمّل في ذاته أو متذوق للجمال أو ملتزم بالأخلاق أو مدافع عن الحقوق؟ إنَّ المبدأ الذي يجمع هذا الشتات هو مبدأ التوحيد، مبدأ الإيمان بالله واحدًا لا معبود بحقٍ سواه، والإيمان بأن طريق محمد ﷺ هو وحده الطريق الموصل إلى الله[1].

---

(١) إسلامية العلوم وموضعيتها، مجلة المسلم المعاصر السنة الثالثة عشر، العدد الخمسون ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ، الموافق ديسمبر ١٩٨٧م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٩٥٠).

فائدة: العلاقة بين العلوم التجريبية أو الحسية والعلوم العقلية من ناحية والدين من ناحية أخرى:

هناك قضية كبيرة لها في تاريخ الإسلام تاريخ طويل، انشغلت بها عقول إسلامية كبيرة، وتحدثت فيها شخصيات إسلامية فاضلة، ولكن هذه القضية وهي قضية العلاقة بين العلم أو بين العلوم التجريبية أو الحسية والعلوم العقلية من ناحية والدين من ناحية أخرى.

هذه القضية -كما قلت- شغلت عقول كثير من علمائنا في الماضي ولكنها تعود فتطل علينا مرة أخرى في هذا العصر ربما لنفس الأسباب التي جعلت المسلمين يشتغلون بها في ذلك العصر، الذي جعل المسلمين يهتمون بقضية العلاقة بين العقل والدين هو -من بين الأسباب- ترجمة الفلسفة اليونانية من ناحية، ثم عندما اتصل المسلمون بأصحاب الأفكار والفلسفات الأخرى حتى من غير الفلسفة اليونانية وأرادوا أن يردوا على الكفار -ولا سيّما الدهريين منهم- نشأت هذه القضية ونحن اليوم نتصل بالفكر الغربي، والفكر الغربي فكرٌ أيضًا يقوم في مجمله على المادية وعلى الإلحاد.

فالقضية تطل علينا مرة أخرى ولكن في ثوب جديد، هذا الثوب وهو ثوب جذاب جدًا، فحوى القضية اليوم: أن كثيرًا من المشتغلين أو كثيرًا من المفكرين الغربيين ومن تأثر بهم من المسلمين يقولون: إن العلم قد نجح نجاحًا باهرًا لا يَشكُّ فيه إلا مكابر -أعني العلم التجريبي-، فها هو قد اكتشف كثيرًا من الحقائق، وقامت على هذه الكشوف تقنية دقيقة شملت كل أنواع الحياة.

هذه التقنية ساعدت في تيسير الحياة على الناس في كل جانبٍ من جوانبها، وهذا العلم لم يقم إلا على الحس وعلى العقل، وإذن يستنتج بعض أصحاب هذه الفكرة من هذا أن الدين لا مجال له، نحن قد استطعنا أن ننجح هذا النجاح الباهر من غير أن نعتمد على وحي ومن غير أن نهتدي بهدى الأنبياء، وإذا كان نجاحنا اليوم محصورًا في النطاق المادي فإننا غدًا نستطيع أن نتوسع فتشمل علومنا هذه كل نواحي الحياة وكل ما يحتاج إليه الإنسان وبذلك لا يكون بحاجة إلى الدين.

هذا التصور فيه كما ترون كثير من الغرور، وهذا التصور كان سائدًا إلى أواخر القرن الماضي وربما بدايات القرن العشرين ولم يخفف من حدته وغلوائه إلا الحروب، الحربان العالميتان الأولى والثانية.

شعر كثير من المفكرين الغربيين أن العلم التجريبي وحده لن يحل كل المشاكل، لكن المهم أن هذا التحدي ما زال قائمًا في صورة أو أخرى يواجه به المنتسبون إلى الملل -سواءً كانت الإسلامية أو النصرانية أو اليهودية-، ثم من مظاهر أو من أشكال هذا الادِّعاء أن يقول أصحاب هذه الفكرة: إذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتائج الباهرة بهذا المنهج الذي سلكناه -وهو الذي يسمى الآن بالمنهج العلمي المعتمد على الحس والعقل- يقولون إذا كل دعوى لا تأتي عن هذا الطريق فليست علمًا؛ لأن هذا هو المنهج العلمي، كل دعوى لا يقام عليها دليل من النوع الذي يرتضيه العلماء التجريبيون فليست علمًا، وإنما هي مجرد دعاوى لا سند لها ولا دليل عليها، ولذلك فإنهم يضعون ما يسمَّى بالعلم في

جانب، ويضعون في الجانب الآخر الدين والخرافة والسحر والكهانة، كل هذه يضعونها في حزمة واحدة؛ لأنها كلها في رأيهم ليست علمية ولا يقوم عليها دليل[١].

فائدة: من الخطأ الذي وقع فيه الغربيون وشايعهم فيه كثير من الذين تأثروا بهم أنهم قالوا إن الموجود هو هذا العالم المشهود الذي نراه:

وقع فيه الغربيون وشايعهم فيه كثير من الذين تأثروا بهم أنهم حددوا بطريقة تحكمية، حددوا لأنفسهم منذ البداية، فقالوا إن الموجود هو هذا العالم الذي نراه، هذا العالم المشهود، ولذلك فإذا أردت أن تبحث أية مسألة بحثًا علميًا، فعليك ألا تتجاوز حدود هذا الكون المشهود، عليك إذا أردت أن تفسر ظاهرة ما مهما كانت هذه الظاهرة، أردت أن تفسرها تفسيرًا علميًا؛ فابحث عن أسبابها في داخل هذا الكون، إذا بحثت عن سببها في خارج هذا الكون لا يكون تفسيرك تفسيرًا علميًا.

هذا الكلام هل يقوله العلم، أم أنه تحكم؟

هو تحكم من عندهم، إذن هم خلطوا بين فلسفتهم (وجهة نظرهم) وبين العلم، وتأثر بهذا الفهم -مع الأسف كما قلت لكم- كثيرٌ من الناس؛ لأن هذه الحضارة الغربية هي الحضارة السائدة الآن في العالم، فكل ما يقول به الغربيون

---

(١) علوم الدين والعلوم التجريبية والعقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٧٦٥).

يؤثر في الناس، فأريد أن أكرر مفهوم العلم في التصور الغربي، أصبح مفهومًا ماديًا إلحاديًا، يعني أدخلوا المادية والإلحاد في مفهوم العلم نفسه.

فإذا أردت أن تفسر ظاهرة طبيعية، فابحث عن أسبابها ضمن هذا الكون، بل إذا أردت أن تفسر ظاهرة نفسية، ابحث عن أسبابها في داخل الكون، إذا أردت أن تفسر ظاهرة اجتماعية تفسيرًا علميًا، ابحث عن أسبابها داخل هذا الكون. نحن لا نقول هذا، نحن نقول: نعم إن الظواهر الطبيعية والنفسية والاجتماعية تكون لها أسباب في داخل هذا الكون.

ولكننا نقول: إن هنالك أسبابًا خارج هذا الكون، مثلًا: لماذا انتصر المسلمون في غزوة بدر؟ إذا جاء إنسان مستشرقٌ وقال: إنني أريد أن أدرس غزوة بدرٍ هذه دراسة علمية، ماذا سيقول؟ سيقول إن المسلمين انتصروا؛ لأن الجانب الذي كانوا فيه كان جانبًا رمليًا فحدث أن نزلت أمطار، وهذه الأمطار ثبتت الأرض، وصادف أن كان الكفار في جانب طيني، فعندما نزل المطر صار المكان زلقًا، ثم إن المسلمين حدث لهم شيء غريب وهو أنهم نعسوا فناموا وهذا أعطاهم راحة نفسية، وهكذا.

كل هذه الأسباب وغيرها ذكرها القرآن الكريم، لكنه لم يعتبر أن هذا هو السبب الأساسي، هذه أسباب ثانوية ساقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتأييد المسلمين كما ساق الملائكة.

السبب الحقيقي ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧]. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علم ما

في قلوب هؤلاء المسلمين من الصدق والإخلاص وأنهم نصروا الله، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينصرهم. هذا تفسيرنا، لكن هذا التفسير بالمفهوم السائد الآن لا يعتبر تفسيرًا علميًا، يقول لك هذا تفسير ديني، وهنالك تفسير علمي؛ وكذلك إذا نظرنا إلى بقية الغزوات.

مثلًا غزوة أُحُد: نحن كثيرًا ما نركز على مسألة الرماة، نعم كانت سببًا لكن ما هو السبب الذي ذكره القرآن؟ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

غزوة حُنين: ماذا كان السبب الحقيقي، نعم إذا أراد الإنسان أن يقصر نفسه على الأسباب المشهودة، يمكن أن يقول إن الكفار لعبوا على المسلمين، كانت لهم حيلة وكذا، القصة التي تعرفونها. لكن القرآن قال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة:٢٥]، هذا لا يُعتبر في المفهوم الغربي تفسيرًا علميًا.

فقلت: لا يُعتبر لماذا؟

بدأوا، فأنكروا وجود الخالق أو أبعدوه، أنا عندما أقول لهم إنكم تنكرون، يقولون لا. لا نحن ما ننكر العلم ما له علاقة بالدين، فأقول لهم: هما أمران فقط، إما أن تقول إنه موجود أو ليس بموجود، فأنت في علمك هذا افترضت أنه ليس بموجود، فحتى لو كنت تعتقد أنه موجود فوجوده هذا لم يصبح له أثر في هذا العلم.

ماذا نقول نحن؟

نقول لهم: بهذا المنهج نفسه الذي توصلتم به إلى هذه الحقائق المشهودة، وبنفس الحس وبنفس العقل، نحن نصل إلى وجود الخالق، أنا طبعًا أحبُّ أن أفتِّح فقط أذهانكم إلى بعض القضايا، لا أحب أن أدخل في تفاصيل هذا الأمر. لكن ما هو منهجنا في التدليل على وجود الخالق؟ منهجنا هو نفس المنهج الذي يسمونه هم بالمنهج العلمي إذا حذفنا منه هذا التحكم وحصر الموجودات في العالم المشهود هذا الذي أمامنا. كيف نصل إلى وجود الخالق؟ نقول لهم هذه المخلوقات التي حصرتم أنفسكم فيها هي نفسها تشير إلى الخالق، يعني هذا الكون نفسه يقول إن لي خالقًا، فانتم إذن لم تنظروا إلى الكون نظرة صحيحة بل فرضتم عليه شيئًا ليس من طبيعته الكون نفسه يقول إنه حادث، يقول إنه لا بُد لي من خالق ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

كل حادثٍ إما أن تقول: إنه جاء من العدم وهذا مستحيل، وإما أن تقول إنه خلق نفسه وهذا أكثر إحالة؛ لأنه لكي يخلق لا بُد أن يكون موجودًا، وإذا كان موجودًا فلا يحتاج أن يخلق، فأن تقول إن شيئًا خلق نفسه تفرضه موجودًا وغير موجود في نفس الوقت،

فنحن إذا نقول لهم بالأدلة العقلية وبالمنهج العلمي: إن للكون خالقًا، بعد أن نبرهن أن للكون خالقًا، نستطيع أيضًا أن نبرهن بالأدلة العقلية أن محمدًا هذا رسول، وأنه ليس كاذبًا وليس مفتريًا، وأن هذا القرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. هذا هو الذي يميز الإسلام عن ما يسمى بالأديان الآن في العالم، هذه الأديان لا

تستطيع أن تقف في وجه الملحدين ولا في وجه الماديين الذين يقولون: إنهم يعتمدون على العقل وعلى الحس؛ لأن هذه الأديان تقوم على خرافاتٍ فعلًا، وعلى أشياء يبطلها الحس ويبطلها العقل وتطلب من الإنسان أن يبدأ معهم بالتسليم، لكننا لسنا كذلك؛ القرآن علمنا والرسول ﷺ علمنا، أننا إذا دعونا إنسانًا، فندعوه أولا إلى الحق، ثم إذا كانت له شبهة، إذا كان يريد أن يجادلنا جادلناه بالتي هي أحسن، وأوضحنا له بالعقل وبالحس الأصول التي يقوم عليها الدين، فإذا قبل الأصول فقبول الفروع يكون أمرًا طبيعيًا، فنحن نستطيع بأن ندلل على وجود الخالق وعلى وحدانيته وعلى صدق الرسول ﷺ، وعلى أن القرآن كلام الله، فإذا فعلنا هذا قلنا له إذا العلم له مصدران ليس مصدرًا واحدًا فقط، ليس هذا الكون فقط هو المصدر، وإنما هنالك مصدرٌ آخر هو هذا الوحي الذي دللنا لك بالأدلة العقلية والحسية على أنه كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[1].

فائدة: أسباب الاهتمام بالمشكلة المسماة بمشكلة الموضوعية في العلوم، سواء كانت إنسانية أو كانت طبيعية:

من هذه الأسباب:

أولًا: إن هذه المشكلات تكاد تكون أمّ المشكلات في العلوم كلها، ربما نقول إن كثيرًا من المشكلات الأخرى هي فرع من هذه المشكلة.

وثانيًا: لأن النقاش فيها والجدل عاد جذعًا -كما يقولون- عند الغربيين

---

(١) علوم الدين والعلوم التجريبية والعقلية، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٦٥).

من المتخصصين في العلوم الطبيعية والإنسانية والمتخصصين في تاريخ العلوم وفلسفة العلوم.

وثالثًا: لأن هذا الموضوع هو ألصق الموضوعات بالدعوة التي ننادي بها، الدعوة إلى تأصيل العلوم ووضعها في إطار إسلامي[1].

فائدة: المراد بالموضوعية في العلوم، سواء كانت إنسانية أو كانت طبيعية:

الموضوعية ربما يصورها الرأي الشائع للعلم عند الناس، العلوم الطبيعية عند عامة الناس لها منهج، هذا المنهج يمكّن الإنسان من أن يشاهد الواقع كما هو ويصوره تصويرًا أمينًا ويكتشف القوانين التي تحكم هذه الحقائق أو الظواهر، ويضع النظريات التي تفسر هذه القوانين وتلك الحقائق وتلك الظواهر، من غير أن يكون هناك هوى أو اعتقادا ديني أو رأي فلسفي أو غرض.

هذا هو الرأي الشائع للمنهج العلمي عند الناس. وكثير من الناس يظنون -لذلك- أن العلماء، سواء كانوا طبيعيين أو علماء حتى من العلوم الإنسانية، لا يختلفون اختلاف الفقهاء فيقولون: في المسألة قولان، لأن منهجهم يؤديهم إلى معرفة الحقيقة كما هي وإلى تفسيرها تفسيرًا صحيحًا، هذه هي الموضوعية في صورتها المثالية.

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ- ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٧٧٨).

ولكن هل واقع العلوم هو كذلك؟

قلت: لكن إن الغربيين يتناقشون في هذه الموضوعات نقاشًا طويلًا، وكتبت فيه كتب ومقالات وغير ذلك، ولكنهم جميعًا متفقون على أن هذه الصورة المثالية الشعبية ليست بصحيحة.

وأن الموضوعية إذا كان المقصود بها أن الإنسان، كما كان يقال لنا في المنهج العلمي، يتجرد من أفكاره المسبقة ومن كذا وكذا ثم يأتي إلى العلم بذهن خالٍ تقريبًا ويشاهد الواقع كما هو ويحاول أن يكتشف قوانينه ويحاول أن يفسره، قالوا الموضوعية بهذا المعنى متعذرة على الناس، سواء كان ذلك في العلوم الطبيعية أوكان في العلوم الإنسانية ودائمًا إذا قلنا في العلوم الطبيعية فمن باب أولى في العلوم الإنسانية. ما الذي دعا المهتمين والمختصين من العلماء الغربيين يقولون هذا؟ **أسباب كثيرة، يمكن أن نذكر منها:**

أولًا: ما يعرفه كل إنسان عن نفسه، فالإنسان إذا كان أمينًا مع نفسه يشعر أنه حتى وهو يبحث وهو يفكر وهو ينظر ويفسر لا يتخلى عن كل ما عنده من أفكار.

ثانيًا: ما ظهر من نتائج بعض العلوم. وأهم ما يذكرونه في هذا النظرية الفيزيائية المسماة نظرية عدم اليقين -نظرية هايزنبيرج- ويسمونها أيضًا مبدأ عدم اليقين (The Uncertainty Principle).

ومبدأ عدم اليقين يقول: إنه من غير الممكن للإنسان أن يعرف موضع الجزء الصغير من المادة وأن يعرف معدل سرعته في نفس الوقت، لأنه إذا عرف

الطريقة التي يعرف بها الموضع تؤثر على معدل السرعة، وإذا عرف معدل السرعة تؤثر على الموضع، ولكن لا يمكن للإنسان أن يتنبأ بموضع هذا الجزء إلا إذا عرف الأمرين معًا، ومن المستحيل أن يعرف الأمرين معًا. هذا أمر راجع إلى الباحث إذن[1].

فائدة: الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية:

لعل الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية أن العلوم الطبيعية تدرس الكائنات وهي ميتة، تدرسها كائنات طبيعية لا إرادة لها ولا حس وما إلى ذلك، أما العلوم الاجتماعية فهي تدرس كائنًا حيًا، حتى العلوم الطبيعية عندما تدرس الكائن الحي تدرسه من جانبه الذي لا حياة فيه.

هذا على العموم، لكن العلوم الاجتماعية تدرس كائنًا ذا وعي وإرادة، وتحاول أن ترسم خطى العلوم الطبيعية في أن تكتشف ظواهر معينة يمكن أن توصف بأوصاف اطرادية، في كل كذا يحدث كذا، كلما حدث كذا حدث كذا، أي أوصاف كأنها قوانين. ثم تحاول أن تكتشف فعلًا إن كان هناك قوانين اجتماعية، سواء إذا كان في علم النفس قوانين نفسية، أو إذا كان علم الاجتماع قوانين اجتماعية، أو إذا كان في علم الاقتصاد قوانين اقتصادية، ثم تحاول أن

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٧٧٨).

تفسر هذه الظواهر وهذه القوانين كما يفعل الناس في العلوم الاجتماعية. ولعل بعض إخواننا المختصين من الحضور يأتوننا بالتعريف الجامع المانع[1].

فائدة: هل تعليم العلوم الإنسانية والطبيعية الموجودة والمبنية على الإطار الإلحادي، في البلاد الإسلامية كما هي يجلب مضارًا ووبالًا على الأمة الإسلامية:

نعم، هذه مشكلة كبيرة، نحن لا نستطيع أن نقول الآن لا ينبغي أن تُعلّم، لكن فلنقلل من ذلك، خطرها الحقيقي في أنها تنقل هذه الروح الإلحادية إلى ذهن الطالب، بدون أن تقول له هذا، تسري هذه الروح إلى ذهن الطالب.

أنا كنت بحكم التخصص مهتمًا بهذه القضايا، لكني كنت أظن في بداية الأمر أنه لا علاقة لها بمشكلات العالم الإسلامي، فأهملتها مدة طويلة. ثم التفتّ فإذا هي من أهم المشكلات، ولذلك أرى الآن أنه على كثير من إخواننا المهتمين، خصوصًا بتأصيل العلوم، أن يقرأوا بعض الشيء في ما يسمى بالفلسفة العلمية، لأن كثيرًا من الكلام الذي يقولونه قد قاله كثير من الغربيين وناقشوه، فلا تبدأ من حيث بدأوا وإنما أنظر فيما انتهوا إليه. وهذا يساعدنا كثيرًا. فلو أننا قدمنا بمقدمات مثل هذه في الكتب العلمية وفي كليات التربية،

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٧٧٨).

الأساتذة الذين يتخرجون ويدرّسون الطلاب، لو أننا نبهناهم إلى هذا.

طبعًا كثيرًا من الحقائق التي تقال للطلاب ليس فيها إلحاد، كما قلنا إن النظرية وإن كانت إلحادية يمكن أن تعترف بواقع وتصل إلى حقيقة، لكن الخوف هو من نقل الروح.

لا زلت أذكر تجربة لا أنساها أبدًا، عندما جئت إلى جامعة الرياض -في ذاك الوقت- كنت في قسم الثقافة الإسلامية فكنت أدرّس طلاب العلوم الثقافة الإسلامية، فكنّا دائمًا نتناقش في مسألة المادة لا تستحدث ولا تفنى، أقول لهم إذا قلتم المادة لا تستحدث ولا تفنى فأين يذهب قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؟

وأقول لهم: (لا تستحدث) هذه ترجمة لطيفة، أما في الكلمة الإنجليزية (لا تُخلق) Not created nor destroyed لا تُخلق ولا تفنى، فإذا كانت لا تفنى ولا تُخلق فكيف الله خالق كل شيء؟

فوجدت عجبًا، كل طالب متدين فسرها تفسيرًا من عنده، المهم يريدها أن تكون متمشية مع الدين، لكنه يفسرها من عنده. أحدهم يقول: معناها أن الإنسان لا يستطيع أن يخلقها، الإنسان لا يستطيع أن يخلق جبلًا ولا نارًا ولا بحرًا ولا شجرة.

فنظرية داروين -عندي كلام عنها نقلته عن بعض العلماء- يقولون إنه كانت لها آثار ضارة من الناحية الخلقية، من الناحية السلوكية.

قال (هويل): إن من أضر ما نتج عن نظرية داروين أنها جعلت الناس يتصورون أن البقاء هو أهم قيمة، وإذا قلت إن مجرد البقاء أهم قيمة فتصوروا كل أنواع الاتجاهات الانتهازية، أي يحق كل شيء إذا صار البقاء أهم قيمة، فبعض النظريات العلمية لها جوانب في خلق الناس وفي قيمهم توثر فيهم، فهذا هو الذي ينبغي أن نلتفت إليه.

وبالمناسبة فإن نظرية داروين هذه، أظن أننا إلى الآن لم نقل فيها كلامًا محترمًا جدًا، وأنا ألوم إخواننا أساتذة علوم الأحياء، وما يزال كثير من الناس في أنفسهم يصدقونها، حتى من المتدينين، أو يرى أن الحجة فيها قوية جدًّا أقوى من الكلام الذي يقوله الإنسان المتدين، فلا بُد من كلام واضح في هذا.

وفي رأيي أن من أهم ما ينبغي أن يوضَّح هو الفرق بين التطور والنظرية في التطور، كثيرًا ما يخلط الناس بينهما، التطور من حيث هو أن هذا يقود إلى هذا وأن هذا كان كذا ثم صار كذا ثم صار كذا هذا في خلق الله واضح، ربنا ما خلقني بهذه اللحية البيضاء، كنت كذا ثم صرت كذا وكذا.

فإن أردت أن تسمي هذا تطورًا سمّه، فالذي حدث للمخلوق الواحد لا يمنع أن يحدث لجنس المخلوقات. فالتطور من حيث هو حقائق لا شيء فيه. لكن كيف حدث التطور؟ ماهي القوة التي كانت وراء التطور؟ هذه هي نظرية داروين.

مشكلة نظرية داروين ليست هي إثبات أن هناك تطورًا، وإنما تفسير

التطور بأنه انتخاب طبيعي لا علاقة له بالقدرة الإلهية وانتخاب أعمى... إلخ. حتى هويل هذا الذي قلت لكم إن له نظرية في التطور يقول إن داروين أخذ نظرية التطور من مسألة التنافس كما قال إنجلز. قال: بعد الثورة الصناعية نشأت الشركات فكانت كل شركة لا تبقى إلا إذا جوّدت منتجاتها، فأصبحت الجودة هي البقاء، أنت تصنع صابونًا وأنا أصنع صابونًا وهذا يصنع صابونًا، فلكي أبقى في السوق لا بُدّ أن يكون صابوني أحسن من صابونك، أو على الأقل مثله.

فقال هويل: حتى هذه الفكرة الرأسمالية التي أخذها ما أوفاها حقها، لأن الجودة هنا وراءها عقل بشري، هو الذي يفكر ويقول كيف أُجوِّد. أما في نظرية داروين تحولت إلى عبث وإلى شيء لا هدف له.

فهذا الجانب -في رأي- الذي ينبغي أن يذكر للطلاب، وهو جانب تربوي مهم جدًّا، إذا صارت العلوم على حساب هذا التفكير وهذه القيم يكون ضررها أكثر من نفعها، لكن من الممكن أن نحتفظ بكل منافعها، ومنافعها كثيرة ونحن محتاجون إليها. ونتقي هذ الشرور المصاحبة لها فلسفيًا[1].

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٧٨).

فائدة: هل تعتبر نظرية النظم المتفتحة الآن في الغرب في منهجية العلوم الاجتماعية منسجمة كثيرًا مع التصورات الإسلامية، أم أن هذا ما أخذه الاجتماعيون عن نظريات علوم الفيزياء والأحياء وغيرها؟

أنا أعرف نظرية النظم المتفتحة، لكني لست مختصًا. العلم الوحيد الذي أعرف عنه بعض الشيء لأنني درسته مع الفلسفة هو علم الاقتصاد، أما المنهج هذا فأعرفه بحكم الاهتمام بالمناهج، كثير من المناهج، وليس هذا وحده، مفيدة إذا وضعت في الإطار.

عندما تقول: (نظام) فأنت تفترض أشياء فاعلة كثيرة، وتريد أن تعترف بها كلها، الإطار هو الذي يحدد لك ما هي هذه الأشياء الفاعلة، فأنت، إذن قبل أن تتبنى المنهج محتاج إلى هذا الإطار، فهذا الذي كنت أركز عليه، أما بعد أن نحدد الإطار لا أقول إننا جميعًا سنتفق، في داخل هذا الإطار العام أظن أننا سيكون لنا أيضًا -كما كان لغيرنا- أطر صغيرة، في داخل الإطار الإسلامي سنختلف.

وأنا اليوم بعد أن حضرّت هذه المسائل خطر ببالي أن الذي حدث بالنسبة للعلوم الدنيوية حدث أيضًا في الدين، بعض الناس وضعوا أنفسهم في أطر ثم جاءوا إلى القرآن بهذه الأطر، وهذه الأطر منعتهم من أن يروا بعض الحقائق. أليس كذلك؟ الجهمي الذي أتعب أهل السنة، هذا الذي يأتي للقرآن وهو يعتقد أنه من المستحيل عقلًا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوصف حقيقة بأنه عالم أو أنه يرى أو ما إلى ذلك، هذا وضع نفسه في هذا الإطار، لذلك كنت أقرأ قريبًا لبعض أهل

السنة في الرد قالوا كلامًا جميلًا أنه في الحقيقة ليس هناك فرق بين الجهمية والدهريين، أي الماديين، لأن الجهمي هو في الحقيقة لا يعترف إلا بهذا الواقع.

فمشكلته أين يضع الله، إذا كان العلم والعين واليد والسمع والبصر لا توصف بها إلا هذه الموجودات، إذن أين الله؟ فهو يأتي إلى القرآن بهذا التصور، فهما رأى من آيات ومهما رأى من أحاديث سيفسرها في ضوء هذا التصور الذي جاء به.

ولذلك يقول ابن تيمية إن بعض هؤلاء لا يصلح معهم النقاش بالنصوص؛ لأنه قامت في ذهنه شبهة أن هذا مستحيل على الله، أي مستحيل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكون هكذا أو أن الرسول ﷺ يقول هذا الكلام، فأنت مهما أعطيته من نصوص لن يقتنع، فيقول: لا بُدّ أن تبدأ بأن تزيل هذا المرض من ذهنه، تقنعه بحجة عقلية أن هذا الكلام الذي ظنه عقلًا هو ليس بعقل.

فأتصور أنه في الإطار الإسلامي سيكون لنا أطر داخل هذا الإطار، سيختلف مثلًا علماء الاقتصاد في مثل هذا النقاش اليسير الذي كان في جريدة (الشرق الأوسط)، مثلًا أحد إخواننا قال: -والغريب أنه نفس الأخ الذي قال إنه من ناحية علمية فالناس متفقون على ما هو كائن وأنه لا اختلاف فيه ثم بعد قليل قال-: نحن لا نوافق الاقتصاديين الغربيين في أن المشكلة الاقتصادية سببها الندرة، أنا مثلًا لست اقتصاديًا لكنني أختلف معه في هذا.

ففي رأيي: السبب هو الندرة، وهم عندما يقولون أن سببها الندرة لا يتحدثون عن الإنسان المتدين الذي يأخذ ما يكفيه؛ لأن الناس مطامعه لا تنتهي

وموارد الأرض محدودة، أي إن لم تكن هناك ندرة لما كان هناك بيع ولا شراء. لا أحد الآن يشتري الأوكسجين؛ لأن كل ما نريده منه ربنا أعطانا إياه، فلا يصبح سلعة.

وبعض إخواننا يخلطون بين ما ينبغي أن يكون في القرآن والسُنّة وبين ما هو كائن، بل يخلطون بين ما هو كائن في مجتمع متديِّن وما هو كائن في المجتمع غير المتدين، بل بعضهم يظن أن علم الاجتماع أو علم الاقتصاد الإسلامي هو للمجتمعات الإسلامية، نحن لا نريد هذا، نحن نريد أن يكون لنا علم اجتماع وعلم اقتصاد يفسر ظواهر، سواء كانت في المجتمعات الإسلامية أو في المجتمعات الغربية، بل نريد أن ننظر إلى تاريخهم من وجهة نظرنا نحن ونفسره بتفسيرنا نحن.

ما يحدث الآن هو العكس، أننا ننظر إلى تاريخنا من وجهة نظرهم هم، المهم أننا سنختلف، خصوصًا في البداية، لكن لا بُد من الصبر ولا بُد من النقاش والتوضيح لهذه المسائل المعضلة خصوصًا ونحن في بداية الطريق؟[1].

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٧٨).

فائدة: متى يكون أبناؤنا الذين يدرسون في الغرب سببًا في تخلف المسلمين؟

في اجتماع رابطة الطلاب المسلمين العرب، طلبوا مني أن أتحدث عن أسباب تخلف المسلمين، قلت لهم: من ضمن الأسباب (أنتم) وأعني بـ(أنتم) الطلاب المتدينين الملتحين أصحاب الثياب القصيرة الذين يصلون ويصومون. أنتم، لماذا؟

لأن الواحد منكم يأتي هنا ويدرس أربع وخمس أو حتى تسع وعشر سنوات في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد... إلخ، وما فكر أن يعرف الجانب المتصل بعلمه هذا في الدين، لا في القرآن ولا في السنة. نعم، تصلي وتصوم، فأنت في صلاتك وصيامك ودعوتك العامة مسلم، لكن في العلم الذي ستذهب وتطبقه في العالم الإسلامي أنت دوركايم أو فرويد لكن بلحية وما إلى ذلك، فأنت تخدعني. ستأتيني في العالم الإسلامي وأراك مُلتحيًا وتكلمني، خصوصًا إذا كنت بارعًا وأعطيتني آية من هنا وحديثًا من هناك.

كلامك سيكون كلام دوركايم لكن فيه آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأبياتًا من الشعر العربي، فتنطلي عليّ الخدعة، وأنا الآن أصبحت فعلًا خائفًا جدًّا من هذه الفكرة.

أرى أن هذا جانب من العلمانية كنا غافلين عنه، نحن نعلم بالعلمانية في السياسة وغيرها، ولكن هناك الآن علمانية ستأتينا عن طريق العلوم الإنسانية وسيكون من دعاتها أُناس من بني جلدتنا يتحدثون لغتنا ويصلون في مساجدنا

وهم منا. فقلت لهم: لا تخدعنّكم صلاتكم وصيامكم؛ لأن الإنسان يمكن أن يكون متدينًا في شخصه أما من الناحية العلمية فسيكون في وادٍ آخر؟[1].

فائدة: هل مناهج العلوم الإنسانية في الغرب أساسها ليس بصحيح، لأنها لا تخضع لمعايير ثابتة؟

بعض أسسها غير صحيح، أو الأساس الذي تحدثت عنه ليس بصحيح، لكن هذا لا يعني أن كل ما فيها ليس بصحيح. كما قلت -ولا بُدّ أن نتذكرها يا إخوان- بعض الناس يريدون أن يستنتجوا، وهذا ما سبّب فتنة كبيرة في الغرب وجعلت الملحدين يظنون أن العلم معهم. اعتبروا الأساس صحيحًا ما دام هذا العلم كان قائمًا على هذا الأساس وأتى بكل هذه المنجزات.

فنحن الآن نريد أن نغير الأساس، فسيقول لنا كثير من إلحاديين على العلم أنتم الآن دخلتم في السياسة فقلنا لا بأس، ودخلتم في كذا، والآن تريدون أن تعبثوا بالعلم الذي نريد أن نبني عليه حياتنا العلم قائم على هذا الأساس، فنحن لا بُدّ أن نحل هذا الإشكال، وأنا قلت لكم، إن الحل في القرآن.

إن هذا الأساس على الرغم من كونه في عمومه باطلًا إلا أن فيه حقًا. والمنجزات التي حدثت هي ثمرة ذلك الحق الذي فيه ولا تعني أن كل ما فيه

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٧٧٨).

حق، وذلك الحق الذي فيه سيكون جزءًا من الإطار الإسلامي[١].

فائدة: العلوم نوعان: علم تكفل الله ببيانه لأن البشر لا يستطيعون معرفته بعقولهم المستقلة ولا بحواسهم، وعِلْمٌ دعانا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمعرفته وأعطانا القدرة على أن نعرفه، فلا يشترط أن نعرفه من القرآن الكريم:

من المشكلات التي ستواجهنا في مسألة أسلمة العلوم تصور أن جميع العلوم من القرآن فمثل هذا التصور معناه أن العلوم كلها فقه. وعلماؤنا لم يقولوا هذا، بل قالوا إن العلوم نوعان: علم تكفل الله ببيانه لأن البشر لا يستطيعون معرفته بعقولهم المستقلة ولا بحواسهم، فبينه ربنا: كيف نصلي وكيف نصوم... إلخ.

وعِلْمٌ دعانا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمعرفته وأعطانا القدرة على أن نعرفه، فلا يشترط أن نعرفه من القرآن الكريم.

فالعلوم كلها ليست مأخوذة من القرآن الكريم - يا أخي -، فلو كان كل العلوم تؤخذ من القرآن الكريم فلماذا -إذن- ندرس الطب والهندسة؟ لندرس فقط القرآن الكريم ونستخرج منه كل هذا.

وإذا قلت هذا سيقول الكثيرون: لماذا أنتم المسلمون ظللتم طوال هذه المدة لم تعرفوا هذا الذي في القرآن الكريم إلى أن جاء هذا الكافر وعرفه؟

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٧٨).

والقرآن لدينا منذ قرون ولم يقل أحد ما قلته يا أخي.

الحياة الدنيا تعرف ما فيها من دون قرآن، مثل طلوع الشمس في مواعيدها وما إلى ذلك. بل هناك بعض الأشياء الدينية التي يعتمد عليها الدين لا بُدّ أن تعرف بالحس، نحن مأمورون بأن نتجه إلى القبلة، فكيف نتجه إليها؟ هل نعرف الاتجاه من المصحف؟ طبعًا لا. فالله تعالى أعطانا وسائل إدراك، فلا نعتمد في هذه الأشياء على القرآن أو على السُنّة.

ولعلك تذكر حديث الرسول ﷺ: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»، أي أنتم أعلم من الرسول ﷺ بالأمور الدنيوية؛ لأن هذه ليست من شأنه، فالرسول ﷺ لم يأت ليعلمنا كيف نربي البهائم وكيف نسمنها وكيف نزرع وكيف نحصد، فقد لا يعرف هذا، الأعرابي العادي كان يعرف هذا أحسن من الرسول ﷺ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرّفه بأحسن العلوم وهو العلم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما العلوم الأخرى فقال أنتم أعلم بها. مثلًا النحل أبّر أو لم يُؤبّر فهذه مسألة بالنسبة له غير مهمة أبدًا؟[1].

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٧٨).

فائدة: تأثير علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ وغيرها من العلوم الاجتماعية والإنسانية في عقول الناس أكثر من العلوم الطبيعية:

أكثر العلوم التي تؤثر في عقول الناس ليس العلوم الطبيعية، وإنما علم الاجتماع علم النفس والتاريخ هذه تؤثر حتى في عقل صاحب العلم الطبيعي؛ لأنه سيعيش هذا الجو الثقافي ما في إنسان مثقف يعيش في علمه فقط يتأثر ومن المعروف في تاريخ الفكر الغربي، أن بعض النظريات في العلوم الطبيعية أساسها أفكار اجتماعية من المشهور ومن المعروف جدًّا أن نظرية دارون مأخوذة من نظريات سبنسر حتى مالثوس.

وقد نقد ذلك مفكر ماركسي قال نقد لطيف فقال: إن النظرية كانت في علم الاجتماع نظرية رأس مالية، نظرية مالثوس وسبنسر نظرية رأسمالية من أقبح النظريات؛ لأنه بالنسبة له يقول إن الفقير هذا ما فيه فايدة وأن المرض يحل إشكال فيقول سبينسر: أن الذي لا ينتج عن كذا ولا يكون يعني له أهمية في المجتمع فسيموت ومن الأحسن أن يموت، فهي فكرة أساسية في نظرية داون.

فيقول انجلز: إن النظرية نظرية اجتماعية أخذها دارون وجعلها نظرية طبيعية، ثم جاء الاجتماعيون واخذوها مرة ثانية فسموها الدارونية الاجتماعية، فطبعًا عندما أخذوها للمرة الثانية أصبح كأن لها أساس من العلم لم تصبح مجرد كلام قاله سبنسر أو كذا لا، إنما كلام قاله دارون يعني له شواهد وكذا وأخذ بمنهج علمي، فالمهم أن كثير من النظريات في العلوم الطبيعية متأثرة بالعلوم الاجتماعية فالجو دائمًا الثقافي هو جو واحد هذا يؤثر في هذا وهذا يؤثر

في هذا، فالذي يؤثر في عقول الناس هو فكر العلوم الإنسانية والاجتماعية هذا الذي يؤثر في أفكار الناس أكثر مما تؤثر العلوم الأخرى، لكن مثل ما تفضل الأخ هذه العلوم أيضًا كما قلت لكم في إطار، مهما كانت ليس هناك شيء اسمه علم بحت ماله علاقة بثقافة الناس إلا الحقائق العينية هذا كذا وهذا كذا.

في القرآن الكريم آيات ملفتة للنظر في مسألة أن كيف التصور يؤثر في إدراك الإنسان بعض الحقائق، مثلًا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في عن الكفار في مرورهم على قرية قوم لوط: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ [الفرقان:٤٠]، ما كانوا يرون الأشياء الحسية هذه إلى الآن نراها ﴿ بَل كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾، ولذلك ما استنتجوا منها النتيجة المفروض التي تستنتج، نحن الآن نقرأ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٠]، هذا أولى الألباب هم الذين يستنتجون من هذا أن الكون له خالق، إذا جاء من أول مرة وهم مصممم على أن الكون ليس له خالق وما تغني الآيات والنذر.

ولذلك نفس هذه القصة يقولها القرآن الكريم في آية أخرى ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٣٥]، فكأن إنكار الآخرة ينقص من العقل ويجعل الإنسان لا يستنتج النتائج المفروض أن تستنتج ولذلك يربط القرآن بين كمال الإيمان وكمال العقل ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر:١٨]، فالإيمان تكملة وتقوية للعقل هذا هو الذي نقول إن العلوم الاجتماعية لا تؤثر في الإنسان في أنه يرى هذا لون أخضر وهذا

لون أسود لا تؤثر فيه، لكن تؤثر أنه ماذا يستنتج منه، وكيف يحكم على الأشياء هذا مؤكد له تأثير فيه، مؤكد أن الطريقة التي يستنتج بها إنسان ملحد وينظر بها إلى الوجود كأن هذا له حواس غير حواس هذا، يعني ربما نحن أحيانًا لا نستطيع أن نضع نفسنا في موضع الكافر، لكن أنا أحيانًا فعلًا أقول مرة كنا في كانبرج كنت في الصبح والصبح في كانبرج في بريطانيا شيء لطيف جدًّا فصحيت الفجر هذه ساعات ما أنساها أبدًا الجو كان جميل جدًّا، ونظرت إلى النافذة إذا في زهور والطيور وكذا، فيأتيك شعور طبيعي أن تحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالكافر إذا راء هذا ماذا يقول؟ فلا بُدّ أن يكون حتى استمتاعه بالأشياء الدنيوية ناقصة يعني أنا اعتقد أن الشكر هذا من كمال الاستمتاع، أما أن انظر للطيور والزهور وأقول شيء جميل فقط، فما يكون الاستمتاع الذي قد اكتمل، فالفكر الاجتماعي أو الإنساني الغربي هذا يؤثر على التصور[1].

فائدة: الخلط بين نظرية دارون في التطور وبين فكرة التطور:

بعض الناس يخلطون بين نظرية دارون في التطور وبين فكرة التطور فكرة التطور مقبولة، بل يبدو أنها سُنّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأشياء هل رأيتم شيئًا خلقه الله سبحانه كاملًا منذ اللحظة الأولى، أبدًا الشجرة تبدأ بذرة والإنسان يبدأ كذا والقرآن نفسه يتكلم عنها ثم يتطور ويتطور ثم ينتهي وهكذا، ففكرة التطور سواء

---

(١) الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٣٠).

كانت بالنسبة لأفراد المخلوقات أو لجنس من المخلوقات ليس هنالك في الدين ما يمنع من القول بها، بل هي التي يبدو أن الحقائق الظاهرة لنا والحقائق التي اكتشفها العلماء تؤيدها، لكن هنالك فرق بين فكرة التطور ونظرية خاصة في التطور، بعض الناس حتى من العلماء لا يقبلون بعض كلام دارون في التطور، وإن كانوا يقبلون فكرة التطور، يعني لماذا انقرضت بعض الحيوانات وبقي بعض، ودارون جاء بنظرية البقاء للأصلح وبعض العلماء لا يقبلون هذا، ويفسرون البقاء أن بعضها يبقى وبعضها يزول بتفاسير أخرى ولا يقبلون كلام دارون[1].

فائدة: ما المراد بقولهم بأن المادة لا تفنى ولا تستحدث؟

هذه من الخرافات التي شاعت باسم الفيزياء أولا هي ليست حقيقة ما أحد يقول أنه وجد أن المادة كلها لا تستحدث ولا تفنى ما فيه، فهي ليست حقيقة وإنما هذا شيء رابع (١-حقائق، ٢- قوانين، ٣- نظريات) حتى غير النظريات وغير القوانين إنما هو فرض من الفروض وبعض العلماء من الغربيين كما ذكرت في ذلك المقال انتقدوا هذا الكلام هذه العبارة بشكلها هذا هي فلسفة يونانية، ثم لأن الغربيين متأثرون بالفلسفة اليونانية هنالك ظاهرة وجدوها، فأرادوا أن يعبروا عنها فعبروا عنها بهذا التعبير غير الصحيح، ماهي

---

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٦٠١).

الظاهرة كما تعرفونها أنتم في المدارس.

أنا إذا أحرقت هذا ووزنته الآن ووجدته نصف رطل وأحرقته ووزنت الرماد فلا أجده إلا ربما أوقيه أو كذا أو أقل، فأين ذهبت في الماضي؟ يقولون أن هذه فنيت، انتهت، أصبح لاوجود لها، العالم الآن يقول: لا، إن الدخان الذي خرج والغازات إذا جمعناها كلها ووزنها تكون كوزنها الأول.

إذًا الصندوق هذا بالرغم أنه قد ذهب وصار رمادا لكن هذه المادة تحولت إلى أشكال أخرى من كذا ومن كذا، ولذلك الذي نصل إليه أن كمية المادة ثابتة، ولذلك بعض الناس في التعبيرات باللغة الإنجليزية، كانوا يقولون في الماضي لما كنا طلاب لا تخلق، وعندما ترجمناها رأينا أن هذه تسبب مشكلة فقال: لا تستحدث فنستعمل كلمة أخف لكنها نفس المعنى لكن لو قال المادة لا تخلق كيف لا تخلق مع أن لا تستحدث لا تخلق أليس كذلك؟

فلعب علينا المترجم وقال المادة لا تستحدث ولا تفنى فهم الآن يقولون كميتها ثابتة، ما نتعرض أنها خلقت أو ما خلقت وقلت لكم كذلك في المقال نقلت كلامًا عن أحد العلماء وهو ليس من المتدينين، قال: يمكن أن تكون كميتها ثابتة وأن تخلق وتفنى وضرب مثلًا جيدًا جدًّا، مثل بحساب جاري في البنك، أنا عندي المصرف عشرة آلاف ريال، أعطيت واحد شيك بألفين، وأدخلت في البنك ألفين، حسابي هو هو ثابت لكن أخرجت منه وأدخلت فيه، وبكرة عملت نفس الشيء فيه حساب ما أحب أن أتعامل معه بالكاش لكن ما

أحب أن حسابي في المصرف ينقص؛ لأن المصرف يقول لي مثلًا أن أقل من عشرة آلاف لا يمكن فأعطيه ألف من هنا وأدخل ألف من هنا فيظل الحساب ثابتًا.

وضرب مثلًا أحسن من هذا قال: تصور أن هنالك صهريج ماء نصب فيه ماء من هنا ونخرج ماء من هنا بقدر الذي صببناه هنالك، هل تتغير كمية الماء التي في داخل الصهريج؟ لا تتغير هل يظل الماء نفس الماء الذي صببناه أول مرة؟ لا يتغير حتى مثلًا لو كان الماء الذي في البداية لونه أخضر، وبعد قليل صببنا ماءً عاديًا، وبعد مدة سيكون الماء عاديًا، ثم صببنا ماء أحمر، وبعد قليل سيكون أحمر، فالكمية ثابتة لكن المادة متغيره.

فقال: إن الإنسان المتدين يمكن أن يقول هذا، يقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائمًا يخلق ذرات ويفني ذرات وتكون الكمية ثابتة، فالكلام الذي درسوكم إياه ليس بصحيح، من ناحية دينية ليس بصحيح؛ لأن الله خالق كل شيء، ما قال الله خالق كل شيء إلا المادة، وإذا ما خلق المادة ماذا يخلق، وليس صحيحًا من الناحية العلمية[1].

---

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:١٠١-٦٠١).

مصادر محاضرات العلوم الطبيعية

١ - إسلامية العلوم وموضوعيتها[١]:

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن دعوى أن للعلم منهجًا واحدًا متفقًا عليه بين كل العلماء الذين يدرسون الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية دراسة علمية، وأن هذا المنهج يُمكّن سالكه من الوصول إلى الحقائق الواقعية وتصويرها كما هي تصويرًا أمينًا، وتفسيرها ا التفسير الصحيح الذي يتناسب معها، تصويرًا وتفسيرًا لا علاقة لهما بمعتقدات العالِم الباحث المفسر، ولا بآرائه الفلسفية، أو قيمه الخُلقيّة أو أهدافه الذاتية، أو حقبته التاريخية، أو بيئته الثقافية، كما تحدث الشيخ عن صورة العلم الواقعية وعن أطر العلم الأيديولوجية، ثم ختم محاضرته بمسوغات إسلامية العلوم.

٢- علوم الدين والعلوم التجريبية[٢].

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن العلاقة بين العلم أو بين العلوم التجريبية أو الحسية والعلوم العقلية من ناحية والدين من ناحية أخرى.

---

(١) مجلة المسلم المعاصر، السنة الثالثة عشر العدد الخمسون ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية ١٤٠٨هـ - الموافق ديسمبر، يناير، فبراير ١٩٨٧م.

(٢) محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٣- مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها[١].

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن ما يسمى بمشكلة الموضوعية في العلوم، سواء كانت إنسانية أو كانت طبيعية، وأسباب ذلك، كما تحدث عن الأطر الفلسفية للعلوم.

(١) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - الموافق ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م.

فوائد كتب ودراسات العلوم الطبيعية

فائدة: من هو الإنسان؟

أهنالك شيء اسمه الإنسان بهذا الإطلاق الذي لا يؤثر فيه أو يغيره زمان ولا مكان ولا جنس ولا لون ولا لغة ولا بيئة ولا ثقافة؟

انقسم المجيبون على هذا السؤال إلى ثلاث فرق كبرى:

١ - فمنهم من أثار وجود إنسان بهذا الإطلاق ورأى أن الإنسان حين يولد يولد محايدًا كالصفحة البيضاء أو الطينة غير المشكلة، وأن البيئة هي التي تكتب عليه ما تريد وتشكله كيف تريد.

٢ - ومنهم من قال بلى إن للإنسان حقيقة، وحقيقته: أنه مخلوق شرير يولد الشر معه مفروضًا في طبعه والبيئة هي التي تحاول أن تهذبه.

٣- **وفريق ثالث** وافق الفريق الثاني على أن للإنسان حقيقة ثابتة، ولكنه قال إن حقيقته أنه مخلوق خير يولد حين يولد على الخير، ثم قد يطرأ عليه التغيير بعد ذلك، وقد يستمر خيرًا وينمي الخير الكامن في نفسه. وبكل نظرية من هذه النظريات قال مفكرون كبار وعلى كل منها قامت مذاهب حياة جذبت إليها عددا هائلا من البشر، وكان لكل منها آثاره البعيدة والخطيرة في السياسة

والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والفلسفات التربوية[١].

فائدة: الفطرة في القرآن وفي السُنّة:

في القرآن الكريم وفي السُنّة النبوية نصوص تدل على هذا المعنى دلالة صريحة، وأخرى تدل عليه بطريق اللزوم، وفيما يلي نذكر جانبًا من النوعين مع تعليقات موجزة إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنما خلق الناس لعبادته وأرسل لهم رسلًا منهم ليبينوا لهم الطريق المستقيم إلى هذه الغاية، ولكن هذا الدين الذي جاء به الرسل من عند الله ليس شيئًا غريبًا على الإنسان، بل أن أصله مغروس في نفسه.

هذا الأصل هو المشار إليه بالفطرة في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠]، فالإنسان حين يسدد وجهه للدين الذي شرعه الله ويستمر عليه كما يأمره ربه تعالى إنما يلزم فطرته السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره فالدين الإسلامي هو إذن الدين الطبيعي الذي لا يولد إنسان إلا به.

ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك ولا

---

(١) التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧هـ - الموافق ٢ إبريل ١٩٧٧ م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢)، صفحة (٦١-٨٠). وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨١١).

تفاوت بين الناس في ذلك.

ولهذا قال ابن عباس وجماعة من السلف ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لدين الله، وهو المشار إليه بالنور في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

قال ابن القيم: قال أُبي بن كعب: «مثل نوره في قلب المسلم، وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به في الناس وأصله في قلوبهم». وقال: «قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نورًا بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة نور على نور، فيكاد ينطق بالحق، وإن لم يسمع فيه أثرًا، ثم يسمع الأثر مطابقًا لما شهدت به فطرته فيكون نورًا على نور».

وهو المشار إليه بالتسوية في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٧-١٠].

قال ابن كثير في تفسيره: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾: أي: خلقها سوية مستقيمة

على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

٤- ولعل هذا الأصل هو المصرح به في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٦].

فالكلمة الطيبة كما جاء في تفسير السلف هي كلمة التوحيد، فهي كشجرة طيبة أصلها ثابت في قلب المؤمن، وأُكلها هو الأعمال الصالحة الناتجة عنها الصاعدة على السماء المقبولة عند الله تعالى، وأما الكلمة الخبيثة المضادة لكلمة التوحيد فلا أصل لها ولا قرار ولا ثمرة زاكية.

٥- وهو المشار إليه بالإشهاد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٤].

قال الحافظ بن كثير في تفسيره: «ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف

إن الرأي بهذا المراد قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل من آدم، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أي جعل نسلهم جيلًا بعد جيل وقرنًا بعد قرن، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾: أي أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالًا وقالًا، فدل على أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال ﴿أَن تَقُولُوا﴾: أي لئلا يقولوا يوم القيامة، ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾: أي التوحيد، ﴿غَٰفِلِينَ﴾. وفي السُّنّة المطهرة عدة أحاديث فيها مزيد بيان لما قرره القرآن من فطر الإنسان على الخير.

٦- ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة** -وفي رواية على هذه الملة- **فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها جدعاء**»؟ ففي هذا الحديث دلالة على أن الفطرة التي يولد عليها الإنسان هي السلامة من الشرور، كما أن الحال التي تولد عليها البهيمة هي السلامة من العيوب الجسمانية من قطع أنف أو أذن أو شفة وغيرها، فكذلك الحال التي يولد عليها الطفل هي السلامة من العيوب النفسية والاعتقادية من يهودية ونصرانية ومجوسية، وكما أن تلك العيوب تطرأ على البهيمة بعد ميلادها، فكذلك هذه العيوب تطرأ على الإنسان بعد ميلاده.

والدليل على أن الفطرة المقصودة في هذا الحديث ليست السلامة بمعنى الحياد، بل بمعنى وجود الخير في النفس أنه ﷺ قال: «**فأبواه يهودانه وينصرانه**

ويمجسانه» ولم يقل ويجعلانه مسلمًا؛ لأن الإسلام هو الأمر الطبيعي وكل هذه العقائد انحرافات عنه وهذا المعنى جاء مصرحًا به في الرواية الأخرى للحديث **«كل مولود يولد على هذه الملة»**.

٧- ويزيد هذا المعنى تأييدًا وقوة ما جاء في صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»**.

٨- وكذلك ما جاء في جزء من حديث رواه الإمام أحمد وأخرجه النسائي في سننه عن الأسود من سريع من بني سعد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها»**[1].

فائدة: الخير الذي فطر عليه الإنسان:

ما هو هذا الخير الذي فطر عليه الإنسان؟ يؤخذ من مجموعة النصوص التي أوردناها سابقًا أن جوهر هذا الخير يتمثل في:

١ - **السلامة من العيوب:** «كما تولد البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء».

---

(١) التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧هـ - الموافق ٢ إبريل ١٩٧٧ م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢)، صفحة (٦١-٨٠). وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨١١).

٢- **الاعتراف بعبودية الإنسان لخالق واحد:** ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، «كل مولود يولد على هذه الملة»، ولكن هذا الجوهر ترتبط به أنواع أخرى من الخير الفطري تدل عليها نصوص أخرى دلالة صريحة تارة وضمنية تارة أخرى.

٣- **أصول القيم الأخلاقية:** فالله تعالى فطر الإنسان على أن الشكر خير وهو محمود، الجحود شر مذموم، وكذلك قل في العدل والجور، والأمانة والخيانة والاعتراف بالحق وإنكاره. قال رسول الله ﷺ: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ومن السُنّة**».

فهذا دليل صريح على أن الناس مفطورون على الأمانة. ويقول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، ويقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦]. فهاتان الآيتان لا تعلمان الإنسان أن جزاء الإنسان ينبغي أن يكون إحسانًا، أو أن مصير المحسن ينبغي أن لا يكون كمصير المسيء، وإنما هما تفترضان أن الإنسان يعلم هذا، ولهذا تستنكران عليه أن يحكم بغير هذا الذي يعرفه.

٤- **ما يسمى بالقوانين العقلية** كالعلم بأن الأشياء لا تأتي من العدم وأن الشيء لا يخلق نفسه، وأن الكلام المتناقض باطل، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]. ويقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

٥- **القيم الجمالية** كحب **الجمال والنظافة والنظام**.. الخ: إلى جانب هذا

الخير المحض الذي فطر الله تعالى عليه الإنسان فإنه منحه القوى، وهي في ذاتها خير، لكننا يمكننا أن ننحرف بها فنجلعها شرا. من ذلك:

١- القدرة على العمل.

٢- القدرة على التفكير.

وإشارة إلى هذين يقول الرسول ﷺ: «**أصدق الأسماء حارث وهمام**» أي أن هذه أسماء تدل دلالة صادقة على حقيقة الإنسان فهو حارث عامل وهو همام مفكر.

٣- القدرة على الاختيار. ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

٤- السعي لحفظ النفس والنوع بالأكل والشرب والسكن واللباس والنكاح. إذا كان الإنسان مفطورًا على الخير فلماذا إذن يفعل الشر؟ هذه إحدى الشبهات بل لعلها أقوى الشبهات التي يشغب بها على القول بأصالة الخير في النفس البشرية وهي شبهة تشد كثيرًا من الناس وتدعوهم إلى الأخذ بنظرية الحياد، ولعل أساس هذه الشبهة هو التصور الخاطئ لمفهوم الفطرة. ف

عبارة الإنسان مفطور على الخير تعني عند هؤلاء أنه مطبوع على إرادته وفعله طبعًا لا ينفك عنه، ولكن الواقع أنه ينفك عنه وإذن فهو ليس مفطورًا عليه، بل إنما يولد محايدًا إن شاء فعل الخير، وإن شاء تركه وفعل الشر. ولكن الفطرة لا تدل على هذا المعنى الذي يجعلها متناقضة مع المشيئة الإنسانية،

والذي يسوي بين فعل الخير وحركات النباتات والجمادات التي لا إرادة لها. فطر الإنسان على الخير معناه كما قلنا سابقًا.

(أ) إن الله تعالى صاغ الإنسان وكونه وركبه بحيث لا يصلح له إلا الخير.

(ب) وأنه تعالى تفضل فجعل المعرفة بهذه الحقيقة أمرًا مستقرًا في نفس الإنسان لا يحتاج لأن يتعلمه من الخارج، وإن كان العلم الخارجي يزيده قوة. ولكن الله تعالى جعل الإنسان مخلوقا ذا إرادة إن شاء سار في طريق الخير الذي تدل عليه فطرته، وإن شاء تمرد على فطرته كما يتمرد على الدلائل العقلية والآيات الكونية والرسالات السماوية.

إن الله تعالى يتفضل فيعرف الإنسان بالخير ويبينه له ويدعوه إليه دعوة تأتيه من داخل نفسه ومن دلائل عقله، ومن الآيات الكونية ومن الرسالات السماوية، ولكنه يتركه بعد ذلك حرًا إن شاء قبل هذه الدعوة وإن شاء ردها كافرًا.

وفي معنى هذا البيان الفطري يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-١٠][1].

---

(١) التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧هـ - الموافق ٢ إبريل ١٩٧٧ م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢)، صفحة (٦١-٨٠). وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨١١).

فائدة: فلسفة التربية الإسلامية:

غاية التربية والتعليم هي تمكين الإنسان من أن يكون إنسانًا حقيقيًا أو تمكينه من أن يكون عبدًا صالحًا؛ لأن العبودية هي جوهر الإنسانية، والإنسان كلما ارتقى في سلم العبودية، ارتقى في سلم الإنسانية.

ولهذا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف رسوله ﷺ بالعبودية في أشرف أحواله. كما تنبه إلى ذلك كثير من العلماء من ذلك قوله تعالى بمناسبة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]. وقوله تعالى بمناسبة الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩].

فوصف الإنسان بالعبودية هو الوصف الجوهري العام الذي يحتم كل أوصافه. إذن فكل فهم لصفة من صفات الإنسان أو خاصة من خواصه يجعلها متناقضة لصفة العبودية فهو فهم خاطئ، وهو الوصف الأساسي وكل الأوصاف الأخرى بالنسبة له ثانوية، ولذلك فينبغي أن لا يقدم واحد منها عليه.

وبهذه المناسبة: أحب أن أشير إلى صفتين تفهمان أحيانًا فهما يخرج على هذه القاعدة:

الأولى: وصف الإنسان بأنه مخلوق روحي، استدلالًا بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]، فالوصف صحيح والاستدلال صحيح، ولكن فهم الروحية هذه بأنها عنصر إلهي حل في الإنسان، هو الفهم الخاطئ

خطأ شنيعًا ينافي العبودية والتوحيد ويجعل الإسلام -كما تنبه إلى ذلك بعض العلماء- أسوأ من المسيحية، فالمسيحية قصرت الألوهية -بعد الله تعالى- على بشر واحد وهذا الفهم يعممها فيجعل في كل إنسان عنصرًا إلهيًا.

إن قول الله تعالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾ لا يعني أن شيئًا من ذاته تعالى خرج فحل في الإنسان. فالله تعالى لا يخرج من ذاته شيء وهو أحد ليس كمثله شيء، وهو مفارق وعالٍ على كل شيء. إن إضافة الروح إلى الله تعالى ليست إضافة بعض إلى كل كما تقول: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ و﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، وإنما هي إضافة مملوك إلى مالكه كما تقول أرض الله وسماؤه، وكما أن الإنسان ليس روحا إلهية بهذا المعنى، فإن المسيح عيسى بن مريم ليس كمثلة الله، بمعنى أنه خلق وصيغ من الكلمة إن الكلمة ليست عنصره، وإنما هي سببه كما أنها سبب كل مخلوق سواه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وكما يقول الإمام أحمد: فإن عيسى ليس هو الـ (كن) ولكن بالـ (كن) كان.

وأما الصفة الأخرى فهي صفة الخلافة: استدلالًا بقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، ولا شك أن الإنسان خليفة، ولكن من الخطأ أن تقدم صفة الخلافة على صفة العبودية كما يميل إلى ذلك كثير من فضلاء كتابنا المعاصرين.

ومن الخطأ أن يظن بأن تفسير الخلافة بأنها خلافة عن الله في تعمير الأرض، هو التفسير الوحيد أو المتفق عليه بين العلماء إذ الواقع أن بعضهم

أنكر هذه العبارة، وحجتهم في إنكارها قوية قالوا أن عبارة (خليفة الله) لم ترد في قرآن ولا سُنّة، بل روى أن أبا بكر أنكر على من وصفه بخليفة الله، وقال أنه خليفة رسول الله، وقالوا: إن الخليفة في اللغة هو الذي يخلف غيره إذا غاب والله تعالى لا يغيب، وقالوا: إنه مما يؤيد هذا أنه جاء في بعض الأدعية النبوية وصف الله تعالى بالخليفة فهو الذي يخلف المسافر في أهله وولده كما يصحبه في سفره.

وعلى كل، فإن الأمر لا يكون خطيرًا إذا فسرت الخلافة بمعنى الحكم، أو بمعنى أن كثيرًا من المخلوقات مسخرة للإنسان، ولكن بعض الكتاب يغلو في تفسير الخلافة حتى ليكاد يشرك بأن الله تعالى قد تخلى عن تصريف جزء من الكون وترك أمره للإنسان، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا[1].

فائدة: لماذا الاهتمام بمناقشات الملحدين مع أنهم في العالم يعدون قلة قليلة من الناس؟

١- لأن هؤلاء الملحدين وإن كانوا قلة إلا أنهم قلة مؤثرة، والعِبرة في الأفكار ليست بكثرة عدد من يعتنقها ويدافع عنها ولكن بعدد من يتأثر بهم، ولو تأثرًا جزئيًا.

---

(١) التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧هـ - الموافق ٢ إبريل ١٩٧٧ م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢)، صفحة (٦١-٨٠). وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨١١).

٢- ولأن كثيرًا من المؤمنين -ولاسيّما في البلاد الغربية- يشعرون بأنهم في موقف ضعيف من الناحية الفكرية، وهذا يجعلهم يستخذون أمام هجمات الملحدين ولا يجرؤون على مناقشتهم والدفاع عن معتقدهم إلا القلة القليلة من بعض مفكريهم.

٣- ولأن هذا الموقف الضعيف من جانب المؤمنين بوجود الخالق جعل إيمانهم هذا أمرًا ذاتيا معزولًا عن الحياة، الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية والحياة العلمية، فغلب الفكر المادي الإلحادي على هذه الجوانب كلها وعن طريقها بدأ يبث المواقف الإلحادية خلسة بين المؤمنين في البلاد غير الغربية بما في ذلك البلاد الإسلامية.

٤- ولأنهم يوهمون الناس بأن إلحادهم لازم عن العلم الطبيعي أو أن هذا العلم مناصر له، والناس مفتونون بالعلوم الطبيعية لما رأوا من صدق كثير من دعاواها ولما رأوا من فوائدها في جميع مرافق حياتهم، فإذا قيل لهم إن الإلحاد لازم عن هذه العلوم الجليلة القدر عندهم كان هذا فتنة لبعضهم، إما بتشكيكهم في إيمانهم، وإما بتكذيبهم لحقائق هذه العلوم، والتصديق بأنها خصم لدينهم.

٥- ولأن كثير من أبناء المسلمين يتعرضون للفكر الإلحادي هذا بطريق مباشر أو غير مباشر في بلادهم أو في بلاد الغرب التي يذهبون إليها دراسين أو مقيمين، وكثيرًا ما يحزن ذوي الدين منهم أن يجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على تحديات الملحدين.

وقد وجدت بالتجربة من مقالات قليلة كتبتها باللغتين العربية والإنجليزية أنهم يستفيدون من أمثال هذه المناقشات.

إن الاستعلاء الفكري سمة من سمات الإسلام لله، فهما رأى المسلم كفرًا يتبجح ويتحدى كان عليه أن يتصدى له وينازله، فصاحب الحق يجادل أحيانًا ليقمع لا ليقنع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وقد عد الله -تعالى- أمثال هذه الحجج من أجل النعم التي ينصر الله بها أئمة الدين، ويرفع بها دراجتهم، فقال -سبحانه- عن حجة أخرى لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣][1].

فائدة: ظاهرة الإلحاد في العصر الحديث:

كان الناس في العصور الماضية يعتقدون بوجود خالق مدبر للكون، وكانوا يعدون هذا من البداهة العقلية، وكان الإلحاد -بمعناه الحديث الذي هو

---

(١) كتاب الفيزياء ووجود الخالق، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٦)، الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، طبعة المنتدى الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٢٦).

إنكار وجود هذا الخالق- أمرًا شاذا لا يقول به إلا فرد بعد فرد من الناس.

وظل الأمر كذلك حتى القرن الثامن عشر الميلادي تقريبًا، ثم بدأ الإلحاد يحل محل الإيمان عند كثير من قادة الفكر الأوروبي، وصار بعد مقدم الشيوعية هو (الدين الرسمي) لدولها. ولما صارت للإلحاد هذه المكانة في الغرب، ولما كانت الحضارة الغربية هي الحضارة السائدة في عصرنا؛ فقد انتشر هذا الإلحاد، وانتشرت أكثر منه لوازمه في أرجاء المعمورة انتشارا لم يعهد له مثيل فيما مضى من الزمان.

وكان من نتائج ذلك:

- أن صار الإلحاد من الناحية العلمية والعقلية هو الموقف الطبيعي الذي لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، وصار المؤمن هو المطالب بمثل هذا الدليل.

- وأن صار الملحد هو الذي يتحدى المؤمن ويتهمه بعدم العلمية، وعدم العقلانية، وبالتقليد، والانسياق وراء العواطف وأن صار إظهار الاهتمام بالدين ولا سيّما في وسائل الإعلام العامة أمرًا مستغربًا؛ بل منكرًا، يقول صاحب كتاب (ثقافة الكفر): «إنه ما أن نشرت مجلة نيوزويك مقالًا عن الدين حتى جاءها خطاب -نشرته- من قارئ يلومها على إفساح المجال لمثل هذا الهراء»، ثم يعلق على ذلك قائلًا: «من حيث الإحصاء فإن كتاب الخطاب ينتمي إلى الأقلية... وأما سياسيًا وثقافيًا فإن أولئك الذين يؤمنون بالله -يحرصون على إبقاء ذلك في السر، بل على عده سرًا يخجل من إفشائه؛ وذلك أنه فيما عدا الالتجاء إلى الله الشعائري (الظاهري) المتوقع من سياستنا؛ فإن الأمريكي الذي

يأخذ دينه مأخذ الجد، ويعده شيئًا مأمورًا به لا مجرد خيار، يخاطر بأن يعد من المارقين.

- وأن صار الدين هو (الظاهرة الاجتماعية) التي تحتاج إلى تفسير، وأما عدم التدين فهو الأمر الطبيعي الذي لا يستدعي دراسة ولا بحثًا ولا تنقيبًا.

- وأن صار الإلحاد هو القاعدة -المعلنة أو المضمرة- التي تقوم عليها فلسفة العلوم، طبيعية كانت أم اجتماعية أم إنسانية، فصار الإلحاد لذلك جزءًا من مفهوم العلم، ومن هنا جاءت المقابلة بين ما يسمى بالتفسير العلمي والتفسير الديني، **فالتفسير العلمي**: هو التفسير الذي يفترض أن الكون مكتف بنفسه، لم يخلقه ولا يصرف أمره خالق، **وأما التفسير الديني**: فهو الذي يجعل للإرادة الإلهية تدخلا في حوادث الكون.

وإذا كان العلم قد وضع بسبب فلسفته الإلحادية -في مقابل الدين- فقد وضع الدين -مهما كان نوعه- في زمرة الكهانة والسحر وسائر أنواع الشعوذة[1].

فائدة: أسباب انتشار الإلحاد في العصر الحديث:

١- التناقض الشديد بين كثر من دعاوى الدين الذي ورثوه والعلم التجريبي الذي اكتشفوه، فقد وجدوا وما زالوا يجدون كثيرًا من دعاوى دينهم

---

(١) كتاب الفيزياء ووجود الخالق، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٦)، الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، طبعة المنتدى الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٢٦).

مخالفة لما أثبته علومهم التجريبية، والأمثلة على ذلك كثيرة تجد بعضها في كتاب (موريس بوكاي) العلم والكتاب المقدس والقرآن.

٢- التناقض بين منهج العلم التجريبي القائم على الدليل الحسي أو العقلي، ومنهج دينهم التسليمي بين منهج العلم الذي يشترط الاتساق المنطقي، ومنهج الدين الذي يقبل المتناقضات العقلية على أساس أن حقائق الدين يقبلها القلب وإن رآها مخالفة لصريح العقل!.

٣- خوض كثير من علماء الدين وغيرهم من المثقفين المتدينين في المسائل الغيبية والحديث عنها بمجرد الرأي الذي لا سند له من كتابهم ولا دليل عليه من غيره من ذلك، مثلًا ما كتبه (نيوتن) من كلام مفصل عن طبغرافية جهنم!.

٤- تعصب بعض العلماء الطبيعيين المتدينين تعصبًا جعلهم يحاولون لي أعناق الحقائق العلمية لتوافق الدعاوى الدينية، من ذلك أن: (المطران جيمز أشر) وهو دارس مشهور للكتاب المقدس، ... استنتج من تحليل متأن لنصوص الكتاب المقدس أن الأرض خلقت في عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، ونشرت هذه النتيجة التي توصل إليها رئيس الأساقفة في عام ١٦٥٠م، ولم تلبث أن ألحقت بهامش سفر التكوين من النسخة المعتمدة للكتاب المقدس وظلت به حتى زمان فكتوريا، ولا يزال من الممكن وجودها أحيانًا حتى اليوم لم يكن غريبًا أن يأتي هذا الزعم من رجل دين يعتمد على كتابه المقدس، لكن الغريب أن معاصرًا لهذا الأسقف، هو مدير جامعة كمبردج آنذاك أيد هذا الزعم

بل ذهب إلى أبعد من هذا؛ إذ زعم أن: «الثالوث خلق الإنسان في الثالث والعشرين من أكتوبر ٤٠٠٤ عند الساعة التاسعة صباحا كما أوضح رونالد ميلر، فإن مديرًا لجامعة كمبردج هو وحده الذي تبلغ به الجرأة أن يجعل تاريخ خلق الإنسان ووقته موافقًا لبداية العام الدراسي».

٥- الخلاف بين العلم والدين لم يقتصر على مسائل الدين الفرعية، بل شمل مسائله الأصولية، فمن المعروف الآن حتى عند علماء اللاهوت أنه ليس هنالك دليل علمي على أن الكتاب الذي يقوم عليه الدين كله هو من قول المسيح، بل المعروف أنه كتبه أُناس آخرون منهم من هو معروف ومنهم من ليس بمعروف، وأنهم كتبوه بعد موته بآماد طويلة، وأن هنالك تناقضًا في أقوال هؤلاء الكتاب، حتى صارت دراسة مثل هذا التناقض تسمى عندهم بالنقد الأعلى.

٦- قد شمل التناقض فكرة الألوهية نفسها؛ فبينما يوصف الإله بأنه هو الخالق، ينسب إليه الولد. وبينما يقال إن عيسى ابن الله، يقال إنه صلب. وبينما يقال إن الإله واحد، يقال إنه مكون من ثلاثة أقانيم هي: الأب والابن وروح القدس، وهكذا.

٧- رأى بعض المؤمنين من النصارى أن وصفًا كهذا لله إذا أخذ على ظاهره الذي تدل عليه اللغة جعل الخالق -تعالى- مشابهًا للمخلوقات، ففروا من هذا التشبيه إلى ما كان يسميه علماؤنا بالتعطيل، فلم يكتفوا بتأويل هذه الصفات التي تدل على المشابهة، بل أولوا كل الصفات الأخرى فجعلوا الخالق

شيئًا مجردًا، فهو لا يوصف بالعلو، ولا المباينة للمخلوقات، ولا بأن له ذاتًا، ولا شخصًا ولا صورة وإنما هو شيء مجرد لا يوصف بصفة من الصفات الثبوتية، كالحياة والسمع والبصر والكلام.

كتب أحد القساوسة قريبًا كتابًا أسماه: (الإله الباطني) زعم فيه أنه ليس لله - تعالى- وجود خارجي، وأن الإيمان بالله إن هو إلا إيمان بمجموعة من المثل والمبادئ الأخلاقية.

٨- لم يكن الخلاف خلافًا (علميًا) مع الدين فحسب، بل كان أيضًا خلافا أخلاقيًا وسياسيًا مع الكنيسة التي تتحدث باسم هذا الدين، لأسباب مثل هذه اعتقد كثير من المؤمنين بوجود الخالق والمدافعين عن هذا الإيمان، أنه ينبغي أن لا يربط الإيمان بالله بالدين.

قال أحد مؤرخي الإلحاد في الحضارة الغربية: أن يكون هذا -أي الدفاع عن وجود الخالق- من غير لجوء إلى الكنيسة، كان يبدو بدهيًا، فقد كانت الكنيسة جزءًا من المشكلة، جزءًا من المرض الذي كان يصيب كل معرفة بالله، لا جزءا من العلاج لقد كانت الكنائس هي الأرض التي أنبتت الإلحاد».

٩- وكان من أكبر أسباب الإلحاد بعض القواعد الفكرية التي أصل لها ودافع عنها فلاسفة مشهورون محترمون مؤثرون، كانوا في أنفسهم مؤمنين لكن قواعدهم الفكرية تلك كانت في حقيقتها قواعد للإلحاد، ولذلك اقتنع كثير ممن جاء بعدهم بتلك القواعد الفكرية وأسسوا عليها إلحادهم، واعتبروا إيمان

أولئك الفلاسفة الذين قعدوها أمرًا شخصيا لا يتناسب مع ما قعدوا من قواعد عقلية.

كان من هؤلاء الفلاسفة (ديكارت) الذي أتى بنظرية للطبيعة، ومن ثم للعلوم الطبيعية، فحواها أن الطبيعة -بعد أن خلقها الله- صارت مستقلة تمامًا بقوانينها التي أودعها إياها، ولم يعد الخالق يتدخل في شؤونها أو يوقف فاعليتها!! صار الخالق إذن شيئًا بعيدًا عن حياة الناس اليومية واهتماماتهم الحالية، صار شيئًا يمكن أن تستمر الحياة من غير لجوء إليه أو حتى تذكره، ولم يعد من ضرورة لذكره إلا إذا كان الحديث عن بداية الخلق. لم يلبث هذا الخالق السلبي أن تحول عن كثير من العلماء الطبيعيين إلى مجرد اسم مجازي للمبدأ أو المبادئ التي يقوم عليها نظام الطبيعة.

إن كثيرًا من الناس يظنون أن إينشتاين كان مؤمنًا بالله حين يسمعون ذكره لله في عبارات مثل قوله المشهور: «إن الإله الرب لا يقامر» لكن إينشتاين إنما كان يستعمل هذه العبارة مجازًا ليعرب عن رفضه للنظرية التي تقول: بأن المصادفة حقيقة موضوعية في بنية الكون وليست أمرًا نسبيًا خاصًا بالمشاهدة للكون.

لقد مر المسلمون في تاريخهم بتجارب من هذا النوع، لقد كان الجهمية مثلًا معلنين للإسلام بل كان فيهم عباد، لكن تصورهم لصفات الله تعالى كان تصورًا إلحاديًا كما ذكرنا قبل هنيهة. فلولا أن الله تعالى أنقذ الأمة بجهابذة من علماء السنة بينوا زيف ما يقولون عقلا ونقلا لربما كان لهم في تاريخنا أثر مثل

أثر أولئك الفلاسفة الغربيين. لقد استطاع علماء السُنّة أن يبينوا أن القواعد التي قعدها الجهمية زائفة عقلًا، وأنه يلزم عنها الإلحاد.

١٠ - من المسائل التي يتكرر ذكرها في كتابات الغربيين تعليلًا لنفورهم من الدين كثرة الحروب والمآسي التي حدثت في تاريخهم بسبب الخلافات الدينية.

يقول عالم الأحياء البريطاني (بيتر مدور) -كما نقل عنه (تيلر): «لقد كان الثمن الذي اضطرت البشرية في عمومها لتدفعه مقابل الراحة والانتعاش الروحي الذي آتاه الدين قلة من الناس -دمًا ودموعًا، وهو من الغلاء بحيث لا يسوغ لنا أن نأتمن الاعتقاد الديني على... الخلقي».

لا جدال في أنه حدث باسم ما يسمى بالدين حروب ومآسي ومظالم في البلاد الغربية وفي غيرها، ولكن هل يعد هذا مسوغًا لرفض كل دين أيًّا كان؟ كلا، فإن المنهج العلمي المنصف يساعد أن ننظر في هذه الأديان لنميز بينها، فاسم الدين اسم تندرج تحته معتقدات وقيم ودعاوى مختلفة اختلافًا لا يجعل بينها صلة إلا ذلك الاسم، ويستدعي أن ننظر في هذه المعتقدات والقيم والدعاوى المختلفة لتبين ما هو حق منها وما هو باطل.

وإذا كان بينها أمر مشترك فهل كان هو السبب في تلك المآسي حتى نحكم على الأديان كلها هذا الحكم العام؟ أم أن السبب كان أمرًا خارجيًا عن تلك المعتقدات فلا تتحمل جريرته؟! أعني أنه قد يكون بسبب استغلال لتلك الأديان أو بسبب سوء فهم، يجب إذن إذا أردنا أن نكون منصفين في تقويمنا

للدين أن نضع كل هذه الأمور في اعتبارنا، وإلا كان رفضنا له ونفورنا منه أمرًا عاطفيا يقوم على الهوى لكنه يتزيا بزي العلم والعقل.

١١- ومنها أن الملحدين اتبعوا طريقة خداعة هي أن يضعوا الدين في مقابل العلم الطبيعي، ثم يتكلموا عن المزايا التي يمتاز بها منهجه العلمي، وعن الثمار التي جناها الناس من المخترعات التي قامت على أساسه، وعن توسيعه لدائرة معارف الناس بالكون، وقضائه بذلك على كثير من الخرافات المتعلقة بطبيعة الكون أو طبيعة الأسباب الفاعلة فيه، وهكذا. ثم يقولون إنه لهذا كله ينبغي أن يكون الاعتماد على العلم الطبيعي لا الدين في معرفة الحقائق.

هذه الحجة كانت تصلح لو أن الدين والعلم الطبيعي كانا أمرين تناقضين لا يمكن للعاقل أن يجمع بينهما، وربما كانت تصلح لو أنه كان من الممكن أن يستعمل منهج العلم الطبيعي في كل المجالات التي يحتاج إليها الناس، بما في ذلك مثلًا الهدف من حياتهم على هذا الكوكب الأرضي، ومصيرهم بعد هذه الحياة والقيم التي يستهدون بها في حياتهم، لكن العلم الطبيعي بطبيعة منهجه وباعتراف أساطينه لا يستطيع أن يفصل في هذه الأمور.

فالذي يقول للناس والحال هذه خذوا العلم الطبيعي واتركوا الدين، هو كإنسان يقول لك إن الناس يتفقون على ما يشاهدون بحواسهم أكثر من اتفاقهم على ما يستنتجون بعقولهم، فإذا ما وافقته على ذلك مضى ليقول: إذن فيجب أن نعتمد على الحواس ونترك العقل جانبًا، الخطأ هنا هو أن الحواس ليست طريقا إلى معرفة كل ما يحتاج الناس إلى معرفته، وأنه لا تناقض بين الاعتماد

على الحس في معرفة ما من شأنه أن يعرف بها، والاعتماد على العقل في معرفة ما لا يعرفه إلا به.

إنه لا تقابل بين العلم الطبيعي والدين، بل إن الدين الحق يعترف بالمنهج العلمي الطبيعي وسيلة إلى المعرفة، لكنه يقول إنه ليس وسيلة إلى كل المعارف.

١٢ - وكان من أسبابه دعاوى ادعاها وما يزال يدعيها الملحدون عن التناقض بين الإيمان وحقائق العلم الطبيعي، سلم بها كثير من المفكرين في الغرب، وبدأت تجدها تتكرر من جيل إلى جيل، وتنقل في كتاب بعد كتاب مع أنها لا تدل على شيء مما أراد مدعوها، ليس هذا مكان تفصيل القول في هذه الدعاوى والرد عليها، لكن لنذكر منها على سبيل التمثيل.

أ- توهمهم أن الإيمان بوجود الخالق مرتبط بتصورات معينة للدنيا كانت شائعة عند الناس في أوروبا، وأن العلم أثبت عدم صحة تلك التصورات، فأزال بذلك الأساس الذي كان يقوم عليه ذلك الإيمان! هذا مع أنه لا علاقة ضرورية بين الإيمان بين تلك التصورات.

من أكثر ما يذكرونه في هذا المجال اعتقاد الناس فيما مضى بأن الأرض هي مركز الكون، وأن (كوبرنيكس) جاء فأثبت أن الأرض إن هي إلا كوكب من كواكب عدة، وأنه لا ميزة لها على سائر الكواكب والنجوم، ينسى أصحاب هذا القول أن العلم الطبيعي كذلك ارتبط في أذهان كثير من أهله بتصورات للكون ما لبث العلم نفسه أن أبطلها، ألم يكن كثير من العلماء الطبيعيين يتصورون أن

الكون أزلي لا بداية له ولا نهاية؟، بل يعد هذا أمرًا لازما للنظرة العلمية حتى جاءت نظرية (الانفجار العظيم) فسببت لهم حرجًا عظيمًا؟ فإذا كان الدين سيرفض؛ لأن بعض التصورات قد ارتبطت عند بعض الناس به، وهي ليس ملازمة له عقلًا ولا نقلًا؛ فليرفض العلم الطبيعي أيضًا لارتباطه في أهذان بعض أهله بتصورات تبين بطلانه.

زعم الفيزيائي المشهور (واينبيرج) في كتاب له حديث أن المتدينين كانوا يظنون أن الأجرام السماوية ذات طبيعة سامية مختلفة عن طبيعة الأجرام الأرضية، ولذلك كانوا يعتقدون أنها هي التي تدل علة وجود الخالق لكن الشمس وسائر النجوم فقدت مكانتها المتميزة؛ فنحن نعلم أنها كرات من غاز.

ب- ومنها توهمهم وجود تناقض بين فكرة الخلق وفكرة الأسباب، أي أنه لكي يكون الشيء مخلوقًا لله فلا ينبغي أن تكون لحدوثه أسباب طبيعية، فإذا اكتشفنا أسباب حدوثه الطبيعية كان هذا دليلاً على أنه لم يحدث بقدرة الخالق هذه فكرة غالطة رغم شهرتها وانتشارها بين الناس، مؤمنهم وكافرهم، في الشرق والغرب، وعلى مدى تاريخ طويل، عرضنا بشيء من التفصيل لهذه القضية في الفصل الخامس من هذا الكتاب فيكفي أن نقرر هنا ما قرره علماء أهل السُنّة من أنه لا تناقض بين كون الشيء مخلوقًا وكون لحدوثه أسباب؛ لأن الله تعالى من سنته وعادته أن يخلق بالأسباب، ولأنه هو -سبحانه- خالق تلك الأسباب وجاعلها أسبابا.

قيل للنبي ﷺ يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها،

وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله».

إن الغفلة عن هذه الحقيقة هي التي جعلت الملحدين يستطيلون على بعض المؤمنين ويتحدونهم كلما اكتشفوا لبعض الأحداث أسبابًا لم تكن معروفة من قبل، من ذلك ما يقوله صاحب هذا الكتاب في الفصل الذي خصصه للعلاقة بين العلم ووجود الخالق: «بل إنه حتى القرن التاسع عشر كان تصميم النباتات والحيوانات يعد دليلاً بينا على وجود الخالق. ماتزال في الطبيعة أشياء لا حصر لا نستطيع تفسيرها، لكننا نرى أننا نعرف المبادئ التي تحكم الطريقة التي تعمل بها، إن على من يريد السر الغامض الحقيقي اليوم أن يبحث عنه في مجال علم الفلك أو علم الجزيئات الصغيرة».

يريد (واينبيرج) أن يقول لنا كما قال مئات الفلاسفة والعلماء الغربيين قبله، إن السر الذي يعتمد عليه الإيمان يكشف -ويزول فتزول بزواله الحاجة إلى وجود الخالق- حين نستطيع تفسير حدوث الأشياء تفسيرًا طبيعيًا، وإنه لم يبق هنالك اليوم من سر -أي شيء ما زال العلم عاجزًا عن تفسيره - إلا في المجالين اللذين ذكرهما، فهما وحدهما اليوم ملاذ من يبحث عن سر يرسى عليه إيمانه.

إنه لا تناقض بين كون الشيء مخلوقًا لله وكون لحدوثه تفسيرًا طبيعيًا كما قدمنا، لكن غاية ما يبلغه العلم هو أن يفسر لنا الحدوث بأسباب ثانوية، أي أسباب هي نفسها بحاجة إلى أسباب، ونحن محتاجون بلا شك إلى معرفة مثل هذه الأسباب في حياتنا اليومية، لكنها ليست الأسباب التي تفسر لنا وجود

الأشياء تفسيرًا نهائيًا. وهذا هو الموضوع الذي سنشبع الحديث فيه في بحثنا هذا بإذن الله.

١٣- ثم إن الكشوف العلمية الهائلة التي ساعدت الناس على فهم كثير من الظواهر الكونية، والتي بنيت عليها تقنية يسرت للناس معاشهم من أكل وشرب ولبس وعلاج وعمارة واتصال وغيرها، فتنت كثيرًا من الناس فجعلتهم يعتقدون أن العلم التجريبي سيغنيهم عن الدين، بل سينجح حيث أخفق الدين، فكان مثلهم في ذلك كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧]، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

قال مؤرخو العلوم إنه لم يخفف من غلواء هذا الغرور إلا الحرب العالمية الأولى ثم الثانية[1].

---

(١) كتاب الفيزياء ووجود الخالق، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٦)، الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، طبعة المنتدى الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٢٦).

فائدة: الوسائل التي نجح العلمانيون بها في إيهام كثير من الناس بأن الحقائق العلمية تبطل الدعاوى الدينية وتؤيد النظريات:

١- تفسير الحقائق العلمية بنظريات إلحادية، ثم تصوير هذه النظريات على أنها هي وحدها القادرة على تفسر تلك الحقائق، واستبعاد كل نظرية يمكن أن يشم منها رائحة تأييد للدين.

٢- ثم نشر هذه النظريات الإلحادية، والدفاع عنها، وتدريسها للطلاب حتى ينشؤوا على اعتقاد أنها جزء من الحقائق العلمية، لا نظريات قد تصدق وقد تكذب.

٣- ثم التعصب لهذه النظريات تعصبًا يجعلهم يغفلون الحقائق التي تكذبها، أو تضعف من قوتها، سيجد القارئ أمثلة على ذلك في غضون هذا الكتاب، لكن من أحسن الأمثلة على هذا التعصب الذي يتجاهل الحقائق، التعصب للنظرية الداروينية في التطور؛ إن المؤمنين بهذه النظرية، وهم الآن معظم الأسماء الكبيرة في مجال علم الأحياء، يضيقون ذرعًا بكل من يتفضل فيبين للناس ضعف بعض المرتكزات التي تقوم عليها، ويتهمونه إما بالجهل أو التعصب الديني، أو غير ذلك من الأوصاف التي لا تليق برجل العلم، حدث هذا مثلًا لصاحب كتاب (حقائق الحياة) الذي نشر في بريطانيا في عام ١٩٩٢م ولم يلبث أن صار من أعظم الكتب بيعًا.

٤- ومما زاد من حدة البغضاء للدين وتحول الناس إلى العلمانية

والإلحاد، أن رأوا الأمة التي حباها الله بالهداية إلى الدين الحق الذي ليس فيه شيء من تلك المآخذ التي أخذها الغربيون على الدين الذي عرفوه -واقعة في معظمها تحت تأثيرهم، ورأوها- حتى بعد أن يسر الله لها الخلاص من الاستعمار -تنهج في معظم دولها نهج مستعمريها في سياستها واقتصادها وكثير من تصوراتها، ورأوها أمة ضعيفة ومتخلفة عنهم في العلوم والتكنولوجيا، ولم يروها قادرة على أن تتحداهم بفكرها أو تريهم الفرق بين دينهم ودينها، ففتنهم -إلا من رحم الله منهم- هذا الحال الغالب على هذه الأمة عن النظر في دينها وتقديره حق قدره، فتخلفنا ليس تقصيرًا في حق أنفسنا فحسب، وإنما هو فتنة للأمم المتطورة ماديا، يغريها بالتمادي في كفرها وإلحادها، إنه ظلم للإنسانية يفوت عليها فرصة الاهتداء والسعادة الدنيوية والأخروية. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة:٥][1].

فائدة: الملحدون مشركون:

إن وجود خالق للكون أمر تعرفه العقول بداهة؛ لذلك لم يكن ينكر وجود الخالق فيما مضى إلا فئات قليلة من البشر كما قدمنا، ولذلك كانت الرسالات السماوية تبنى على إقرار الناس بوجود الرب، وأنه الذي خلقهم ويرزقهم، ويحييهم ويميتهم، ثم تزيدهم علمًا به، وتدعوهم إلى عبادته وحده دون ما سواه

---

(١) كتاب الفيزياء ووجود الخالق، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٦)، الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، طبعة المنتدى الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٢٦).

مما يعملون أنه لم يخلق ولم يرزق، ولا يحيي ولا يميت، ولا يتصف بشيء من صفات الخالق.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٦-١٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

حتى الذين أنكروا وجود الخالق، والذين يسمون في عصرنا بالملحدين، لا ينكر معظمهم وجود الخالق أي خالق، وإنما ينكرون وجود الخالق الحق الذي دعتهم إلى الإيمان به رسالات السماء، والذي كان يؤمن بربوبيته من يشرك معه غيره في عبادته.

انظر إلى حال الملحدين في عصرنا: تراهم -إذ أنكروا وجود الخالق الحق- يعزون حدوث الأشياء إلى أشياء أخر، وهم وإن لم يسموها بالخالقة إلا أنهم يقيمونها مقام الخالق سبحانه، بل ويضفون عليها بعض صفاته.

خذ الملحدين الماديين في عصرنا مثلًا؛ لقد كان عمدتهم في إلحادهم قولهم بأن: «المادة أزلية لا تستحدث ولا تفنى»، وكانوا يعتقدون أن هذا شيء

أثبته العلم، فلا مجال للخلاف فيه. لكن المادة التي يتحدثون عنها ويصفونها بهذا الوصف ليست هي المادة التي نعرفها ونتعامل معها في حياتنا اليومية وفي معاملنا العلمية، إن المادة التي نعرفها هي مادة في صورة من أجسام سماوية، أو أجسام أرضية، أو مكونات هذه الأجسام: الذرات ومكونات الذرات، والفوتونات وما أشبه ذلك، لكن ليس شيء من هذا أزليًا، بل إن كل مادة في صورة من الصور تحدث وتزول، وأما المادة التي لا صورة لها فإنما هي -كما قال ماركس: «وهم في أذهان الفلاسفة لا وجود له في الخارج، وإذا كانت المادة قد أعطيت صفتين من صفات الخالق هما الأزلية والأبدية -إذ الله وحده هو الأول الذي ليس لأوليته ابتداء، والآخر الذي ليس لآخريته انتهاء -فإن شيئًا اسمه الطبيعة قد عزيت إليه بعض أفعال الخالق سبحانه.

فأنت كثيرًا ما تسمع الملحدين، ومن يقلدهم -وإن لم يكن ملحدًا مثلهم- يقولون إن الطبيعة فعلت كذا وكذا، وأنها اختارت كذا وكذا. لكن الطبيعة التي نعرفها ونتعامل معها في حياتنا اليومية والعلمية هي مجموع الكائنات الحية والجامدة والسائلة، وهذه الموجودات هي التي تنفعل، هي التي توجد وتتكون وتنمو وتفنى؛ فأين هي تلك الطبيعة التي تفعل كل هذا بالطبيعة هذه التي نعرفها؟ أهما طبيعتان حقًا، الواحدة تفعل والثانية تنفعل؟ كلا،... وإنما الطبيعة الحقة هي هذه الطبيعة التي نشهدها. وأما الأخرى -التي تقام في مقام الخالق سبحانه- فإنما هي وهم كبير في رؤوس الملحدين، وما يقال عن الطبيعة يقال عن التطور؛ إن التطور في مفهومه العلمي هو: «الطريقة المتدرجة

التي نشأت بها الكثرة الحاضرة في الحياة النباتية والحيوانية عن أقدم الكائنات الحية وأكثرها بدائية» (القاموس العلمي)، فالتطور إذن هو الطريقة التي حدث بها هذا التنوع، وليس هو صانع التنوع، لكن الملحدين يتحدثون عنه كما لو كان هو الفاعل.

يقول (دارون) -في الطبعة الثانية من كتابه: في كل يوم وكل ساعة -وفي العالم كله- لكل تغير وإن دق، رافضًا للسيء حافظًا وجامعًا لكل ما هو جيد، عاملًا في صمت ولطف، كلما سنحت فرصة لتحسين كل كائن حي بالنسبة لظرف حياته المادي وغير المادي، نحن لا نرى شيئًا من هذه التغيرات البطيئة وهي تحدث، حتى تضع يد الزمان علامة على الآماد الطويلة التي مضت.

يقول (ستانلي) -الذي نقلت عنه هذا النص الداروني: «إن دارون لم يضف كلمة (مجازًا) إلا في الطبعة الثانية من كتابه، ويفسر هذا الإضافة بأنه وقد كان والتوحيد الواجب على العباد لا يتم إلا بأمور ثلاثة:

أولها: أن يعتقد الإنسان أن الله تعالى هو الرب الخالق البارئ المصور إلى آخر صفات الربوبية، أي أن يعتقد أن هنالك أفعالًا لا يفعلها ولا يستطيع فعلها إلا الله تعالى.

وثانيها: أن يعتقد أن هذا الرب سبحانه هو وحده المتصف بكل صفات الكمال؛ فلا يضيف إليه صفة نقص ولا يسلبه صفة كمال، ولا يصف غيره بصفة من هذه الصفات.

وثالثها: أن يعتقد أن هذا الرب هو وحده الإله الذي يستحق العبادة؛ فلا يعبد معه غيره.

والأول هو أساس في الأمرين التاليين؛ لأن الإنسان لا يصف الله بصفات الكمال، ولا يراه مستحقًا للعبادة إلا إذا علم أنه هو المتصف بصفات الربوبية تلك؛ ولذلك تجد القرآن يجعل هذه الحقيقة أساسًا في دعوته للمشركين - الذين يسلمون بها إلى عبادة الله وحده، وعدم وصفه بما لا يليق به، أو وصف غيره بشيء من صفاته، وإذن فالذي يعتقد في وجود خالق غير الله، أو الذي يصف مخلوقًا من مخلوقات الله ببعض صفات الله تعالى هو مشرك بالله سواء اعتقد أن الله تعالى هو أيضًا خالق أو لم يعتقد.

لكن هؤلاء الذين أنكروا وجود الخالق الحق، وإن كانوا قلة شاذة إلا أن بعضهم قد يكون مؤثرا في الناس فيثير الشكوك في نفوسهم حتى بالنسبة لهذا الأمر البدهي، ولذلك لم يهمل القرآن الكريم ذكر هذا الصنف من، الناس والرد على شبهاتهم، رد على الذين زعموا أنه لا خالق ألبته، كما رد على الذين اتخذوا خالقين غير الله الخالق الحق، وأبان لهم أنهم لا يمكن أن يكونوا خالقين حقًا[1].

---

(١) كتاب الفيزياء ووجود الخالق، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٦)، الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، طبعة المنتدى الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٢٦).

فائدة: الأدلة على وجود الخالق:

الأدلة على وجود الخالق كثيرة، لكن المتعلق منها بدلالة الكون المشهود على خالقه ثلاثة، هي: البرهان الكوني، ودلالة الآيات، ودليل العناية. سنشرح هذه البراهين في هذا الفصل شرحًا موجزًا، ثم نجعلها أساسًا لمناقشتنا للملحدين الفلاسفة والفيزيائيين الغربيين. ولكن بما أن معظم الذين تعرضوا لمسألة وجود الخالق منهم لم يركزوا إلا على البرهان الكوني؛ فسيكون جل همنا مصروفا إليه.

١- البرهان الكوني:

البرهان في اللغة هو ما يدل على حقيقة، فإذا قلت لإنسان: في المكان الفلاني شجرة، فسألني ما برهاني على ذلك؟ فقد أقول: إني أرى خضرة ألوانها، أو اسمع حفيف أوراقها، أو أشم شذى أزهارها؛ فتعال هنا فانظر إليها، أو قد أقول إنني لم أرها لكن فلانا -وهو عندي وعندك ثقة- قد أخبرني بوجودها، أو غير ذلك مما يعده الناس في حياتهم اليومية أدلة.

أما في الاستعمال الاصطلاحي المنطقي: فإن البرهان هو أيضًا ما يدلك على حقيقة، لكن دلالته محصورة في نوع معين تخرج عنه دلالة الحواس ودلالة الأخبار وغيرها، فإذا قلت لطالب: ما برهانك على أن مجموع زوايا المثلث ١٨٠ درجة، فلا يعد برهانًا قوله: لقد قست كل ما وجد من مثلثات فوجدتها كذلك، ولن يجدي قوله إن أستاذ الرياضة أنبأنا بذلك.

البرهان بالمعنى الاصطلاحي: هو أن تستخلص أو تستنتج الحقيقة المراد برهانها من حقيقة أو حقائق أخرى هي مقدمات البرهان، بحيث يلزم كل من يسلم بها أن يسلم بالنتيجة التي تؤدي إليها، وإلا ناقض نفسه، فإذا سلم الإنسان -مثلًا- بأن كل ما يسكر فهو خمر محرم شربه، وسلم بأن الشراب الفلاني مسكر؛ فيلزمه القول بأنه خمر محرم.

فأنت ترى إذن أن البرهان المنطقي لا بُد أن يستند إلى حقائق لا تأتي عن طريق المنطق؛ وذلك بدهي، لأن مجال المنطق هو القضايا؛ أي هو أن يستنتج قضية أو قضايا من قضية أو قضايا أخرى، وليس مجاله الدلالة على الواقع الوجودي، فهذا مجال الحواس ظاهرة كانت أم باطنة، بعد أن تقول هذه الحواس أو غيرها من الأدلة على الواقع كلمتها، يأتي البرهان أو المنطق ليقول إذا كانت القضية الفلانية والقضية الفلانية قضايا صحيحة؛ فإنه يلزم عنها قضية ثالثة هذ كذا وكذا.

لكن هذه الحقيقة التي دلنا عليها البرهان المنطقي قد تكون مما يمكن إدراكه مباشرة بالحواس وكم من حقيقة استنتج العلماء النظريون -بالمنطق العلقي الرياضي- ضرورة وجودها ثم جاء العلماء التجريبيون فأكدوا بالآلات الحسية وجودها.

وأنا أزعم أن البرهان الكوني -في صيغته التي سأذكرها بعد- هو برهان منطقي بالمعنى الاصطلاحي، أي إنه يلزم كل يسلم بمقدماته أن يسلم بنتيجته،

وهي أن للكون خالقًا، وإلا ناقض نفسه. ليس هذا فحسب بل إنني أزعم أن المقدمات التي تقود إلى تلك النتيجة هي مقدمات لا يسع العاقل إلا التصديق بها؛ لأنها إما من الحقائق الحسية أو من البدائه العقلية.

أكرر القول: بأن التدليل على وجود الخالق بهذه الطريقة المنطقية لا يعني أنه لا يمكن أن يعرف بغيرها، أو لا يمكن أن يعرف معرفة مباشرة، كأن يكون الإيمان به -كما قدمنا- أمرًا فطريًا، إن حجبته عن الإنسان ظلمات من الشبهات والشهوات؛ فقد يمر بتجربة تنزع عنه الحجاب فإذا الحقيقة ماثلة بين عينين بصيرته يستيقنها عقله كما يستقين الحقائق الحسية الشاخصة أمام عينيه. حتى الذي يستنتج قضية وجود البارئ من وجود الحقائق الكونية، لا يلزمه أن يسير بهذه الخطوات الطويلة التي تتطلبها صناعة المنطق، بل قد يختصرها كلها في لحظة من لحظات الصفاء العقلي، فلئن كان ما قرره هنا برهانا على وجود الخالق تعالى، فما هو البرهان الوحيد؟ وما هو بالخطوة النهائية في طريق الباحث عن الله؟.

إن مهمتنا هنا هي فقط أن ندلل أن قضية وجود الخالق قضية يمكن الاستدلال على صدقها بالبرهان المنطقي، وأن كل ما ذكره بعض المفكرين - من آمن منهم بوجود الخالق ومن كفر- من حجج يدللون بها على أن ذلك غير ممكن هي حجج باطلة، لا تقوم لها عند النظر الصحيح قائمة.

لهذا البرهان عدة صيغ:

- منها ما هو صحيح، ومنها ما هو غالط.

- ومنها ما هو في شكل الدليل المنطقي الاستنباطي.

- ومنها ما هو في شكل الدليل الجزئي المباشر.

نبدأ بالدليل في شكله المنطقي الصحيح الذي اهتم به أكثر علماء أصول الدين من المسلمين، ومن اللاهوتيين والفلاسفة الغربيين، لكننا نصوغه من عندنا صياغة مفصلة نرجو أن تساعد على إيضاحه.

يسير برهاننا على مراحل لكل منها مقدمات تؤدي إلى نتيجة، ثم تلك النتيجة تؤدي -مع مقدمات أخرى- إلى نتيجة ثانية، وهكذا حتى نصل إلى ما نبتغي.

فنقول: إن في هذا الكون حوادث، فغيث ينزل وزهر يتفتح، وطفل يولد، وإنسان ينمو ويكبر، وآخر يمرض ثم يهلك، وأجسام تبنى وتتركب، وأخرى تتحلل «كواركات هي لبنات منها الأوليات ثم الذرات، ومن الذرات تتكون الجزئيات، ومنها تتكون العناصر ثم المركبات ثم الأجسام المادية المشاهدة ومن الغازات الأولية تتكون مجرات تتكون منها نجوم، ومن المجرات مجموعات مجرات، ولكل من هذه الكائنات ساعة ميلاد، يوم هلاك».

فمن الذي أوجدها ومن الذي يفنيها؟ هل جاءت من العدم؟

كلا، فإن هذا مستحيل عقلا. لا بُدّ لها إذن من سبب أحدثها لكن هذا السبب لا يمكن أن يكون الشيء المحدث نفسه، إذًا كيف يسوغ عقلًا أن يكون

الحادث المعين سببًا في إحداث نفسه؟ لا بُد إذن أن يكون سببه شيئًا غيره، لكن إذا كان ذلك السبب الخارجي هو نفسه حادثًا كالأسباب الطبيعية التي نشاهدها، فإنه سيحتاج -كالحادث الأول- إلى سبب، وسيحتاج سببه إذا كان حادثًا إلى سبب... وهكذا.

لا بُدّ إذن من أين يكون سبب التسلسل في العلل والمؤثرات مستحيلًا عقلًا الحقيقي للحوادث سببًا غير حادث، أي لا بُد أن يكون شيئًا أزليًا ليس لوجوده ابتداء، ولا يمكن هذا السبب الأزلي شيئًا غير الله.

سنركز كما ذكرت على هذا البرهان فنبين أن علم الفيزياء لم يبطل شيئًا من مقدماته، بل زادها رسوخًا، وأن هذه المقدمات تقود لا محالة إلى النتيجة التي هي وجود خالق للكون.

٢- برهان الآيات:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبينًا الفرق بين برهان الآيات والبرهان الاستنباطي: «والفرق بين الآيات وبين القياس (ويعني به الاستنباط المنطقي) أن الآية هي العلامة، وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول، لا يكون مدلوله أمرًا كليًا مشتركًا بين المطلوب وغيره، بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول، كما أن الشمس آية النهار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢]، فنفس العلم بطلوع الشمس

يوجب العلم بوجود النهار... وكذلك آيات الرب تعالى، نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى، لا يوجب علمًا كليًا مشتركًا بينه وبين غيره، والعلم بكون هذا مستلزمًا لهذا هو جهة الدليل.

فكل دليل في الوجود لا بُد أن يكون مستلزمًا للمدلول، والعلم باستلزام المعين للمعين المطلوب أقرب إلى الفطرة من العلم بأن كل معين من معينات القضية الكلية يستلزم النتيجة. والقضايا الكلية هذا شأنها».

برهان الآيات هذا هو البرهان الذي يستعمله القرآن الكريم ليدل الناس على وجود الخالق وصفاته. مثل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧١-٧٤].

برهان الآيات هذا لا يعتمد على قضية كلية تقول: إن كل حادث لا بُد له من محدث، بل يعتمد على ما هو أقوى بداهة في العقل، وهو العلم بأمثال هذه الحقائق الجزئية المعينة، فعلم الإنسان مثلًا بأنه مفتقر إلى من يوجده ويحدثه أسبق عنده وأقوى بداهة من أن يستدل عليه بقضية كلية تقول له: إنك حادث وكل حادث فلا بُدّ له محدث، فأنت لا بُد لك من محدث.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فليس العلم بحكم المعينات مستفادًا من الحكم الكلي العام، كما أن العلم بأن العشرة ضعف الخمسة ليس موقوفًا على العلم بأن كل عدد له نصفية، فهو ضعف نصفيه.

ومن الحجج: ما يسمى بالقياس الاستثنائي.

والحجة القرآنية هذه يمكن وضعها في هذا الشكل المنطقي، كأن نقول مخاطبين الملحد:

- أنت تعلم من نفسك أنك حادث وجدت بعد أن لم تكن.
- فإما أن تكون قد وجدت من العدم أو أن شيئًا أوجدك.
- من المستحيل أن توجد من العدم.
- إذن فقد أوجدك شيء.
- هذا الموجد إما أن يكون أنت نفسك أو يكون غيرك..
- من المستحيل أن تكون أنت الذي أوجدت نفسك..
- إذن لا بُد أن يكون شيء غيرك هو الذي أوجدك..
- هذا الغير إما أن يكون مثلك في حاجته إلى من يوجده أو لا يكون..
- لا يمكن أن يكون مثلك؛ إذ ما قيل عنك سيقال عنه أيضا..
- لا بُد إذن أن يكون خالقا غنيا بنفسه غير مفتقر إلى من يوجده؛ وهذا هو الله تعالى..

٣- دليل العناية:

في الدليلين السابقين وجدنا في حدوث الأشياء دليلاً على حاجتها إلى خالق يخلقها، والحدوث صفة كل ما في الكون من مخلوقات؛ لذلك كان كل منها آية وعلامة دالة على خالقه. أما في دليل العناية فإن الصفة التي نتسدل بها على وجود الخالق هي في علاقة هذه المخلوقات بعضها ببعض، أو في علاقة أجزاء الواحد منها ببقية الأجزاء.

إن كل متأمل للمخلوقات بعضها ببعض، أو في علاقة أجزاء الواحد منها ببقية الأجزاء، إن كل متأمل للمخلوقات يرى أنها ليست كومًا عشوائيًا من الموجودات، بل هي مرتبة ترتيبًا ومصممة تصميمًا وراءه غاية تدل على أن لها صانعًا عالمًا حكيمًا يتجلى هذا التصميم في الأحكام الذي يجعل كل مخلوق أو كل جزء من مخلوق مصنوعًا بطريقة، وموضوعًا وضعًا يجعله محققًا لهدف، والذي يجعلها أنواعًا متشابهة تشابهًا دقيقًا، والذي يجعل القوانين التي تحكمها قوانين واحدة لا تختلف مهما اختلف الزمان أو المكان، اللهم إلا إذا أراد الله لها أن تتخلف تخلفًا يكون هو نفسه معجزة دالة على الخالق الواضع لتلك القوانين.

يقول الفيلسوف ابن رشد مبينا دلالة الخلق على اتصاف خالقه بصفة العلم: «أما العلم فقد نبه الكتاب على وجه الدلالة عليه، في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

ووجه الدلالة: إن المصنوع يدل من جهة الترتيب الذي في أجزائه، أعني

كون صنع بعضها من أجل بعض، ومن جهة موافقة جميعها للمنفعة المقصودة لذلك المصنوع، أنه لم يحدث عن صانع هو طبيعة، وإنما وجدت عن صانع رتب ما قبل الغاية لأجل الغاية، فوجب أن يكون عالمًا به».

إلى هذا الأحكام الدال على أن للمخلوقات خالقًا مريدًا عليمًا حكيمًا تنبهنا كثير من آيات القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:٦-١٦]، لا تقول لنا هذه الآيات إن هنالك أرضًا وجبالًا وبشرًا ونومًا وليلًا ونهارًا وسماءً وشمسًا وماءً نباتًا وجناتًا ألفافًا، فهذه كلها أمور نشهدها ونعرفها، وكل إنسان كافرًا كان أو مؤمنًا يسلم بها، وإنما تدعونا الآيات إلى أن نفكر في الصلة بين كل واحد من هذه المخلوقات والأحوال وبين شيء آخر هو الإنسان المخاطب بهذا الكلام.

تدعونا الآيات إلى نلاحظ أن كل واحد من هذه الأشياء والأحوال يحقق بالنسبة لنا نحن البشر هدفًا وهذا لا يمنع أن تكون له غايات أخرى لا نعلمها، فالأرض -هذا المكان الذي نعيش فيه- جعل لنا مهادًا، أي فراشًا كما جاء في آية أخرى، والمقصود أنها جعلت مناسبة لحاجتنا مناسبة الفراش لصاحبه من حيث اللين والسعة والوقاية.

فكأن الآية تقول إنه إذا كانت صناعة الفراش تدل على أن إنسانًا عاقلًا

صنعه، وأنه لم يأت اتفاقًا، فمن الأولى أن تدل صناعة الأرض بهذه الطريقة المناسبة لمعاشكم على أن لها صانعًا حكيمًا ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧]، فكما أن الوتد الذي تصنعونه ليس مجرد قطعة من الخشب مغروسة في الأرض، بل هو مصنوع ومغروس بهذه الطريقة ليؤدي غاية، فكذلك الجبال ليست مجرد نتوءات في الأرض، بل إن لها وظيفة متعلقة بالأرض ومن ثم بحياتكم ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ:٨]، لكي يستمتع بعضكم ببعض، ولكي تنجبوا أطفالًا تستمعون بهم، ولكي يحفظ جنسكم البشري. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ:٩]، تنقطع فيه حركتكم، وترتاح أجسامكم، وتبرد أعصابكم، وتتخلصون به من كثير من الهموم والمشكلات النفسية.

والليل والنهار: إنهما ليسا مجرد ظواهر فلكية نتجا مصادفة عن حركتي الشمس والأرض، بل إن لهما خالقًا جعلهما بهذه الطريقة خدمة لكم، ففي الليل ترتاحون وفي النهار تكدحون وحتى تلك الأفلاك البعيدة عنكم لها تعلق بكم، فكما أن الأرض لكم فراش فالسماء لكم بناء أي سقف، والشمس سراج يمدكم بالنور والحرارة اللتين لا تكون بدونهما حياة بشرية ولا حيوانية ولا نباتية.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:١٤-١٦] إذا كان كثير من الناس يغفلون عن الحكمة في خلق ما مضى ذكره من ظاهر وأحوال، فلا يكاد أحد ينظر إلى الغيب على أنه مجرد ماء نازل على الأرض من السحاب، بل إنهم ليدركون صلتهم به وحاجتهم إليه، فبه ينبت الزرع الذي يأكلون منه كما تأكل أنعامهم التي يعيشون عليها، إن ميزة الأدلة القرآنية أن دلالتها ليست قاصرة على أن للكون خالقًا، بل تتضمن الدلالة على أن هذا الخالق هو وحده الذي ينبغي أن يعبد ويشكر ولا يكفر. بل إن بعضها - كما هو الحال هنا- ليتضمن الدلالة على أن بعد هذه الحياة حياة أخرى يلقى فيها المحسنون جزاء إحسانهم، ويعاقب فيها الظالمون على ظلمهم.

إن بعض المنكرين لوجود الخالق المستكبرين عن عبادته، يذهبون كل مذهب في إنكار هذا التناسق العجيب في المخلوقات لما يعلمون من دلالته على وجود الخالق، ووجوب عبادته، وهم حتى حين يعترفون به يتعلقون بأوهى النظريات التي تفسره تفسيرًا ينفي عنه القصد ويجعله أمرًا حادثًا بالمصادفة والبخت، ومن ذلك ما ذكره عالم الأحياء (ميلتون) ورد عليه في كتابه (حقائق الحياة).

٤- الدليل الخلقي:

القيم الخلقية، قيم الصدق والأمانة والوفاء وغيرها، قيم ضرورية لوجود المجتمعات البشرية، إنها قيم لا يكون بدونها مجتمع ولذلك قال بعضهم إنها ملاط المجتمع الذي يمسك أفراده كما يمسك الملاط اللبنات التي يتكون منها

البناء. إنه بغير هذه القيم لا يكون علم حتى بأمور الدنيا، ولا يكون اقتصاده، ولا تكون علاقات اجتماعية.

تصور مجتمعًا لا يرى بالكذب بأسًا ولا يعده مذمة، فالناس فيهم كلهم كذابون!! «وليس من شرط الكذاب ألا يصدق أبدًا، بل هو يصدق إذا رأى الصدق له، ويكذب إذا رأى الصدق عليه»؛ هل يكون في هذا المجتمع علم؟ كلا! فإن من ضروريات العلم الصدق في الرواية، فإذا ادعى إنسان في مثل هذا المجتمع أنه اكتشف -في مخبره- حقيقة ما، فإننا لن نصدقه لأننا لا نعلم إن كان صادقًا أو كاذبًا، بل سنقطع بكذبه إذا وجدنا أن هذه الدعوى تخدم غرضا له. ولن تكون هنالك كتب ولا دروس ولا محاضرات ولا مدارس ولا جامعات، ما الفائدة من قراءة كتاب لا أعلم إن كان صاحبه صادقًا أو كاذبًا، ولا أستطيع أن أستعين بغيري لأنه هو الآخر قد يكذب علي؟ وقل مثل ذلك عن المدرسين والمحاضرين، وقل مثله عن رواة الأخبار في سائر وسائل الإعلام، وقل مثله عن التجار والزراع والصناع، كيف تتعامل مع أي من هؤلاء إذا كنت لا تدري أصادق هو أم كاذب فيما يدعيه لك من ثمن بضاعة أو جودة محصول أو أحكام صنعة؟ الصدق ليس إذن فضيلة خلقية فحسب، بل هو ضرورة اجتماعية أيضًا، وعليه فكلما كثر عدد الصادقين في المجتمع كان المجتمع أقوى تماسكًا وأدعى لأن تزدهر فيه العلوم والتقنية والاقتصاد إذا ما توفرت شروطها الأخرى. وكلما تفشى الكذب بين حكامه وولاة أمره وعلمائه وتجّاره وزرّاعه وصنّاعه، كان أكثر تمزقًا وأقل تطورا في تلك الأمور كلها، فالصادقون إذن يسدون إلى المجتمع

خدمة هي ضرورات وجوده، والكذابون هم من معأول تقويضه.

لكن مشكلة الأخلاق في حياتنا الدنيوية هذه هي أن الصادق قد لا يجد جزاء صدقه، بل قد يكون صدقه سببًا في خسارة مالية، أو فقدان مكانة اجتماعية، بل قد يكون كذبه وسيلة إلى كسب مالي، أو نيل منصب اجتماعي، أو تفادي أذى جسدي، ولولا ذلك لما كذب إنسان، فالمشكلة إذن هي أن الذين ينفعون المجتمع قد يضارون ماديًا، بينما الذي يضرونه قد ينتفعون ماديًا.

فإذا لم يكن هنالك من خالق يرى ويسمع ما يفعل البشر، وإذا لم تكن هنالك من دار أخرى يثيب الله فيها المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، وكان الكسب المادي في هذه الحياة الدنيوية هو وحده الكسب المعتبر؛ لكان الصادقون الأمناء الموفون بعهودهم هم المغفلين الذي لا عقل لهم، ولكان الكذابون الخونة هم العقلاء.

لكن العقل يقول: إن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك، لا يمكن أن يكون العقلاء هم الذي يقوضون المجتمع، والمغفلون هم الذين يبقونه متماسكًا. لو كان الأمر كذلك لكانت اللاعقلانية أصلًا أصيلًا في بنية هذه الحياة الدنيوية، ولكانت هذه الحياة -لذلك- كلها عبثًا لكن ما من عاقل يمكن أن يقبل نتيجة كهذه؛ لأن فيها -من بين ما فيها- تقويضًا لأهم مبدأ تقوم عليه علومنا الكونية كلها، إن هذه العلوم كلها تقوم على افتراض المبدأ المسمى بتناسق الطبيعة، المبدأ الذي يقول إن قوانين الطبيعة لا تتخلف، وإنه لذلك يمكن أن تدرس دراسة علمية بل رياضية، فكيف يكون هذا الكون في جانبه المادي عقلانيًا، وفي

جانبه البشري متناقضًا مع المبادئ العقلية؟ وهناك تناقض آخر يؤدي إليه الإلحاد بالنسبة للقيم الخلقية.

إن الناس مفطورون على أن هذه القيم قيم يحسن بهم أن يلتزموا بها، فهي جزء من تكوينهم العقلي، وهم يشعرون لذلك -وما داموا محتفظين بفطرتهم- بالسعادة حين يصدقون الحديث ويؤدون الأمانة ويوفون بالعهد، ويشعرون بالشقاء حين يكذبون أو يخونون وينكثون.

فالملحد الذي يريد أن يتصرف وفق ما يقتضيه إلحاده؛ يمر بحالات يشعر فيها بالتمزق بين وازعه الداخلي، وتفكيره العقلاني؛ فبينما يقول له الوازع الداخلي: اصدق فهذا أريح لك لنفسك وأسعد لقلبك. يقول له فكره: لكنك تعتقد أنه ليس وراء هذه الحياة من حياة، والصدق في هذه الحال يفوت عليك لذة عاجلة، ففيم التضحية بها وأنت لا تنتظر أخرى بعدها آجلة؟ يقول بعض من يسمع مثل هذه الحجة لكن الواقع أنه ما كل الملحدين كذابون ولا كل المؤمنين صادقون؛ فقد يصدق الملحد وقد يكذب المؤمن.

وأقول أجل إن هذا ليحدث، لكن الملحد حين يصدق يتناقض مع مقتضيات مبدئه، أي أنه لا يصدق صدقا يفوت عليه مصلحة إلا حين يتخلى -مؤقتًا- عن مبدئه، أو عن عقله. أما المؤمن فالأمر بالنسبة له عكس ذلك تمامًا، فهو حين يكذب يكون قد سلك سلوكا يتناقض مع مبدئه ومع عقله، وحين يصدق يكون موافقا لهما ولفطرته.

وعليه، فإنه كلما كثر عدد الملحدين، واشتد اقترابهم من مقتضيات

مذهبهم فإن الكذب عندهم سيزداد لا محالة، وكلما كثر عدد المؤمنين واشتد استمساكهم بدينهم، ازداد عدد الصادقين منهم لا محالة، يقول بعض المتحذلقين من الفلاسفة إنه لا معنى للسلوك الخلقي إلا أن تضحي مثل هذه التضحية التي لا ترجو لها ثوابًا، وأنك إذا علمت الخير رجاء الثواب كما يفعل المتدينون لا يكون سلوكك هذا سلوكًا خلقيًا بل تجاريًا. لكن هؤلاء ما علموا أن التضحية المطلقة يتنافى مع العقل الذي يسير عليه الناس في حياتهم الدنيوية كلها، وإلا لو كانت مثل هذه التضحية مما يدعو إليه العقل، لكان أعقل الناس هم الذين لا يسعون لنيل لذة ولا يعملون على اتقاء أذى فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتقون حرًا ولا بردًا ولا خطرًا.

وإذا كان هذا غير سائغ عقلًا فلماذا يسوغ في حالة السلوك الخلقي؟ وما الفرق بين هذا السلوك وغيره من أنواع السلوك؟ قد يقال إن الفرق هو ما ذكرته أنت نفسك آنفًا من أن في الإنسان وازعًا داخليًا يدعوه إلى السلوك الخلقي.

ونقول هذه هي المشكلة، كيف نوفق بين هذا الوازع الداخلي الذي يدعونا إلى مكارم الأخلاق، والعقل الذي يدعونا إلى تحصيل ما ينفعنا ودرء ما يضرنا؟ إنه لا حل عند الملحد، إن إلحاده يوجب عليه إما أن يكون داعيًا إلى نبذ الأخلاق، أو يكون داعيًا إلى نبذ العقل، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، كيف يحل الدين هذا الإشكال؟

يقول الدين الحق: نعم، إن الأخلاق من الخير الذي فطر الله عليه عباده،

ولكن هذه الأخلاق نفسها تقتضي أن يثاب المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته ولكن هذا لا يتأتى في دار الدنيا هذه كما هو مشاهد، ولا يمكن إذن أن يتأتى إلا في حياة أخرى بعد هذه الحياة، ولا يتأتى في تلك الحياة الثانية إلا إذا كان هنالك إله عادل حكيم، يعلم ما يعمل الناس الآن ليجازيه عليه غدا فالمؤمن يعمل الخير لأن الله فطره على حبه، ويعمله لأن الله يثيبه على فعله، ولا تناقض بين الأمرين لأن إثابة المحسن هي نفسها مبدأ خلقي ذكر الله تعالى -ما أعده لعباده الصالحين، فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦-٥٩]، ثم ختم بقوله: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، والسؤال سؤال استنكاري، فكأن الآية تقول: إن هذا هو الأمر الذي تدلكم عقولكم على أنه ينبغي أن يكون، فكيف تتوقعون غيره؟

لعل القارئ يرى -كما أرى- أن الدليل الخلقي هذا هو فرع عن دليل العناية؛ لأن فحوى هذا الدليل أن الكون فهي من التناسق والعناية ما يدل على أن له مبدعًا حكيمًا، والحكيم لا يفعل شيئًا عبثًا، لكن عدم وجود دار آخره يلقى

فيها المحسن ثواب إحسانه والمسيء عقاب إساءته هو مما يتناقض مع تلك الحكمة وهذا الإحكام.

لم أر أحدًا ممن قرأت يربط هذا الربط بين هذين الدليلين، لكنني أحسب أن المناسبة بينهما مما لا يخطئه الناظر المتمعن، ولا سيّما الناظر في القرآن الكريم.

في هذا الكتاب العزيز عدة آيات تدعو إلى التفكر في الكون لمعرفة أن له خالقًا حكيمًا ينبغي أن لا يعبد غيره مما لا يخلق، ولمعرفة أنه لم يخلق عبثًا ولا لعبًا ولا باطلًا وإنما خلق بالحق، أي من أجل غاية وقد وجدت في أكثرها -فيها أو في سياقها- رابطًا بين نفي البطلان واللعب والعبث عن خلق الكون، وبين أنه لا بُد أن تكون هنالك دار آخره أي إنه لم تكن آخرة لكان خلق هذا الكون كله عبثًا وباطلًا ولعبًا ولم يكن حقًا؛ لأن هذا يتنافى مع الأحكام الذي فيه ومع ما يدل عليه هذا الأحكام من كونه مخلوقًا لخالق حكيم.

إن الخالق الحكيم لا يخلق خلقًا فيأمرهم وينهاهم ثم يجعل مصير الذين استجابوا لرسله فعملوا صالحًا كمصير الذي تمردوا عليهم وخاضوا في كل فعل قبيح؛ فالآخرة إذن ضرورة خلقية.

تأمل هذه الآيات... وانظر كيف جعلت الأحكام في خلق الله دليلاً على ضرورة وجود دار آخرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢١-٢٢]، تأمل كيف ربطت الآية بين خلق السماوات والأرض بالحق، وبين عدم الظلم، وتأمل كيف ربطت الآية التالية بين عدم خلقها باطلًا -أي عبثًا وبين مساواة المحسنين بالمسيئين:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [ص:٢٧]، نعم إن أولي الألباب، أولئك الذي يتفكرون في الأمور ويستدلون

بها الاستدلالات الصحيحة، لا أولئك الذي يدعون العقلانية، وهم من أبعد الناس عن الالتزام بمقتضيات العقول، هم الذي يتدبرون في كون الله المخلوق وفي كتابه المقروء، وفي آيات الله الكونية، وآياته الكلامية، فيصلون بفكرهم المستقيم إلى الحق ويلتزمون بمقتضياته، هذه المعاني تتكرر -كما قلت لك- في آيات كثيرة من آيات الكتاب العزيز، فإليك أمثلة لها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ

رَبِّهِمْ لَكَفِرُونَ ﴾ [الروم:٨]، ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف:٣]، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن:٣]، قد يقال إن هذه الحجة إنما تصلح لإنسان يؤمن بالخالق وينكر وجود الدار الآخرة، لكننا هنا بصدد إنسان ملحد ينكر وجود الخالق.

وأقول: إن الآية فيها الأمران كلاهما، فهي من ناحية تخاطب من يقر بوجود الخالق وينكر البعث، ولكنها من ناحية أخرى تدل على أحكام الخلق وما فيه من تناسق وعناية -من بينها وجود قيم خلقية لا تصلح مجتمعات الناس إلا بها- يتنافى مع عدم وجود دار آخرة. ولكن إذا كانت هنالك دار آخرة ولم يكن هنالك إله شهيد على الناس في هذه الحياة الدنيا، كي يجازيهم عليها في تلك الدار، لم يكن من فائدة بل صار الأمر فيها كالأمر في هذه الحياة الدنيا.

قلت: إن الآخرة ضرورة خلقية، ولو شئت لقلت ضرورة عقلية؛ لأن المبادئ الخلقية، هي من بين الموازين التي فطر الله عليها العقول لقياس الأمور وتقويمها، فالذي يتنافى مع الأخلاق يتنافى مع هذا العقل الفطري. وإذا قرر الله تعالى أمرًا في صيغة سؤال استنكاري؛ فإنه يدل على أن الأمر معروف ما ينبغي أن ينكر أو يخالف، ومما يدخل في هذا ما كان معروفا بهذا العقل الفطري، تأمل هذه الآيات كيف تستنكر أن يكون مصير المحسنين كمصير المسيئين سواء بسواء لأن هذا مما يتنافى مع تلك المبادئ الخلقية العقلية الفطرية، وعليه فلا بُد من دار آخرة يستقيم فيها هذا الأمر.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٣-٣٦]، ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [ص:٢٨]، وهنالك مشكلة أخرى تتعلق بالقيم الخلقية، إنه لا مكان في الفيزياء -ولا في غيرها من العلوم الطبيعية- للقيم الخلقية، أو الجمالية أو غيرها من القيم؛ ذلك لأن مجال هذه العلوم إنما هو الكائنات الطبيعية، لكن الناس لا يكفيهم في حياتهم علمهم بالطبيعة مهما ازداد وعظم؛ إنهم يحتاجون مع هذا إلى قيم يهتدون بها في معاملاتهم، فإذا حلت العلوم الطبيعية محل الدين -كما يريد لها الملحدون في عصرنا- وإذا حصر الحق فيما يأتي عن طريق هذه العلوم؛ فأنى يجد الناس تلك الهداية التي هي من ضروريات حياتهم؟ إن كثيرًا من ملاحدة العلماء الطبيعيين يعترفون بهذه المشكلة لكنهم لا يحيرون لها جوابا.

ينقل (تيلر) عن عالم الأحياء البريطاني (ميداور) وهو ملحد مثله قوله: «إن الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالبدايات والنهايات أمر خارج -منطقيًا- عن مقدرة العلم الطبيعي»، لكنه يعلق على هذا يقوله: «إن هذا مسلك يصعب قبوله، فما زالت هنالك فجوة في حياة أُناس كثيرين بسبب انعدام الغاية هذه».

لقد كتب العالم النفساني كارل يونج: «إنه لم يكن من بين كل مرضاي الذي هم في النصف الثاني من عمرهم (بعد سن ٣٥) أحد لم تكن مشكلته في النهاية هي الظفر بنظرة دينية إلى الحياة».

ثم ينقل عن صحفي معاصر -يقول عنه: إنه ابن لأحد الفيزيائيين- قوله:

«إن العلم الطبيعي ليس سلعة محايدة أو بريئة يمكن أن يستخدمها للاستفادة منها قوم لا يريدون إلا أن يكون لهم نصيب من قوة الغرب المادية... إنه مدمر روحيًا، مود بكل المرجعيات والتقاليد القديمة... وبعد أن يودي بكل منافسيه يبقى السؤال: أي نوع من الحياة تلك التي يقدمها العلم الطبيعي لأهله؟... ماذا يقول لنا عن أنفسنا، وكيف نحيا».

ثم يقول: «ليس هنالك من جواب جاهز على هذا السؤال»[1].

فائدة: نظرية الانفجار العظيم:

ما ذا تقول هذه النظرية؟تقول باختصار إنه إذا كان الكون اليوم يتباعد، فلا بُدّ أنه كان في يوم ما متقاربًا. لكن متقاربًا إلى أي حد؟ تخيل هذه المجرات وهي تسير في الاتجاه المعاكس، تخيلها وهي تجري مقتربًا بعضها من بعض.

ربما تتصور أنها ستكون قطعة واحدة مساوية في حجمها لمجموع أحجام المجرات المكونة لها، كما أنك إذا بنيت حائطًا من مجموعة من اللبنات فإن حجمه سيكون مساويًا لحجم مجموعة اللبنات المكونة له، لكن الفيزيائيين سيقولون لك كلا فإنها كلما اقتربت وتضامنت ازدادت كتلتها فازدادت شدة جاذبيتها، وكلما ازدادت قوة الجاذبية ازداد التلاصق، حتى تتلاشى الفراغات بين النجوم المكونة للمجرات، ثم يزداد ضغط الجاذبية على النجوم نفسها،

---

(١) كتاب الفيزياء ووجود الخالق، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٦)، الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، طبعة المنتدى الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٢٦).

وهكذا يستمر الضغط حتى تكون كل المادة المكونة للكون في حجم الذرة، ثم يستمر الضغط إلى ما لا نهاية له، فيقل الحجم إلى ما لا نهاية له، أي حتى يصير لا شيء، ولكن بما أن الزمان والمكان تابعان للمادة فإن زوالها يعني أيضًا زوال الزمان[1].

فائدة: هل يتنافى القول بفاعلية الأسباب مع الإيمان بالخالق؟

تلك الحوادث المتسلسلة -سواء قلنا إنها غير متناهية، أم قلنا بتناهيها- يمكن أن يكون بعضها أسبابًا وعللًا لبعض، لا بمعنى العلة التامة، بل بمعنى العلة الناقصة المحدودة.

فالله خالق كل شيء، وهو جاعل بعض الأشياء عللًا وأسبابًا لبعض؛ فليس منها ما هو علة تامة مستقلة، وإن كان علة بالمعنى المحدود، فالمؤمن البصير لا يشتط شطط الذين يثبتون وجود الأسباب، المؤمن البصير لا يجد في نفسه حرجًا في الجمع بين إيمانه بالله الخالق لكل شيء، وإقراره بفاعلية الأسباب الطبيعية.

فالله الخالق للأشياء جعلها بحيث يكون بعضها أسبابًا لبعض الاعتقاد بتنافي الخالقية مع الفاعلية السببية جعل كثيرًا من الملحدين الغربيين يستطيلون على زملائهم المؤمنين كلما نجح العلم الطبيعي في تفسير ظاهرة من ظواهر

---

(١) كتاب الفيزياء ووجود الخالق، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٦)، الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، طبعة المنتدى الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٢٦).

الطبيعية بعزوها إلى سبب طبيعي، وجعل أولئك المؤمنين يحرجون من التقدم العلمي، ويبحثون عن الأمور التي عجز العلم عن تفسيرها ليشيروا إليها قائلين لأصحابهم الملحدين: ألم نقل لكم إن في الموجود ما لا يمكن تفسيره إلا بإرادة الخالق؟ وقد سخر بعض الفلاسفة من هؤلاء المؤمنين وسمى إلههم بإله الفجوات! أي إنهم لا يجدون له مكانا إلا في الأماكن التي لم يستطع العلم ولوجها بعد.

ومما زاد من إحراج هؤلاء المؤمنين أن العلماء الطبيعيين ما كانوا يلبثون إلا قليلًا حتى يجدوا لتلك الظواهر تفسيرًا طبيعيًا، فيسدوا بذلك بعض الثغرات، فالملحدون من العلماء الطبيعيين يزعمون أنه لكي يكون الشيء مخلوقًا لله فلا ينبغي أن تكون لحدوثه أسباب طبيعية، فإذا اكتشفنا أسباب حدوثه الطبيعية كان هذا دليلاً على أنه لم يحدث بقدرة خالق. هذه فكرة غالطة رغم شهرتها وانتشارها بين الناس، مؤمنهم وكافرهم، في الشرق والغرب وعلى مدى تاريخ طويل.

إن الغفلة عن هذه الحقيقة هي التي جعلت الملحدين يستطيلون على بعض المؤمنين ويتحدونهم كلما اكتشفوا لبعض الأحداث أسبابًا لم تكن معروفة من قبل؛ من ذلك ما يقوله (واينبيرج) في الفصل الذي خصصه للعلاقة بين العلم ووجود الخالق: «بل إنه حتى القرن التاسع عشر كان تصميم النباتات والحيوانات يعد دليلاً بينا على وجود الخالق، ما تزال في الطبيعة أشياء لا حصر لها لا نستطيع تفسيرها، لكننا نرى أننا نعرف المبادئ التي تحكم الطريق التي

تعمل بها. إن على من يريد السر الغامض الحقيقي اليوم أن يبحث عنه في مجال علم الفلك أو علم الجزئيات الصغيرة».

يريد (واينبيرج) أن يقول لنا كما قال مئات الفلاسفة والعلماء الغربيين قبله: إن السر الذي يعتمد عليه الإيمان يكشف -ويزول بزواله الحاجة إلى وجود الخالق- حين نستطيع تفسير حدوث الأشياء تفسيرًا طبيعيًا، وأنه لم يبق هنالك اليوم من سر -أي شيء ما زال العلم عاجزًا عن تفسيره- إلا في المجالين اللذين ذكرهما، فهما وحدهما اليوم ملاذ من يبحث عن سر يرسو عليه إيمانه، إنه لا تناقض بين كون الشيء مخلوقا لله وكون لحدوثه تفسيرًا طبيعيًا كما قدمنا، قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله».

لكن غاية ما يبلغ العلم هو أن يفسر لنا الحدوث بأسباب ثانوية، أي أسباب هي نفسها بحاجة إلى أسباب. ونحن محتاجون -بلا شك- إلى معرفة مثل هذه الأسباب في حياتنا اليومية، لكنها ليست بالأسباب التي تفسر لنا وجود الأشياء تفسيرًا نهائيًا.

وقد وجدت فكرة (التنافي بين الخالقية والسببية) شائعة حتى عند بعض المسلمين، سمعت بعضهم يستدل بقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]، على أن الله تعالى هو الذي يستدل بمثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى:٢٨]، على أن الله تعالى ينزل المطر أحيانًا من غير تبخير ولا سحاب.

هذا مع أن أئمة أهل السّنّة ظلوا يلحون على أن من سنة الله تعالى أن يفعل ويخلق بالأسباب؛ فعزوا الحوادث إلى فعله لا ينافي كونها حصلت بأسباب جعلها الله أسبابًا لها.

ثم إنه من الخطأ في تفسير القرآن الكريم أن تأخذ بعض الآيات بمعزل عن الآيات الأخرى، ولا سيّما تلك التي تتحدث في المسألة نفسها، فالقرآن كتاب متسق يصدق بعضه بعضًا، ويفسر بعضه بعضا فإذا قال الله تعالى في موضع: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، فقد قال في موضع آخر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم:٤٨].

نعم، إن الله تعالى قادر على أن يخلق الأشياء بغير هذه الأسباب، وأن يخلقها مرة بأسباب وأخرى بغير أسباب، وأن يخلق دائمًا بغير أسباب، لكن قدرته تعالى شيء وكون هذه سنته فعلًا شيء آخر؛ فالذي نعرفه من كلامه تعالى، ومن مشاهدتنا لمخلوقاته أن من سنته أن يخلق الأشياء بأسباب، وأن هذه الأسباب تكون في بعض الأمور مطردة لا تتغير ألبتة.

﴿بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

بل حتى المعجزات الكونية، لم يقل أهل السُنّة إنها خرق لقاعدة السببية، وإنما وصفوها وصفًا دقيقًا فقالوا إنها خرق للعادة، أي للسُنّة المعتادة التي يعرفها الناس، وهذا يعني أن المعجزة نفسها يحدثها الله تعالى بأسباب لكنها

غير الأسباب التي عرفها الناس[١].

فائدة: المنهج العلمي لفهم نصوص الكتاب والسُنّة:

الإنسان قد يؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله، ولا ينكر ما ثبت له أنه سنة رسول الله ﷺ ويكون مع ذلك ضالًا إذا هو لم يعرف المنهج العلمي لفهمهما، بل ظنه منهجًا نسبيًا يتغير بتغير الأحوال والأوقات والمحال والأذواق. فالدين القويم هو أن تؤمن بكتاب الله وسنة رسول الله على المنهج أصحاب رسول الله. وقد كان منهجهم هذا هو المنهج الذي سار عليه كبار أئمة أهل السُنّة من المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين والمتكلمين.

فأول قاعدة في هذا المنهج: هي الالتزام باللغة العربية؛ لأن القرآن أنزل بلغة العرب، فما ينبغي أن تعطي كلمة من كلماته أو تركيب من تراكيبه معنى لا تعرفه منها العرب، وإلا كان تفسيرًا له بغير لغته.

ولكن ما أكثر الانحرافات التي حدثت بسبب التعامي عن البديهيات، إنك إذا فتشت في كل الاتجاهات التي انحرفت عن الإسلام وإن تسمت به، وجدتها كلها تضطر للإخلال بهذه القاعدة البدهية لتجد في النصوص تأييدا لمذاهبها الباطلة. فغلاة المتصوفة يعتمدون على أذواقهم وأهوائهم في تفسير الكلمات القرآنية فيسمي أحدهم الريح راحة، والعذاب الأليم عين النعيم، وغلاة الشيعة

---

(١) كتاب الفيزياء ووجود الخالق، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٦)، الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، طبعة المنتدى الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٢٦).

يفسرون البقرة بعائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧].

ويفسرون يأجوج ومأجوج في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف:٩٤]، بأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والمعطلة يفسرون قوله تعالى: ﴿اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] باستولى، والفلاسفة يفسرون الحكمة بالفلسفة لكي يقولوا إن الله تعالى مدح الفلسفة في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

أما القاعدة الثانية: فهي تفسير القرآن بالقرآن؛ وذلك لأن القرآن بما أنه كلام الله تعالى، فلا اختلاف فيه ولا تناقض كما ذكرنا، فما ينبغي أن تفسر آية منه تفسيرًا يجعلها متناقضة مع آية أخرى؛ ولأن من عادة الله تعالى في كتابه هذا أن يجمل الأمر في آية ويبينه ويفصله في آية أو آيات أخرى.

وأما القاعدة الثالثة: فهي تفسير القرآن بالسنة النبوية، وهذا أيضًا أمر بدهي؛ لأن الرسول ﷺ لم يؤمر بتبليغ نص القرآن فحسب، وإنما أمر أيضًا ببيانه، فكل أقول الرسول ﷺ وأعماله هي بمثابة البيان للقرآن. فإنكار السُنّة هو في حقيقته إنكار مغلف للقرآن الكريم، ولو كان فهم القرآن من غير السُنّة ممكنًا لما بعث الله محمدًا رسولًا، ولأنزل على كل بشر نسخة من القرآن، كما طالب بذلك المشركون ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر:٥٢].

وأما القاعدة الرابعة: فهي تفسير القرآن بأقول الصحابة. لماذا هذه

المكانة لأقوال الصحابة؟ وما الذي يميزهم عن غيرهم من الأجيال التي جاءت بعدهم؟ إن الصحابة ليسوا معصومين، فقد كتب الله تعالى العصمة للنبي وحده، لكنهم خير القرون بشهادة الرسول ﷺ، والخيرية تشمل العلم ضرورة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين**»، فأصحاب رسول الله ﷺ هم الذي كان ينزل القرآن بلغتهم، وهم الذين كانوا يشهدون المناسبات التي ينزل فيها الوحي، وتقال فيها الأحاديث، وتحدث فيها الأعمال النبوية. فهم إذا ذوو فقه يفضلون به على غيرهم، وهم ذوو خشية تمنعهم من أن يقولوا في الدين برأيي لا يعرفون له سندًا، لذلك كانت أقوال الصحابة من أصول كل إمام من أئمة المذاهب المتبوعة.

لم تكن هذه القواعد قواعد نظرية وإنما كانت هي المنهج الفعلي الذي سار عليه كبار المفسرين من أمثال الطبري والقرطبي وابن كثير، وكانت هي المنهج الذي اتبعه كبار الفقهاء ولا سيّما أئمة المذاهب المشهورة، وكان هو الذي اتبعه كل من كتب في أصول الدين من أئمة السنة كالإمام أحمد والدارمي وابن تيمية[1].

---

(١) كتاب الفيزياء ووجود الخالق، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٦)، الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، طبعة المنتدى الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٢٦).

مصادر كتب ودراسات العلوم الطبيعية

١- التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية[١]:

تحدث الشيخ في هذا البحث عن طبيعة الإنسان والنظريات التربوية عن أصل فطرة الإنسان وطبيعة، وذكر التصور الإسلامي وأنه مفطور على الخير وأن هذا التصور الصحيح ثم فصل في ذلك.

٢- الفيزياء ووجود الخالق

هذا الكتاب ألفه الشيخ من أجل أن يبين أن القول بالاستغناء عن الخالق لم يكن له ما يسوغه حتى في فيزياء نيوتن، ثم فصل القول في مناقشة الحجج التي يتعلل بها بعض الفيزيائيين المعاصرين في إنكارهم لوجود الخالق رغم قولهم بنظرية الانفجار العظيم[٢].

وقد تكون الكتاب من:

مقدمة: بين فيها لماذا كتب هذا البحث؟

---

(١) بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧هـ- الموافق ٢ إبريل ١٩٧٧م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢)، صفحة (٦١-٨٠).

(٢) وقد طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى عام ١٤١٧هـ - الموافق ١٩٧٩م، وقد طبعه معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وأما الطبعة الثانية ففي عام١٤٢٢هـ - الموافق ٢٠٠٢م، طبعه المنتدى الإسلامي.

الفصل الأول: عن الإلحاد في العصر الحديث.

الفصل الثاني: عن أدلة وجود الخالق.

الفصل الثالث: الفيزياء وأصل الكون.

الفصل الرابع: الإلحاد ونظرية الانفجار العظيم.

الفصل الخامس: رد اعتراضات وتبديد شبهات.

الفصل السادس: من الخالق؟

الفصل السابع: ماذا بعد الإيمان بوجود الخالق؟

فائدة: الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح لا يعصم من الخطأ:

الإنسان إذا التزم بمنهج هذا لا يعني إنه لا يخطئ... كثيرًا ما أقول أن الالتزام بالمنهج العلمي التجريبي لا يعصم من الخطأ... لا يوجد منهج يعصم الإنسان من الخطأ... الإنسان بطبعه يخطئ... إذا ما فائدة الالتزام بالمنهج الصحيح... إذا الإنسان التزم بمنهج صحيح وأخطأ يمكن أن أناقشه؛ كذلك بالنسبة للعوم الطبيعة، إذا قال إنسان عن شيء ما أنه خطأ يمكن مناقشته... هذا هو فائدة الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح[1].

فائدة: وصف أصحاب المناهج المنحرفة بالعقلانيين مصطلح غير سديد:

شاع في عصرنا اصطلاح (العقلانيين) وصفًا لأصحاب المناهج المنحرفة عن المنهج الصحيح لفهم الدين وتفسير نصوصه واستخلاص النتائج منها، وهذا مصطلح غير سديد:

أولًا: لأن فيه اعترافًا ضمنيًا بأن العقل يمكن أن يكون مخالفًا للشرع؛ هذا مع أن المستعملين لهذا الاصطلاح يؤمنون بموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول. فلماذا إذن نستعمل اصطلاحًا يتضمن تقريرًا لأمر ننكره؟

ثانيًا: لأننا لا نجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ أن إنسانًا ضل بسبب عقله، وإنما نجد أن الضالين هم الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ولا يتفكرون ولا

---

(١) الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح، كلمة للشيخ جعفر بمناسبة تكريمه في البيان يوم الخميس ١٢/ ٤/ ١٤٣٣هـ. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٢٩).

ينظرون، وأن المهتدين هم أصحاب العقول وأولو الألباب: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٨].

ثالثًا: لأن هنالك فرقًا بين العقل والهوى؛ فالإنسان يضل بهواه لا بعقله، ولذلك كان السلف يسمون المعتزلة وأمثالهم أهل الأهواء لا العقلانيين كما يسميهم الآن بعض المعاصرين تقليدًا لبعض المستشرقين.

رابعًا: ولأن هنالك فرقًا بين الرأي والعقل، فما كل رأي هو على مقتضى العقل حتى لو كان صاحبه مجردًا عن الهوى، **وإنما الرأي رأيان: رأي صائب**: فهو موافق للعقل ضرورة، **ورأي غالط**: فلا يمكن أن يكون من مستلزمات العقل.

خامسًا: لأن وصف أمثال هؤلاء بالعقلانيين فيه فتنة لهم؛ فقد يزيد أحدهم غرورًا فيذهب يقول متباهيًا: أجل نحن العقلانيون، نحن المفكرون، وما أنتم إلا حشوية جامدون مرددون لما لا تفقهون.

سادسًا: لأن أئمة أهل السنة من أمثال أبي سعيد الدارمي وابن تيمية لم يكتفوا بالكلام المجمل في أن المذهب الحق هو الموافق للعقل؛ بل بينوا ذلك بيانًا مفصلًا شافيًا، كما ساقوا البراهين العقلية الدالة على مخالفة أهل الأهواء لمقتضيات العقل، ودللوا على أن ما ادعوا بأنه عقليات إنما هو جهليات ما أنزل الله بها من سلطان عقلي ولا شرعي.

سابعًا: لأن كل أمر من أمور الدين يمكن أن يُستدل عليه بدليل عقلي!

أكرر: (كل أمر) سواء كان في الاعتقاد أو في العبادات أو في المعاملات، وسواء كان في أصول الدين أو في الفروع الفقهية، وعليه فإن العقلانيين حقًا هم أصحاب المنهج الحق، مذهب أهل السنة والجماعة[1].

فائدة: الاقتناع بالدليل العقلي يعتمد على أمرين:

أولهما: أن يكون المخاطَب عاقلًا، فإذا لم يكن كذلك فلا سبيل إلى مجادلته أو إقناعه.

وثانيهما: أن تكون مقدماته صحيحة مؤدية إلى النتيجة المبتغاة، لكن المقدمات منها ما هو بيِّن بنفسه يدرك العاقل صحته ببداهة عقله، ومنها ما يعتمد هو نفسه على دليل آخر. وهذا هو الذي يحدد طول دليلك أو قصره مع من تخاطب. قد يسلِّم من تخاطب بأول مقدمة من دليلك فيكون الدليل قصيرًا، وقد يحتاج إلى أن تدلل له على صحة بعض مقدماتك، إذا كان لا يسلِّم بها فيكون الدليل طويلًا.

فمن الأدلة القرآنية القصيرة جدًّا دليل على وجود الخالق يقوم على مقدمتين بدهيتين لدى كل عاقل، ولا يماري فيهما إلا مكابر. وهما: أنه لا شيء يأتي من العدم المحض، ولا شيء يخلق نفسه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]؛ لكن هب إنسانًا زعم أن البعث أمر مستحيل كما كان

---

(١) ليسوا عقلانيين... وإنما هم أهل أهواء، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٢٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٥).

بعض منكريه من العرب يدعون.

ستقول له ما قرر القرآن: إن الذي خلقه أول مرة قادر على إعادته؛ لكن هذا الدليل يعتمد على تسليمه بأن الله تعالى هو الذي خلقه. فإذا أنكر ذلك احتجت لأن تبرهن له على وجود الخالق. قد تقول: هذه أمثلة بدهية واضحة؛ لكن ما كل مسائل الدين كذلك؛ بل منها ما نسلم به مجرد تسليم!

وأقول: لكن التسليم نفسه هو مقتضى العقل؛ فكيف يكون ذلك؟ وعلى أي شيء تبني تسليمك بأن المغرب ثلاث ركعات مثلاً؟ إنك تبنيه على أن هذا ما أمر به الرسول ﷺ. لكنك لو شئت لمددت حجتك فقلت: والرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى؛ فكل ما أمر به فهو من أمر الله، والله تعالى لا يقرر إلا حقًا، ولا يأمر إلا بخير: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، إن كل عاقل يسمع ما تقول يدرك أن مقدماتك التي ذكرت تؤدي إلى وجوب التسليم بأن المغرب ثلاث ركعات.

أقول: إذا كان عاقلاً منصفًا فسيرى هذا حتى لو لم يكن يؤمن بما تؤمن به من مقدمات. وأما إذا أراد أن يسلِّم بما سلمت به فسيسألك الدليلَ على صحة بعض مقدماتك. كأن يقول لك: ما الدليل على أن الرسول قال ما نسبتَ إليه؟ أو: ما الدليل على أن محمدًا رسول الله؟ وهكذا وكل هذه أسئلة عليها أدلة عقلية إن علمتها ذكرتها لصاحبك، وإن لم تعلمها أحلته على من هو خبير بها.

قد تقول: لكن هب أن صاحبي قال: إنه لا يريد دليلاً يقوم على مثل هذه المقدمات الدينية؛ بل يريد دليلاً مباشرًا! فأقول: إن صاحبك لا يكون إذن عاقلاً.

إن النتائج إنما تبنى على المقدمات التي تناسبها، والتي من شأنها أن تؤدي إليها، فإذا كان مسلمًا بها سلَّم بالنتيجة، وإذا لم يكن مسلمًا بها كان من حقه أن يطلب الدليل على صحتها. ليس له إلا هذا. قل لصاحبك هذا: ما الدليل على أن ٤ × ٥ = ٢٠؟ فإذا بدأ يقول لك إن ٤ × ٥ معناها ٤ + ٤ + ٤ + ٤ + ٤ فقل له: أنا لا أريد دليلاً مبنيًا على الجمع، بل دليلاً مباشرًا.

سيقول لك: فكرة الضرب مبنية على فكرة الجمع، وإذا كنت لا تعرف الأخيرة ولا تسلم بها فلا يمكن أن أعطيك دليلاً على الأولى؛ وكذلك الأمر بالنسبة لعدد ركعات المغرب؛ فإن الدليل عليها مبني على التسليم بأن محمدًا رسول الله ﷺ، وعلى الإيمان بالله[1].

فائدة: ما هو العقل؟

كان السلف يقولون: إن العقل عقلان: غريزي، ومكتسب. الغريزي هو ما نسميه بالمقدرات العقلية مِن فَهمْ، وإدراك، وفقه، واتساق في الكلام، وحسن تصرف إلى آخر ما سنبينه بعد إن شاء الله.

هذا العقل الغريزي هو موضوع مقالنا، العقل الغريزي هذا هو مناط التكليف؛ فمن لا عقل له لا يكلف، ومن فقد بعض مقدراته العقلية؛ فإنما يُكلف بحسب ما بقي له منها، والذي أعطي عقلًا ثم ألغاه فلم يستعمله الاستعمال الصحيح،

---

(١) ليسوا عقلانيين... وإنما هم أهل أهواء، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٢٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٥).

ولم يلتزم بمبادئه لا يفقه الدين، فلا يؤمن به، لكنه يحاسب على عدم فقهه؛ لأنه كان نتيجة لتعطيله الاختياري لعقله ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٠٠]. فلا غرو أن جعل الله عقاب الذين لا يعقلون هذا هو نفسه عقاب الذين لا يؤمنون: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، الرجس في أصله اللغوي هو النتن، فكأن الآيتين الكريمتين تدلان على أن نقاء القلب لا يتأتى إلا بنور العقل ونور الشرع[1].

فائدة: معنى العقل في القرآن:

وللعقل في القرآن معان بحسب نوع المعقول أعني نوع الشيء المراد عقله وفهمه من هذه المعاني:

١- فهم الكلام: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]. فبيّن أن السبب في جعله عربيًا هو أن يفهمه ويعقله أولئك المتحدثون بهذه اللغة.

٢- عدم التناقض في القول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ

---

(١) مفهوم العقل، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٥).

وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:٦٥]، فالذي يقول: إن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا كأنه يقول: إن إبراهيم كان سابقًا في وجوده لليهودية والنصرانية لكنه كان أيضًا لاحقًا لهما. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١]، هذا الكلام موجه لليهود الذين يزعمون أنهم يؤمنون بنبوة موسى؛ فكأن الآية الكريمة تقول لهم: إن من التناقض أن تقولوا: إن الله أنزل التوراة على موسى، ثم تقولوا: ما أنزل الله على بشر من شيء.

٣- **فهم الحجج والبراهين:** ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:٢٨]، ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦].

٤- **موافقة القول للعمل:** ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، ولذلك قال النبي الصالح: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨].

لكن تصحيح هذا التناقض إنما يكون بجعل العمل موافقًا للقول الصحيح لا العكس؛ فالذم في هذه الآية منصب على نسيانهم لأنفسهم لا لأمرهم بالبر؛ لأن الأمر بالبر شيء حسن، ولا يغير من حسنه كون الداعي إليه لا يلتزم به، وقد يأمر الإنسان به بإخلاص وإن لم يعمل به. فالذي يأمر أولاده بعدم التدخين أو عدم شرب الخمر مثلًا، مع فعله لذلك، خير من الذي يأمرهم بالتأسي به في فعله، بل خير من الذي لا يأمرهم ولا ينهاهم.

٥- اختيار النافع وترك الضار سواء كان ماديًا أو معنويًا: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢]، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠].

٦- التضحية بالمصلحة القليلة العاجلة من أجل مصلحة كبيرة آجلة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠]، ويؤيد هذا آيات أخرى لم يرد فيها ذكر العقل، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

٧- استخلاص العبر الصحيحة من الحوادث: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥]، يشير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا إلى قرى قوم لوط التي قال عنها في آية أخرى مبينًا عدم إدراك الكفار لمغزاها بسبب إنكارهم للبعث: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ

كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٤٠].

٨- استخلاص العبر مما جرى في التاريخ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:١٠٩].

٩- فَهْم دلالات الآيات الكونية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل:١٢].

١٠- حسن معاملة الناس ولا سيّما الأنبياء: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات:٤]، هذه كلها مقدرات عقلية زود الله تعالى بها الناس أجمعين؛ فهم جميعًا يقرون بها، ويرون من عدم العقل ترك الالتزام بها؛ لكن ما كلهم يلتزم في الواقع بها. ولذلك يكفي أن ينبه من خرقها إلى أنه أتى بفعل غير عقلي كما رأينا ذلك في آيات القرآن السابقة. لكن ينبغي أن ننبه إلى أن بيان القرآن للمسائل العقلية وإقراره لها ليس محصورًا في الآيات التي ذكرت فيها كلمة العقل، فهنالك آيات تذكر فيها كلمات أخرى تشير إلى المقدرات العقلية بذلك المعنى العام الذي ذكرناه، بل إنه يبدو أن كل سؤال استنكاري في القرآن يدل على أن المسؤول عنه أمر بدهي ما ينبغي لذي عقل أن

يماري فيه. بل إن القرآن الكريم مليء بالآيات التي يمكن أن يتخذها المسلم موازين عقلية. ولعل هذه هي المرادة بالمعنى الثاني لمفهوم العقل، أعني كونه علومًا يهتدي بها الإنسان[1].

فائدة: فطر الله الناس على مبادئ عقلية ثم أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دينه الهادي للناس موافقًا لتلك المبادئ العقلية التي فطرهم عليها:

لقد فطر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الناس على مبادئ عقلية يبدهها كل واحد منهم بغض النظر عن زمانه ومكانه ومعتقده وعلمه وثقافته، بل إن بعضها ليبدهه حتى الأطفال منهم، ثم أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دينه الهادي للناس موافقًا لتلك المبادئ العقلية التي فطرهم عليها.

ومن هنا كان قول العلماء بموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وقولهم بأن الدين لا يأتي بمحالات العقول، وإن أتى بمحاراتها. إذن فوضع الدين في مقابل العقل، أو القول بأن إنسانا ضل لأنه اتبع عقله، كل هذا شيء مخالف لما هو مقرر في هذا الدين. ولهذا لم يكن أسلافنا يسمون المخالفين لمنهج أهل السُنّة والجماعة بالعقلانيين كما نسمي نحن بعضهم اليوم. بل كانوا يسمونهم بأهل الأهواء؛ لأنهم لم يجدوا في كتاب الله ذمًا لإنسان لاتباعه عقله، وإنما كان الذم للذين لا يعقلون، أما أصحاب العقول فهم أهل الدين الصحيح،

---

(١) مفهوم العقل، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨٣٥).

وأهل الدين هم أصحاب العقول.

انظر كيف جمع الله تعالى بين هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزُّمَر:١٨].

وانظر في مقابل ذلك كيف جعل الله تعالى عقاب عدم العقل كعقاب عدم الإيمان. فقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٠٠]، وقال في سورة الأنعام: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، لكن القرآن الكريم لا يقرر هذه القواعد العقلية كما يقررها المناطقة والأصوليون (أعني علماء أصول الفقه)، وإنما يفترضها، ويطبقها، ويذم من خالفها، لعلم الله تعالى بأنه فطر العقول عليها، فالناس ليسوا في حاجة إلى من يعلمهم إياها.

تأمل قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، تجد أن الله تعالى أنكر على هؤلاء أمرًا لا يفعله عاقل، وهو أن يرشد غيره إلى ما يراه خيرًا ثم لا يستفيد هو من هذا الخير.

وتأمل قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٦٥]، فإذا رأيت العلماء يقررون قاعدة من هذه القواعد بألفاظهم فلا تقل كما يقول بعض الجهلاء مستنكرين: من أين أتى الفقهاء بهذه القاعدة التي ليست في كتاب الله؟ إنها ليست في كتاب الله بهذا النص الذي ذكروه، لكنها في

كتاب الله لأنها متضمنة في كثير من الأحكام التي جاءت فيه[١].

فائدة: قاعدة ارتكاب أخف الضررين:

وهذه القاعدة تدور كلها حول فعل ما فيه زيادة للخير أو تقليل للشر، كقاعدة تحقيق أكبر المصلحتين، وقاعدة أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح؛ وذلك أن الهدف العام لهذا الدين في هذه الحياة إنما هو زيادة الخير وتثبيته، وتقليل الشر وقمعه .إذا خُير الإنسان بين خير واضح وشر واضح فعليه أن يختار الخير. هذا أمرٌ لا شك فيه، لكن الحياة ليست دائمًا اختيارًا بين خير خالص وشر خالص، بل إن الإنسان كثيرًا ما يجد نفسه مخيرًا بين خير وخير، أو شر وشر. أو بين شيء فيه بعض الخير وبعض الشر فماذا يفعل؟ بل إن الإنسان قد يجد نفسه في ظرف غير عادي تكون عاقبة فعل ما هو -في العادة- خير، شرًا. فماذا يفعل؟

البديهة العقلية تقول إن عليه أن يختار أقل الأمرين شرًا؛ لأنه إذا كان غرضه الخير، فإن أقل الأمرين شرًا هو أقربهما إلى الخير. قلت مرة كلامًا مثل هذا لأخ زعيم لجماعة ظننت أنه مقْدِم على أمر فيه ضرر به وبالمسلمين، فكان جوابه: «أنا لا أتعامل مع الشر إطلاقًا». ولكن هذا الأخ نسي أنه إذا أصر على فعل ما هو في العادة خيرًا رغم أن الظرف الذي هو فيه يجعل عاقبته شرًا، يكون قد تعامل مع الشر من حيث لا يشعر، بل يكون قد فعل ما هو أبعد عن الخير وأقرب إلى الشر.

---

(١) ارتكاب أخف الضررين، انظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٨٣٠).

من أين جاء الأصوليون بهذه القاعدة؟

لقد وجدوها مطبقة ومضمنة في عشرات من آيات القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة. من ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩]، فتحريمهما إذن لم يكن لخلوهما من أي نفع وإنما كان من أجل أن ما فيهما من شر أكبر مما فيهما من خير.

فإذا طبق الإنسان هذه القاعدة على الدخان مثلًا، فلا يملك إلا أن يقول إنه حرام، لأنه قد ثبت أن فيه ضررًا كبيرًا ولم يثبت له أدنى نفع. وقال تعالى للمسلمين وهم بمكة: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء:٧٧]، لماذا؟

يقول ابن كثير: «وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدة عدوهم...» التفسير، النساء [الآية:٧٧]، أمر الله تعالى هؤلاء المؤمنين الصادقين بعدم مقاتلة الكفار مع أنهم كانوا معتدين عليهم وظالمين لهم، ومع أن قتال هؤلاء في الأحوال الطبيعية هو الفرض وهو الخير، لكن لما كانوا في حال لا يأتي معها القتال إلا بضرر أكبر أُمروا بكف أيديهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨].

قال ابن كثير معلقًا على هذه الآية في تفسيره: يقول الله تعالى ناهيًا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦].

أباح الله تعالى في هذه الآية الكريمة للمؤمن أن يتفوه بكلمة الكفر إذا هُدد بالقتل أو بغيره من أمور يصعب عليه تحملها، فهو هنا يختار أخف الضررين بالنسبة له. ويمكن أن نلمح هذه القاعدة في صلاة الخوف، وقصر الصلاة في السفر، والفطر للمريض والمسافر، وفرضه على الحائض؛ لأن الله تعالى يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، فإذا كان الإنسان في ظرف يجعل ما فرض الله تعالى عليه في الظروف العادية ذا عاقبة فيها ضرر عليه، تغير الحكم[1].

---

(١) ارتكاب أخف الضررين، انظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٠).

فائدة: قاعدة ارتكاب أخف الضررين قاعدة شرعية وهي أيضًا قاعدة عقلية:

والدليل على ذلك: هو أن كل الناس يلجؤون إليها في حياتهم اليومية حين يحتاجون إليها، وإن لم يسموها باسم معين، بل وإن لم يكونوا على وعي باستعمالهم لها.

إن كل إنسان عاقل إذا خيره لص أو إنسان ظالم بأن يعطيه ماله، وإلا قتله، أو قتل أحد أولاده، أو فعل بهم شيء آخر فظيع، فإنه لا يتردد في التضحية بماله إبقاءً على نفسه أو نفوس أولاده، إذا لم يجد مخرجًا آخر. وهو بهذا التصرف يكون عاقلًا لاختياره أخف الضررين. بل إن الأطفال ليتصرفون وفق هذه القاعدة، ولولا ذلك لما أمكن تأديبهم.

إنك حين تقول لطفلك لئن فعلت كذا وكذا لأحرمنك من كذا وكذا، فإنه ينتهي عن فعل الأمر الأول -مع حبه له- حفاظًا على عدم فقدان الأمر الثاني، أو تفاديًا لعقاب تهدده به. وهو في كل هذا يتصرف وفق هذه القاعدة العقلية.

والدليل أيضًا أنها قاعدة معروفة -حتى بألفاظها- لأُناس من ثقافات وأديان مختلفة. فالمتكلمون بالإنجليزية مثلًا يعبرون عنها بقولهم (The lesser of two evils) لكن المشكلة أن كثيرًا من المتدينين الذين يتصرفون كغيرهم من الناس وفق هذه القاعدة في حياتهم الشخصية، يخالفونها في بعض تصرفاتهم الدينية ظانين أنه من علامات شدة الاستمساك بالدين أن لا يلقي الإنسان بالًا لعواقب أعماله.

فإذا قلت للواحد منهم: لا تفعل هذا الأمر في هذا الظرف، أجابك محتقرًا: إياك بأنه ينفذ أمر الله تعالى وليكن ما يكون. لكنه في الحقيقة لا ينفذ أمر الله تعالى إذ يتصرف تصرفًا تكون عاقبته شرًا على المسلمين؛ وذلك أن الله تعالى الذي أمره بجهاد الكفار مثلًا، أمره أيضًا أن يُقدر العواقب ويحسب الحسابات، ولا يُقْدم على محاربة الكفار إقدامًا تكون عاقبته مزيدًا من التمكين لهم، أو تكون عاقبته زيادة إضعاف للمسلمين.

إن الله تعالى لم يجعل كل أمر أو نهي من أوامره ونواهيه شيئًا مطلقًا ومستقلًا عن بقية الأوامر والنواهي والقواعد العامة. فالذي يطبق أمرًا أو نهيًا من هذه الأوامر والنواهي من غير نظر إلى العواقب يكون في الحقيقة قد أخذ بعض الدين وترك بعضه، لكن مما ينبغي التنبيه عليه أن هذه ليست دعوة إلى التساهل وترك الأمر الشرعي لأدنى أمر يحسبه الإنسان ضررًا عليه.

إن الأوامر والنواهي الشرعية امتحان للإنسان في هذه الحياة ينال عليه أجره في الدار الآخرة، ولا بُد أن يكون في الامتحان بعض المشقة خصوصًا في بعض الظروف، فإذا فهم الإنسان من هذه القاعدة أنه يترك الأمر مما أمر الله به أو نهى عنه لأدنى عارض يعرض له، لا يكون عد تصرف تصرفًا عقليًا، بل يكون متبعًا لهواه. فكما أن الإنسان لا يعطي ماله لكل من يهدده أدنى تهديد، فكذلك لا يترك الامتثال لأمر الله تعالى لأدنى مشقة، أو أدنى حرج.

إن قاعدة ارتكاب أخف الضررين قاعدة مهمة ومفيدة غاية الفائدة في كل مجالات العمل، ولا سيّما العمل السياسي والاجتماعي، لكن المصالح

والمفاسد يجب أن توزن بالموازين الشرعية العلمية وتقدر بها[١].

فائدة: ليست مهمة العقل محصورة في النقد ولا سيّما النصوص الدينية، وإنما النظر فيما ثبت أنه حق، وليزداد فقهًا بها، وليفسر بعضها ببعض وليستنتج منها النتائج، ولينزله:

قال الفتى لشيخه: كتب أحدهم مقالًا في جريدة مشهورة يدعو فيه إلى نقد شامل لا يستثنى منه شيء حتى النصوص الدينية، فما تقول فيه؟

قال الشيخ: أقول إنه إنسان لا عقل له.

الفتى: لم تقول هذا يا شيخ؟

الشيخ: لأن النقد إنما يكون على أساس حقائق يسلم بها الناقد فلا ينتقدها. فإذا لم يكن هنالك أمر غير منتقد صار النقد مستحيلًا.

الفتى: أظنه سيقول إنه العقل هو وحده الحكم، فهو إذا مقدم على كل شيء بما في ذلك النصوص الدينية.

الشيخ: هو إذا يسلم بأن القوانين العقلية ليست قابلة للنقد لأنها هي التي على أساسها يكون النقد. ثم إذا كان عاقلًا فيجب أن يسلم أيضًا بالحقائق الحسية فلا ينكر شيئًا قام عليه دليل من سمع أو بصر أو لمس أو شم. وإذا سلم بكل هذا يكون قد نقض قوله الأول بأن كل شيء قابل للنقد.

---

(١) ارتكاب أخف الضررين، انظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨٣٠).

الفتى: هب أنه سلم بهذا. لكنه ظل يقول إن النصوص الدينية قابلة للنقد على هذه الأسس التي ذكرتها. فماذا تقول له.

الشيخ: أقول له: نعم هكذا يبدأ كل إنسان عاقل مع كل دعوى سواء كانت في أمر الدين أو العلوم الطبيعية أو الاجتماعية أو غيرها. إنك لا تسلم بكل دعوى لمجرد أن صاحبها يزعم أنها نص ديني أو حقيقة علمية.

الفتى: ماذا لو قال لك: فأنت إذا توافقني على أن العقل مقدم على النص.

الشيخ: ليس على كل نص ولا على كل دعوى. ما معنى أن تقدم العقل على أمر شهد العقل نفسه بأنه حق سواء كان نصًا دينيًا أو نصًا تجريبيًا؟ أليس من التناقض الذي ينكره العقل أن تشهد بأن القول قول الله العالِم بكل شيء والذي لا يقول إلا حقًا، ثم تقول لكنني أريد رغم ذلك أن أنظر إذا ما كان حقًا أو باطلًا؟

الفتى: ماذا لو قال لك: إنك تريد إذن أن تعطل النظر العقلي؟

الشيخ: أذكره أولا بأن النقد ليس غاية في ذاته. إن العقلاء ينظرون وينتقدون لأنهم يبحثون عن الحقيقة، فإذا ما أداهم النظر العقلي إليها توقفوا عن نقد ما أيقنوا أنه حق. أليس هذا ما يفعله العلماء الطبيعيون؟ هل رأيتهم يبدؤون النظر ويعيدونه في كل شيء مهما تضافرت الأدلة العلمية على كونه حقًا؟

الفتى: كلا. لأنهم لو فعلوا ذلك لما تقدم العلم خطوة وإنما يتقدم العلم لأننا نبني بحوثنا الجديدة على التسليم بالحقائق السابقة.

الشيخ: أجل. ونذكره ثانيًا بأن مهمة العقل ليست محصورة في النقد، وإن كان النقد من أخطر مهامه. إن العقل ينظر فيما ثبت أنه حق، ولا سيّما النصوص الدينية، لا لينتقدها، ولكن ليزداد فقهًا بها، وليفسر بعضها ببعض وليستنتج منها النتائج، وليتنزله[1].

فائدة: معايير العقلاء هي معايير فطر الله الناس عليها؛ فهم عالمون بها قبل ورود الشرع، والشرع يأتي مقررًا بها ومؤكدًا لها ومستعملًا لها في دعوته الناس إلى الحق، وفي الحِجَاج معهم:

كما أن هنالك خصائص بدنية تميز الناس باعتبارهم بشرًا رغم اختلاف أزمانهم وأماكنهم وبيئاتهم، فهنالك أيضًا خصائص روحية تميزهم باعتبارهم بشرًا رغم كل تلك الاختلافات الزمانية والمكانية والبيئية. فالناس ليسوا إذن كما تصورهم بعض النظريات الغربية سجناء في خلايا ثقافية هي التي تحتم عليهم كيف يفكرون وما ذا يختارون. كلاَّ؛ بل إن ثقافات الناس المختلفة التي تشمل بالمعنى الحديث عقائدهم وتصوراتهم وقيمهم أشبه ما تكون بالمدن الحديثة. فكل مدينة لها خصائصها وطابعها، لكنها مرتبطة بالمدن الأخرى بشوارع معبدة وهواتف وغير ذلك من وسائل المواصلات والاتصالات. لو أن الناس كانوا كما تُصَوِّرهم أمثال هذه النظريات لما استطاعوا أن يتفاهموا ولا أن يغيروا من عقائدهم أو تصوراتهم التي أورثتهم إياها ثقافاتهم.

---

(١) النقد الشامل مستحيل، انظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨٣٤).

إن هذا ما كان ليمكن لولا وجود تلك الخصائص الروحية المشتركة والتي من أهمها ما يمكن تسميته بـ(المعايير العقلانية) التي يقر بها كل الناس باعتبارها معايير صحيحة وإن لم يلتزموا باستعمالها أو قبول نتائجها في كل وقت. بعض الناس ينظر إلى خلافات الناس فيصيبه اليأس والقنوط: هذا مؤمن وذاك ملحد. هذا مسلم وذاك نصراني أو يهودي أو بوذي. هذا سني وذاك شيعي. هذا من جماعة كذا وحزب كذا وذاك من جماعة أخرى وحزب آخر. لو أن هذا اليائس البائس تذكر أن له عقلًا وأن له معايير يقيس بها ما يقبل وما يرفض لما أصابه هذا اليأس.

وهذه المعايير التي يقرُّ بها ويزن بها الأمور عقلاء الناس، أو كل إنسان في الحال التي يكون فيها عاقلًا، هي معايير فطر الله الناس عليها؛ فهم عالمون بها قبل ورود الشرع، والشرع يأتي مقرًا بها ومؤكدًا لها ومستعملًا لها في دعوته الناس إلى الحق، وفي الحِجَاج معهم، واستعمال هذه المعايير في مجادلة الناس مهم؛ لأن الناس وإن كانوا يعترفون بها، بل ويلتزمون بها في كثير من شؤون حياتهم، إلا أنهم كثيرًا ما يتناقضون فيأبون الالتزام بلوازمها لأسباب غير عقلانية، وهذه المعايير كلها مما افترض القرآن في الناس معرفته، ولذلك حاكمهم إليه. وهذا من أقوى الأدلة على أن هذا الدين هو بلا شك دين الفطرة التي تخاطب الناس باعتبارهم بشرًا لا باعتبارهم أصحاب ثقافة محدودة بزمان أو مكان معين[1].

---

(١) معايير العقلاء، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣١٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٦).

فائدة: من المعايير المشتركة بين جميع العقلاء من البشر القوانين المنطقية:

أعني القوانين التي ننتقل بها من المقدمات إلى نتائجها اللازمة عنها، والتي نعرف بها أن كل كلام يخالفها لا بُد أن يكون كلامًا باطلًا. من هذه القوانين، بل أهمها وجوهرها ما يسمى بـ(قانون الاتساق) أو (عدم التناقض). فكل الناس، بل حتى الأطفال يدركون أن الكلام المتناقض كلام باطل. فحتى الطفل يدرك أن قولك له: «لقد جئتك اليوم بهدية جميلة، لكنني لم آتك اليوم بهدية» كلام لا معنى له.

وكل إنسان حتى الأطفال يدركون أن قولك اشتريت سيارة غدًا أو سأشتري سيارة بالأمس، كلام متناقض لا معنى له، لكن ما كل الكلام المتناقض يكون بهذه البساطة والوضوح، بل قد يكون غامضًا يحتاج إلى نظر وتدقيق.

من ذلك مثلًا: أن المعتزلة كانوا يقولون إن الإنسان خالق أفعاله. لكن هذا معناه أن بعض الأشياء لا يخلقها الله تعالى، وهذا يعني أن الله ليس بخالق لكل شيء وهذا معناه تكذيب القرآن الذي يقرر ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزُّمَر:٦٢]، وتكذيب القرآن كفر. فهل نقول لكل من قال ذلك القول إنك كافر؟ كلاَّ؛ فقد كان من إنصاف أهل السنة قولهم إنَّ لازم القول ليس بقول، أي إن القول الذي يلزم منطقًا وعقلًا عن كلام تقوله لا ينسب إليك قوله؛ لأنك قد تكون جاهلًا بلزومه عن قولك. لكن بيان هذا اللزوم من أحسن الوسائل التي يبين بها بطلان الكلام.

من أمثلة ذلك في كتاب الله أن اليهود عندما أرادوا أن ينكروا رسالة النبي ﷺ جعلوا إنكارهم هذا تحت قاعدة عامة هي قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]، لكن الذي يلزم عن هذه القاعدة العامة أن الله تعالى لم ينزل التوراة على موسى. لكن اليهود يؤمنون بأن التوراة كلام الله؛ ولذلك سألهم القرآن الكريم سؤالًا استنكاريًا، فقال تعالى: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام:٩١]؟ لعل أعظم موضع استعمل فيه القرآن الكريم هذا المعيار هو في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فهذه الآية لا تقول فقط إن القرآن الكريم لا تناقُض فيه، بل تجعل عدم هذا التناقض دليلاً على كونه من عند الله تعالى؛ لأنه لا يمكن لمخلوق أن يكتب كتابًا في حجم القرآن الكريم وتعدد موضوعاته وخطورتها والمدة الطويلة التي نزل فيها، ثم لا يكون في ما قال تناقض. ولكي تعرف مصداق ذلك انظر في أي كلام كتبه بشر على مدى بعض الأعوام فستجده هو نفسه يعترف لك بأن ما قاله في سنة كذا أو شهر كذا ينقض ما قاله بعد ذلك في سنة كذا وشهر كذا.

وانظر أيضًا إلى النظريات البشرية كالديمقراطية والرأسمالية والاشتراكية وغيرها تجد فيها من التناقض ما الله به عليم. وقد كان وجود مثل هذا التناقض السبب المهم والأساس في إنكار بعض النصارى النصارى المسمون بالليبراليين أن يكون ما يسمونه بالكتاب المقدس هو كله من عند الله تعالى. وكان أيضًا سببًا في إنكار الكثيرين منهم لهذا الدين.

ولأن هذا المعيار مما فطر الله تعالى عليه البشر قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن علم المنطق اليوناني: إنه علم لا يحتاج إليه الذكي، ولا يستفيد منه البليد. ولو أن الشيخ قال: لا يحتاج إليه العاقل لكان أحسن؛ لأن الإنسان مهما كانت درجته في البلادة لا بُد أن يكون له إلمام بهذا المعيار، ولا بُد له من استعماله في حياته اليومية.

ولذلك فإنني كنت أعجب من قول بعض الغربيين: إن المنطق شيء خاص بثقافتهم، وأن أممًا أخرى لا تعرفه. بل إن أحد المستشرقين المشاهير تلقَّف هذا القول الظاهر بطلانه فزعم أنه يصدق على العرب، فقال متحدثًا باسمهم. «والذي ينتج عن هذا أننا إذا اكتشفنا شيئًا من التناقض في القرآن؛ فإن هذا يكون دليلاً على غناه وتجاوزه المثمر للفكر التجريدي المجدب. يمكن الاحتفاظ بعبارتين متناقضتين؛ لأن كل واحدة منهما تكشف جانبًا من الحقيقة تهمله الأخرى؛ وعليه فإن العبارتين وإن لم يمكن الجمع بينهما منطقيًا تعطياننا معًا صورة أكمل للحقيقة».

أقول: بل إن العرب شأنهم في ذلك شأن سائر البشر لا بُد لهم من إدراك بطلان الكلام المتناقض، وفي كلامهم من الشهود على ذلك ما لا يحصى.

وعليه، فكما أن هذه المعايير ليست من خصائص الأوروبيين فهي كذلك ليست من خصائص العرب. يدلك على ذلك أن كل أمة من الناس لا بُد لها من لغة يتفاهم بها أفرادها، ولا بُد أن يكون في هذه اللغة نفي وإثبات، ولا بُد

للمتكلمين بها من أن يعرفوا أن الشيء لا يمكن أن يثبت وينفى في وقت واحد؛ وهذا هو قانون الاتساق.

وهذا يدلك على خطأ الذين قالوا بتعدد الحق من الأصوليين إذا عنوا به أن يكون الأمر الواحد مُثْبَتًا ومنفيًا، أو حلالًا وحرامًا أو جائزًا وممنوعًا. ما أروع ما قال الإمام الشاطبي: «الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف، كما أنها في أصولها كذلك لا يصلح فيها غير ذلك؛ والدليل عليه أمور».

لكن ما زال بعض الناس يستدلون على وجود مثل هذا التعدد المتناقض بقصة اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في فهمهم لقول النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلِّيَنَّ العصر إلا في بني قريظة**». فيزعمون أن الرسول ﷺ أقر الفريقين رغم تناقض موقفيهم. وحاشاه ﷺ أن يفعل. إنه ﷺ إنما أقر كل فريق على ما فعل، وهذا يتضمن عدم إقراره له على ما أنكر. فالذين صلوا قبل بلوغ بني قريظة كانوا يرون أن تأخيرها خطأ. والذين أخروها كانوا يرون أن تأجيلها خطأ.

فالرسول ﷺ بيَّن لهم أن كِلا الأمرين جائز وهما أمران لا تناقض بينهما؛ فكما أنه لا تناقض بين أن تقول لإنسان إن الصلاة في أول الوقت جائزة وفي آخره جائزة، فكذلك لا تناقض في أن تكون الصلاة قبل بلوغ بني قريظة جائزة وبعد بلوغها جائزة[1].

---

(١) معايير العقلاء (١)، معايير العقلاء، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣١٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

فائدة: من معايير العقلاء شهادة الحس:

١ - كل الناس في معظم أحوالهم يؤمنون بشهادة الحس، يؤمنون بأن ما رأوه بأعينهم أو سمعوه بآذانهم، أو أحسوه بجلودهم أو شموه بأنوفهم أو ذاقوه بألسنتهم هو كما شهدت به هذه الحواس. لكنهم قد ينكرون هذا في بعض الأحيان؛ لأنهم لسبب من الأسباب لا يريدون الاعتراف بالحقيقة التي شهدت بها. هذا الإنكار مسلك مخالف للعقل؛ ولذلك فإن القرآن الكريم يذم أصحابه في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧]. لكن قلة من المفكرين من المسلمين وغير المسلمين يصرحون بأقوال فيها تشكيك في شهادة الحس.

فهذا أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في أول كتابه (المنقذ من الضلال): «فأقبلت بجد بليغ أتأمل المحسوسات والضروريات، وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها، فانتهى بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضًا، وأخذت تتسع للشك فيها، وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر؟ وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة (واحدة) بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة، حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرًا في مقدار دينار ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار.

وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه

حاكم العقل ويخونه تكذيبًا لا سبيل إلى مدافعته فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات» أيضًا على كلام أبي حامد هذا استدراكات:

أولًا: أنه لو كانت الثقة بالمحسوسات باطلة بطلانًا مطلقًا لكان ينبغي أن ما قال له بصره إنه ظِلٌ ليس بِظل، وما قال إنه كوكب ليس بكوكب.

ثانيًا: كيف اكتشف أن الظل ليس ساكنًا كما قال له بصره؟ يقول: «بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة» وهل تكون تجربة ومشاهدة إلا بالحس؟ ألا يعني هذا أن الحس هو الذي صحح ظنه بأن الظل لا يتحرك؟

ثالثًا: إن شهادة الحس داخلة في الدليل على أن الكوكب أكبر مما ظن؛ وذلك أن الناس يعرفون بالتجربة الحسية أنه كلما كان الشيء أبعد بدا أصغر. ثم وجدوا أن هنالك نسبة بين مسافة البعد وحجم الشيء المرئي.

رابعًا: قد تقول: لكن هذا إنما عرف بالعقل. ونقول: أجل! وهل تعمل الحواس إلا بمعونة العقل؟ وهل يعمل العقل إلا بمعونة الحواس؟

٢- إن شهادة الحواس بالنسبة للمسلم أمر يقتضيه دينه كما يقتضيه عقله؛ وذلك أن في الإسلام أصولًا لا يكتمل الإيمان ولا العمل بها إلا بالاعتراف بشهادة الحواس. القرآن الكريم كتاب لا يمكن الاطلاع عليه إلا بالنظر أو بالسماع، وهما أمران حسيان. وما يقال عن القرآن الكريم يقال عن سائر العلوم. الصلاة والصيام والحج كلها تعتمد في معرفة مواقيتها على شهادة الحس. هذه مجرد أمثلة. وهذا يدلك على أنه لا يجوز لمسلم أن ينكر من

الحقائق العلمية ما شهد الحس يصدقه. أقول الحقائق كالقول بأن شكل الأرض كروي ولا أقول النظريات كنظرية دارْوِن.

٣- لكن ينبغي الاعتراف بأن حواسنا لا تعطينا علمًا محيطًا بما نشاهد، إنما تعطينا جانبًا منه. وهذا الذي تعطيناه وإن كان جزئيًا إلا أنه حق وهو كافٍ لنا في معاملاتنا الدينية والدنيوية. مثال ذلك أننا نعرف الآن بسبب الآلات التي تزيد من قوة حواسنا أن ما يبدو لنا صلبًا من الأجسام ليس هو بالصلابة التي نراها، وإنما هو مكون من ذرات بينها فراغات. وقل مثل ذلك عمّا نراه سائلًا. ونحن حين نرى الشمس قد غربت أو أشرقت تكون قد فعلت ذلك قبل ثماني دقائق من رؤيتنا لها تشرق أو تغرب. بل يقولون إن كثيرًا مما نراه من نجوم السماء يكون قد انفجر وتبدد منذ آلاف السنين. ولكن بما أننا لا نرى الشيء إلا حين ينعكس الضوء منه على أعيننا وبما أن هذه الأجرام تبعد عنا ملايين الملايين من الأميال؛ فإن ضوءها لا يصلنا إلا بعد آلاف من السنين تكون هي في أثنائها قد ماتت؛ فما نراه منها إنما هو تاريخها لا حاضرها.

لكننا في معاملاتنا اليومية وفي ديننا إنما نتعامل مع الأشياء بحسب ما تبدو لنا؛ فأوقات الصلاة والصيام والحج لا تعتمد على الحقائق الفلكية التي يتحدث عنها علماء الفلك وإنما تعتمد على ما يظهر لنا منها.

ذكر لي بعض الشباب في أحد المؤتمرات ببريطانيا ذات مرة أن رجلًا زعم أن في الإسلام ما يخالف الحقائق العلمية وضرب لذلك مثلًا بافتراضنا أن

الشمس تتحرك والأرض ثابتة؛ لأننا نقول مثلًا: إن وقت الظهر يحين عندما تصير الشمس في كبد السماء. قلت له: ألستَ تجد في جرائدكم اليومية مواقيت طلوع الشمس وغروبها؟ فلو أن الناس التزموا بالحقائق الفلكية وحدها لما جاز لهم الحديث عن شروق وغروب؟ لأنه إذا كانت الشمس ثابتة بالنسبة للأرض؟ فكيف يقال إنها شرقت أو غربت؟ لكنني ذكَّرته بأن العلماء أنفسهم يسمون هذا بالحركة الظاهرية للشمس، وهي الحركة التي نعتمدها في حياتنا اليومية.

٤- مما يتصل بهذا أعني بعدم رؤيتنا للحقائق المحسوسة كما هي في حقيقتها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يفعل ذلك رحمة بنا. من ذلك قوله سبحانه: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال:٤٣-٤٤].

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران:١٣][1].

---

(١) معايير العقلاء (١)، معايير العقلاء، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣١٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٦).

فائدة: دعوى الملاحدة في عدم إيمانهم بوجود الخالق سبحانه أنه لا يؤمن إلا بما يرى وأن هذا أمر يقتضيه المنهج العلمي:

يتعلل بعضهم في عدم إيمانه بوجود الخالق سبحانه أنه لا يؤمن إلا بما يرى ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [النساء:١٥٣]. ويدعي بعضهم في عصرنا بأن هذا أمر يقتضيه المنهج العلمي. وكذبوا؛ فإنهم لو كانوا صادقين في عدم تصديقهم بما لا تراه أعينهم للزمهم أن لا يؤمنوا بحوادث التاريخ، وللزمهم أن لا يصدقوا بوجود شيء في الأماكن التي تبعد عنهم بُعدًا لا ترى ما فيها أعينهم. بل للزمهم أن يذهبوا مذهب بعض الفلاسفة الذين كانوا يقولون إنهم إنما يؤمنون بما يرون ما داموا يرونه، ويقولون: من يدرينا أنه ما زال موجودًا حين نغمض عنه أعيننا أو نلفت عنه أنظارنا؟ وظن بعضهم أن الحواس لا تدرك إلا ما كان ذا طبيعة مادية (كما نقول بلغتنا الحديثة) ولذلك أنكروا إمكانية رؤية الخالق سبحانه لأن الله ليس كمثله شيء؛ فكيف تراه الأعين التي لا ترى إلا ما كان من نوع تلك المخلوقات؟ **هؤلاء أخطؤوا عدة أخطاء:**

فأولًا: إن كون المخلوقات تُرى (بضم التاء) لا ينهض دليلاً على أن ما كان من طبيعة غير طبيعتها لا يُرى. فرقٌ بين أن تقول: إن المخلوقات التي هي من النوع الفلاني تُرى، وبين أن تقول إنها هي وحدها التي تُرى.

ثانيًا: نحن نعلم الآن أن هنالك موجودات لا تراها حواسنا المجردة لكنها تُرى بوساطة الآلات التي تساعد تلك الحواس. فنحن نرى بالتلسكوب من

الأشياء البعيدة ما لا يمكن للعين المجردة أن تراه، ونرى بالميكروسكوب من الأشياء الدقيقة ما لا يمكن لها أن تراه. ولو أننا حكمنا على الأشياء بمنطق هؤلاء لقلنا إنها لا يمكن أن تُرى إطلاقًا؛ لأن الذي يُرى إنما هو الذي يمكن للعين المجردة أن تراه.

ثالثًا: نعم! إننا لا نرى ربنا سبحانه في هذه الحياة الدنيا؛ ولذلك عندما دعا نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه قائلًا: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف:١٤٣]، قال له الله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]. لكن الله تعالى: قال عن المؤمنين في الدار الآخرة: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، فدل ذلك على أن العلة في عدم رؤيتنا لخالقنا في هذه الحياة هو طبيعة أعيننا لا ذات خالقنا سبحانه. فذاته سبحانه لا تتغير وإنما الذي تغير هو طبيعة حواسنا.

فكما أن عدم رؤيتنا للكائنات البعيدة والدقيقة لم يكن سببه طبيعة تلك الكائنات، وإنما كان سببه طبيعة أعيننا، فلما ساعدتها الآلات على الرؤية رأت ما لم تكن ترى، فكذلك فإنه عندما تتغير طبيعة الناس في الجنة فيكونون مخلوقات تأكل ولا تخرج منها فضلات، وتتحرك ولا تتعب ولا تنام، فكذلك تتغير طبيعة حواسهم فترى ما لم تكن تستطيع رؤيته في دنياها[1].

---

(١) معايير العقلاء (١)، معايير العقلاء، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣١٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

فائدة: دعوى بعض الفلاسفة المعاصرين بأن ما لا تمكن مشاهدته بحال من الأحوال فليس بموجود:

يقول بعض الفلاسفة المعاصرين كلامًا كان أئمة أهل السنَّة يقولونه قبلهم منذ سنين: يقولون إن ما لا تمكن مشاهدته بحال من الأحوال فليس بموجود. ولذلك فإن أهل السُنّة الذين كانوا يقولون ذلك كانوا يقولون للجهمية ومن ذهب مذهبهم في صفات الله تعالى: إنكم تعبدون عَدَمًا.

وقد كان هذا التصور العدمي لصفات الخالق سبحانه من أكبر الأسباب التي تعلق بها بعض الملحدين في الغرب. كانوا يقولون لزملائهم المؤمنين: عن أي شيء تتحدثون؟ شيء لا يمكن أن تراه الأعين ولا أن تسمعه الآذان ولا يُحَس ولا يُشَم ولا يُذاق؟

وقد ذكر الإمام أحمد في أول كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية كلامًا نفيسًا في تفسير السبب الذي أدى بالجهمية إلى هذا التصور التعطيلي لصفات الخالق. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله أنه كان من أهل خراسان من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات وكلام، وكان أكثر كلامه في الله تعالى فلقي أناسًا من المشركين يقال لهم السُمنية فعرفوا الجهم، فقالوا له: نكلمك؛ فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك؛ فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألستَ تزعم أن لك إلها؟

قال الجهم: نعم! فقالوا له: فهل رأيتَ إلهك؟

قال: لا. قالوا: فهل سمعت كلامه؟

قال: لا. قالوا: فشممتَ له رائحة؟

قال: لا. قالوا: فوجدتَ له حسًا؟

قال: لا. قالوا: فوجدت له مجسًا؟

قال: لا. قالوا: فما يدريك أنه إله؟

قال: فتحير الجهم فلم يدرِ من يعبد أربعين يومًا، ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى... فقال للسُمني: ألست تزعم أن فيك روحًا؟

قال: نعم! فقال: هل رأيت روحك؟

قال: لا. قال: فسمعت كلامه؟

قال: لا. قال فوجدتَ له حسًا أو مجسًا؟

قال: لا. قال: فكذلك الله لا يُرى له وجه ولا يُسمع له صوت ولا يُشَمُّ له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان... فإذا سألهم الناس عن قول الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]. يقولون ليس كمثله شيء من الأشياء وهو تحت الأرضين السبع كما هو على العرش، ولا يخلو منه مكان ولا يكون في مكان دون مكان، ولم يتكلم ولا يتكلم، ولا ينظر إليه أحد في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف بصفة، ولا يفعل ولا له غاية ولا له منتهى، ولا يدرَك بعقل، وهو وجه كله، وهو علم كله، وهو سمع كله، وهو

بصر كله، وهو نور كله، وهو قدرة كله، ولا يكون فيه شيئان، ولا يوصف بوصفين مختلفين، وليس له أعلى ولا أسفل، ولا نواحي ولا جوانب، ولا يمين ولا شمال، ولا هو خفيف ولا ثقيل، ولا له لون، ولا له جسم، وليس هو بمعمول ولا معقول، وكلما خطر على قلبك أنه شيء تعرفه فهو على خلافه.

قال أحمد: وقلنا: هو شيء؟ فقالوا: هو شيء لا كالأشياء.

فقلنا: إن الشيء الذي لا كالأشياء قد عرف أهل العقل أنه لا شيء»[1].

فائدة: من معايير العقلاء السنن الكونية:

عقلاء الناس في كل زمان ومكان يؤمنون بأن الحوادث لا تحدث خبط عشواء، بل يعتقدون **أولًا**: أن لكل حادث منها سببًا، ويعتقدون **ثانيًا**: أن الأسباب المتماثلة تؤدي إلى نتائج متماثلة سواء في عالم الطبيعة، أو عالم المجتمعات، أو عالم النفس.

ويعلمون أنه لولا هذا الاطِّراد في الأسباب والمسبَّبات وجريانها على نسق واحد لما أمكن أن تكون هنالك علوم طبيعية ولا اجتماعية ولا نفسية، ولما استفاد الناس من دراستهم للتاريخ، ولما استفاد بعضهم من تجارب بعض ولا اتعظوا بها، بل ولما استطاعوا أن يتعاملوا مع الطبيعة والناس من حولهم، بل ولا مع أنفسهم.

كيف يمكن هذا إذا كان من الممكن للحادث أن يحدث من فراغ، أو إذا

---

(١) معايير العقلاء (٢)، معايير العقلاء، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣٢٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

كان السبب الواحد يؤدي إلى مسببات مختلفة بل متضادة بحسب الزمان والمكان؟

كيف إذا كان الماء الذي رش على النار فأخمدها بالأمس يُرَش عليها اليوم فيزيدها اشتعالًا لكن الإيمان بالقاعدة لا يعصم الناس من الخطأ في تطبيقها، ولا يلزمهم بعزو المسببات إلى أسبابها الحقيقية التي يعلمونها، بل يعزونها زورًا إلى أسباب يعلمون أنها ليست أسبابًا لها. فالناس يظلون مخيرين: من شاء اعترف بالحق، ومن شاء كذَّبه. لكن أولي الألباب منهم لا يكتفون بالإيمان بصدق القاعدة، بل ينظرون في دعاوى الربط بين المسبَّبات المعينة وأسبابها المدَّعاة: هل قام دليل على صدقها أم لا؟ ولولا ذلك لما كذَّب الناسُ السحرةَ والدجالين والمخرفين، ولما عرفوا الفرق بين النبي المرسل ومدعي النبوة. لكن الصدق لا يعصم من الخطأ. فقد يظن الإنسان صادقًا أن هنالك رابطًا بين نتيجة معينة وسبب معين، ويكون مخطئًا في ظنه.

يحدث هذا حتى في أكثر العلوم الدنيوية انضباطًا كعلم الفيزياء أو الكيمياء، ودعك عن علم الطب وعلم النفس والاجتماع! وبما أن الإسلام إنما يخاطب العقلاء من الناس فإنه يستعمل هذه الحجة التي يسلِّمون بها، فيدعوهم تارة إلى الاعتراف بالنتائج التي عرفوها، ويذكِّرهم تارة بأن السبب الذي رأوه أدى إلى نتيجة معينة لا بُد أن يؤدي إلى النتيجة نفسها في حالة أخرى، ويعرِّفهم تارة بأسباب يجهلونها، ويخطِّئ ظنهم في أسباب ظنوها أسبابًا لمسببات معينة وما هي بأسبابها الحقيقية.

وإليك أمثلة على ذلك وهي قليل من كثير:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧].

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢].

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٢-٢٣].

الملاحظ: أن السنن التي وصفها القرآن الكريم في هذه الآيات وغيرها بأنها لا تتغير ولا تتبدل إنما هي ما يمكن تسميته بالسنن الاجتماعية. أما السنن الطبيعية فلم يرد في كتاب الله وصفها بهذه الصفات؛ والسبب واضح وهو أنها يمكن أن تُخرَق، أعني أن السنن التي يعرفها الناس والتي تسمى الآن بالقوانين الطبيعية كقانون الجاذبية يمكن أن تُخرَق. فالنار لم تحرق سيدنا إبراهيم، والبحر انفلق لسيدنا موسى، والقمر انشق لسيدنا محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. لكن بما أن الخوارق أمر نادر فيمكن أن يقال إنها هي الأخرى ثابتة لا

تتغير. ثم إن الخرق إنما هو خرق للسنَّة التي اعتادها الناس، وليس خرقًا لقانون السببية؛ ذلك لأن الخرق نفسه يكون بأسباب أخرى ليست معهودة للناس.

وهذه أمثلة لم تُذكر فيها كلمة السنَّة، لكن ذكر فيها معناها وهو التذكير بأن الأسباب المتماثلة تؤدي إلى نتائج متماثلة: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر:٤٣].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزُّمَر:٥١].

وكما يذكِّرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسنّة تكرار النتائج إذا ما تكررت الأسباب؛ فإنه يرشدنا أحيانًا إلى أسباب لم نكن نعلمها، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨].

في هذه الآية الكريمة دليل على أن هنالك علاقة سببية بين الأقوال اللسانية والأحوال القلبية، فإذا ما تشابهت القلوب تشابهت الأقوال، ولا يلزم لذلك أن يأخذ اللاحق من السابق. كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣]. أتواصَوْا به؟ كلاَّ؛ فهم لم يَلْقَ بعضهم بعضًا، ولكن سبب التشابه في الأقوال هو الطغيان الذي في القلوب. وبسبب هذا التلازم بين الأحوال القلبية والعبارات اللسانية كان من المتعذر على المنافق أن يخفي نفاقه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ

لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٠]، بل إن القرآن الكريم ليدلنا على أن هذه العلاقة بين الظاهر والباطن سُنَّة عامة: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦].

في هذه الآية دليل على أن هنالك تلازمًا بين الإرادة والعمل، فمن ادعى أنه يريد عملًا معينًا وكان قادرًا على أن يأتي به أو بشيء منه ثم لم يفعل ذلك علمنا أنه كاذب في دعواه.

يذكِّرنا الإمام الشاطبي بأن هنالك علاقة لزوم بين معرفة الدين الحق واطِّراد السنن، أي أنه لو لم تكن السنن الكونية مطَّردة لما أمكن أن تعرف حقيقة الدين؛ لأنه إنما يعرف بالمعجزة التي تخرق العادة؛ فإذا لم تكن هنالك عادة مستمرة لم يكن هنالك ما يخرق.

ويذكِّرنا رَحِمَهُ اللَّهُ بأن اطراد التشريع مبني على اطراد السنن الكونية، أعني أنه لو كان خلق الناس وخلق الكون من حولهم في تغير مستمر لما أمكن أن يكون لهم تشريع ثابت لا يتغير. فثبات التشريع وعدم تغيره من زمان إلى زمان أو من مكان إلى مكان دليل على أن من شرع لهم لا تتغير فطرهم وطبائعهم التي بني عليها التشريع، وإن تغيرت بعض أحوالهم التي لا علاقة لها به[1].

---

(١) معايير العقلاء (١)، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣١٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٦).

فائدة: ما علاقة الأسباب بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ الكونية:

افترق الناس في هذا إلى طرفين غالطين ووسط أصاب الصواب، وقف أصحاب الطرف الأول عند حدود الأسباب، واعتقدوا أنها هي التي تفعل بنفسها؛ فلا حاجة إلى افتراض خالق لها، وغفلوا عن حقيقة ماثلة أمامهم تقول: إنه لا يوجد في العالم سبب مستقل بفعل؛ فما من شيء ندعوه سببًا إلا وهو معتمد في فاعليته على أسباب أو شروط أخرى، تعتمد هي الأخرى على أسباب وشروط، فأنَّى يكون مستقلًا؟

وغلط مؤمنون فظنوا أن فاعلية الأسباب تتناقض مع خلق الله، فكأنهم ظنوا أنه إذا عُزي الفعل للسبب فلا يمكن أن يعزى إلى الخالق، ولذلك قالوا عن اطِّراد السنن التي يرونها ماثلة أمامهم بأن الله تعالى يخلق عندها لا بها، أي إذا رأيت الورقة أُلقيت في النار فاحترقت فلا تقل: إن النار أحرقتها، ولكن قل: إن الله أحرقها عند ملاقاتها للنار.

قال أهل الحق: إن الله تعالى هو الذي خلق الأسباب وجعلها أسبابا؛ ففاعليتها لا تدل على الاستغناء عنه، كما أنها لا تتناقض مع خلقه لها، بل إن من عادته سبحانه أن يخلق بالأسباب، ولذلك استعملت باء السببية في وصف كثير من الحوادث الطبيعية: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق:٩]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩٩]. وكما استُعملت في القرآن باء السببية فقد استُعملت كذلك عبارات

أخرى كثيرة تدل على السببية، لكن المجال ليس مجال تفصيل لهذا الأمر[١].

فائدة: من معايير العقلاء النفع والضر:

معيار النفع والضرر هو أحد هذه المعايير، وهو معيار يقر به الناس ويستعملونه في حياتهم اليومية: في الأمور المادية، والمسائل الفكرية. فالناس يختارون من الأشياء والأفعال والتصرفات ما يرون فيه نفعًا لهم، ويفضلون ما كان أكثر نفعًا على ما كان أقل منفعة، ويجتنبون ما يضرهم، ويرتكبون أخف الضررين حين لا تكون لهم خِيَرة. يستعملون معيار النفع والضرر هذا في ما يختارون من مطاعم ومشارب وملابس ومراكب وأدوية وآلات وغيرها.

إن من أكبر الأدلة على التزام الناس بهذا المعيار أنك لا تجد أحدًا يدعو إلى فكرة أو إلى آلة فيقول للناس إنها ضارة بهم، أو أنه لا نفع فيها لهم. لكن كون الشيء نافعًا أو ضارًا أمر يحتاج إلى علم، ولذلك فإن الإنسان مع التزامه بمعيار النفع والضرر قد يخطئ فيختار بسبب جهله ما هو ضار أو أكثر ضررًا، ويترك ما هو نافع أو أكثر نفعًا. وكثيرًا ما يفعل هذا بسبب الدعاية التي يدعوه بها الكذابون والغشاشون من التجار والمشعوذين والسياسيين.

يأتي الدين الحق ليقر هذا المعيار الذي فطر الله الناس عليه، وليستعمله في دعوتهم إلى قبول الحق الذي يهديهم إليه. فإذا كانت دعامة الدين الأولى هي

---

(١) معايير العقلاء (٣)، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣٢٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

الإيمان بالله، فإنه يذكّرهم بأن الله تعالى هو الذي خلقهم وهو الذي يرزقهم، وهو الذي خلق لهم من الأشياء ما فيه منفعة لهم كالحديد والفلك والأنعام، وهو الذي يميتهم ويحييهم، وهو المتصف بصفات الكمال من علمٍ بكل شيء، ومقدرة على كل شيء ورحمة وسعت كل شيء.

ولذلك كان من الخير لهم أن يعبدوه فيخضعوا له ويطيعوا أمره فيما أمرهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:١-٥].

ولذلك كان من عدم العقل أن تعبدوا ما لا يملك لكم نفعًا ولا ضرًا، ولا يصرف عنكم سوءًا، ولا يمنع عنكم شرًا: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧]. والإنسان العاقل يُؤْثِرُ النفع الآجل الأكثر على النفع الحاضر الأقل. هكذا يفعل الإنسان حين يدخر، وهكذا يفعل التاجر حين يكف عن البيع العاجل إذا توقع ربحًا آجلًا أكثر.

والقرآن الكريم يستعمل هذه الحجة في مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٠-٢٥].

وإذا كان الله تعالى هو القادر على أن يعطيكم ما تعلمون أن فيه منفعة لكم، وهو القادر على أن يقيكم مما تعلمون أن فيه ضررًا بكم؛ فإنه هو أيضًا الذي يدلكم على ما لا تعلمون من أنواع المنافع والمضار.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

وإذا كان في بعض الأشياء نفع وضرر فإنه أعلم منكم بمقدار نفعها وضررها، وأعدل منكم في الحكم لها أو عليها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩][(١)].

فائدة: الجمال من أهم المعايير المتفق عليها بين العقلاء:

وهل الجمال معيار؟ أجل! والله إنه لمعيار من أهم المعايير المتفق عليها بين العقلاء. كيف أقول هذا والناس دائمًا يرددون القول بأن الجمال من الأمور التي تختلف فيها الأذواق؟ أقول: لكنهم لا يختلفون في تفضيل ما يرونه جميلًا

---

(١) معايير العقلاء (٤)، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣٣٤)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٦).

على ما يرونه قبيحًا، ولا يختلفون في جمال كثير من الأشياء وقبح أضدادها.

والجمال المتفق عليه بينهم يشمل جمال المناظر، وجمال الأصوات، وجمال الأقوال، وجمال الروائح. هل رأيت من بشر يبتهجون لمنظر أكوام الزبالة ويكتئبون حين يشاهدون باقات الزهور؟ وهل رأيت من بشر يَطرَبون لنهيق الحمير ويشمئزون حين يسمعون تغريد البلابل والطيور؟ وهل رأيت من بشر يصغون لثرثرة الجهلاء ويصدون عن شعر الشعراء ونثر الأدباء؟ وهل رأيت من بشر يستمتعون بالروائح المنبعثة من مداخن المصانع ويتأذون من عبير العطور؟ بين الناس إذن اتفاق على ما هو جميل وما هو قبيح وإن اختلفوا في بعض التفاصيل.

وفي القرآن الكريم ما يدلك على هذا الاتفاق. ألم يقل الله عن بقرة بني إسرائيل إنها تسر الناظرين، فعمم الناظرين ولم يخصهم بناظري بني إسرائيل. وألم يقل سبحانه في معرض المنّ على عباده بما خلق لهم من بعض الحيوانات: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٥-٨].

فجمع سبحانه في هذه الآيات بين نعمة المنفعة من دفء وأكل وحمل وركوب وبين نعمة الجمال ونعمة الزينة. وقال تعالى عن الحدائق: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا

﴿كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠].

ففي هذه الآية الكريمة ذكر نعمة البهجة فقط، ولم يذكر نعمة المنفعة. فالجمال كما تدلك هذه الآيات ليس قاصرًا على جمال المناظر... فكما توصف النساء بالجمال فكذلك توصف به مكارم الأخلاق. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٨]، ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥]. وكما يوصفن بالحسن؛ فبه أيضًا توصف الأعمال. فالأعمال منها ما هو حسنات يحبها الله، ومنها ما هو سيئات لا يحبها. وكل ما يحدث للناس من أنواع النعم فهو حسنات، وكل ما يصيبهم من أنواع النقم فهو سيئات.

وأعظم الحسن وأجله وأعلاه هو حسن الأسماء والصفات الإلهية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، ومن أوصافه الحسنى هذه كونه جميلًا ومحبًا للجمال[1].

فائدة: من معايير العقلاء القيم الخلقية:

ربّما كان معيار القيم الخُلُقية أكثر المعايير دَوَرانًا على ألسنة الناس في تقويمهم للأشخاص والتصرفات؛ فهم ما يزالون يحكمون على هذا بأنه سياسي

---

(١) معايير العقلاء (٤)، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣٣٤)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

كذاب، وذاك بأنه رجلُ دينٍ منافق، وعلى تلك بأنها امرأة شريفة، وعلى هؤلاء بأنهم موظفون أُمناء وهكذا... فنحن لسنا إذن بحاجة؛ لأن نقيم دليلاً على أن هذه القيم من المعايير التي يلجأ إليها العقلاء، أو سائر الناس في حال تقويمهم العقلي[1].

فائدة: علاقة القيم الخلقية بالأوامر والنواهي الإلهية:

هذه المسألة تحتاج إلى شيء من البيان بسبب ما أُثير حولها، ولا سيّما في الفكر الغربي من شبهات، وهي مسألة علاقة القيم الخلقية بالأوامر والنواهي الإلهية.

زعم بعض المنتسبين إلى الأديان حتى من المسلمين أنّ قِيَم الصدق والأمانة والوفاء وسائر المكارم الخلقية إنما تُعرف بالدين ولا معنى لها قبل ورود الشرع، وزعم آخرون أن الإيمان وحده هو الذي يدفع الإنسان للالتزام بهذه القيم، وأن من لا إيمان له لا خُلُقَ له.

قال المعترضون: لكننا نعرف بالحس والتجربة أناسًا صادقين أو أُمناء مع أنه لا علاقة لهم بِدِينٍ. بل زعم بعض الفلاسفة أن التزام المتدين بمكارم كالصدق والأمانة ليس التزامًا بمكارم خُلُقية، وإنما هو تصرُّف تاجر يريد أجرًا على فعله، وأن الملتزم بمكارمَ مثل هذه باعتبارها مكارمَ خُلُقية لا يفعل هذا رجاءَ ثواب أو خوفًا من عقاب، وإنما يفعله؛ لأنه عملٌ حَسَنٌ في نفسه.

---

(١) معايير العقلاء (٥)، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣٣٩)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

فما وجه الحق في هذه المسائل؟ نقول:

أولًا: أما معرفة الناس بحسن أصول المكارم الخُلُقية من صدق وأمانة وعدل ووفاء وغيرها قبل ورود الشرع بها أو أمره بها فمسألة لا شك فيها، بل هي من لوازم الدين التي لا يعرف الناس حقيقة الدين إلا بها، إذًا لم يكن الناس قادرين على التمييز بين الصدق والكذب، أو بين حُسْن الأول وقُبح الثاني؛ فكيف يميزون إذن بين نبي صادق ومدّعٍ للنبوة كاذب؟ وكيف يميزون بين كلام الله وافتراءات الدجالين؟ إن الشكر هو لُبّ العبادة، وما أنواع العبادات من صلاة وصوم وحج وذِكْر إلا وسائل يعبر بها العبد عن شكره لله تعالى؛ فإذا لم يكن يعرف معنى الشكر ولا حُسْنه قبل ورود الشرع به؛ فكيف إذن يستجيب للدعوة إلى عبادة الله؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

فالدعوة إلى عبادة الله في هذه الآيات الكريمات وأمثالها دعوة إلى شكره على نعمه التي أنعم بها على الإنسان؛ وكذلك الدعوة إلى القراءة باسمه تعالى في أول سورة طرقت أسماع العباد هي دعوة إلى شكره على نعمة الخَلْق ونعمة العِلْم، وأن الذي لا يستجيب إلى هذه الدعوة فيشكر الله تعالى عليها هو الذي أصابه من الغرور ما جعله يعتقد أنه مستغنٍ عن الخالق سبحانه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾

عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:١-٧].

ثانيًا: إذا كان الخطاب الشرعي مبنيًا على حقيقة أن الناس عارفون بحسن الصدق والأمانة والعدل والوفاء وغيرها؛ فمن الخطأ أن يُعرّف الإحسان بأنه ما أمر الله به، أو يُعرّف الشر بأنه ما نهى الله تعالى عنه. فرقٌ بين أن تقول: إن الله يأمر بالعدل، وأن تقول: إن العدل هو ما أمر الله به.

فالعبارة الأولى: تعني أن الإحسان كان إحسانًا قبل أن يأمر الله به، والشر كان شرًا قبل أن ينهى الله عنه.

أما الثانية: إذا قصد بها تعريف الخير والشر فإنها تعني أن ما أمر الله به لم يكن إحسانًا أو خيرًا قبل الأمر به، وما نهى عنه لم يكن شرًا قبل النهي عنه.

لكن هذا تلزم عنه شنائع بيّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية؛ إذ قال كلامًا فحواه أن هذا القول يفرغ بعض الآيات من معانيها ويجعلها تحصيل حاصل. وذكر على ذلك مثلًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]. فإذا قلت: إن العدل هو ما أمر الله به، كان معنى الآية: إن الله يأمر بما يأمر به. أما بالقول الثاني فيكون في الآية ثناء على الله تعالى أنه يأمر بالعدل الذي يعرف الناس أنه عدل وأنه شيء حسن.

يتضح لك هذا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف:٢٨-٢٩].

فالله تعالى ينزِّه نفسه عن أن يأمر بالفحشاء، وأنه إنما يأمر بالقسط. فإذا فسرت الفحش بأنه ما نهى الله عنه والقسط أنه ما أمر الله به، صار معنى الآية: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وإنما يأمر بما يأمر به.

ثالثًا: لماذا يلتزم المسلم بمكارم الأخلاق؟ لأسباب ثلاثة:

أولها: أنه كغيره من عباد الله من ذوي الفطرة المستمرة على استقامتها: يصدق، أو يفي، أو يعدل؛ لأنه يحب هذه الخصال ويبغض أضدادها، ويرى في الالتزام بها إكرامًا لنفسه، وفي الخروج عليها تدنيسًا لها.

ثانيها: أن إيمانه بربه وحبه لما يحب يقوّي هذا الشعور الفطري فيه.

ثالثها: أنه يرجو ثواب ربه ولا سيّما حين يقتضي الفعلُ الحَسَنُ قدْرًا من التضحية. وهو في كل هذا سائر على مقتضى المعايير التي يلتزم بها العقلاء، أما غيره فإنه حين يسلك هذا السلوك الحسن يضطر؛ لأن يخرج على بعض تلك المعايير، إن كل إنسان يرى أنه من أكبر العبث أن يُقْدِم على فعل لا يرجو منه نفعًا ألبتة كما بيّنا في المقال السابق.

فما الذي يجعل مكارم الأخلاق مستثناة من هذه القاعدة؟

إنه حتى الذي لا يؤمن بالله ولا بآخرة لا يلتزم بها التزامًا لا يجد له نفعًا في

هذه الحياة الدنيا، بل إنه قد يُحْسِنُ لِمَا يجد للإحسان من أثر طيب على نفسه، أو لأن الناس يحمدونه عليه، كما كانوا يفعلون مع مشاهير الكرماء من أمثال حاتم الطائي.

فما الذي يجعل العمل من أجل مثل هذا الثواب خيرًا من رجاء الثواب عند الله تعالى؟

حين كنت أفكر في كلام هؤلاء الفلاسفة أيام الشباب لفتت نظري هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة:١١٩].

قلت: إذا كان الصدق رأس المكارم الخُلُقية ومع ذلك ينتفع به صاحبه نفعًا خاصًا؛ فلا منافاة إذن بين أن يكون العمل من مكارم الأخلاق وبين أن ينتفع به صاحبه.

ثم لفت نظري قوله سبحانه الذي وجدت فيه الرد على شبهتهم: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، فكأن الآية تقول لهؤلاء: إن الذي ظننتموه متناقضًا مع مكارم الأخلاق هو منها ومن مقتضياتها.

بعض الفلاسفة الذين أثاروا هذه الشبهة ذكروا هم أنفسهم في مقابلها شبهة تنقضها، فهذا زعيمهم الفيلسوف الألماني «كانْت» الذي اشتهر بنظرية تسمى: الواجب المطلق Categorical Imperative، والتي فحواها: أن الإنسان يجب أن يلتزم بمكارم الأخلاق لا لأيِّ سبب نفسي أو خارجي، بل أداءً

للواجب الذي يعبّر عنه هذا الأمر المطلق المسمى بـ«القانون الخُلُقي».

هذا كما ترون مجرد تحكم، لكنه قول صار عند الغربيين من النظريات الخُلُقية التي ما تزال تُدرس وتُنشر، لكن «كانْت» هذا قال في مكان آخر قولًا ينقض دعواه هذه، في مناقشته لأدلة وجود الخالق انتهى إلى أن أحسن دليل هو الدليل الخُلُقي الذي فحواه أن القانون الخُلُقي يقتضي العدل، أي: أن تكون سعادة الإنسان متناسبة مع التزامه بالفضيلة. وهذا أمر لا يضمنه إلا الخالق، لكنه لم يضمنه في هذه الدنيا فلا بُد إذن من دار أخرى يتحقق فيها.

والقارئ المسلم يعلم أن ما يُسمى بالدليل الخُلُقي مصرّحٌ به في كثير من آيات الكتاب العزيز، من مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٤-٣٦][1].

فائدة: السلفيون هم أجدر من غيرهم بوصفهم بأنهم عقلانيين إذا كان المقصود بالعقلانية قبول مقتضيات العقل:

قال صاحب العالِم السلفي له وهو يحاوره: إنكم -معشرَ السلفيين- متهمون بأنكم ليسوا بعقلانيين!

---

(١) معايير العقلاء (٥)، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٣٣٩)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٦).

قال العالم السلفي: إذا كان المقصود بالعقلانية قبول مقتضيات العقل، بأن تقبل النتائج التي تؤدي إليها الحجة العقلية الصحيحة، وبأن لا يقبل التناقض وألا تُقبَل دعوى إلا بدليل، وإذا كان المقصود به إعمال العقل والتفكر؛ فنحن أجدر من غيرنا بوصف العقلانية.

قال صاحبه: كيف تكونون أكثر عقلانية من غيركم وفيهم من يقدم العقل على النص؟ أليس مثل هذا أجدرَ بوصف العقلانية منكم؟

قال العالم: بل هذا من قلة عقلهم!

قال صاحبه: كيف؟

قال العالم: أليسوا مسلمين دلّتهم عقولُهم على أن محمدًا رسول الله ﷺ، وأن الكتاب الذي جاء به هو كلام الله؟

قال صاحبه: بلى!

قال العالم: فقد علموا -إذن- أن ما قاله الله في كتابه أو على لسان رسوله - ﷺ - هو الحق الذي لا ريب فيه؟

قال صاحبه: أَجَلْ!

قال العالم: فما معنى أن تجعل العقلَ فوق كلام تعلم أنه الحق؟

قال صاحبه: فماذا تقولون أنتم معاشر السلفيين؟

قال العالم: نقول ما قال كثير من أئمتنا: إن ما دل عليه العقل الصريح لا

بُد أن يكون موافقًا لما جاء به النقل الصحيح، فإذا حدث خلاف بينهما في أمر معين؛ فلا بُد أن يكون راجعًا إما إلى: خطأ في نقل النص، أو في فهمه، أو في أن ما نُسِب إلى العقل ليس في الحقيقة بعقل صريح.

قال له صاحبه: إن هؤلاء المسمين بالعقلانيين يقولون: إنكم لا يمكن أن تكونوا عقلانيين، وأنتم تبنون دينكم على التبعية لأُناس لا مزية لهم إلا أنهم سلف عاشوا في الماضي؟

قال العالم السلفي: نحن أولا لا نأخذ ديننا من الرجال سواء كانوا في الماضي أو في الحاضر. إن مصدر الدين عندنا هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا نقدم عليهما غيرهما، كما أمرنا الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحُجُرات:١].

قال صاحبه: فما صلتكم بأولئك السلف إذن؟

قال العالم السلفي: دعنا أولا نحدد ماذا نعني بالسلف. السلف عندنا هم أصحاب رسول الله ﷺ، ثم التابعون لهم، ثم تابعو أولئك التابعين. وصِلَتُنا بهم هي الاقتداء بهم في فهم الدين وتطبيقه لأسباب إذا تدبّرها الإنسان وجدها في غاية العقلانية.

قال صاحبه: ما هذه الأسباب؟

قال العالم: منها أولًا: أن الله تعالى قد أثنى على أصحاب رسول الله ﷺ ثناء يدل على فقههم للدين وإخلاصهم في العمل به، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح:١٩-٢٠]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات:٧].

وثانيًا: أن الرسول ﷺ قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، والخيرية تتضمن الفقه في الدين وحسن العمل به، كما قال ﷺ: «**من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يفقّهْهُ في الدين**».

وثالثًا: أن هذه الأجيال الثلاثة هي الأجيال التي نزل القرآن بلغتها وتكلم الرسول ﷺ بلسانها؛ فهي أجدر بأن تفقه كلام الله وكلام رسوله ﷺ من غيرها؛ ولأن الصحابة منهم عاصروا نزول الوحي، وشهدوا المناسبات التي تكلم فيها الرسول ﷺ، فتعلموا منه مباشرة كما تعلم بعضهم من بعض.

ورابعًا: أن الله تعالى أمرنا بأن نقتدي بكل من شهد له بأنه على الحق، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠].

قال صاحبه: لكن هذا معناه أنكم تجمدون على فهم قديم للدين ولا تسمحون بفهم جديد له ولا اجتهاد فيه؟

قال العالم: أولًا: إنه لا يضير الفهم الصحيح أن يكون قديمًا أو جديدًا؛ فنحن ما نزال نحاول فهم الشعر الجاهلي كما فهمه من سبقنا، ولا يزال الغربيون يحاولون فهم فلسفات اليونان كما فُهمت في عصرها.

وثانيًا: إن مما نتلقاه من السلف هو ما يمكن أن تسميه بالإدراك الأساس لمعاني النصوص، وهو إدراك ضروري لكل تفكّر في النصوص واجتهاد فيها.

قال صاحبه: ما ذا تعني؟

قال العالم: أعني أنك إذا لم تدرك المعنى الأساس للكلام؛ فكيف تتأمله أو تفكر فيه؟

قال صاحبه: إذن؛ فأنتم تُعمِلون العقل حتى في النصوص؟

قال العالم: أجل! لأن ربنا يأمرنا بأن نتدبر كتابه؛ وهل يكون تدبر إلا بإعمال العقل؟

قال صاحبه: ما الفرق إذن بينكم وبين من يسمَّوْن بالعقلانيين؟

قال العالم: نحن لا نسلِّم بأنهم هم العقلانيون، بل نرى في منهجهم تناقضًا يتنافى مع العقلانية كما ذكرت لك من قبل.

قال صاحبه: فما مجال العقل في الشرع في رأيكم؟

قال العالم: يعمل العقل في مجالات كثيرة بيّنها القرآن الكريم، فمنها إدراك المعنى الأساس، وهو إدراك عقلي يستوي فيه المؤمن والكافر الذي يتكلم اللغة التي نزل بها كتاب الله وتحدث بها رسول الله ﷺ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]. إن الإنسان لا يؤمن بكلام أو ينكره، ولا يرويه على حقيقته أو يحرفه؛ إلا بعد أن يعقله.

قال صاحبه: شيء آخر مهم يتهمونكم به ويعدونه أمرًا مخالفًا للعقل؛ يقولون: إنه على الرغم من أنكم تقرؤون قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، إلا أنكم في الواقع تشبِّهون الله تعالى بمخلوقاته حين تصفونه باستواء حقيقي، ونزول حقيقي، أو تقولون: إن له عينًا حقيقية؟

قال العالم: فماذا يقولون هم؟ أيقولون إن الله تعالى يصف نفسه بأوصاف غير حقيقية؟

قال صاحبه: يقولون: إن هذه الصفات لا يتصف بها على حقيقتها إلا المخلوقات، ولذلك فلا بُد من تأويلها حين يوصف بها الله، تعالى.

قال العالم: هذا أيضًا من قلة عقلهم وضيق عطنهم، وإلا فأين وجدت في العقل ما يدل على أن الصفات الحقيقية هي صفات المخلوقات؟ بل إن الذي يدل عليه العقل وتدل عليه المشاهدة؛ هو أن للصفات معاني تأخذ كيفيات مختلفة بحسب الموصوف بها؛ فالعين -مثلًا- لها معنى واحد، لكن عين الإنسان غير عين الحمامة، وعين الحمامة غير عين الجمل، وهكذا. فإذا صح هذا في المخلوقات التي بينها شبه، فلماذا لا يصح بالنسبة لله الذي ليس كمثله شيء؟

إننا نعرف معاني صفات مثل: العين، والاستواء، والنزول، والرحمة؛ لكننا لا نعرف الكيفيات التي يتخذها حين يتصف بها الخالق، سبحانه. وهذا هو معنى قول الإمام مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

ثم إنك إذا جعلتها قاعدة لك مطّردة؛ أن لا تصف الله تعالى بصفة يتصف

بعض مخلوقاته بمعنى من معانيها؛ انتهى بك الأمر إلى إنكار وجود الخالق؛ لأنك لن تستطيع حينئذٍ أن تصفه -سبحانه- حتى بأنه موجود ما دمت تصف مخلوقاته بهذه الصفة، ولن ينفعك أن تقول (إنك تلجأ إلى التأويل) لأنك حين تؤول لا بُد لك من استعمال صفة الصفات، كل ما هنالك أنك تستبدل بالصفة التي جاءت في كتاب الله صفة أخرى؛ فهل تؤوِّل هذه ثم تؤوِّل التي أولت بها. وهكذا إلى ما لا نهاية[1].

فائدة: الفلسفة الإسلامية:

الفلسفة الإسلامية الحقة، إن كان لا بُدّ من نسبة الفلسفة إلى الإسلام، هي الأجوبة التي نجدها في مصادر الإسلام الأساسية -القرآن والسُنّة- عن تلك الأسئلة الفلسفية.

وعليه، فإن الفيلسوف المسلم حقًا هو الذي يعتمد في أجوبته الفلسفية على تلك المصادر؛ فهو يغوص في نصوص الكتاب والسنة باحثًا عن تلك الأجوبة، متأملًا فيها، مبينًا لها، مدافعًا عنها، مجادلًا لمخالفيها، سالكًا في ذلك منهجًا عقليًا، ولغة يفهمها المخاطبون في عصره[2].

---

(١) السلفيون هم العقلانيون، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٤٧٩)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

(٢) الأجوبة الإسلامية على الأسئلة الفلسفية، منار السبيل، رمضان ١٤١٤هـ- الموافق فبراير- مارس ١٩٩٣م. كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

فائدة: مصادر الفلسفة الإسلامية الحقة:

مصادر الفلسفة الإسلامية الحقة ليست هي كتابات المفكرين الذين اشتهروا بلقب الفلاسفة المسلمين من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا؛ لأن هؤلاء كانوا يقفون على أرض الفلسفة اليونانية وينطلقون من كثير من مسلمّاتها، وإن كانوا أحيانًا، بفضل بيئتهم الثقافية الإسلامية، يأتون بما يخالف الفلسفة اليونانية، وما يعد أصيلًا عندها.

إن الذي يمثل الفكر الإسلامي الصحيح هم العلماء الفقهاء المتبحرون في علوم الكتاب والسنة، والآثار السلفية. وقد كان هؤلاء من ألد خصوم الفلاسفة لما رأوه في فكرهم من مخالفة لما عرفوه من حقائق الإسلام المقررة في الكتاب والسُنّة والآثار السلفية؛ ولأن الفلسفة لم تكن تعني في ذلك الوقت إلا هذا الفكر المتبع لسنن الفكر اليوناني الوثني، فإننا نجد في كتابات العلماء، ذمًا لها، ونصحًا للناس بالابتعاد عنه. أما إذا أخذنا الفلسفة بمفهومها العام الذي هو محاولة الإجابة عن الأسئلة الأساسية المتعلقة بالوجود والعقل والأخلاق والمعرفة وما إليها، فلا أرى من بأس من تسمية الأجوبة الإسلامية عن هذه القضايا الأساسية بالفلسفة الإسلامية، فأنه لا مشاحة في الألفاظ مهما اتضحت المعاني[1].

---

(١) الأجوبة الإسلامية على الأسئلة الفلسفية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

فائدة مفهوم العلم:

يبدو من بعض الآيات القرآنية أن الإسلام يؤيد رأي نظرية المطابقة، أي النظرية القائلة بأن العلم هو القول، أو التصور المطابق للواقع. كان بعض العرب يعتقدون أن الرجل الذكي له قلبان، وكان الواحد منهم إذا غضب من زوجته قال لها أنت كأمي، ثم اعتبرها كذلك فلم يعاشرها معاشرة الزوجة، وكان الواحد منهم يتبنى ابن غيره أو بنته وينسبه إلى نفسه كأنه ولده، كما يفعل الناس الآن في الغرب. فحَكَمَ الله تعالى على كل هذه الدعاوى بأنها مجرد كلام لساني، وأنها مخالفة للحق، فقال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤][1].

فائدة: هل العلم ممكن؟

إذا أخذنا هذا السؤال على ظاهره وجدناه كلامًا متناقضًا؛ لأن الإنسان حين يسأل عن إمكانية العلم يفترض أنه يعلم ما العلم، ولكن إذا كان يعلم ما العلم فهو يعلم شيئًا، لكن لعل أصل السؤال هو عمّا إذا كان ما نعتقد أنه علمٌ حقيقي مطابق للواقع هو كذلك فعلًا، أي أنه ليس خيالًا ولا وهمًا.

وعلى كلٍ، فإن في القرآن الكريم ما يدل على أن العلم ممكن، وأنه من نعم

---

(١) الأجوبة الإسلامية على الأسئلة الفلسفية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

الله التي تقتضي الشكر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، الآية السابقة قاطعة في الإجابة عن هذا السؤال بالنفي، فالعلم إذا يُكتسب كله بعد الميلاد، ولكن هل معنى ذلك أن العقل يأتي صفحة بيضاء تكتب عليها الحواس ما تريد؟ كلا! فنحن نقرأ في حديث النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**[(١)]».

هذا الحديث يدل على أن الإنسان وإن كان لا يولد عالمًا بشيء، إلا أنه لا يولد بعقل فارغ، وإنما يولد وفي عقله بذور علم تنمو بنموه وتبلغ كمالها بنضجه، لكن هذا العلم المبذور أصله في الإنسان يمكن أن تعارضه المؤثرات الخارجية، وإن كانت لا تملك إزالته[(٢)].

فائدة: العلوم المغروسة بذورها في فطرة الإنسان:

الفطرة هي الإسلام. ومن البديهي أنه ليس المقصود بذلك أن الإنسان إذا نما عقله وجد نفسه عالمًا بكل تفاصيل الدين الإسلامي، **وإنما المقصود أمران:**

أحدهما: أن الإنسان يولد وفي عقله بذرة التوحيد، أي الإقرار بأنه لا إله يستحق أن يعبد إلا الإله الذي هو الخالق الواحد.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الأجوبة الإسلامية على الأسئلة الفلسفية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٦).

وثانيهما: أن هذا الإنسان يولد بفطرة لا تناسبها اعتقادًا وسلوكًا إلا الحقائق والأحكام التى جاء بها الإسلام. ولهذا وصف الله تعالى الدين الذي أنزله على رسوله ﷺ بأنه هو الفطرة التي فطر الله عليها عباده. فقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠]، وإذا كان الإنسان قد صمم وعيه أو فطرته بحيث لا تناسبها إلا حقائق الإسلام وأحكامه، فإنه لا يشعر بالطمأنينة والراحة النفسية إلا إذا كان مسلمًا عابدًا لله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨][1].

فائدة: كيف نعلم؟

هنالك ثلاثة مسائل كثيرًا ما يخلط بينها الذين يحاولون الإجابة على هذا السؤال، أرجو من القارئ أن يميز بينها، وهي السؤال عن مصدر العلم، وعن الوسائل التى يكتسب بها العلم، وعن المنهج الذي يتبع لاكتساب العلم.

فالمصدر كما يدل عليه اسمه هو المكان الذي يوجد فيه العلم.

والوسائل هي القوى والآلات التي زودنا الله بها لاكتساب العلم.

والمنهج هو الطريقة التي نتبعها للحصول على العلم من مصدره بتلك الوسائل.

---

(١) الأجوبة الإسلامية على الأسئلة الفلسفية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٦).

فمصادر العلم عند المسلم هي الكون والوحي، ووسائله هي الحس والعقل، وأما المنهج فيختلف باختلاف نوع العلم ونوع المصدر. فمن الخطأ إذا أن نقول -كما يقول بعض المتدينين- إن مصادر العلم أو وسائله هي الحس والوحي، أو إن المنهج العلمي خاص بالعلوم التجريبية[1].

فائدة: وسائل المعرفة:

قررت الآية الكريمة ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]، أن الإنسان يولد جاهلًا، وأن الله تعالى يزوده بالسمع والبصر والعقل، فبينت أن الإنسان لا يمكن أن يكتسب معرفة -سواء كانت دينية أو دنيوية- إلا عن طريق الحس والعقل.

لماذا أقول الحس مع أن الآية لم تذكر إلا السمع والبصر؟ لأن الحواس الأخرى مذكورة في آيات أخرى، أما هذه الآية فركزت على أهم الحواس الأخرى بالنسبة إلى المعرفة. الحواس كما هو معلوم مرتبطة كلها بالدماغ ومن ثم بالعقل.

فالعقل هو الذي يحول المادة الآتية عن طريق الحواس إلى أشياء لها معنى بالنسبة إلى الإنسان. لكن أكثر الحواس ارتباطًا بالعقل هو السمع، لأن الإنسان كما يسمع أصواتًا كتلك التي تنبعث من الأشياء الطبيعية كالرعد والريح

---

(١) الأجوبة الإسلامية على الأسئلة الفلسفية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

والطيور والحيوانات والحشرات، فإنه يسمع الكلام، وهو أصوات تدل على معانٍ، والسمع يستعمل غالبًا في القرآن الكريم بهذا المعنى الأخير. أما الذي لا يعقل الكلام ولا يستفيد منه، فإن القرآن يشبهه بالحيوان الذي لا يسمع من الكلام إلا الأصوات.

والسمع مرتبط بالعقل ارتباطًا آخر هو أن الكلام منه ما هو حق ومنه ما هو باطل ولا سبيل إلى معرفة ذلك بالحس وحده، بل لا بُدّ أن ينضم إليه العقل فيقرر أولا إذا ما كان الكلام متناقضًا أم مُتسقًا، فإذا وجده متناقضًا حكم ببطلانه، وإذا وجده متسقًا نظر في معناه، هل هو موافق للواقع الذي يشير إليه أم لا؟ والحكم على الموافقة أو المخالفة قد يكون عملًا بسيطًا كأن يقال إن الشمس طالعة فينظر الإنسان إلى الشمس فإن وجدها طالعة حكم بصحة الكلام، وإن وجدها غير ذلك حكم ببطلانه.

وقد يحتاج الحكم على الكلام بالصحة أو البطلان إلى عملية طويلة مركبة، كالتأكد من صحة نظرية فيزيائية كالنسبية[1].

فائدة: مصادر المعرفة:

للحقائق كلها مهما كانت أنواعها مصدران لا ثالث لهما: الكون والوحي، أو قل خلق الله ووحي الله. فإذا ادعى إنسان دعوى ليس عليها دليل من هذين

---

(١) الأجوبة الإسلامية على الأسئلة الفلسفية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

المصدرين أحدهما أو كليهما، كانت دعواه باطلة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر:٤٠]، فعبادة هؤلاء لما عبدوه من دون الله تتضمن الدعوى بأنهم أرباب، والرب لا بُدّ أن يكون خالقًا، والعلم بأنه خالق يكون إما بمشاهدة ما خلقه في الكون، وإما بوحي من الإله الذي ثبت أنه خالق.

فإذا لم يكن لهذه الدعوى سند لا من خلق الكون المشهود، ولا من كلام الإله الخالق، كانت بالضرورة باطلة. فالتصور الإسلامي لمصادر المعرفة يختلف عن التصور المادي الإلحادي الذي يجعل الكون وحده مصدرًا لها ولا يتصور منهجًا علميًا إلا المنهج الذي تعرف به حقائق هذا الكون. لكنه يختلف أيضًا عن التصورات الدينية والميتافيزيقية الأخرى.

ومحور اختلافه معهما في كونه يقيم أدلة من هذا الكون المشهود على دعواه بأن هنالك مصدرًا ثانيًا هو الوحي، على حين ينكر الماديون هذه الحقيقة التي يدل عليها المصدر الذي يُقِرون به فيتناقضون؛ ويؤمن أصحاب التصورات الدينية والميتافيزيقية الأخرى بمصادر لا يملكون أثارة من دليل على صحتها[1].

---

(١) الأجوبة الإسلامية على الأسئلة الفلسفية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

فائدة: الأدلة على الوحي:

عندما قال محمد ﷺ لقومه من العرب أنه نبي، وكانوا من أذكى الناس، اعترض كثير منهم على دعواه بكل ما يمكن أن يعترض به إنسان، فلم يتركوا لمن بعدهم حجة جديدة يعترض بها، لكن محمدًا ﷺ أجاب عن اعتراضاتهم كلها بأدلة وبراهين في غاية العقلانية والعلمية.

من ذلك: أن بعضهم قال إنه لا يؤمن بنبوته لأنه لا يعتقد أن للكون خالقًا، فكان الجواب، إذا كيف وجِدْتم؟ أمن العدم المحض؟ فهذا شيء مستحيل. أم أنكم أنتم الذين خلقتم أنفسكم؟ لكن هذا أيضًا مستحيل. فلم يبق إلا أن يكون لكم خالق لم يُخلَق ولم يلد ولم يولد. ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦]، وقال بعضهم إنه يؤمن بوجود الخالق لكنه لا يعتقد أن البعث ممكن، فكانت الإجابة أنك إذا كنت تؤمن بأن الله أوجد الإنسان بعد أن لم يكن، فكيف تنكر مقدرته على إعادته بعد موته مع أن هذا أهون؟ ثم ترى في هذا الكون الذي أمامك أن الله تعالى يحيي الأرض بالنبات ثم يميتها بالجدب، ثم يحييها مرة أخرى، فالذي أحيا الأرض بعد موتها كيف لا يقدر على إحياء الإنسان بعد موته؟ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٥١]، ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم:٥٠].

وإذا كنت تؤمن بالله فإنك لاشك تؤمن بأنه متصف بكل صفات الكمال منزه عن كل نقص، وتؤمن لذلك بأنه حكيم لا يتصرف تصرفًا فيه عبث. ولكن هذا الإله الحكيم أرسل رسلًا ليهدوا الناس إلى طريق الخير، ويحذروهم من سلوك طريق الشر، وأمر الناس بطاعتهم، فآمن بعض الناس بهم وسلك طريق الخير، وكفر آخرون بهم وسلكوا طريق الشر، فهل ترى من الحكمة أن يجعل مصير الفريقين واحدًا؟ لكن هذه الدنيا التي نعيش فيها ليست بدار جزاء كما نشاهد، فكم من إنسان خيّر عاش حياة قاسية أو قُتل مظلومًا، وكم من إنسان شرير عاش منعمًا ومات بعد عمر طويل.

فإذا لم تكن بعد هذه الحياة حياة يلقى فيها المحسنون جزاء أعمالهم ويلقى فيها المسيئون عقاب سيئاتهم كان خلق الناس وإرسال الرسل إليهم عبثًا. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢١-٢٢]، وقال بعضهم، وكانوا يهودًا، إنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعتقدون في رسالة محمد لأنهم لا يعتقدون أن الله يرسل رسلًا.

فكانت الإجابة: أن الذي يعتقد أن الله لا يرسل رسلًا لا يقدر الله حق قدره، لأنه إذا عرف الله تعالى وقدره حق قدره علم أنه لا يمكن أن يخلق الناس

ويتفضل عليهم بكل ما تحتاجه أجسامهم من طعام وشراب ولباس وأرض وهواء وشمس وقمر، ثم لا يمدهم بما تحتاج إليه أرواحهم من هداية بل يتركهم حيارى يتخبطون ويختلفون ويقلقون.

ثم إذا كنتم لا تعتقدون أن يبعث إنسانا برسالة، فكيف تؤمنون بموسى رسولًا؟ من الذي أرسل إليه الكتاب الذي جاء به؟ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

وقال بعضهم: إنه يعتقد أن الله يرسل رسلًا لكنه يتساءل لماذا يرسل الله إلى الناس بشرًا مثلهم؟ لماذا لا يرسل إليهم ملائكة؟ فكان الجواب أن الملائكة إنما يرسلون إلى الملائكة، وأن الذي يناسب البشر هو بشر مثلهم يكلمهم بلغتهم ويكون قدوة لهم. ولو أرسل إليهم رسول وفعل أشياء يستصعبونها ويأمرهم بفعلها لاحتجوا بأنه ملك يستطيع ما لا يستطيعون.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، ثم إنه أعطاهم أدلة على صدق نبوته من سيرته، فقد عرفوه رجلًا صادقًا أمينًا، فما كان ليَذَر الكذب على الناس إلى سن الأربعين ثم يكذب على الله تعالى. وعرفوا أنه كان أُميًا لا يقرأ ولا يكتب: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، وقد أبلغهم بأنه أول من يطبق ما يدعوهم إليه، وصدَّق سلوكه

قوله. وأبلغهم أنه لا يريد منهم على ما يدعوهم إليه أجرًا دنيويًا، فرأوه يعيش بينهم فقيرًا كريمًا رحيمًا متواضعًا. ورأوه أكثرهم تضحية وأزهدهم فيما عند الناس.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠]، وأعطاهم أدلة على صدق نبوته من الكتاب الذي جاء به، من حيث أنه كتاب بلغ من الاتساق ما لا يمكن أن يتوافر لكلام بشري: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، ومن حيث أنه مصوغ بأسلوب تحداهم أن يقلدوه أو يقاربوا ذلك وهم أرباب الفصاحة وهو بلسانهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٣-١٤]، ومن حيث الهداية التي جاء بها في تعريف الناس بربهم بكلام لا يجدونه في كتب الفلاسفة ولا كتب أهل الديانات الأخرى، وفي بيان الطرق التي يعبدون بها ذلك الإله الحق، وفي بيان الخُلق الذي ينبغي أن يسلكوه في معاملة بعضهم لبعض، وفي إرشادهم إلى أنواع المعاملات والمأكولات والمشروبات التي تساعد على السمو الروحي فأمرهم بها، والتي تحط من قدر الإنسان وتتدلى به إلى درجة الحيوان فنهاهم عنها. ومن حيث كونه كتابًا يرسم منهج حياة متكامل من الاعتقادات والتصورات إلى

العبادات والأخلاق، إلى النظام الاجتماعي فردًا وأسرة ومجتمعًا، إلى النظام السياسي، إلى العلاقات مع غير المسلمين، وكونه يدعو إلى كل ذلك بطريقة متوازنة تلبي المتطلبات العقلية، والحاجات الجسدية، والأشواق الروحية. نقول إذا إن الإيمان بمصدر للمعرفة -غير الكون- دل عليه دليل علمي، لا يفتح الباب لكل مدع مصدرًا غيبيًا لا يقيم على حقيقته دليلاً مقبولًا عقلًا. إن كثيرًا من الكتاب الغربيين ينسون هذه الحقيقة، فيجعلون الدعاوى الغيبية كلها من جنس واحد، فيلمون السحر والكهانة والأديان الباطلة فيجعلونها في جهة، ويجعلون الحقائق العلمية الكونية في الجهة المقابلة. هذا مع أن الإسلام ينكر كل تلك المصادر المذكورة ويعدها باطلة، ويعد اللجوء إليها ذنبًا يستوجب عقوبة الله تعالى[1].

فائدة: المنهج العلمي:

وأعني بالمنهج العلمي كل طريقة في البحث توصل سالكها إلى الحقائق في المجال الذي يبحث فيه. وبما أن مجالات البحث مختلفة فإن من الطبيعي أن تكون مناهجها العلمية أيضًا مختلفة. إن التجربة مثلًا خطوة مهمة من خطوات المنهج العلمي في مجال كالكيمياء، لكنها ليست ولا يمكن أن تكون من خطوات المنهج العلمي في مجال كالفلك. فالمناهج العلمية إذن متعددة

---

(١) الأجوبة الإسلامية على الأسئلة الفلسفية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٦).

حتى في مجال العلوم الطبيعية وإن كان بينها أشياء مشتركة[١].

فائدة: لماذا كثير من الناس يستنكر استعمال تعبير (المنهج العلمي) في المجال الديني:

كثير من الناس في عصرنا غلب على ظنهم أن هنالك منهجا علميًا واحدًا هو منهج العلوم الطبيعية حتى إن كثيرًا منهم ليستنكر استعمال هذا التعبير في مجال ديني. لماذا؟ لأن الفلسفة المادية الغربية الكامنة وراء العلوم الطبيعية تفترض -في صورتها الغالية- أنه لا مصدر للحقائق الموضوعية إلا الطبيعة، وعليه فلا منهج يوصل إلى الحقائق إلا مناهجها، وأن شأن النصوص الدينية هو شأن النصوص الأدبية أو الخلقية التي لا تشير إلى حقائق خارجية وإنما تعبر عن مشاعر ذاتية، وأنه لا يحق لذلك لإنسان أن يزعم بأن فهمه لنص من هذه النصوص هو الفهم الصحيح، أو أن فهم غيره له فهم غالط. بل كل إنسان محق في أن يفهم النص كيف أراد، وكل فهم له فهو فهم مشروع[٢].

---

(١) مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة. كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

(٢) مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة. كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

فائدة: شُبهات فهم:

يزعم بعض الناس أنه لا حق لأحد في أن يفرض على الناس فهما معينا لنصوص القرآن والسُنّة، لأن الكلام كلام الله لكن الفهم فهم البشر، ونحن لسنا ملزمين بأفهام البشر ولا تصوراتهم للدين، بل لكل إنسان أن يفهم تلك النصوص الدينية كما يريد على أن يكون فهمه هذا ملزما له هو فحسب. وهم يريدون أن يخلصوا من هذا إلى أن الإسلام لا يمكن أن يكون دستورًا للأمة ينظم حياتها الاجتماعية والسياسية والقانونية والاقتصادية والتربوية.

وهو فعلًا لن يكون كذلك إذا لم يكن له منهج علمي يوصل إلى حقائقه، ومعيار يميز به بين صحيح الفهم له وسقيمه. وقد تأثر بهذا التصور للنصوص الشرعية أُناس إسلاميون -أو هكذا يزعمون- فراحوا يبشرون بما يبشر به أولئك المنافقون المرتدون.

وقد حيرت هذه الشبهة بعض من نحسبهم من المؤمنين الصادقين؛ لأن القول بأن الكلام كلام الله والفهم فهم البشر قول صحيح في ظاهره، لكن الخطأ إنما هو في النتائج التي رتبها عليه أولئك المتخرصون. وشبهة أخرى تتعلق أيضًا بفهم النصوص، وهي شبهة يرددها أيضًا عدد من المنتسبين إلى الإسلام وصحوته. فحوى هذه الشبهة أن ثقافة الناس هي التي تحكم فهمهم للنصوص.

وبما أن الثقافات تختلف زمانًا ومكانًا، فمن الطبيعي أن يكون فهمنا للنصوص الشرعية قرآنًا وسنةً مختلفًا عن فهم سلفنا، وأن يكون فهم المتقدمين

منا حضاريًا مختلفًا عن فهم المتخلفين[١].

فائدة: الرد على دعاة المنهج الذاتي الذين يقولون بأن الكلام كلام الله والفهم فهم البشر:

أولًا: قولكم بأن الكلام كلام الله والفهم فهم البشر يمكن أن ينسحب على كل كلام وكل فهم. فما من كلام إلا وهو كلام المتكلم به، وما من فهم إلا وهو فهم المستمع إليه. فإذا استنتجتم من قولكم بأن الكلام كلام الله والفهم فهم البشر أنه يحق لكل إنسان أن يفهم كلام الله كيف شاء، فطبقوا هذا على كل كلام وكل فهم. وإذا فعلتم فقدت اللغة وظيفتها ولم تعد وسيلة لنقل المعاني، ولا للتفاهم بين البشر.

قلت هذا في أحد المؤتمرات بالولايات المتحدة لأحد الأمريكان المدافعين عن إخوانه من أصحاب هذه الدعوى في العالم العربي. وسألته ما إذا كان يطبق هذا المبدأ على الدستور الأمريكي، فيبيح لكل إنسان أن يفهمه كيف شاء، وما إذا كان يطبقه على القوانين الأمريكية أيضًا.

وقلت له: إن فعلت هذا فلا يكون هنالك معنى لوجود الدستور ولا القوانين، ولا معنى لوجود المحكمة العليا، ولا لوجود القضاة ما دام لا يحق لأحد منهم أن يلزم أحدًا برأيه. فإذا ما حكم القاضي على إنسان بالسجن مثلًا

---

(١) مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة. كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

كان من حقه أن يعترض القاضي قائلًا: إن هذا الحكم مبني على فهمك أنت للقانون يا سعادة القاضي. وهو فهم لا أوافقك عليه، فبأي حق تلزمني به، وتعاقبني على أساسه؟

ثانيًا: قد يقول بعضهم إننا لم نقصد بقولنا إن الكلام كلام الله والفهم فهم البشر أن يكون قاعدة عامة في كل كلام وكل فهم، وإنما قصدنا به ما ذكرنا فحسب: كلام الله وفهم البشر له.

ونقول: لماذا؟ ألا أن الله تعالى عاجز -سبحانه- عن أن ينقل إلى البشر ما ينقله بعضهم إلى بعض بلغتهم؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، أنه إنما أنزل القرآن بلغة البشر كي يفهموه. فكيف يكون قصده سبحانه من مخاطبتنا بالعربية أن يفهم عنه كل متحدث بها، ثم تكون النتيجة أن يفهم كل إنسان منه ما شاء، وأن يكون محقا فيما فهم؟ ما الفائدة من كلام كهذا؟ وهل يقول هذا عن الله تعالى من يقدره حق قدره؟

ثالثًا: إن الله تعالى يصف كتابه بأوصاف كثيرة يتناقض كلها مع هذه النسبية في الفهم. فهو يصفه بأنه هُدىً للناس. فكيف يكون هدىً إذا لم يكن لعباراته معنى محددًا. كيف يكون هدى إذا كان ما يفهم منه يمكن أن يدل على الشيء وعلى غيره وعلى نقيضه؟ كيف يهديك إلى الطريق الذي تريد من يقول لك سر شرقا وإن شئت فغربا أو شمالا أو جنوبا أو قف مكانك؟ ويصفه بأنه ذِكر. ويدعونا إلى أن نتدبره. فماذا نتدبر؟ ويحثنا على أن نأخذه بقوة وأن نستمسك به.

فما الذي نأخذه بقوة من بين كل تلك الفهوم المختلفة؟ ويحذرنا من

تحريفه، ومن الاستماع إلى المحرفين له فيقول ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ فماذا يكون التحريف إذا كان كل فهم مشروعًا؟ وأين تكون مواضع الكلم الحقيقية التي يحيد عنها المحرفون إذا كان كل موضع مقبولا؟ ويصفه بأنه لا اختلاف فيه، أي أنه كتاب متسق لا تناقض فيه. فهل يبقى هذا الاتساق مع تناقض المعاني التي تنسب إلى عباراته؟ كلا! إن كل عبارتين متسقتين تصبحان متناقضتين إذا ما أعطيت إحداهما معنى هو نقيض معناها الأول.

مثلًا إذا قلت إن الأعزب رجل غير متزوج كانت العبارة هذه متسقة بل هي تحصيل حاصل لأن كلمة أعزب إنما تعني الرجل غير المتزوج. ما ذا يحدث للعبارة بالنسبة لإنسان يفهم من كلمة الأعزب الرجل المتزوج؟ يصير معناها: المتزوج رجل غير متزوج. وكذلك الأمر بالنسبة لآيات القرآن الكريم. ولنأخذ عليها أمثلة من أخطاء حقيقية توجد في بعض كتب التفسير.

قال تعالى عن رسوله ﷺ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]. إذا أعطينا كلمة رمى الثانية نفس معنى رمى الأولى كما فعل بعض الناس ليستدلوا بالآية على مذهبهم في الجبر صار الكلام متناقضا كما تقول لإنسان مثلًا: وما أكلت إذ أكلت وإنما أكلت أنا، أو تقول له: ما رأيت إذ رأيت ولكن الذي رأى هو أنا.

فأنت تثبت له فعلًا ثم تنفيه وهذا عين التناقض، لذلك كان المعنى الصحيح للآية أن هو الذي يجعل كلمة رأى الثانية مختلفة المعنى عن كلمة رأى الأولى. وعلى هذا المعني الصحيح للكلمتين يكون معنى الآية: وما

أصبت إذ صوبت ولكن الله هو الذي أصاب.

وهذا المعنى المتسق هو الصحيح لأن هذا هو الذي حدث فعلًا. فكل ما فعله الرسول ﷺ هو أنه أخذ حفنة من تراب ورمي بها في جيش الكفار، لكن الله تعالى هو الذي أصاب كل واحد منهم بحبة من هذا التراب، وهو أمر لا يستطيع بشر أن يفعله.

مثال آخر: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٤]. قال بعضهم إن معنى الآية: ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب المؤمنين لله. فقيل لهم إن هذا يجعل الكلام متناقضًا. إذ كيف يكون حب المؤمنين لله مساويًا لحب هؤلاء لأندادهم ويكون في الوقت نفسه أشد منه؟ إن الأمثلة من آيات القرآن الكريم الدالة على أن الله تعالى أراد به معنى أو معان محددة لا تكاد تحصى. لكنني أكتفي بهذا القدر منها ففيه قناعة لمن تدبره[1]

فائدة: النسبية الخرافية:

أريد في البداية أن أميز بين ما يبدو لي أنه ثلاثة أنواع من النسبية. بالنسبة للزمان والمكان، النسبيتان الأوليان واقعيتان علميتان لا تتناقضان مع وجود الحقائق الخارجية وإمكانية معرفتها. أما النسبية الثالثة المنسوبة إلى الزمان

---

(١) مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة. كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

والمكان بوصفهما المكونين لوعاء الثقافة فهما اللذان يجعلان الحقائق الخارجية تابعة للثقافات البشرية السابقة عليها.

النسبية الأولى: هي التي تلزم فعلًا عن طبيعة الزمان وطبيعة المكان، وهي نسبية تصور لنا الواقع الخارجي كما هو ولا تجعله تابعا لأذهاننا. أشير هنا إلى نسبية القرب والبعد. فالشيء يكون قريبا بالنسبة لمكان ما وبعيدا بالنسبة لمكان آخر. فوصفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمسجد بيت المقدس بالمسجد الأقصى إنما هو بالنسبة لمكة، وهو ليس بالطبع أقصي بالنسبة لما حوله من القرى والمنازل. كذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ [الأنفال:٤٢]، إنما هو بالنسبة للمدينة لا مكة مثلًا. وما يقال عن المكان يقال عن الزمان أيضًا. فقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه:٩٩] فإنهم سابقون لمن جاء بعدهم لا لمن عاصرهم أو وجد قبلهم.

النسبية الثانية: هي التي تقررها نظرية آينشتاين. وهذه أيضًا إنما تصف واقعًا خارجيًا، وقد قيل إن صاحبها انزعج عندما وجد بعض الناس يفسرونها بمعنى نسبية الحقيقة، وقيل إنه حاول أن يعيد تسميتها فيطلق عليها نظرية الثبات أو عدم التبدل Invariance Theory لكن ذلك كان كما قالوا بعد فوات الأوان.

أما النسبية الثالثة: فنسبية خرافية وإن كان بين القائلين بها عدد من رجال الفكر الغربي والمقلدين لهم من العالم الإسلامي. فحوى هذه النسبية أن فهم الناس للنصوص تحكمه ثقافتهم؛ وبما أن الثقافات تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، فإن لكل أصحاب ثقافة معينة فهمهم الذي تمليه عليهم ثقافتهم. ومن

ثم فإنه كما كان لأسلافنا فهمهم لنصوص القرآن والسنة فإن لنا نحن أيضًا فهمنا الذي تمليه علينا ثقافة عصرنا، وهو فهم سيكون بالضرورة مختلفا عن فهمهم.

وكما اختلفنا نحن عن أسلافنا بسبب اختلاف ثقافتينا زمانًا، فسيختلف عنا المسلمون الأمريكيون مثلًا بسبب اختلاف ثقافتينا مكانا. لكننا جميعًا مسلمون نقرأ النصوص نفسها ونؤمن بأنها وحي من الله تعالى. وعليه فمن الخطأ أن يلزم بعضنا بعضا بفهمه أو يخطئ فهم غيره.

الفرق بين هذه النسبية الخرافية وبين النسبيتين الأوليين أن الأوليين تصفان واقعًا خارجيًا لا دخل لعقل الإنسان ولا ذوقه فيه، أما هذه فتجعل الواقع الخارجي تابعًا لأنواع مختلفة من الوعي البشري.

إن مثل الثقافة في هذه النسبية الخرافية كمثل نظارات مختلفة الألوان والتراكيب؛ فلابسُ هذه يرى العالم كله أخضر، ولابس تلك يراه أحمر، ولابس ثالثة يرى الصور المتحركة بأبعاد ثلاثة، وهكذا. الفرق بين النظارات والثقافات أن النظارات يمكن خلعها لكن الثقافة في هذا التصور الخرافي لا يمكن التخلي عنها، فلا يمكن رؤية العالم إلا من خلالها، ولا يمكن لذلك لأصحابها إلا أن يظلوا مختلفين كأنهم يعيشون في عوالم متعددة لا عالم واحد.

قد يُقال إن هذا الذي أنكرته ووصمته بالخرافة حقيقة أثبتها العلم. ألم يثبت العلم أن مشاهدتنا للعالم محكومة بطبيعة حواسنا؟ فنحن لا نرى ما في العالم أو نسمع منه إلا ما تسمح به طبيعة أعيننا وآذاننا.

إننا نعلم مثلًا عن غير طريق المشاهدة أن الماء الذي نراه سائلا متماسكا هو في حقيقته مكون من جزيئيان هيدروجينية وأكسجينية متفرقة. فلو كانت لنا أعين ترى ما هو دقيق دقة هذه الجزيئيات لرأينا الماء كما نرى سلة من الليمون أجساما بينها فراغات.

وهنالك أيضًا نظرية هايزنبيرج في عدم اليقين التي تقول إننا لا يمكن أن نشاهد الجسيّمات الصغيرة على حالها التي عليه، لأن مشاهدتنا لها تؤثر إما في مكانها أو حركة تسارعها. وهنالك نسبية أخرى تتعلق بفيزياء الكم بحسب بعض التفاسير. نقول إن كل هذا صحيح، لكنه أولا ليس من تلك النسبية المزعومة في شيء. إن كان فيه نسبية فهي نسبية يشترك فيها البشر جميعًا بغض النظر عن زمانهم ومكانهم، فلا يختلفون بسببها فيما يرون وما يسمعون. ثم إن هذا الذي أثبته العلم حديثا أمر لا يستغربه ولا يستنكره المسلم وهو يعلم من دينه أن مخلوقات الله تعالى تختلف فيما ترى وما تسمع مما هو في هذا الكون. فنبينا محمد ﷺ كان يرى خلفه كما يرى أمامه، وكان يرى بعض ما سيحدث في المستقبل كما يرى الحاضر. أخرج البخاري عن أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ».

ويحدثنا الرسول ﷺ أن هنالك مخلوقات تسمع ما لا يسمعه الإنس ولا الجن، فقال وهو يتحدث عن عذاب القبر في حديث أخرجه البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا

مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ». والجن يرى مالا يراه بنو آدم: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨][1].

فائدة: ما هي الثقافة التي يقال أنها تجعل فهم النصوص نسبيًا:

الثقافة المقصودة هنا هي الثقافة بمعناها عند علماء الاجتماع، وهي تكاد تشمل كل شيء له علاقة بحياة الناس: المعتقدات واللغة والعادات والمراسم والأعمال الفنية والمخترعات والتقنية والتراث.

أما **المعتقدات** فإننا نتحدث هنا عن أُناس مسلمين، فلا نستطيع أن نقول إن معتقداتهم الإسلامية تجعلهم يفهمون تلك المعتقدات بطرق مختلفة. أما إذا كانت المعتقدات غير إسلامية أو كانت مبتدعة منسوبة إلى الإسلام، وجعلت أصحابها يفهمون المعتقدات الإسلامية على غير ما فهمه أئمة المسلمين في الماضي والحاضر فإن فهمهم يكون خطأ إذ كيف يكون المعتقد المخالف للإسلام مسوغا لفهم جديد للإسلام؟ ولو أننا اعتبرنا كل فهم للإسلام ناتج عن معتقد له فهمًا سائغًا لما بقيت للإسلام بقية. لقد كان الجاهليون في زمان النبي ﷺ يستغربون عقيدة التوحيد غاية الاستغراب حتى إن قائلهم ليقول: ﴿أَجَعَلَ

---

(١) مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة. كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥].

وأما العادات والتقاليد والمراسم والأعمال الفنية فشأنها شأن المعتقدات من حيث كونها لا تكون حَكَمًا على الدين؛ فإن ما كان منها موافقا له فلن يؤدي إلى سوء فهم له، وما كان مخالفا له فينبغي أن يتغير هو لا الدين الحق.

وأما التراث فمن شأنه أن يكون معينًا على وحدة الفهم لا اختلافه.

أما اللغة فإذا كانت عربية فينبغي أن لا تؤدي إلى فهم مخالف لما فهمه أصحاب هذه اللغة في الماضي، وأما إذا كانت مخالفة فعلى أصحابها أن يتعلموا العربية التي نزل بها القرآن وتحدث بها الرسول ﷺ. أليس هذا هو الذي يفعله مؤرخو الفكر حين يريدون فهم ما قاله القدماء كفلاسفة اليونان مثلًا؟ ماذا بقي؟

التقنية والمخترعات؟ لست أدري ما علاقة التقنية بفهم النصوص. نعم إنها يمكن أن تعين علي كتابتها أو سهولة وجدانها مثلًا كما تفعل الآلات الكاتبة والكمبيوتر والالكترونيات.

أما الفهم فهي بمعزل عنه. لكن الذي له علاقة بالفهم والذي يمكن أن يؤدي إلى اختلاف عمّا فهم بعض الأسلاف هو الكشوف العلمية. فنحن الآن نقف في صف السلف الذين قالوا بكروية الأرض ونعلم أن الذين قالوا بكونها مسطحة كانوا مخطئين؛ وربما نعلم عن بعض الأشياء الطبيعية المذكورة في القرآن والسنة أكثر مما علم أسلافنا.

ألم يقل الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فُصِّلَت:٥٣]، لكن هذا أيضًا لا تعلق له بالنسبية إذ أننا سنحكم في هذه الحال على القول السابق بأنه خطأ. هو خطأ الآن وكان خطأ حين قيل[1].

(١) مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة. كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٩١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٦).

مصادر مقالات منهج التفكير

١- ارتكاب أخف الضررين[١]:

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن قاعدة ارتكاب أخف الضررين، وكيف جاء الأصوليون بهذه القاعدة، وذكر الدليل على أن هذه القاعدة الشرعية هي أيضًا قاعدة عقلية؟

٢- فائدة الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح[٢]:

تحدث الشيخ في هذه الكلمة عن فائدة الالتزام بالمنهج الصحيح وهو أنه إذا الإنسان التزم بمنهج صحيح وأخطأ يمكن أن أناقشه وكذلك بالنسبة للعموم الطبيعة، إذا قال إنسان عن شيء ما أنه خطأ يمكن مناقشته، هذا هو فائدة الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح.

٣- النقد الشامل مستحيل[٣]:

في هذا المقال يتحدث الشيخ عن مقولة النقد الشامل لكل شيء، وذلك على شكل حوار بين فتى وشيخه، قال الفتى لشيخه: كتب أحدهم مقالًا في جريدة مشهورة يدعو فيه إلى نقد شامل لا يستثنى منه شيء حتى النصوص

---

(١) موقع الشيخ جعفر، ١٤١٨هـ - الموافق ١٩٩٨م.

(٢) كلمة للشيخ جعفر بمناسبة تكريمه في مجلة البيان يوم الخميس ١٢/ ٤/ ١٤٣٣هـ.

(٣) شبكة المشكاة الإسلامية ٢٣/ ١١/ ١٤٢٥هـ - الموافق ٣ يناير ٢٠٠٥م.

الدينية، فما تقول فيه؟

٤- الإجوبة الإسلامية عن الأسئلة الفلسفية[١]:

تحدث الشيخ في هذا المقال عن نظرية المعرفة، وعن مفهوم العلم، وهل العلم ممكن؟ وكيف نتعلم؟ وماهي وسائل المعرف ومصادرها، وختم مقالته بالحديث عن الأدلة على الوحي.

٥- مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة:

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن أن الناس في عصرنا غلب على ظنهم أن هنالك منهجا علميًا واحدًا هو منهج العلوم الطبيعية حتى إن كثيرًا منهم ليستنكر استعمال هذا التعبير في مجال ديني، كما تحدث الشيخ عن الشبهات في فهم النصوص؛ وكذلك تحدث عن النسبية الخرافية، وختم مقاله بالحديث عن ضرورة المنهج العلمي

٦- ليسوا عقلانيين... وإنما هم أهل أهواء[٢]:

يبين الشيخ في هذا المقال أن ما شاع في عصرنا من أن اصطلاح (العقلانيين) وصفًا لأصحاب المناهج المنحرفة عن المنهج الصحيح لفهم الدين وتفسير نصوصه واستخلاص النتائج منها أنه مصطلح غير سديد ثم شرع الشيخ في تفصيل ذلك.

---

(١) مجلة منار السبيل، السنة الثانية العدد (٨)، رمضان ١٤١٤هـ - الموافق ١٩٩٣م.

(٢) مجلة البيان (١٤١)، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ - سبتمبر ١٩٩٩م.

٧- **مفهوم العقل**[١]:

ذكر الشيخ في هذه المقالة أن العقل جزء من الشرع؛ فكما أنه لا عقل كاملًا بلا شرع فكذلك لا شرع كاملًا بلا عقل، والشرع هو كل ما ورد في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ثم بين الشيخ حفظه الله معنى العقل فذكر أن السلف يقولون: إن العقل عقلان: غريزي، ومكتسب، فالغريزي هو ما نسميه بالمقدرات العقلية مِن فَهمْ، وإدراك، وفقه، واتساق في الكلام، وحسن تصرف إلى آخر، والعقل الغريزي هذا هو مناط التكليف؛ فمن لا عقل له لا يكلف، ومن فقد بعض مقدراته العقلية؛ فإنما يُكلف بحسب ما بقي له منها، والذي أعطي عقلًا ثم ألغاه فلم يستعمله الاستعمال الصحيح، ولم يلتزم بمبادئه لا يفقه الدين، فلا يؤمن به، لكنه يحاسب على عدم فقهه؛ لأنه كان نتيجة لتعطيله الاختياري لعقله.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٠٠]. فلا غرو أن جعل الله عقاب الذين لا يعقلون هذا هو نفسه عقاب الذين لا يؤمنون، ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، الرجس في أصله اللغوي هو النتن، فكأن الآيتين الكريمتين تدلان على أن نقاء القلب لا يتأتى إلا بنور العقل ونور الشرع ثم ختم الشيخ مقاله بمعاني العقل في القرآن الكريم.

---

(١) مجلة البيان (١٥٨)، شوال ١٤٢١هـ - يناير ٢٠٠١م.

٨- **معايير العقلاء** [١]:

بين الشيخ حفظه في هذا المقال وفي المقالات التي بعده معايير مشتركة بين جميع العقلاء من البشر فذكر في هذه المقالة القوانين المنطقية مثل قانون الاتساق أو عدم التناقض.

٩- **معايير العقلاء** [٢]:

وفي هذه المقالة ذكر الشيخ حفظه الله من معايير العقلاء شهادة الحس.

معايير العقلاء:

وفي هذه المقالة ذكر الشيخ حفظه الله من معايير العقلاء السنن الكونية.

١٠- **معايير العقلاء** [٣]:

وفي هذه المقالة ذكر الشيخ حفظه الله من معايير العقلاء النفع والضر

١١- **السلفيون هم العقلانيون** [٤]:

في هذه المقالة يقرر الشيخ حفظه الله أن السلفيين هم أجدر من غيرهم بوصفهم بأنهم عقلانيين إذا كان المقصود بالعقلانية قبول مقتضيات العقل، بأن تقبل النتائج التي تؤدي إليها الحجة العقلية الصحيحة، وبأن لا يقبل التناقض

---

(١) مجلة البيان (٢١٦)، شوال ١٤٢٦هـ - يناير ٢٠٠٥م.

(٢) مجلة البيان (٢١٧)، رمضان ١٤٢٦هـ - أكتوبر ٢٠٠٥م.

(٣) مجلة البيان (٢١٨)، شوال ١٤٢٦هـ - فبراير ٢٠٠٥م.

(٤) مجلة البيان (٢١٩)، ذي القعدة ١٤٢٦هـ - ديسمبر ٢٠٠٥م.

وأن لا تقبل دعوى إلا بدليل وأن يكون المقصود بالعقلانية إعمال العقل والتفكر، وقد بين الشيخ حفظه الله ذلك من خلال حوار بين عالم سلفي وصاحبه.

فوائد محاضرات منهج التفكير

فائدة: مناهج البحث ليست هي المشكلة، لكن المشكلة في الفلسفة التي توضع فيها هذه المناهج:

نتيجة البحث هذا هو شيء مشترك بين الناس، فمثلًا كونك تشاهد الشيء أو تجربه وتستنتج منه، الاستنتاج تدخل فيه التصورات الفلسفية التي توضع فيها مناهج البحث، لكن حتى الاستنتاج في حدود شيئًا مادي ما فيه اختلاف كثير ربنا ما خلق المؤمن له طبيعة مختلفة عن الكافر وإنما وسائل المعرفة واحدة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨].

ما عندنا طريقة لإدراك العلوم لا الدينية ولا الدنيوية إلا هذه الثلاث، سمع وأبصار وأفئدة يعني حواس وعقل نعرف بها الدين ونعرف بها الدنيا، ستختلف بعد ذلك في التفاصيل بحسب العلم المدرك فيه بعض الأشياء نطلب فيها الإدراك الحسي المباشر لأنها بطبيعتها هكذا أشياء تحس، فيه أشياء تاريخية لا يمكن أن نطلب منها شيء مباشر فالعلم هو الذي هو يحدد بعض تفاصيل المنهج فما أظن المناهج ستكون المشكلة كبيرة، لكن المشكلة هي في الفلسفة التي توضع فيها[1].

---

(١) الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٦٣٠).

فائدة: جميع العلوم ماعدا الكمبيوتر تدرس في إطار فلسفة معينة:

كل العلوم الذي تدرسونها الآن، سواءً كانت علوم اجتماعية أو طبيعية لا تتصورون ماعدا الكمبيوتر ما فيه علم من هذه العلوم يدرس في فراغ، كلها تدرس في إطار فلسفة معينة، هذه الفلسفة لا تذكر ما فيه كتاب في الفيزياء أو كذا يبدأ يقول لك انتبه ما فيه خالق، لكن، ولكن يفترض أنه ما فيه خالق ولذلك كما قلت إن الإلحاد أصبح جزءًا من مفهوم العلم أليس كذلك؟

الآن عندما تقول إن فلانًا فسر هذه المسألة تفسيرًا علميًا ما معناه؟ معناه أنه وجد لها أسباب من داخل الكون إذا قال أنا والله اكتشفت أن هذه المسألة من تأثير الملائكة يكون تفسير علمي؟

ما يكون تفسير علمي خصوصًا في اللغة العربية شيء مؤسف الشخص الذي ترجم (الساينس) هذه بعلم سبب لنا مشكلات، لأنه في اللغة الإنجليزية الآن هناك فرق بين (نلوج) (وساينس) (ساينس) أخص و(نلوج) أعم هذا ترجم لنا كلمة (ساينس) بعلم فاصبحنا في مشكلة فاصبح الناس الآن عندما يقولون العلم يقصدون (ساينس) لكن في اللغة العربية خلاص، أصبح العلم، القرآن كله مليء بالعلم، فأصبح هذا ليس علمًا وأهم العلم عندنا وأوثق علم وأشرف علم هو العلم بالله تعالى فأصبح هذا ليس علمًا، وأصبحت التفسيرات التي جاء بها القرآن الكريم كلها ليست تفسيرات علمية بحسب المصطلحات إنما هي تفسيرات دينية فأصبح الإلحاد جزءًا من مفهوم العلم إذا أردت أن تفسر

الشيء تفسيرًا علميًا معناه تبحث له عن سبب لا علاقة له بشيء غير مادي، فهذا شره في العلوم الاجتماعية أكبر ثم ليس هذا الإطار فقط نتأثر نحن أحيانًا حتى في الآراء العادية التي يقولوها إنسان في الاقتصاد أو في الإعلام أو في علم النفس رأي عادي يعني عادي فيأتي الأستاذ ويقول للطلاب إن علم النفس الحديث أثبت كذا كذا، كان يأتوني الطلاب ويقولون إن الأستاذ يقول إن علم النفس الحديث أثبت كذا.

فأقول لهم: أي واحد في علم النفس، مدارس علم النفس كثيرة وكيف أثبت شوف كيف التشويش على الناس، علم النفس الحديث تتصور أن علم النفس الحديث له أشناب جالس هناك في أمريكا ويثبت الأشياء فتخاف منه، ولذلك حدث شيء غريب في كل البلاد حتى في المملكة بعض الأساتذة للدراسات العلياء وأساتذة المدارس.

حصل تغير غريب في الماضي كان الناس يسلمون بالمسائل الدينية ويتساءلون عن الآراء البشرية الآن أنعكس الأمر إذا دخل أستاذ الدين وقال قصة آدم يقولون يا أستاذ لكن يقولون إن الإنسان كان أصله قرد إذا جاء الآخر وقال كان أصله قرد أو سمكة أو أي فهذا العلم لا يناقش، فأصبح الشيء الذي ينبغي أن يدرس بطريقة نقدية ويشجع الطلاب على أن يبدوا آرائهم أصبح يدرس بطريقة تلقينيه.

وأنا أحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما درسني الفلسفة عرب؛ لأن سأقول لكم قصة

كنا ندرس في جامعة الخرطوم يدرسنا شخص سويدي، وهذا الشخص السويدي يدرسنا فلسفة اسمها الفلسفة الوضعية المنطقية وهو بلغة أهل الحديث سنده في هذه الفلسفة عالي جدًّا، السند العالي هو أن يكون أقرب إلى صاحب القرار كان يدرسنا، هو درس على يد واحد في أمريكا اسمه راشن باخ، راشن باخ هذا شيخ حلقة كانت في فينا هذه الحلقة هم الذين أسسوا هذه الفلسفة.

فهذا كان يدرسنا بأن هذه الفلسفة نشأت في كذا ثم اختلف الجماعة كذا كذا ثم تطورت وتغير رأيه في كذا، في هذا الوقت أخرج الأستاذ زكي نجيب محمود، وهو يمكن أكبر شخص يعرف الفلسفة الغربية في العالم العربي مصر تعرفونه، الآن تجاوز الثمانين، أخرج كتاب اسمه الوضعية المنطقية باللغة العربية.

نحن كنا ندرس الفلسفة باللغة الإنجليزية نقرأ الكتاب عن الوضعية المنطقية باللغة العربية، أن أول صفحة فيه الوضعية مذهبي ما بقي له إلا أن يقول ألقى الله عليها، وهي كذا وهي كذا كأن ما فيها أبدًا شك وكأن ما حصل فيها تغيير دفاع عن الوضعية المنطقية من أول الكتاب إلى آخره.

وزكي نجيب محمود هذا أيضًا في كتابات أخرى يقول لقراء من العرب عن بعض الفلسفات التي يؤمن بها يقول هذه فلسفة العصر، أنت تخاف إذا قلت كلامًا غير فلسفة العصر معناها أنت عايش في القرون الوسطى خصوصًا إذا كان الشاب أو كذا يريد أن يكون إنسان معاصر يعيش عصره، في مره ثالثة أذكر أنه

قال ثم جاء عصرنا ليقول كذا كذا، وهذا الذي قال جاء عصرنا ليقوله هو رأي أستاذ درسني اسمه (ببر) له رأي وأنا أعرف بعض الناس ينتقدونه فيه، فزكي نجيب يقول جاء عصرنا ليقول كذا كذا[1].

فائدة: خطأ تدريس العلوم بطريقة تقريرية سواءً كانت علوم طبيعية أو علوم اجتماعية:

من أسوأ الأشياء أن تدرس هذه العلوم سواءً كانت علوم طبيعية أو علوم اجتماعية بطريقة تقريرية، وتقول للطالب هذا كذا وكذا وكأنها حقائق ما فيها شك، فهذا الشاب سعودي عندما سألني وقال أنا أدرس إعلام لكن لا أدري كيف أدرسهم من وجهة نظري الثانية. قلت له هذه المسألة تحتاج إلى بحث وإلى دراسة ويكون لك فهم أعمق في القرآن في السُنّة.

لكن أقول لك شيء أبدًا به: **أولًا**: ابتعد عن أن تدرس طلابك هذه المسائل بطريقة تقريرية، أقرا في الإعلام حاول أن تبحث عن أراء مختلفة هذا قال كذا، وأذكر هذا للطلاب جون كذا قال كذا، مستر سميث خالفه في هذا المدرسة الأمريكية تقول كذا، ولكن في مدرسة ماركسية تقول كذا، اجعل المسألة مضطربة في أذهانهم، لا تقول هذا كأنها مجمع عليها خصوصًا النظريات.

---

(١) الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٦٣٠).

النظريات هي التي تضر أما الحقائق أو الإحصاءات هذه لا تضر بشيء، ثم عندما تقرأ أنت حاول أن تنتقد بينك وبين نفسك وأنقل هذا إلى أبنائكم وطلابك، قل لهم سميث قال كذا، والماركسية قالت كذا، والرأسمالية قالت كذا وأنا في رأي كذا كذا ثم قل لهم ما رأيكم أنتم أنا متأكد أن لو كان هذه العلوم تدرس عندنا بمثل هذه الطريقة لنشأ فينا بعض علماء حقيقيون؛ لأنك يمكن أن تظل قرن كامل تدرس علم بالطريقة هذه التقريرية، لا يخرج من طلابك إنسان عنده أصالة أبدًا، وسنظل دائمًا تلاميذ للغربيين وكثير من علمائنا في العالم العربي رضوا لأنفسهم بهذا.

زكي نجيب محمود دائمًا أنا أضرب به مثلًا وأقول: هذه فلسفة والفلسفة هي أكثر شيء فيها اختلافات، فإذا كان إنسان في قدرة هذا الرجل وفي ذكائه وفي مقدرته على التعبير أنا أشهد أنه يكتب هذه الفلسفة الغربية بلغة عربية سلسة، وكأنها كتبت بهذا في أول الأمر فإذا كان رجل مثل هذا رضي بنفسه أن يظل في إلى ما بعد الثمانين أن يظل تلميذا للفلاسفة الغربيين لن يأتي بشي جديد[1].

فائدة: بطلان القول بأن علاقة الكون نفسه بشيء خارج الكون لا ينطبق عليه قانون السببية:

يقول (كانْت): إن قانون السببية هو قانون يصف العلاقة بين الأشياء التي

---

(١) الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٦٣٠).

في هذا الكون، أما علاقة الكون نفسه بشيء خارج الكون فلا ينطبق عليه قانون السببية، فلذلك لا تستطيع أن تقول أن تنتقل من الكون إلى خالق الكون؛ لأن إذا انتقلت ستقول إن هذا الكون لا بُدّ ان يكون له سبب وموجد، وكذا يقول لك هذا التصور للسببية تصور خطأ، لماذا قال هذا لا أدري، وجاء أُناس بعده فقالوا (كانَت) نفسه كيف عرف أن فيه خالق؟ مادام ما يمكن الانتقال ما دام لا يمكن الانتقال من الكون غلى خالق الكون إذا ما فيه خالق، فلنحذر هذا.

مسألة العقيدة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تصور صفاته تصورًا صحيحًا، هذه مسألة مهمة وهذا القانون الذي قاله الغربيون كان يقول قريبًا منه أهل السُّنة كانوا يقولون للجهمية هذا الذي تعبدونه ما هو، إذا كان لا يوصف بأنه لا حي وفوق ولا تحت ولا طويل ولا قصير ولا رحمان ولا رحيم ولا كذا، كانوا يقولون لهم أنتم تعبدون عدم، وفعلًا الفارق بين الإلحاد وبين هذا التصور لأسماء الله وصفاته لا شيء[1].

فائدة: التصور الخاطئ في الاعتقاد بأن الموجود هو الموجود المادي فقط:

هذه القضية تؤثر في تصورات كثيرة عندنا تؤثر في تصور الإنسان للألوهية، تؤثر في تصوره للملائكة تؤثر في تصوره في نعيم الأخرة؛ لأن إذا أعتقد أن

---

(١) الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٦٣٠).

الموجود حقيقة هو هذا وهو مع ذلك يريد أن يؤمن بالله ويؤمن بالملائكة ويؤمن بنعيم الأخرة، فلا بُدّ أن يتصوره وكأنه شيء ليس بحقيقي، إما في عالم الأفكار أو يدخله في العالم النفسي أوفي كذا لكن لا يكون موجودًا حقيقيًا؛ لأن الموجود الحقيقي الخارجي الذي يمكن أن يُرى ويمكن كذا هو الموجود المادي، هذه من الأفكار الغربية التي أثرت في المسلمين، ليس من الفكر الغربي الحديث فقط وإن كان قلته في المحاضرة وإنما هومن الفكر اليوناني؛ لأن الفكر اليوناني كان فكرًا ماديًا.

وبالمناسبة العبارة المشهورة المادة لا تستحدث ولا تفنى عبارة يونانية، ثم جاءت وأخذت شكل فيزيائي وصارت تقال لأبناء المسلمين وكأنها جزء من الحقائق الفيزيائية، هذه العبارة المادة لا تستحدث ولا تفنى، حتى أنا أقول للطلاب حتى الذي ترجمها، ترجمها بطريقة تكون ما فيها استفزاز لمشاعر المسلمين وإلا هي في أصلها المادة لا تخلق، ولو قال المادة لا تخلق ما كان الناس قبلوا، ولكن لو قال ما تستحدث ولا تفنى فقبلوا، وهي نفس المعنى.

أما إذا قلت إن كمية المادة لا تتغير هذا ما فيه شيء ضد الدين؛ لأن الفكر اليوناني كان فكرًا ماديًا إلحاديًا، فكان يعتقدون أن هذه المادة أزلية لأن الذي يقول بعدم وجود الخالق لا بُد له أن يقول أن المادة أزلية وإلا فيكون السؤال من أين جاءت؟ فيقول ما جاءت من العدم فيعطيها بعض صفات الله تعالى بأنها ليس لها بداية وليس لها نهاية وهذا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من صفات الله هو الأول والآخر فلا بُد له من أن يعطي هذه المادة هاتين الصفتين.

واستمر هذا الاعتقاد إلى زمان نيوتن، فقط اختلفوا طوال العصور في ما المادة الأزلية أما أن المادة أزلية فهذا كان عندهم مُسَلّم به فقديمًا ما كانوا يعتقدون بأن الأزلي هو المادة الكبيرة الأجرام السماوية، والإمام الغزالي له كلام في الرد على بعض الفلاسفة اليونان كان يقول: أن الشمس أزليه.

فالغزالي كانت ردوده ذكية جدًّا فأستعمل كل الحجج العقلية على ما يدل أن الشمس ليست أزلية، هو كان يقول إن هذه الشمس ما رأيناها ولا قال أبآنا ولا سمعنا ولا قرأنا في كتبهم أنها كانت أكبر من هذا فنقصت أو زادت، فالغزالي قال ليس من الشرط الفناء أو الذبول مثل أن يفنى الشخص مرة واحدة هكذا.

في الحقيقة أن أكثر ما أضعف المذهب المادي هو تطور العلم، بعكس ما يظن الناس، يعني أن التطور العلمي في الحقيقة هو تطور لصالح الدين؛ لأن الدعامة الأساسية للماديين كانت أن المادة أزلية، فصاروا كلما قالوا هذه هي الأزلية جاء العلم قال هذه ليست أزلية فبدأوا بالأجرام الكبيرة هذه.

طبعًا الآن كل إنسان يعرف أن الشمس مثلًا تنقص كل يوم تنقص أطنان بهذه الأشعة التي ترسلها، بدأوا يتنازلون من الأشياء الكبيرة إلى الأشياء الصغيرة فظنوا أول بالعناصر، العناصر معناها هي العناصر الأساسية التي يتكون منها المادة الذهب والفضة والحديد والنحاس والأكسجين والهيدروجين ثم بعد قليل تبين أن هذه أيضًا مكونه من جزئيات، والجزئيات متكونه من ذرات.

قالوا: الآن وصلنا إلى الجزء الذي لا يتجزأ (الأتم)، وهذا هو الذي بنت

عليه بالمناسبة الفلسفة في البداية حتى الفلسفة الماركسية بنيت على هذا أن الذرات هي الأزلية، ولهم طريقة في تفسير الكون كان الماديون يقولون إن في البداية ما كان هنالك إلا ذرات، وأن هذه الذرات عددها غير متناهي وهي أزلية وأبدية، وأن الكون يتكون منها بطريقة المصادفه وتطور العلم قليلًا وأثبت أن الذرات مكونه.

واستمر البحث والاكتشاف أجزاء أصغر وأصغر حتى أني آخر ما قرأت أنه تحت الذرة قريب من مائة، ثم تبين أنه لا حد فاصل بين المادة وبين الضوء من الناحية النظرية يمكن أن المادة نظريًا تتحول إلى ضوء، كما أن الضوء نظريًا ممكن أن يتحول إلى مادة، فإذًا أصبح ليس هنالك شيء بحسب ما يعرف العلماء ليس هنالك شيء يمكن أن تشير إليه وتقول هذا هو الأزلي، زمان ممكن كانوا يشيرون إلى الأجرام السماوية أو إلى العناصر أو إلى الذرات الآن ما فيه شيء، إذا أشار إلى أي واحدة من هذه أقول له أبدًا هذه تفنى، بعض الناس طبعًا تقول لهم هذه تفنى وهذه تفنى وهذه تفنى، يقول المادة لا تفنى لماذا لا تفنى وما هي؟ تصبح المادة التي لا تفنى هي المادة التي لا صفات لها، المادة التي لا يتعامل معها العلماء.

العالم لا يتعامل إلا مع مادة، حتى ما يسمونه النيترون لها صفات، فالعالم لا يتعامل مع مادة ليس لها صفات يمكن أن تتحول إلى شيء آخر، إذًا ليس هناك مادة يمكن أن نشير إليها بأيدينا ونقول هذه هي المادة الأزلية، والغريبة أن هذه من الحقائق التي أدركها ماركس، ولكن ما استطاع أن يجمع بينها ما

استطاع ان يلاحظ التناقض بين هذا القول وبين القول بأن المادة أزلية، لو لا حظه يمكن تغير تاريخ الماركسية، فهو قال كلامًا صحيحًا قال بأن المادة التي لا صفات لها لا توجد إلا في أذها الفلاسفة وهذا كلام صحيح جدًا.

إذا أضفنا إلى هذا حقيقة علمية وهي أنه في الواقع المادة التي ليست في أذان الفلاسفة وإنما المادة الموجودة أمامنا هي ليس منها شيء أزلي، إذا نقول إن المادة ليست أزليه.

وأنا كتبت مقالة وقلت: لنقرب الصورة، لنفرض أنه ليس في الوجود إلا ثلاث صور للمادة ثلاث صور فقط، نفترض أن منها واحد مثلث وواحد مربع وواحد دائرة، ونقول بصحة المبدأ أن الكتلة يعني أن كمية المادة لا تتغير، فعندنا هذه المادة وهذه المادة وهذه المادة إذا فنيت هذه ماذا يحدث إذا فني المربع ما عندنا إلا ثلاث صورة هذه وهذه وهذه.

إذا فنيت الدائرة تتحول إلى مثلث، وإذا فني المثلث تتحول إلى مربع، وإذا فني المربع وهكذا، هل نستطيع أن نشير إلى أي واحدة منها ونقول هذه باقية؟ما نستطيع إذا ما الباقي لا شيء كل واحدة منها يمكن أن تزول، ولكن سيكون دائمة الوجود ثلاثة الثلاث مثلثات أو الثلاث مربعات أو موجود منها كلها وهذا لا يتناقض مع الدين؛ لأن الذي يتناقض مع الدين أن نقول إن هنالك شيء أزلي وشيء دائم أزلي؛ لأن هذه صفة من صفات الله تعالى، وبما قاله أحد الفلاسفة الغربين وهو فليسوف ليس مؤمنًا، قال: إن التعبير أن المادة لا

تستحدث ولا تفنى تعبير أكثر مما يريد العلم، ممكن تقول تفنى وتستحدث وفي نفس الوقت هي كميتها ثابتة، وضرب مثل قال: لو عندك صهريج من الماء تصب فيه ماء من هنا وهو مفتوح لكن كمية المادة التي تصب هي كمية الماء الذي يخرج.

هل كمية المادة التي في الصهريج تتغير؟ هل نوعها يتغير؟ ما تتغير نفرض أن نصب وبعد كل فترة تتغير اللون مره يكون أخضر مرة أزرق لكن الكمية ثابتة وهو رجل ملحد، فكذلك لا يمكن أن نقول إنه تحدث ذرات وتفنى ذرات ولكن الكمية ثابته، فالقول بأن المادة لا تفنى ولا تستحدث كما قلت لكم هو تعبير يوناني فجيء به والصق في العلم.

والآن إذا سئلت ما أكبر انحراف فكري يمكن أن يؤثر في عقول المسلمين؟ هو هذا القول بأن المادة هي الشيء الموجود حقيقة؛ لأن هذا يؤثر في تصورك صفات الله وفي تصورك للملائكة وفي تصورك للدار الآخرة، الناس يميلون دائمًا إلى من يفسر لهم هذه الأشياء تفسيرًا يتناسب مع هذا الاعتقاد، وليس كافرًا يقول أنه لا يوجد إلا المادة لكن هذا يؤثر فيه تأثير كبيرًا، وأنا تعبت مع الطلبة جدًّا لما كنت أدرسهم مثلًا واحد يقول لي، أنا أقول المادة في كل صور من صورها تفنى، أنت تفنى، يقول أنا ما أفنى، إنما اتحول إلى تراب، طيب هل هذا التراب هو أنت، إذا أنت مت وإذا وجدنا أمك تبكي، نقول لها ما تبكين نعطيها التراب ونقول هذا ابنك لكنه تحول، هذا ليس ابنها الذي تبكي عليه مادة لها صورة معينة ولها خصائص معين،ة هذه المادة بهذه الصورة بهذه الخصائص تحولت.

الآن وأنا ظمآن تعطيني كمية هيدروجين وأكسجين ممكن يتكون منها ماء وتقول لي أشرب هذا ليس ماء، لو فيه ماء حللته إلى أكسجين وهيدروجين ما أصبح ماء لا يفيدني بشيء، فالماء انتهى لا بقي هيدروجين وأكسجين، الهيدروجين والأكسجين ينتهي أو لا ينتهي، نعم ينتهي يتحول إلى شيء أخر، فكل مادة في صورة معينة بخصائص معينة هي قابلة لأن تموت تتحول إلى شيء آخر كما أن الإنسان يموت، فالإنسان تحول إلى هذه الأملاح وبعض العناصر، هذه تتحول إلى كذا هذه تتحول إلى كذا، ليس هناك مادة يُشار إليها بالبنان ويقال هذه لا تتحول ولا تتغير.

وهذا أنا في رأيي لو كان هذا العلم الغربي علم عند المسلمين لكان بالعكس أوضحنا أن العلم يسير في طريق مؤيد للدين ومحرج للماديين؛ لأن الماديين في الماضي ماذا كانوا يقولون؟ يقولون أرنا الله جهرة إذا ما رأى بعينة هل فيه مادي يقول الآن بهذا، ثم ليس هذا فحسب العلم الآن من مناهجه المعتبرة جدًّا أن الشيء حتى لو ما رأيناه حتى لو كان مما لا يمكن أن يرى يمكن أن نستدل عليه، هل الذرات يراها الناس؟ لا تُرى كيف نعرفها بآثارها فهذا مبدأ منهجي علمي وبنفس المنهج الذي يستعمل في الدين.

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يرى الآن لكن يستدل عليه بموجوداته أخرى، وهكذا المادة بعض الأشياء يستدل على وجودها بوجود أشياء أخرى، بل بعض العلماء الفيزيائيين كانوا قبل أن يكتشف الشيء، بعض الأجرام السماوية كانوا يستنتجون وجودها بعمليات حسابية، ثم يأتي التجريبيون فيوجهوا التلسكوب

إلى المكان الذي قال الفيزيائيون نظريًا إنه يوجد فيه هذا الكوكب فيجدونه، فالعلم في الحقيقة سار في طريق محرج للماديين هذا من ناحية المادة أزلية أو ليست أزلية.

كان أيضًا إلى حين قريب المعهد الذي درست فيه أنا طالب في الفلسفة كان السؤال عن أن الله موجود أو غير موجود، وهو يعتبر كأنه من قلة الأدب يعني أن هذه مسألة فرغنا منها لا تسأل عنها خلاص، وكان بعض الفلاسفة هنا جاءوا من أمريكا يقول لك: أن السؤال نفسه غير مشروع الآن تغير الوضع، لماذا تغير؟ لأن نظريات الخلق في الماضي كانت تعتمد على أن المادة أزلية وأن هناك ذرات كثيرة لا حصر لها ولا عدد كانوا يسمونها السوب ومن هذه السوب تكونت الأشياء بعد قليل تغير هذا وصار أكبر نظرية أشار عليها العلماء.

الآن نظرية الإنفجار العظيم وهي (بق بانق)، وهي تقول أن المادة كلها كانت في كتلة واحدة فانفجرت وتكون منها الكون فأصبح السؤال طبيعي، فصار كثير من الجماعة يقولون والله الآن السؤال عن الخلق سؤال مشروع ولا بُد أن يسأل طبعًا بعض العلماء سيقولون ومعهم حق يقول أنا بصفتي عالمًا فيزيائيًا يقول لا تسألني من أين جاءت هذه؟ أسالني ما ذا حدث بعد مجيئها، إذا أنت فيزيائي لست مهتمًا بهذا الموضوع أنا مهتم به، فإذا كنت لا تستطيع أن تجيب عليه من ناحية فيزيائية فهذا ليس معناه أن السؤال غير مشروع، فأصبحوا يقولون السؤال مشروع ولذلك عاد الكلام عن وجود الخالق، بدأوا في السنوات الأخيرة رأيت عدة كتب في هذا وأصبح الكلام عن وجود الخالق كلام مشروع

لكن مع الأسف أن الخالق الذي يعرفونه هو هذا الخالق الذي يتكلم عنه فلاسفتهم أو النصرانية.

أنا أحيانًا أجد في نفسي بعض العطف مع بعض الملحدين هؤلاء وهذا الخالق الذي أنكروه نحن أيضًا ننكره، هو شيء لا يقبله العقل، فلو أن هذ العلم كان عند المسلمين أولو أن المسلمين المعاصرين أصبح لهم صوت مسموع بعضهم أكتشف شيء أو كذا وأصبح معروف الناس يستمعون إليه.

في كتاب الآن كنت أراجع تايمز هذا الأسبوع هو الثاني والثلاثين وهو في قائمة العشرة كتب هذه اسمه (هستري أف تايم) كتبه كاتب يعتبر أكبر فيزيائي معاصر وهو من أعجب مخلوقات الله كواحد إنجليزي عنده مرض كل مرة يضعف أعصابه، ما بقي له الآن إلا أن يحرك أصبعه فقط، لا يتكلم ولا يتحرك وجالس على كرسي وعنده كمبيوتر يضرب عليه وهذه طريقة مخاطبته للناس والمعادلات كلها في رأسه.

حتى قال واحد إن هذا أثبت أن العقل هذا ماله علاقه بالجسم؛ لأن الجسم ما فيه فايدة أبدًا ما بقي إلا العقل، فيخاطب الناس بأصبعه، الكتابة تتحول إلى صوت بهذه الطريقة، فهذا كتب كتاب وهو ملحد، عن كيف الكون بدأ وكيف الخلق بدأ بالنسبة للبشر سهل، فلو أن عالمًا مسلمًا كتب كتابًا مثل هذا لقال أن الكون مخلوق له خالق له صفات كذا كذا لأن، لأن الكلام في الفيزياء عن هذه الأمور فيها كلام من السخف ما لا تجده عند الفلاسفة المهم

أنهم يبحثون كيف أن هذا الكون هذا شيء طبيعي عند البشر.

وبالمناسبة من الأشياء التي تجعلني دائمًا أهتم بمسألة صفات الله تعالى والرد على هذا الفكر الذي كان يسمى الذي بالفكر الإسلامي الجهمية، ومازال فكرًا وهذه مسألة انتبهوا لها من الأشياء التي يقررها مؤرخو الفكر الغربيين أن الذين وضعوا أسس الإلحاد كانوا مؤمنين بالخالق، بالفعل كيف وضعوا أسس الإلحاد، وصفوا الله بصفات وتصوروا علاقته بالكون بطريقة جعلت وجوده غير مهم، فكانت الخطوة التي تليها ما فيه لزوم لهذا الخاق مادام أنه موجود ولا تأثير له في الكون؛ لأنه لما خلق الكون ووضع كل القوانين وكذا وكذا ماله علاقة بالله، إذًا ما دام الكون الآن شغال وغير محتاج فليس هناك لازم لهذا الافتراض[1].

فائدة: إذا تعارض ما في القرآن مع ما يأتي من العلم الخارجي:

قلنا: إن ما في القرآن علم، ما في القرآن وصحيح السنة علمٌ، وما يأتينا من العالم الخارجي أيضًا علم. ماذا نفعل إذا تعارض شيءٌ من هذا مع شيء من ذاك؟

هذه أيضًا من القضايا التي شغلت العلماء المسلمين وكثيرون منهم وضعوا قوانين سموها قانون التأويل وكثير من هذه القوانين التي وضعوها ليست صحيحة.

---

(١) الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٦٣٠).

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وضع قانونًا أحب أن أقرأ عليكم شيئًا منه، وأنا في رأيي أن هذا هو القانون الصحيح.

هذا هو المبدأ الصحيح الذي ينبغي أن نسير عليه حين يقال إنه تعارَض شيءٌ من الدين يعني من القرآن والسنة مع شيءٍ من العقل أو من الحس. قال: إذا قيل تعارض دليلان سواءٌ كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا.

فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما (يستحيل)، إذا كنا نقطع بأن هذا قول الرسول ﷺ يعني الخبر ثابت وفهمنا له قطعي، القرآن ثابت بالتواتر فثبوته قطعي، لكن إذا كان فهمنا أيضًا قطعيًا فلا يمكن أن يتعارض نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة مع حقيقة قطعية عقلية أو حسية. لا يمكن أن يتعارض هذا مع ذاك.

سأشرح لكم الكلام بدل أن أقرأه إذن لا يمكن أن يتعارضَا، إذا تعارضَا فلا بُد أن يكون هنالك خطأ إما أن أحدهما ليس بقطعي بل هو ظني وإما أن ما ظن أنه عقلي ليس في الحقيقة بعقلي وإنما هو شيءٌ توهمه إنسان وقال هذا عقلي، أو ما نسب إلى الدين وقيل أنه قطعي.

ماذا نفعل إذا كان أحدهما قطعيًا سواءٌ كان هو السمع أو العقل؟

قال ابن تيمية: نقدم القطعي بغض النظر عن كونه سمعيًا أو عقليًا، القطعي يقدم دائمًا. ماذا نفعل إذا كانا ظنيين؟ إذا كانا ظنيين نبحث فنحاول أن نرجح أحدهما بما يمكن ترجيحه من الأدلة وأيهما رجح قدمناه على الآخر. كثير من الناس الآن يخطئون في هذا.

بعض الناس يقولون: إن الحقائق العلمية تتغير، ولذلك ينبغي ألا نلقي لها بالًا أو لا نفسر بها القرآن أو كذا أو كذا، الحقائق إذا كانت قطعية لا تتغير، إذا اكتشفنا أن الأرض كرة فلن نكتشف بعد عشر سنوات أنها مكعبة، هذه حقيقة لا تتغير أبدًا، فهذه حقيقة قطعية فإذن كل فهمٍ لآية قرآنية أو لحديث يخالف هذا الأمر القطعي فيقدم هذا الأمر القطعي عليه وتفهم النصوص في ضوء هذا الأمر القطعي؛ وكذلك إذا كان الأمر بالعكس عندنا شيءٌ قطعي من الدين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١-٢].

فإذا جاءنا إنسان وقال: أنا عندي دليل وكذا وكذا على أن العالم له خالقان أو كذا، لا يمكن أن نقبل هذا. القطعي هذا لا نقدم عليه شيئًا. إذا كانا ظنيين نبحث في الترجيح.

العلوم فيها أشياء قطعية وفيها أشياء ظنية كالنظريات وفيها أشياء ثبت بطلانها، فما كان قطعيًا قبلناه، ما كان ظنيًا قبلناه ما لم يخالفه شيءٌ قطعي عندنا في الدين أو يخالفه شيءٌ ظني أرجح منه دليلًا، وأما ما ثبت بطلانه فهم يرفضونه ونحن أيضًا لا نقبله.

نحن إذًا لا نقابل بين الدين والعلم، ولا نقابل بين الدين والعقل، ولا نقابل بين الدين والحس، هذه المقابلة لا وجود لها في التصور الإسلامي؛ لأن القرآن الكريم فيه الخبر الصادق والخبر الصادق كما يقولون -مركب من السمع والعقل، وفيها الأدلة العقلية، فما كل ما في القرآن مجرد أخبار، بل فيه أدلة عقلية يخاطب بها الإنسان بغض النظر عن كونه مؤمنًا بأن هذا القرآن كلام الله، أو ليس بمؤمن، وفيه كلام عن الكون الحسي، كما أن العلوم العقلية فيها ما يتعلق بوجود الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبعض صفاته تفهم بالعقل وبآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفيها ما يتعلق بالكون وكذلك العلوم العقلية، فإذن نحن لا نقابل، بل نقول: الدين في ناحية والعقل في ناحية، أو: الحس في ناحية، والدين في ناحية أو: العلم في ناحية والدين في الناحية الأخرى[1].

فائدة: من الأخطاء التي يقع فيها البعض في الرد على الملحدين والماديين:

من الأخطاء التي وقعنا فيها أننا سلمنا لهم ببعض الدعاوى التي يدعونها. هم يظهرون بأنهم يعظمون العقل جدًّا، فجنح كثير منا إلى التهوين من شأن العقل، يعني كأن الدين لا يقوم إلا إذا هوَّنَّا من شأن العقل، فإذا كانوا هم قد استطالوا بعقولهم فنحن سلمنا -لا أقول نحن جميعًا؛ بعضنا سلم لهم بذلك-.

---

(١) الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٦٣٠).

ولذلك يوصف بعض الناس على سبيل الذم بأنهم عقلانيون أو أنهم يعتمدون على العقل.

وأنتم تعرفون أن أهل السُنّة لم يكونوا يصفون إنسانًا ضالًا بأنه صاحب عقل أو أنه عقلاني، ولكن كانوا يسمونها الفرق الضالة أو أصحاب الأهواء؛ لأن هنالك فرقًا كبيرًا بين العقل وبين الهوى. فهذه من المسائل التي وقعنا فيها مع أننا نقرأ كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أوله إلى آخره لا نجد فيه أبدًا أنه ذم إنسانا؛ لأنه استعمل عقله أو اعتمد على عقله أبدًا، بل نجد فيه ذمًا للذين لم يؤمنوا بأنهم لا يعقلون، فهذا خطأ.

والخطأ الثاني: الذي وقعنا فيه أيضًا: أنهم قالوا إن علمهم كله مبني على الحس والعقل، فأيضًا أردنا أن نهوِّن من شأن الحس، قالوا: إن الموجود لا بُد أن يكون محسوسًا، فقلنا نحن كلامًا -أو قال بعضنا- كلامًا قريبًا من كلام الجهمية. لا. ليس من شرط الموجود أن يكون محسوسًا وأنا واحدٌ من الذين كانوا يقولون هذا الكلام إلى أن تبين لي أنه خطأ من قراءاتي لعلماء المسلمين ولا سيّما شيخ الإسلام ابن تيمية -. نعم، إن الموجود لا بُد أن يكون محسوسًا، محسوسًا بمعنى يمكن أن يُحس، ليس معناه أنه يحسه كل إنسان في كل وقت، هذا لا يقوله عاقل حتى عن الأشياء الدنيوية، فنحن -كما قلت- لكي نرد على الماديين أنكر بعضنا هذه القاعدة مع أن علماءنا كانوا يقررونها.

شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في كتابه (نقض التأسيس): إن الموجود لا بُد

أن يكون محسوسًا، وعلماء أهل السنة كانوا في ردهم على الجهمية والمعتزلة الذين ينكرون رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هم لا ينكرونها على أساس أنه ليست هنالك نصوص أو كذا ولكن يعتبرونها مبدأ مسألة عقلية أن الله لا يمكن أن يُرى، فقالوا لهم: إذا كان لا يمكن أن يُرى فهو ليس بموجود؛ لأن الشيء إذا كان موجودًا فيمكن أن يُرى، أما أن لا يراه بعض الناس في بعض الأحوال أو لا تراه بعض المخلوقات في بعض الأحوال، نعم هذا ممكن، وهذا أيضًا يصدق على كل موجودٍ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذن ينبغي أن نحذر أيضًا من هذا الشطط. فهذا عن الحس.

أيضًا عن العلم ادَّعوا أن العلم يؤيدهم وفسروا العلم تفسيرًا خاصًا، فبدلًا من أن نرد على فهمهم للعلم، ونقول: إن هذا التصور للعلم تصورٌ ليس بصحيح، وقع بعضنا أيضًا في الفخ، وبدأوا يقللون من شأن العلم، ويجعلون كما يجعل الكفار العلم في ناحية والدين في الناحية الأخرى وهكذا.

ما الإجابة الصحيحة؟ الإجابة الصحيحة: أن نقول لهم: نحن متفقون معكم على أن طرق العلم هي الحس والعقل، هذه طرق العلم ونحن معكم في هذا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

إذن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا إطلاقًا، فكل علم عندنا جاءنا عن طريق الحس أو عن طريق الفؤاد الذي نسميه الآن العقل، وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد ذكرت السمع والبصر وآيات كثيرة تذكر السمع والبصر؛

لأن السمع والبصر هما أهم الحواس، وإلا فالحواس الأخرى أيضًا ذكرت في آيات أخرى مثلًا: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧]، ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا أنكر عليهم أنهم يلمسون شيئًا بأيديهم ثم ينكرونه، أو يقولون: إن هذا سحر أو كذا أو كذا.

وأيضًا الذوق جاء في القرآن الكريم وكذلك الشم: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف:٩٤]، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢] وهكذا، فكل الحواس مذكورة في القرآن الكريم لكن الحواس المهمة هي السمع والبصر، ولذلك يكون التركيز عليها في القرآن الكريم. إذن نقول لهم: نحن متفقون.

بعضنا يخطئ هنا، فيقول: هم يقولون الحس والعقل ولكننا نقول: الحس والعقل والوحي. هذا خطأ؛ لأن الحس والعقل طريقان للمعرفة، وأما الوحي فهو مصدر للمعرفة. هذه مجرد اصطلاحات في الألفاظ وإلا المهم عندي هو المعنى. ينبغي ألا نخلط بين الطرق التي نعرف بها، والمصدر الذي نأخذ منه العلم، فالسمع والبصر والفؤاد طرقٌ للمعرفة، أما الوحي فهو مصدر للمعرفة.

كما أن الكون هذا مصدر للمعرفة، فنحن لا نعرف شيئًا سواءً كان شيئًا محسوسًا أو كان وحيًا، لا نعرفه إلا بهذه الطرق فقط، وهي الحس والعقل ونضيف إليها ما تركب منهما، فتكون الطرق ثلاثة: حس وعقل وشيءٌ مركبٌ

من الحس والعقل[١].

فائدة: ليس هناك -من حيث المبدأ- تضاد بين ما يُذْكَر في القرآن الكريم وما يوجد في الواقع؟

العلماء المسلمون في الماضي فكروا في هذا الأمر وكيف يُوَفَّق بين ما نعتقد أنه حقائق في الدين ونعتقد أنه حقائق عقلية أو علمية، ووضعوا قواعد وقوانين مختلفة.

وقد كتبت مرة عن القانون الذي وضعه شيخ الإسلام ابن تيمية، وفي نظري هي أقربها إلى الصواب. فهو يقول مادام أن القرآن هو كلام الله والكون هو خلق الله، إذن لا يمكن أن يكون هناك -من حيث المبدأ- تضاد بين ما يُذْكَر في القرآن الكريم وما يوجد في الواقع.

وطبعًا ما نعرفه في الواقع نعرفه بالحس، فليس لدينا طريقة غيرها. إذن، إذا اختلفا فلا بُدّ أن ما ظننا انه نقل ليس بنقل صحيح، مثلًا الحديث ضعيف أو موضوع. أو كان النقل صحيحًا لكن فهمنا ليس بصحيح.

فهنا تكون القاعدة موجودة، فالخطأ هنا منا. ظنناه نقلًا وهو ليس بنقل، فهمناه فهمًا ليس بصحيح، أو ظنناه عقلًا وهو ليس بعقل، ظنناه موجودًا وهو ليس بموجود. لكن إذا سلمنا من هذا لا يمكن أن يكون هناك خلاف. لكن قال

---

(١) علوم الدين والعلوم التجريبية والعقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٦٥).

بعد هذا إن ما كل ما نعرفه من الدين نعرفه معرفة يقينية، وليس كل ما نعرفه من الواقع نعرفه معرفة يقينية. لكن أحيانًا يكون لدينا يقين هنا وأحيانًا يكون لدينا يقين هناك. فإذا كان بعض العلم ظنيًا وبعضه قطعيًا أيهما نقدم؟ قال: نقدم القطعي أيا كان، سواء كان في الدين أو في الدنيا. أضرب مثلًا بكروية الأرض.

عندي آيات يمكن أن يفهم منها بعض الناس أن الأرض مسطحة، وهذه الحقيقة قطعية أقدمها. فإذا قيل إذا كان ظنيين ماذا نفعل؟ قال نقدم أرجحهما دليلًا. فالمقارنة هنا ليست بعلم الله وإنما هي مقارنة علمنا بالواقع وعلمنا بما قال الله تعالى. فالمشكلة التي تحدث لنا هنا قد تحدث لنا هناك. ليس لأن هذا كلام الله فيكون فهمنا له كما أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. كما أن ليس لأن هذا خلق الله يكون فهمنا له دائمًا كما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأريد أن أقرر فقط اعتراضا على ما قاله الأخ يوسف العالم. أنا من الذين يعتقدون أن علومنا ينبغي أن تكون علومًا لكي تفسر الحقائق في العالم كله، سواء كانت الحقائق الطبيعية أو الاجتماعية، علم الاجتماع الإسلامي ليس علمًا للمجتمعات الإسلامية فقط، والقرآن الكريم وما فيه من السنن ليست خاصة بالمسلمين فقط، بل ربما يكون أغلبها عن غير المسلمين.

عندما يقول القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:٩] من هم هؤلاء؟ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ

مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١] من هم هؤلاء؟ المصلون؟ لأنه قال في النهاية ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾. فإذن، القرآن يصف لنا الواقع، واقع المسلمين وواقع غير المسلمين. ويعطينا السنن. بعضها طبيعي في الكون الطبيعي كله، وبعضها اجتماعي يحدث لكل الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين وبعضها يحدث للكفار.

مثلًا ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر:٤٣]. أي ما حدث لأولئك يحدث لكم أنتم، أو ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة:١١٣] لماذا؟ ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وهذا تفسير نفسي. وهكذا، في القرآن سنن كثيرة، بعضها تفسر لنا واقع المجتمعات غير المسلمة وبعضها يفسر لنا واقع المجتمعات المسلمة، وبعضها يفسر لنا واقع المجتمع من حيث هو سواء كان مسلمًا أو غير مسلم وهذا هو الذي ينبغي أن يكون لأننا ماذا نستفيد من علومنا هذه إذا ما استطعنا أن نحلل بها واقع الحضارة الغربية وواقع الكفار.

ونقول ماذا ستكون نتيجتهم وكيف نواجههم؟ هل نذهب إليهم ونأخذ منهم نظريات يفسرون بها واقعهم؟ ونقول هذه هي النظريات التي نفسر نحن بها واقعهم لأن واقعهم مختلف عن واقعنا، ولذلك نظرياتهم تتناسب معهم ونظرياتنا تتناسب معنا؟ هذه نسبية لا نريدها أبدًا.

نحن نعتقد أن هناك طريقة لمعرفة الواقع كما هو، أي أن الموضوعية ممكنه، وأن الإنسان كلما اقترب من الدين الصحيح كلما أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فرقانًا يرى به الواقع ويفرق التفرقة الصحيحة بين ما هو موجود في هذا الكون

ويفسره تفسيرًا صحيحًا، فنحن نعتقد أن التفسير الخطأ والنظرة الغالطة كل هذا سببه انحراف عن الفطرة الأساسية التي فطر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الناس عليها، والتي جاء القرآن الكريم؛ ليكون امتدادًا وتقوية له[1].

فائدة: الطريقة في معرفة الحقائق تؤثر في هذه الحقائق:

إن طريقتنا في معرفة الحقائق تؤثر في هذه الحقائق. لكن أهم ما دعاهم إلى هذا التفكير هو دراسة تاريخ العلم، وهذا أمر أهملناه جدًّا مع الأسف. وباستثناء بعض إخواننا الذين اهتموا بتاريخ العلوم عند المسلمين فإن هذا أمر أهملناه. نحن ظننا أن العلم أهميته فقط في واقعه الآن وفي حاضره. لكن تاريخ العلم، حتى لو كانت النظريات التي قال بها العلماء السابقون أصبحت باطلة، تاريخ العلم نفسه هو دراسة، ودراسة هذا التاريخ أوصلتهم إلى نتائج عجيبة.

كان أول من كتب عنها أحد الأمريكان واسمه كُون، وكتابه أحدث ثورة تقريبًا. عنوان الكتاب (The Structure Of Scientific Revolution) (بنية الثورات العلمية). هذا الرجل كان دارسًا للفيزياء النظرية، ثم تحول فبدأ يدرس تاريخ العلوم، ولاحظ شيئًا عجيبًا وكتبه في الكتاب، وهو أن الناس من عهد إلى عهد في التاريخ تتغير نظرتهم لما هو علم، لمفهوم العلم وللمنهج وللتفسير وغير ذلك. لماذا؟

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٧٨).

قال: في كل حقبة من حقب التاريخ يكون هناك إطار يضع الناس أنفسهم فيه، في ضوء هذا الإطار يشاهدون، وفي ضوء هذا الإطار يفعلون كذا وكذا. طبعًا لم يوافق الناس جميعًا على كل ما قال، لكن هذه الحقيقة مما قال أصبحت أمرًا مسلمًا به. طبعًا هو وبعض الآخرين غلوا في تفسيرها، لكن هذا لا يهمنا الآن.

المهم أنه من المتفق عليه الآن أن للعلوم أطرًا، وهذه الأطر ليست من العلم. يسمونها فلسفة أو آراء ميتافيزيقية ما ورائية أو قيمًا، هي التي تؤثر في العلم. سنتحدث فيما بعد إن شاء الله عن مدى هذا التأثير، لكن هذا تقريبًا متفق عليه. ما هي هذه الأطر؟ الذي سأقوله هو من عندي لكنه مستخلص من هذه الدراسات.

يمكن أن نقول إن هذه الأطر أنواع، بعضها واسع جدًّا وبعضها أضيق، بعضها يدخل في بعضها الآخر. الإطار الكبير الذي يمكن أن نسميه بفلسفة الإنسان في الحياة أو دينه أو كذا، هذا الإطار الكبير في هذا الاطار يحدد الإنسان ما هو موجود. أي ما الذي يعترف بوجوده، وإذا حدد ما هو الموجود، إذا تحدد على ضوء هذا ما هو العلم. العلم سيكون بهذا النوع من الموجودات. كل كلام عن أي نوع آخر لم يعترف به الإطار لا يعتبر علما، يعتبر خرافة. ويتحدد المنهج؛ لأنه سيكون هو المنهج المؤدي إلى العلم بهذا النوع من الموجودات وكذلك التفسير العلمي، وهكذا.

هذا الإطار يضع فيه الناس أنفسهم في حقبة من حقب التاريخ، ويربون عليه طلاب العلم ويتربون على هذا. لا يقال لهم إن هناك إطارًا، ولكن يقال لهم الموجودات هي كذا، العلم هو كذا، المنهج العلمي هو كذا وكذا؛ لأن المدرس نفسه لا يعرف أن هناك إطارًا في الغالب، وإنما يتقمصه من غير أن يعرفه، يُشربه (على طريقة الذين أُشربوا العجل) من غير أن يكون واعيًا به.

ومعظم الناس يعملون حسب كلام كون Kuhn فيما سماه العلم العادي الذي يضع الإطار الذي أطلق عليه (الثورة العلمية). بعد أن توضع الأطر يأتي معظم الناس والطلاب والعلماء العاديون ويعملون داخل هذا الإطار إلى أن يأذن الله بتغيير لهذا الإطار ووضع إطار جديد. في داخل هذا الإطار الفلسفي العام تكون هناك أطر أخرى.

نتنقل الآن سؤالنا المهم وهو: ما الإطار العام الشائع لكل العلوم، سواء كانت طبيعية أو إنسانية، وما الذي تحدد في ضوئه نوع الموجودات والعلم والمنهج العلمي وما إلى ذلك؟ أنا كنت أقول دائمًا كلامًا لإخواننا، وكثيرًا ما ينكره المختصون بهذا العلوم. كنت أقول لهم: أنتم تنكرون لأنكم لم تهتموا بهذه الناحية من العلم، من علمكم. هذه ناحية اهتم بها من يسمون بفلاسفة العلوم. وكانوا يظنون أن هذا كلام من عندي. طبعًا جزء منه من عندي، لكن الحقيقة في أساسها هم متعرفون بها.

فالآن في هذه المحاضرة حاولت أن أجد قائلين من الغربيين للكلام الذي

كنت أقوله. ملخص ما كنت أقوله دائمًا إن الإطار الذي توضع فيه العلوم الآن هو إطار إلحادي مادي. قلت هذا الكلام سنة ١٩٧٦م في الولايات المتحدة فانبرى لي حد إخواننا الأساتذة وكان دكتورًا في الإحصاء، قال لي: أهذا كلام؟! الآن إذا ذهبت إلى أحد أساتذة الفيزياء وقلت له إن أحد إخواننا من السودان يقول إن علم الفيزياء مثلًا إطاره إلحادي، سيسخر ويتساءل: ما علاقة الفيزياء بالإلحاد؟ سيسخر لأنه لا يعرف هذا الموضوع.

أنا ما قلت إن كتاب الفيزياء يبدأ بأن يقول للناس ليس هناك إله ولا كذا وكذا، ولكنه يفترض أنه لا يوجد إله، يفترض هذا افتراضًا. والعلم الذي يفترضه والتفسير الذي يفترضه، ألا يفرق الناس تفريقًا حاسمًا بين التفسير العلمي والتفسير الديني؟ ما السبب؟ التفسير العلمي هو أن تفسر الأشياء بأسباب من داخل الكون. هذا هو الافتراض الإلحادي، أنك لا تعترف بأثر خارج الكون.

هذا الكلام سأذكر لكن الآن بعض ما قاله الغربيون: أولا قالوا إن هذا العلم بالرغم من أنه شاع الآن وأصبح شيئًا عالميًا، إلاّ أنه في نشأته هو إنجاز أوروبي. ونحن لا بُد أن نعترف بهذا مهما قلنا من مشاركة المسلمين وما إلى ذلك.

العلم بمعناه الشائع الآن هو إنجاز أوروبي، وهذا العلم نشأ في ظروف خاصة، كلنا يعرف طرفًا منها، أهم ما نعرفه منها -وهو شيء مهم في حد ذاته-

هو أن العلم جاء نتيجة الصراع بين أصحاب هذا العلم وبين رجال الدين، فهو في نشأته نشأ مصارعًا للدين المسيحي.

ولذلك كان كلما تغلب هذا العلم على المسيحية في معركة من المعارك ابتعد خطوة عن الدين. ما نشأ من أول أمره ملحدًا، لا. وكثير من العلماء -كما سنذكر- كانوا هم من المسيحيين. ثم لما تمت له الغلبة اعتبر غلبته على النصرانية أو على المسيحية غلبة على الأديان كلها.

وهذا أيضًا من استكبار الغربيين، أي يظنون أنه حتى دينهم الباطل هو أحسن الأديان. ما دام هو ديننا ونحن متطورون فهو لا بُدّ أن يكون أحسن دين. وكان من نتائج هذا أن وُضعَ العلم في جانب، ووضع الدين في زمرة السحر والكهانة والخرافات. لماذا؟ لأن الدين الذي صارعه هذا العلم كان مختلطًا بكل هذه الأمور، فاعتبر إذا هذا في جانب، وكل هذه في جانب آخر. واعتبر الدين خطرًا على التطور العلمي، ولذلك كلما ابتعد عنه كان هذا أحسن للعلم.

أذكر لكم -كما وعدت- بعض من قال هذا الكلام. يقول أحد مؤرخي العلوم وهو كاتب مقال (تاريخ العلم) في دائرة المعارف البريطانية: (إن تصور المعرفة الذي كان سائدًا في القرن السادس عشر كان لا يزال مختلفًا اختلافًا جذريًا عن مفهومنا اليوم).

ثم يقول: «بما أن العالم المحسوس (يعني في ذلك الوقت) كان متأثرًا تأثرًا شديدًا بالقوى الفاعلة الإلهية والجنية والسحرية، كان الغوص في أسراره

كذلك أكثر من مهمة دنيوية». يقصد إذا أردت أن تعرف الكون لا تكتفي بالمشاهدة، فلا بُدّ أن تعرفه بمعرفة دينية؛ لأن القوى المؤثرة فيه ليست قوى مادية فقط.

ثم قال: «بما أن بعض جذور المفهوم الحديث للعلم كانت في الصراع ضد هذه النظرة إلى العالم، فمن الصعب أن نتصور كيف كان من الممكن وجود نظرة علمية في داخلها. وعلى كل فإن المؤرخ سيظل حبيس مقولاته المؤقتة إلى أن يتسنى له الوصول إلى تفاه مع هذه النظرة».

وملخص كلامه كأنه يجد صعوبة، كيف يمكن أن يكون هناك علم في داخل إطار ديني؟ لأن مفهوم العلم الذي يعرفه الآن إنما نشأ ضد هذه النظرة، فهو لا يكاد يتصور ذلك بالمرة. لذلك سيظل حبيس إطاره الذي عرف فيه العلم.

ثم يذكر صاحب المقالة هذه أن العلم مرَّ بمرحلتين، أي أثّر فيه شيئان: التقنية التي حدثت في القرن السادس عشر -ويقول إن الناس حتى ذلك الوقت ما تزال نظرتهم إلى المعرفة نظرة مختلفة- والثورة الفلسفية التي حصلت في القرن السابع عشر. والثورة الفلسفية - كما تعرفون - هي تلك قادها بيكون في إنجلترا وديكارت في فرنسا وجاليلي في إيطاليا. الذي بقي من هذه الثورة التي أعطته الفكر الأوروبي هو ما انتهى إليه ديكارت وجاليلي.

وهذا الكلام كنت استنبطه مجرد استنباط، ولكن الآن وجدت من يقول

من الغربيين. يقول (وهذا ملخص لكلام الرجل): جاءت بنظرية جديدة إلى الوجود مخالفة للنظرة المسيحية، فحواها أن عالم الطبيعة عالم ميت خالٍ من أي خصائص روحية أو شبه روحية، وأنه ليس من الممكن لذلك أن يكون بيننا وبين الطبيعة أي نوع من الحوار، سواء كان عن طريق الكشف الروحي أو الوحي الإلهي.

واتفق جاليلي وديكارت -هذا كلام الرجل- على أن العالم مكوّن من أجزاء مادية هي من الصغر بحيث لا يمكن أن تُرى، وأن الظواهر الكونية كلها هي نتيجة تفاعل بين هذه الأجزاء التي لا إدراك لها ولا هدف، وأن تفاعلها لذلك هو بمثابة التصادم الذي يحدث بين مجموعة من الكرات. ويقول شخص آخر: ولكن حتى في هذا القرن كان الدين ما تزال له بقايا، وكان العلماء إلى ذلك الوقت يقولون إنهم مهتمون باكتشاف قوانين خلق الله (Creation Laws of God's). ثم اسقطوا بالطبع كلمة الله وصارت (قوانين الطبيعة).

ويقول الرجل: هؤلاء الثلاثة ونيوتن الذي جاء بعدهم كانوا رجالًا مسيحيين، فالذين وضعوا أسس الإلحاد كانوا مسيحيين. الكلمة المهمة التي يقولها كاتب المقال، وهي النقطة التي أريد أن تتذكروها: لم تكن هذه الفلسفة إذن نتيجة للعلم الجديد، كما قد يتبادر إلى أذهان الكثيرين، وإنما كانت تسليمًا مسبقًا بمبدأ ميتافيزيقي. وما أريد أن أوضحه من كلام الرجل هو أن الفلسفة

سبقت العلم وهي التي وضع هذا الإطار[١].

فائدة: خصائص الإطار العام للعلوم الذي يشيع عند الغربيين وعندنا تبعًا لهم:

ما هي خصائص الإطار العام الذي يشيع عند الغربيين وعندنا تبعًا لهم؟ ألخص الجواب في ما يأتي:

أولًا: إن هذا الإطار فلسفة لا دينية، فحواها أن الكون مكتفٍ سببيًا -كما يقولون- أي ليس محتاجًا إلى سبب من خارجه، وأنه لا تؤثر عليه قوى روحية ولا إرادة إلهية ولا عبادة إلخ.

ثانيًا: إنه ليس إطارًا دينيًا بطريقة سلبية، وإنما هو إطار معاد للدين.

ثالثًا: إنه ليس إطارًا إلحاديًا فقط، بل هو أيضًا إطار مادي؛ لأن الإنسان يمكن أن يكون ملحدًا ولا يكون ماديًا. المادي هو الذي لا ينكر وجود الخالق، وإنما ينكر حتى وجود النفس البشرية، ولا يقر إلا بوجود هذا الجسد.

أذكر لكم أيضًا بعض ما قاله هؤلاء، يقول أحد فلاسفة العلوم في الدليل على أن هذا الإطار كان إطارًا إلحاديًا، يقول عن دارون: كان يبحث عن عملية

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٧٨).

طبيعية صرفة لا يتضمن نموذجها تدخل القدرة الإلهية. أي أنه منذ البداية يريد أن يفسر هذه الحقائق التي شاهدها تفسيرًا لا دينيًا.

ويقول آخر عن تفسير (دوركا يم) الظاهرة الدينية إنه أرجع الظاهرة الدينية إلى فكرة التضامن مع النظام الاجتماعي، ويقول إن هذا مبني على حجة إلحادية فحواها أن الأشياء التي يذكرها المنتمون إلى دين ما يجب أن لا تؤخذ على أنها إخبار عن الله، لأنه من حيث المبدأ لا يمكن أن يكون هنالك إخبار كهذا.

وعليه، فيجب تفسيرها بطريقة أخرى، والتفسير الذي يقترحه دوركا يم هو أنها تعبير عن الإخلاص للنظام الاجتماعي، ثم يأتي كثير من طلابنا ويذكرون هذا النوع من الكلام على أن هذا هو التفسير العلمي للظاهرة الدينية، تفسير علمي في إطار هذه النظرة؛ لأنه إذا قال ليس هناك إله، فإن الواقع يشهد أن هناك دينًا. فكيف يفسر الإنسان الملحد الذي لا يؤمن بالله هذا الكلام عن الله، وكيف يجد له تفسيرًا في إطار فلسفته الإلحادية، في أنها فلسفة معادية للدين؟

يقول أحد كبار الفلكيين المعاصرين، وهو رجل ممتاز في الرياضيات والفلك وله نظرة في تفسير التطور تختلف عن نظرية دارون: إن العلماء لن يقبلوا نظريته هذه؛ لأن العلماء التقليديين مهتمون بمنع الرجوع إلى الغلو الديني الذي حدث في الماضي أكثر من اهتمامهم بالتطلع إلى الحقيقة، إن النظرة -أنا سميتها الحُطمة- (Nihilistic) التي وصفناها آنفًا -أي وصفها هو-

قد سيطرت على التفكير العلمي خلال القرن الماضي كله.

وهويل هذا-اسمه- له بعض الحق فيما يقول، لأنني أذكر أنه حدث جدل طويل حول نظرية أخرى كانت له أيضًا عن أصل الكون، وفحواها أن الذرات تأتي من العدم. فقامت قيامة كثير من الناس وانتقدوه، لا من ناحية علمية مجردة، ولكن قالوا إن هذا كلام ديني، وإن هذا سيفتح أبوبًا، أحدهم قال: (It's going to open the floodgates of religion). أذكر أني قلت لبعضهم إنكم سائرون في غير معترك؛ لأننا نحن لا نؤمن بهذا، نحن نقول: لو صحت نظرية هويل لبطل الدين؛ لأنه إذا كانت الذرات تأتي من العدم المحض، لا لزوم إذن لوجود الخالق. فهي ليست دينية. لكن ما كانوا أبدًا يستنكرون على أنفسهم أن يعترضوا على نظرية علمية بأسباب من هذا النوع.

هذا الإطار العام. ثم هنالك -كما قلت- أطر داخل هذا الإطار العام. وأيضًا يعترف العلماء الغربيون أيضًا بأن كثيرًا من النظريات العلمية تأثرت بهذه الأطر الخاصة. والإطار الخاص أغلبه هو الفكر الرأسمالي، أعني أغلب ما وجدت من أمثلة فيه. مثلًا: قالوا إن نظرية مالثوس التي تقول إن عدد السكان يزداد بمتواليات هندسية بينما موارد الغذاء تزداد بمتواليات حسابية، فلذلك لا بُدّ أن يكون هناك جوع وفقر وموت، قالوا إن هذه النظرية كانت في الحقيقة اعتراضًا على بعض القوانين التي صدرت في صالح الفقراء، فكان ممن يسمون بالرجعيين الذين يريدون أن لا يعطى للفقراء.

ثم جاء سبنسر فحوّل هذه النظرية إلى نظرية أشمل من هذه، وقال -هذه عبارة سبنسر-: إنْ كانوا كاملين بحيث يصلحون للحياة، -يعني الناس- فإنهم سيحيون ومن الخير لهم أن يحيوا. وإذا لم يكونوا كاملين بحيث يصلحون للحياة فسيموتون ومن الخير لهم أن يموتوا. يقصد لا تتعبوا أنفسكم وتضعوا قوانين للفقراء وما إلى ذلك.

لا بُدّ أن كثيرين منكم ذكر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس:٤٧]. هو لا يريد أن يطعمهم، لكنه يريد شيئًا يستند إليه، فعندما كانت النظرة الدينية هي الشائعة قال هذه هي إرادة الله، لماذا نتدخل في إرادة الله؟ وعندما صارت النظرة الطبيعية هي الشائعة قال هذا قانون طبيعي، لماذا نتدخل في القانون الطبيعي؟ ثم قالوا إن سبنسر هذا هو الذي أتى بكلمة (الانتخاب الطبيعي)، فجاء دارون واستفاد من كلام مالثوس ومن كلام سبنسر وهو يبحث عن تفسير -كما ذكرنا- للتطور لا دخل للقوة الإلهية فيه، فأخذ هذا وهذا وصنع منه نظريته.

وفي هذا قال أحد مؤسسي الفكر الماركسي كلامًا جميلًا جدًا. وبالمناسبة كثيرًا ما نجد في كلام الماركسيين نقدًا جيدًا للنظام الرأسمالي، نحن دائمًا نقرأ انتقاد الرأسماليين للشيوعيين، لكن ينبغي أيضًا أن نستفيد من نقد الشيوعيين للرأسماليين. قال إنجلز: «إن كل ما فعله دارون في قوله بالصراع من أجل البقاء هو أن حوّل (نقل) من المجتمع إلى الطبيعة المبدأ البرجوازي الاقتصادي في

التنافس، ونظرية مالثوس في السكان. ثم لما اكتمل أداء هذه العملية السحرية حُوِّلت النظريات نفسها مرة أخرى من الطبيعة إلى التاريخ، وادّعي الآن أن البرهان قد قام على صدقها بكونها قوانين خالدة للمجتمعات الإنسانية».

فحتى نظرية دارون كان فيها رائحة لتأييد التفكير الرأسمالي. فهذا يبين لإخواننا المهتمين بالدراسات الإنسانية أن المسألة ليست كما يقال دائمًا أن أصحاب الدراسات الإنسانية هم الذين يأخذون من أصحاب الدراسات الطبيعية، بل العكس أحيانًا يحدث.

وكثيرًا ما يحدث أن صاحب الدراسة الطبيعية يأخذ الفكرة من صاحب الدراسة الإنسانية، ثم يأتي ذاك وتسره عندما تتحول إلى نظرية طبيعية فيأخذها مرة أخرى. كما حدث هذا بالنسبة لسبنسر بعد أن قال دارون بهذا، فجاء السبنسريون بعد سبنسر وسموا نظريتهم (الدارونية الاجتماعية). وهي بضاعتهم ردت إليهم.

هذا -إذن- هو الإطار العام، وهذه بعض الأطر الخاصة التي تأثرت بها العلوم، ثم هنالك أطر أخص من هذا. كل العلوم الإنسانية - كما يقولون - مبنية على تصور معين للإنسان، سواء ذُكِرُ هذا في العلم أو لم يذكر. ما هو هذا القصور؟ لا يأتي به العلم نفسه، وإنما يأتي به الإنسان.

كنت قد كتبت مقالًا طويلًا قبل ذاك في مسألة مفهوم الإنسان، لكن ألخصه لكم في أن الفكرة الشائعة في الغرب عن الإنسان هي في حقيقتها مأخوذة من

الدين المسيحي، ثم أَخَذَتْ أشكالًا لا دينية. الفكرة المسيحية هي أن الإنسان يولد ومعه الخطيئة. فرويد -نقلتُ عنه كلامًا في ذلك المقال- يقول: «إن الإنسان فيه عنصر من الشر هو جزء من طبيعته، بحيث إنك إذا استأصلته لا يصبح إنسانا». إذا كان هذا تصوره، تفهمون إذن مسألة الجنس والتفسيرات التي لا تستغربونها.

ماركس يرى أن الإنسان عاش مغتربًا طول حياته ولن يكون إنسانا إلا في المجتمع الاشتراكي. إذن ماله حيلة، يولد في المجتمعات الطبقية هذه ولا يكون إنسانا حقيقيًا إلى أن يأتي المجتمع الاشتراكي، وهكذا.

فأيضًا من الأشياء التي نتنبه إليها، مثلًا في الاقتصاد، نظرية كينز مبنية على تصور معين للإنسان. وهكذا قل في غير علم النفس. نظريات سكنر في علم النفس مبنية أيضًا على تصور بين للإنسان. بل حتى بعض الدراسات التي يُظن أنها دراسات بريئة جدًا، مثل قولهم قمنا بدراسة مثلًا في المجتمع الأمريكي، وقام العلماء الاجتماعيون دراسة وأظهرت أن استجابة الرجال المتزوجين كذا واستجابة النساء كذا والمطلقات كذا، دائمًا أسأل نفسك: أين هذا؟ من هؤلاء الرجال؟ إذا ما سألت نفسك هذا السؤال ستعمم هذا وتقول البشر من حيث هم، لكن هذا ليس بالضرورة، نعم ربما هذا ينطبق على كل البشر، لكن ليس دائمًا. بل قال كثير من العلماء إن كثيرًا من نظريات فرويد مبنية على مشاهداته في البلد التي كان فيها، وإن معظم الناس في تلك البلد ما كانوا طبيعيين. ما الذي

نستنتجه من هذا؟ ماذا يكون موقفنا؟

اختلف الناس عندنا في العالم الإسلامي وفي العالم العربي إزاء هذا الموضوع إلى مواقف مختلفة. منهم التي سيطرت على ذهنه تلك الفكرة التي قلنا إنها الفكرة الشائعة، ولذلك اعتقد أن كل كلام عن إسلامية العلوم ما هو إلاّ محاولة لتحريف العلم. ويقفز إلى أذهان هؤلاء شيء فعله أحد العلماء الروس اسمه لا يسنكو، ظن في بعض النظريات في الوراثة لا تتناسب مع الفكر الماركسي، وكانت له قوة ادارية فمنع هذا النوع من الدراسة وأراد أن يرجع علماء الأحياء. هذا شيء مشهور جدًّا عند المؤرخين للعلوم. هذا موقف.

موقف ثان هو موقف الذين عرفوا أن هناك أطرًا فعلًا، وأن الناس يختلفون بحسب هذه الأطر، لكنهم عظّموا الأطر الغربية حتى جعلوها كأنها هي الأطر المعرفة بالألف واللام.

ومن أمثلة هؤلاء -وأقولها وأنا متأسف جدًّا- رجل مصري مفكر كبير يعرف الفلسفة الغربية معرفة جيدة ويشرحها شرحًا جيدًا هو الدكتور زكي نجيب محمود. كثيرًا ما آسف عندما أقرأ له. نظرية لإنسان معين أو فكرة تسود في الغرب فيصورها لقارئه العربي كأنها فكرة العصر. تأملوا كلمة العصر كلمة مخيفة. فهو كأنه يقول لي إذا أردت أن تعيش في عصرك فهذا هو الذي ينبغي أن تفعله، وذكر بعض هذه الأطر التي ضربت لكم أمثلة عليها، ذكر بعضها واستنتج منها أن هذا هو الإطار المناسب للعلم، فإذا نحن أردنا العلم فلا بُد لنا

من أخذ هذا الإطار.

موقف ثالث هو موقف إخواننا الذين يدعون إلى تأصيل العلوم، وأيضًا هؤلاء ما تزال الفكرة من ناحية التنظير ليست واضحة كل الوضوح في أذهانهم. بعضهم سرّهم هذا الكلام عن عدم الموضوعية، وقالوا: انتهى الأمر، أنتم بإطاركم ونحن بإطارنا. أي المسألة لم تعد علمًا، أنتم تنظرون من هنا ونحن ننظر من هنا.

طبعًا هذه حجة قد تكون مفحمة للغربي، قل له أنت لك نظرة وأنا لي نظرة. لكن هذه معناها أولًا: أنه ليس هناك في الحقيقة علم، وإنما هي مجرد آراء وتحيّزات وما إليها، أو أنه إذا كانت هناك حقيقة فمن المتعذر على الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة. بعض إخواننا قالوا لا، -وربما تابع بعضكم الجدل الذي كان دائرًا في جريدة (الشرق الأوسط) عن الاقتصاد وغيره- إن الاقتصاد الذي نريده هو أن هناك علم اقتصاد، واقتصادًا يمكن أن نسميه توجيهيًا أو معياريًا.

فيقول من ناحية علم الاقتصاد نحن متفقون ولكن مختلفون في المعيار. إذن من ناحية العلم ليس لدينا علم اقتصاد، لكن أين علم الاقتصاد؟ الذي يدرَّس للطلاب في كل جامعات البلاد الإسلامية هو طبعًا الاقتصاد الغربي الرأسمالي، والذي يقول بعض الغربيين أنفسهم عنه إنه هو نفسه جزء من الدعاية الرأسمالية.

فهذا الذي يسمى علم الاقتصاد ثم الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد

الاشتراكي، هذه تحيزات. أما علم الاقتصاد فهو هذا. فهل نقول مثل هذا الكلام؟ هل نحن فعلًا لا نختلف مع الغربيين في النظرة إلى الواقع وفي تفسير الواقع؟ هذا أيضًا ليس بصحيح. إذا قلنا نحن نريد أن نستبدل بذلك الإطار المادي الإلحادي إطارًا إسلاميًا، ما معنى هذا؟ هل معناه -كما قلت- أننا نريد أن نستبدل بتحيز تحيزًا آخر؟ في القرآن الكريم ما يدل على أن الإنسان فعلًا إذا وضع نفسه في إطار معين تخفى عليه بعض الحقائق. لكن الذي نستفيده من القرآن أنه حتى حين يضل الإنسان يمكن أن لا تخفى عليه كل الحقائق.

فإذن هذا الإطار الذي ننتقده عرف بعض الحقائق، فلا نستطيع أن نقول إنه نظرة ذاتية بحتة؛ لأنه حتى تلك النظرة التي قلنا إنها إلحادية اعترفت بحقائق، أن هنالك مادة وأن هنالك جزئيات وأن هذه تؤثر. فالذي يعترف بهذه الحقيقة يمكن أن يصل إلى نتيجة. لكن لو قال إنسان لا يوجد شيء اسمه مادة وإنها كلها مجرد آراء وإن السحر هو الشيء الأساسي لا يصل إلى ما وصل إليه هذا التفكير الغربي.

ففي القرآن -كما قلت- ما يدل على هذا. مثلًا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول عن الكفار ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧]، فإذن هم يعلمون. وضعوا هذه الآية مع آية أخرى ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٤٠] كانوا يرون ماذا؟ قال ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ كانوا يرونها، لكن كانوا يرون ﴿ظَٰهِرًا﴾، ما استنتجوا منها النتيجة التي ينبغي أن تستنتج، ما فسروها التفسير الذي ينبغي

أن يفسر. هنا تدخّل الإطار ﴿بَل كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

جاءوا وهم معتقدون ومصرون على أنه ليس هناك آخرة، فإذا لا يمكن أن نفسر الذي رأيناه تفسيرًا. ضع هذه الآية مع آية ثالثة ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فكأن عدم الإيمان بالآخرة -أي الخلل في الإطار- يكون أيضًا خللًا في العقل، في بعض العقل، أي لا يكون مجنونًا مرة واحدة، لكن يمنعه. فإذن ما الذي نريده نحن؟ نحن نريد نظرة أشمل من هذه النظرة الإلحادية، ستتضمن كل ما اعترفوا به من حق. ولذلك تصل إلى كل ما وصلوا إليه من حقائق أو تعترف بكل ما وصلوا إليه من حقائق؛ لأن هذه الحقائق هي مما يعترف به هذا الإطار الجديد. لكنه يكون إطارًا صاحبه مفتوح الذهن لأن يجد مؤثرات غير التي يقولها صاحب النظرة المادية، إطارًا يؤمن بالنفس وبأن هناك إرادة.

سيختلف هذا الإطار عن الإطار الذي صرعه المنهج العلمي الحديث في أنه لا يتصور الدين كما يتصوره ذلك الإطار. ذلك الإطار كان يعتبر الدين القوى الإلهية كأنها إحدى القوى. هناك قوى إلهية وقوى طبيعية وقوى جنّية وقوى سحرية، وظل هذا في تفكير كثير من المتدينين، حتى كان الآخرون يضحكون منهم، لأنه كانوا دائمًا -وهذا أرى أن بعض إخواننا يفعلونه الآن- يسرهم جدًّا إذا عجز العلم عن تفسير ظاهرة من الظواهر، يقولون هذه إرادة الله، وبعد قليل ينجح العلم في تفسير الظاهرة، فسموه (The God of gaps). نحن طبعًا لا نقول هذا، نحن نقول هذا السبب هو من خلق الله، الله هو الذي خلق

الأسباب وهو الذي جعلها أسبابا، فالشيء أو الظاهرة وسببها أو القانون الذي يحكمها، هذا كله بإرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعندما نتكلم عن الجن أو الملائكة أو القوى الأخرى نتلكم فيها كلامًا منضبطًا، ليس متروكًا لكل عالم أو شخص يقول لنا أنا بحثت في الظاهرة الفلانية واكتشفت أن الملائكة هي التي عملت كذا وكذا، لا، هات الدليل إما من الدين أو من الواقع.

سيكون أيضًا الفرق بيننا وبينهم أن ديننا دين يعترف بالواقع المحسوس ويعتبر أن الذي يماري فيه مكابر لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، فهذه وسائل المعرفة، سواء كانت معرفة دينية أو معرفة دنيوية. فإذن كل علم جاءنا عن طريق الحس أو عن طريق العقل الصريح -كما تعرفون كتاب ابن تيمية (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول)- كل هذا يعتبر علمًا. بالنسبة للدين أيضًا الكلام عندنا ليس كلامًا منضبطًا، الدين ليس هو ما يقوله الباب وليس هو ما يقوله الشيخ الفلاني وليس هو ما يقوله الولي الفلاني، وإنما الدين له مصادر معروفة، وله منهج.

وهذه مسألة تحتاج إلى محاضرة أخرى. لنا منهج علمي في كيف نصل إلى حقائق الدين. فبهذا سيكون إطارنا مختلفًا عن الإطار الإلحادي من ناحية، ومختلفًا عن الإطار الديني الذي صرعه الإطار الإلحادي.

فائدة: كيف يمكن تحديد الحقائق التي يجب أن نبني عليها المنهج الديني الإسلامي؟

إن تحدد الحقائق التي عند الغرب هو نفسه يحتاج إلى ميزان علمي أو منهج علمي وهو محكوم أيضًا بإطار، فكيف يمكن تحديد الحقائق التي يجب أن نبني عليها المنهج الديني الإسلامي؟ تحديد الحقائق موضوع يحتاج إلى تفصيل، ناقشناه في كثير من الندوات التي كانت عن أسلمة العلوم. لكن المسألة في أصلها واضحة.

نحن نعترف بكل ما يأتينا عن طريق الحس وبكل ما يقوم عليه دليل عقلي وبكل ما يثبت نقلًا. فلدينا مصدران للمعرفة: الكون المحسوس والوحي الذي أتانا به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكل ما ثبت من الناحية النقلية فهو حق، وكل ما ثبت من ناحية حسية وعقلية فهو حق، والذي يثبت هنا لا نحتاج إلى أن نؤيده بشواهد من هنا، والذي يثبت من هنا لا يحتاج أن نؤيده بشواهد من هنا، ولكن إن وجدنا الشواهد تؤيد هذا والشواهد تؤيد هذا فهذا من زيادة الخير ومن تظاهر الأدلة. لكن هذه أيضًا من الأخطاء التي يقع فيها بعض إخواننا الذين يريدون ما يسمى بأسلمة العلوم أن رأيت أحدهم كتب كتابًا في علم النفس كأنه كتاب في الفقه. كأنه ظن أنه لكي يكون الكتاب علم نفس إسلامي لا بُدّ أن كل حقيقة نفسية يأتي عليها بشاهد من الكتاب والسنة.

وإذا كان الأمر كذلك، فماذا نفعل في الفيزياء والكيمياء؟ لا المهم أن نقول لأنفسنا إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أقر الطريق الذي نسلكه في لمعرفة هذه

الحقائق. إذن يكفي هذا. ما دام الله قال لنا إن السمع والبصر والفؤاد هي وسائل للعلوم فيكفي هذا. بل إن الله ذمّ الذين يكابرون في شيء يلمسونه ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ...﴾ إذن هذه مكابرة. كتاب نزل من السماء لمسوه بأيديهم، معنى هذا أنه أعظم من أن يأتيه رسول ويكلمه وينكر. كتاب نزل من السماء تلمسه بيدك فتقول لا أصدق؟! فالشيء الملموس المحسوس من الحقائق، نعترف بها من أي مكان جاءت[1].

فائدة: العقل الصحيح من الدين:

ولذلك لم يرض علماء أهل السنة المقابلة بين العقل والنقل، العقل الصحيح من الدين لأن العقل هو مناط التكليف، لا يكون التكليف إلا بعقل، ولا يُفهمُ الدين إلا بالعقل، والعقل باعتباره قوانين أساسية مما فطر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه الناس.

ولكن يخطر أحيانًا ببال بعض الناس مثل الفلاسفة أشياء يظنونها عقلية وهي ليست عقلية، أو كما يقول أهل السنة زعموها عقليات وهي جهليات. لذلك لم يكونوا يسمون المنحرفين عقلانيين كما نفعل الآن. فهم يسرهم هذا الآن، هم عقلانيون ومعناه أنك لا تملك عقلًا. فكان أهل السنة يسمونهم أهل الأهواء أو الفرقة الضالة. لا توجد مقابلة بين العقل والدين.

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٧٧٨).

فنحن اعترضنا الآن ليس على ما أوصلته إليه عقولهم ولكن اعتراضنا على أنهم حبسوا هذه العقول في دائرة ضيقة، ونحن نريد أن نوسع هذه الدائرة. والعقل معنا في هذا، وأنا لا أحب كلمة (رأي الدين) لأن الرأي شيء قابل للخطأ والصواب، هو حكم الدين، أما إذا كان رأي جعفر أو فلان فلا بأس[1].

فائدة: مفهوم العقل يدخل في المبادئ الأخلاقية:

مفهوم العقل يدخل حتى في المبادئ الأخلاقية عكس ما يقال في الفلسفة الغربية تمامًا مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، فإذا هذا الكلام معناه أن الذي يرى أن شيئًا فيه مصلحة فيه فائدة ويكلم الناس ويقول لهم أفعلوه وهو لا يفعله ليس بعاقل، فإذا يدخل بالعقل المسائل الأخلاقية، ضربنا مثلًا أيضًا بالمسائل الأخلاقية قلنا بأن بما فطر الله عليه الناس بأن يشكر من يحسن إليه، فالذي إذا أحسن إليه أحد لم يشكره نقول إن في عقله خلل، أيضًا أن الإنسان يختار الشيء الأجمل عن الشيء القبيح، فالذي يختار القبيح سواء كان من المناظر أو من الروائح الذي يختار القبيح عقله فيه خلل كل هذا الذي ذكرناه أشياء منحها الله تعالى لكل الناس، كل الناس يعرفون أن الذي لا يقبل الأشياء المتناقضة عاقل، وأن الذي يبحث

---

(١) مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥/ ٧/ ١٤٠٧هـ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٧م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٧٧٨).

عن الحق عاقل وأن الذي يعمل بما يعرف أنه الحق هذا عاقل وأن الذي يختار الشيء الجميل على القبيح أحسن من الذي يفعل العكس وأن الذي يشكر من يحسن إليه عاقل الناس كلهم يعرفون ذلك، هذا العقل الذي قلنا إن الله أعطاه الناس هو جزءٌ من الدين الإسلامي[1].

فائدة: يمكن أن يكون بيننا وبين غير المسلم العاقل تفاهم لأن العقل لا يتناقض مع الدين الإسلامي:

فهنالك جسر دائمًا يمكن أن نمده من عندنا إلى الشخص الآخر حتى يأتي إلينا ونذهب إليه يكون بيننا وبينه اتصال، بعض الأديان وبعض الفلسفات العلمانية لا تعتمد على العقل ولذلك لا يكون بينها وبين الآخرين جسر، ولذلك إذا اقتنع بها الإنسان لا يأتي إليها بطريق طبيعي هو طريق العقل هذا الجسر وإنما يقع فيها وقوع، يعني لكي يؤمن بها لا بُدّ أن يترك عقله.

مثلًا العقيدة التي تقوم عليها النصرانية هي أن الله ثلاثة، فإذا دعوا إنسان وقالوا لك آمن بالنصرانية وآمن بأن الله ثالث ثلاثة قال كيف؟ هذا وهم الذي جعلوا بأن دينهم لا يقبل العقل هم الذين أشاعوا بين الناس أن الإيمان شيء والعقل شيء آخر، وأما في القرآن الكريم فهنالك تلازم بين العقل والإيمان، فالعاقل يؤمن والمؤمن عاقل.

---

(١) الحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٣٧).

مثلًا نحن ما أهم العقيدة الاساسية التي يقوم عليها الإسلام؟ لا إله إلا الله هل عندنا أدلة من العقل على لا إله إلا الله؟ أم أننا نقول للإنسان نأتي مثلًا لواحد شيوعي لا يؤمن بالله إذا قلنا له آمن بأنه لا إله إلا الله، يقول أنا غير مقتنع، نقول له الرسول محمد ﷺ، يقول قولوا لا إله الا الله أنا لا أؤمن بأن محمد رسول الله إذا قلنا والقرآن يقول قولوا لا إله الا الله، والقرآن كلام الله أنا غير مقتنع بأن القرآن كلام الله، لذلك لا بُدّ أن نقنعه بشيء مشترك بيننا وبينه وهو العقل، بعد أن نقنعه بأنه لا إله إلا الله وأن القرآن كلام الله وأن محمد رسول الله بعد ذلك نطلب منه أن يؤمن بكل ما بُني على هذه الأصول، مثلًا إذا آمن بأن محمدًا رسول الله وأن القرآن كلام الله، وقلنا له بأن الله قال صلوا في اليوم خمس مرات، يقول من غير العقل أن يقول أعطوني دليلاً عقليًا على أن الصلاة لا بُدّ أن تكون خمس مرات، أو يقول أعطوني دليلاً عقليًا على أنني لا ينبغي أن آكل لحم الخنزير، أو يقول أعطوني دليلاً عقليًا على أنه يجوز للإنسان أن يتزوج أكثر من واحدة.

إذا قال هذا نقول ما عندك عقل، لأنك أنت تقول عن هذا كلام الله وتؤمن بأن الله يعلم كل شيء وأن الله لا يأمرنا إلا بالحق وإلا بما فيه خير والآن تقول لماذا يأمرنا وهذا هو الذي نفعله في كل العلوم بعد أن نضع الأساس ونبرهن عليه ما يبنى على هذا الأساس لا نبحث عن حجج عقلية، مثلًا في الرياضيات إذا برهنا على نظرية رياضية، بعد ذلك نبني بعض الحجج الرياضية على أن هذه النظرية صحيحة، ولا نطلب في كل مرة أن ما بني عليها يعطى حجج منفصلة

عنها، وكذلك في الفيزياء كل هذه العلوم، بعد ما أن يعرف الإنسان الأساس دائمًا يفترض أن الاساس صحيح ويبني عليه[1].

فائدة: من عدم للعقل أن تنسب إلى الدين كلامًا لا دليل عليه من الدين:

من عدم للعقل أن تنسب إلى الدين كلامًا لا دليل عليه من الدين، نحن قلنا من عدم العقل أن تنسب إلى الإنسان حتى لو كان عدوًا كلامًا لا يقوله، ثم تنسب إلى الله وإلى الرسول كلامًا لم يقولوه، ولكن كثيرًا من الناس فعلوا هذا من المنتسبين إلى الدين، أنت إذا كنت مسلمًا تقول أنا مؤمن بالله وأن القرآن كلام الله وأن محمدًا رسول الله، فإذًا كأنك أنت تقول إن هذا الدين ماله مصدر إلا القرآن والسنة النبوية، وما بنى عليهما استنتج منهما، يعني أي شيء تقول هذا من الدين لا بُدّ أن تقول أنه في آية قرآنيه من القرآن أو حديث نبوي يدل عليه أو يمكن أن يستنتج بالعقل من القرآن أو السُنّة أو أن المسلمين كلهم قالوا إن هذا من الدين هذا يدل على أنه من الدين، الأصول التي نأخذ منها الدين هي فقط القرآن والسنة.

عندما نقول القياس، القياس هو في الحقيقة معناها ما نستنتجه بالعقل من الكتاب والسنة، هو مبنى على الكتاب والسنة والإجماع معناه هو دليل على أن

---

(١) الحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٧).

هذا الكلام هو من الكتاب والسنة، غير هذا كل كلام ينسب إلى الدين بغير هذه الأدلة كلام بدون دليل، تعرفون أن المسلمين الآن يسمون يقولون هذا سنة وهذا شيعة.

كيف نعرف من الذي على الحق ومن الذي على الباطل، نقول إن الذي على الحق هو الذي أقواله من الكتاب والسنة، والذي على الباطل هو الذي يقول كلامًا ليس عنده دليل من الكتاب والسنة، أو أن في الكتاب والسنة ما يدعى على أنه باطل، هذه مسألة بالنسبة للشيعة وبالنسبة لغيرنا لا بُدّ أن تأخذوها مأخذ الجد ولا تتهاونوا في دينكم[1].

فائدة: أركان المنهج العلمي الموصل إلى الحقائق:

إن المنهج العلمي الموصل إلى الحقائق المتعلقة بأمر ما له ركنان:

أولهما: التماس تلك الحقائق في مصدرها الصحيح

وثانيهما: سلوك الطرق المناسبة للبحث عن الحقائق التي يتضمنها ذلك المصدر.

والدليل الدال على وجود حقيقة ما يتكون من مجموع هذين الأمرين، فالذي يدعي وجود حقيقة ما عليه أن يثبت أنه وجدها في المصدر المناسب لها، وسلك إلى معرفتها الطريق المناسب لها، فإذا لم يكن لها سند لا من هذا

---

(١) الحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٣٧).

ولا ذاك كانت دعواه باطلة[1].

فائدة: مصادر الحقائق والمعارف:

وللحقائق كلها مهما كانت أنواعها مصدران لا ثالث لهما. الكون والوحي، أو قل خلق الله، ووحي الله، فإذا ادعى إنسان دعوى ليس عليها دليل من هذين المصدرين أحدهما أو كليهما، كانت دعواه باطلة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر:٤٠]، وقال تعالى في المعنى نفسه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤]، فعبادة هؤلاء لما عبدوه من دون الله تتضمن الدعوى بأنهم أرباب والرب لا بُدّ أن يكون خالقًا، والعلم بأنه خالق يكون إما بمشاهدة ما خلقه في الكون، أو بوحي من الإله الذي ثبت أنه خالق، فإذا لم يكن لهذه الدعوى سند لا من خلق الكون المشهود ولا من كلام الإله الخالق، كانت -بالضرورة- باطلة، وبما أن المنهج العلمي قائم على هذين الركنين لا غير، فإنه يستبعد الدعاوى القائمة على أشياء مثل التخيلات، والظنون، والأهواء والأماني، والآراء المجردة، والتقليد.

---

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٥٣).

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزُّخرُف:٢٠]، ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم:٢٨]، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم:٢٣]، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨]، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٢].

والحقائق منهاما يمكن أن يوجد في ذينك المصدرين كليهما -أعني الكون والوحي- ومنها ما لا يوجد إلا في أحدهما، فإذا ادعى مدع وجود حقيقة في غير المصدر المناسب لها لم تقبل منه، بل إن الحقائق المعلقة بالمصدر الكوني متنوعة، ولكل منها مصادر متميزة في داخل ذلك المصدر الكبير.

فحقائق الفيزياء مثلًا لا تلتمس في السلوك الحيواني، ولا في الأحوال النفسية، وحقائق علم الأحياء لا تلتمس في الجمادات ولا في تقاليد المجتمعات، وهكذا، والمناهج تختلف باختلاف المصادر.

فالحقائق الكونية سواء منها ما كان متعلقًا بالطبيعة أو بالمجتمعات البشرية إنما تعرف أساسًا بالمشاهدة والتجربة، ثم بالاستنتاج العقلي مما شوهد وجرب، ثم بكلام الثقات الذين شاهدوا وجربوا أو استنتجوا، وهذا الطريق الأخير مع أنه آخر في الرتبة إلا أنه أول في انتشار المعرفة، فقلة من الناس هم الذين يطلعون على الحقائق اطلاعًا مباشرًا، وإنما يعرفها معظم الناس عن

طريق ما يقول هؤلاء، كما يعرفون بعضها عن طريق وحي الله. وأما الحقائق الدينية فإن مصدرها الأساس هو وحي الله إلى عباده.

والوحي يعرف بطريقين: طريق خاص بالأنبياء الموحى إليهم، وطريق عام ما ينقله لنا أولئك الأنبياء عن ربهم، وبينما الصفة المميزة للحقائق الكونية هي كونها موجودات، أو صفات أو أحوال أو علاقات لتلك الموجودات كان المنهج الأساس الموصل إليها المشاهدة.

وبما أن الحقائق الدينية تأتينا في صورة كلام، كلام الله تعالى، أو كلام أنبيائه، فإن المنهج الموصل إليها إنما هو اللغة التي تؤدى بها... ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]. فالعقل -بمعنى الفهم- لما يقال هنا، هو بمثابة المشاهدة للتجربة هناك.

ولكن كما أن عالم الطبيعة يستنتج بالطرق العقلية مما شاهد ما لم يكن قد شاهد، فإن عالم الدين أيضًا يستنتج من الحقائق التي دلت عليها النصوص دلالة مباشرة حقائق أخرى لازمة عنها وإن لم تكن مذكورة صراحة فيها. وكما أن النقل عن الثقات هنالك هو الطريق الأول لنشر العلم فإنه هو الطريق لذلك النشر هنا أيضًا.

وكما أن بعض الحقائق الدينية توجد في المصادر الدينية فإن بعض الحقائق الدينية الأساسية تستنتج من الحقائق الكونية: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم:٨]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [فُصِّلَت:٣٩][(١)].

فائدة: ما مصادر الحقائق الدينية الإسلامية وما المنهج المؤدي إلى معرفتها؟

إن الإسلام هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ، فمصادره عند من يؤمن بأنه رسول الله، هي تلك التي قرر هو ﷺ أنه مصادره، ولا يحق لأحد غيره أن يضيف إليها، ولا أن يحذف منها. بل كل أمر أخذ من غيرها فليس من دين الله في شيء، وكل أمر ترك منها فهو ترك لبعض هذا الدين، وقد حدد ﷺ تلك المصادر بقوله: «**فانه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»[(٢)].

والقرآن الذي أنبانا الرسول ﷺ بأنه مصدر للدين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الحُجُرات:١].

---

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٥٣).

(٢) رواه أبو داوود والترمذي، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ويقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، ويقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، هذان هما مصدرًا الدين الأساسيان. فكل حقيقة لا تؤخذ منهما أخذًا مباشرًا، أو لا يكون فيهما دليل عليها، فليست من دون الله في شيء، لكن بعض المنتسبين إلى الإسلام أنكر بعض هذين المصدرين، وبعضهم أضاف إليهما مصادر أخرى.

فالخوارج -وهم أول طائفة تنحرف عن جادة الطريق الإسلامي- أنكرت سنة رسول الله ﷺ. وما زال في الناس من ينكر هذه السنة كلها أو بعضها، وما زال فيهم من يؤمن بها إيمانا نظريًا لكنه يعطلها واقعيًا. وبعض الغلاة من أهل الفرق الضالة زعموا أن القرآن الذي بين أيدينا حدث فيه تحريف بالنقص والزيادة. وآمنوا بأن أئمتهم معصومون فنزلوا ما نسبوه إليهم من كلام المنزلة التي لا تجوز إلا لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وغلاة المتصوفة زعم بعضهم -كابن عربي- أن كتابه الذي كتبه وحي من الله، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ، وعد بعضهم رؤاه وكشوفه مصادر مستقلة يعتمد عليها فيما يعد من الدين ومالا يعد. والفلاسفة والمتكلمون سلموا بقواعد حسبوها عقليات -وإنما هي جهليات- وجعلوها ميزانا يقيسون به ما يقبلون وما يرفضون مما في الكتاب والسنة، وبعض الناس في زماننا جعل ما تواضع عليه الغرب من قيم هو ذلك الميزان، وبعضهم جعل أهواءه الذاتية وثقافته العصرية، هي المعيار الذي يعيد به تفسير النصوص القرآنية والسنية،

وظن أنه بذلك إنما يتبع حكم العقل، ويجعل الإسلام متمشيًا مع العصر.

والمتعصبون، دعاة التقليد من أهل المذاهب قدموا ما يجدونه في كتبهم المذهبية على ما يجدونه في كتاب الله تعالى، وفي دواوين السنة النبوية، واعتلوا لذلك بحجج هي نفسها مخالفة لما قرره الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة.

والغريب أن كثيرًا من هؤلاء الذين يدعون إلى وجوب التقيد بمذهب معين من المذاهب الأربعة إنما يتقيدون بها في مسائل الفقه الفرعية التي اختلف فيها أولئك الأئمة، ثم يخالفونهم مسائل أصول الدين التي اجتمعت كلمتهم عليها، فتجد أحدهم يصف نفسه بالمالكي -أو الشافعي أو الحنفي أو الحنبلي- مذهبًا والأشعري عقيدة، والقادري أو التيجاني أو النقشبندي طريقة، هذا والأئمة الأربعة - مع اختلافهم في المسائل الفقهية الفرعية - كانوا متفقين اتفاقًا كاملًا في المسائل الاعتقادية، وفي تحريمهم لسنة الرسول ﷺ في الأمور التعبدية.

فهؤلاء يقلدونهم في المسائل التي اختلفوا فيها ويجمعون على خلافهم في المسائل المهمة التي أجمعوا عليها، فإذا أردنا أن نكون هداة مهتدين، ورثة لرسول رب العالمين، نحمل مشعل النور الذي جاء به إلى عصرنا ليهتدي بها في حل مشكلاته النفسية والعقلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإذا أردنا للأمة التي تنتسب إلى الإسلام أن تكون أمة مسلمة حقًا، تقود البشرية وتهديها، وتنال من العزة والعلو ما نال أسلافها، فلا بُد من أن تعقد جماعة منا

العزم على الرجوع المباشر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقديمها على ما سواهما مما يدعي أنه مصادر للدين، لكن الرجوع إلى الكتاب والسنة لا يعني إهمال أقوال الأئمة وجهودهم، وإنما يعني أن تكون تلك الأقوال -كما أراد لها قائلوها- وسائل تعين على فهم ما في ذينك المصدرين لا بديلا عنهما[1].

فائدة: منهج اكتشاف حقائق الدين الإسلام:

أما وقد أيقنا بأنه لا مصدر لحقائق الدين الإسلامي إلا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فقد آن لنا أن نعرف الطريقة المناسبة التي نتوصل بها إلى اكتشاف الحقائق المتضمنة في تلك المصادر، كما يكتشف عالم الطبيعة حقائقها من الكون الذي هو مصدرها.

هنالك مسلكان لمعرفة الطريقة المناسبة لاكتشاف الحقائق. سواء كانت كونية أو شرعية. فإما أن تعرف العلماء الذين نجحوا في معرفة هذه الحقائق، واشتهروا بذلك، فتقول لنفسك مادام هؤلاء قد نجحوا في معرفة هذه الحقائق فلا بُد أن يكون منهجهم هو المنهج المناسب لمعرفتها، فتسلك سبيلهم.

وإما أن تنظر في نوع المصدر الذي تريد اكتشاف الحقائق المتضمنة فيه لتعرف من طبيعته مبادئ الطريقة المناسبة لمعرفة حقائقه، فإذا كان المصدر حقائق طبيعية ثابتة كان أول الطريق إليها هو المشاهدة، وإذا كانت حقائق غائبة

---

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٥٣).

كان الطريق إليها الاستنتاج من الحقائق القائمة، وإذا كان كلامًا كانت بداية الطرق إلى حقائقه معرفة لغته. وهكذا.

إن سلوك أي من هذين المسلكين يؤدي بصاحبه إلى معرفة الطريقة المناسبة لاكتشاف الحقائق من مصدرها، لأنهما مسلكان متلازمان: فمعرفة الطريق الذي سلكه العلماء تؤدي إلى معرفة المنهج الصحيح، ومعرفة المنهج الصحيح تؤدي إلى معرفة الطريق الذي سلكه العلماء.

هذان المسلكان هما اللذان يسلكهما فعلًا دارسو مناهج العلوم الكونية. كما يسلكها دارسو مناهج العلوم الشرعية، ففي عصرنا اليوم علم يسمى (فلسفة العلوم) يهتم المختصون بدراسة القضايا الفلسفية والفكرية التي تثيرها العلوم التجريبية، ولا سيّما الطبيعية.

ومن أهم ما يدرسونه مناهج هذه العلوم. فهم يبدؤون بملاحظة الطريقة التي يسلكها العلماء فعلًا للوصول إلى حقائق علومهم، ثم يدرسون هذه المناهج نفسها ليعرفوا لماذا أدت تلك الحقائق. وكذلك كان دارسو مناهج العلوم النقلية عندنا يفعلون.

فما المنهج العلمي المناسب لإدراك حقائق الدين الإسلامي الذي يدل على صحته هذان المسلكان؟ إنه منهج يجعل اللغة والعقل شرطين لمعرفة معاني النصوص، ويدعو إلى تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة، وتفسير السنة نفسها بالسنة، وتفسير القرآن والسنة بأقوال الصحابة، وباعتبار الإجماع

دليلاً قطعيًا على وجود الحقيقة المجمع عليها في الكتاب والسنة، وبأن القياس الصحيح طريق إلى استنباط الحقائق من النصوص.

وما يقال عن الألفاظ المفردة يقال أيضًا عن الجمل المركبة. فهذه أيضًا ينبغي أن تفهم بالطريقة التي كانت معهودة عند العرب[1].

فائدة: منزلة العقل في المنهج العلمي المناسب لإدراك حقائق الدين الإسلامي:

إن العقل لا يستقل بمعرفة الحقائق الواقعية سواء كانت حقائق كونية طبيعية أو حقائق وأحكام دينية. وإنما يستمد العقل مادته العلمية مما يأتيه عن طريق الحواس، ولا سيّما السمع والبصر. لكن ما تأتي به الحواس إنما هو بمثابة إعادة الخام. فالعقل هو الذي يحولها إلى معان.

ولذلك مثّل الله تعالى حال الذين يسمعون القرآن ولا يعقلونه بحال البهائم التي لا تسمع من الراعي معاني وإنما تسمع منه مجرد أصوات، فقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧١]، فالعقل إذن شرط في فهم كلام الله وكلام رسوله، كما أنه شرط في فهم كل كلام، وفي فهم كل واقع.

لذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٣]. فلو

---

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٥٣).

أنزله للعرب بغير العربية لكان بالنسبة لهم مجرد أصوات لا معنى لها، ولو لم تكن لهم قلوب يفقهون بها لكان أيضًا بالنسبة لهم أصواتًا لا معنى لها.

وبالعقل يربط الإنسان بين المعاني التي تأتي بها لغة المتكلم، ويدرك نسبة بعضها إلى بعض، ويحكم عليها بالبطلان إذا كانت متناقضة في نفسها، أو كانت مخالفة لحقائق أخرى كان قد عرفها، وبالعقل يستطيع الإنسان أن يستنبط من الحقائق التي عرفها معرفة مباشرة، حقائق أخرى تتضمنها تلك الحقائق وتلزم عنها. والعقل يفعل كل هذا بالمبادئ التي ركزها الله فيه وجعلها بمثابة الميزان الذي يزن به ما تأتي به الحواس.

فالله تعالى الذي خلق في قلوب الناس هذا الإدراك العقلي، هو الذي أنزل إليه الكتاب الهادي، فيسّر معرفته على العقول التي خلقها، وجعله موافقًا لموازينها، فليس فيه ما يحيله العقل أبدًا، بل فيه كل ما يجعله العقل ويخضع لعظمته: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

لكن العقل كما أنه يدرك هذا الإدراك النظري فهو أيضًا يحكم لما عرف أنه حق بانه يجب أن يقر به ولما علم أنه باطل بأنه يجب أن ينكر. لكن القوى العقلية تنازعها هنا الأهواء والشهوات والإنسان مخير بين أن يستجيب لحكم عقله أو يخضع لأهوائه وشهوته، فإذا ما خضع لها، كان غير عاقل لا بمعنى أن الله تعالى لم يخلق في قلبه القدرة العقلية ولكن بمعنى أنه لم يستجيب لحكم

العقل، بل قدّم عليه الأهواء والشهوات.

لذلك نجد القرآن يصف الكفار تارة بأنهم عقلوا ما قيل لهم، مع وصفه لهم دائمًا بأنهم لا يعقلون. ولا تناقض بين الأمرين. فهم قد عقلوا العقل النظري، لكنهم خالفوا ما حكم العقل بأنه حق فبهذا وصفوا بأنهم لا يعقلون، لأن العاقل لا يخالف حكم العقل. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥]، وقال عن أمثال هؤلاء: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:٥٨]، ولولا أن الذين ذمهم الله تعالى في الآية الثانية بأنهم لا يعلمون كانوا قد عقلوا ما سمعوا بالمعنى الذي قررته الآية الأولى لما كان لذمهم وجه، لأن الإنسان إنما يذم على منكر فعله عن قصد وهو يعلم أنه منكر[1].

فائدة: معارضة الشرع بالعقل سواء قال بها المدافعون عن الشرع أو قال بها المدافعون عن العقل، هو خلط لا مسوغ له:

إن معارضة الشرع بالعقل سواء قال بها المدافعون عن الشرع أو قال بها المدافعون عن العقل، هي خلط لا مسوغ له، لأن العقل جزء من الشرع فلا يصح أن يجعل أحدهما في مقابل الآخر.

وما أحسن ما قال الإمام ابن القيم: «إن العقلاء هم الذين يرون الحق حقًا

---

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٥٣).

فيصدقون به ويتبعونه، ويرون الباطل باطلًا فينكرونه. والمؤمنون يزدادون بالإيمان قوة في عقولهم النظرية والعملية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال:٢٩]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزُّمَر:١٨].

وانظر كيف جعل الله عقاب الذين لا يؤمنون مماثلًا لعقاب الذين لا يعقلون فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يونس:١٠٠]. فالعقل إذن طريق إلى معرفة الشرع، لا بمعنى أنه يستقل بمعرفة كل ما جاء به الشرع، بل بمعنى أنه يعقل ما جاء به الشرع، ويعتبر بعضه ببعض، ويستنبط منه، ويحكم به على الوقائع ويشهد لصحة بعض ما جاء به خصوصًا في مسائل أصول الدين، كوجود الخالق سبحانه، وقدرته، ووحدانيته، وعظمته، وعلوه على خلقه، وعلى أن القرآن كلامه، وأن البعث لا بُدّ منه، وهكذا.

والعقل مهم أيضًا للدفاع عن الدين والرد على المنكرين والمنحرفين، لكل هذا ينبغي لقارئ القرآن والسنة أن لا يكتفي بمجرد التلاوة لهما، بل يحرص على فهم ما يقرأ ويتدبره، ويعتبر بعضه ببعض، ويعتبره بما يشاهد في الواقع، ويجعله حكمًا على غيره مما يقرأ أو يسمع. وهو إذ يفعل هذا يكون ممتثلًا لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩][1].

---

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٥٣).

فائدة: الحقائق والأحكام التي يجمع عليها:

الحقائق والأحكام التي يجمع عليها نوعان:

أ) حقائق وأحكام منصوص عليها في الكتاب أو السنة، أو فيهما جميعًا. الإجماع على أركان الإيمان، وأركان الإسلام وكثير غيرها من تفاصيل الأحكام، وكالإجماع على معاني كثير من آيات القرآن الكريم. يستغرب بعض الناس من جدوى الاستدلال بالإجماع على أمر ورد في الكتاب والسنة، وينسون أن الإجماع يزيد الأمر المجمع عليه قوة ويعطيه حكمًا لا يعطى لما لم يجمع عليه وإن كان واردًا في الكتاب والسنة. والذي ينكر أمرًا دل عليه حديث صحيح قد يعذر بالجهل. لكن الذي ينكر أمرًا أجمع عليه المسلمون كالصلاة أو الصيام أو الرجم أو إباحة الزواج بأكثر من امرأة، لا عذر له بل هو كافر خارج من الملة.

ب) حقائق وأحكام لا نجد بنصها في ذينك المصدرين. لكن الإجماع عليها يدل على أنها حق، وأن عليها دليلاً منهما، وإن لم نهتد إليه، لأن العلماء ولا سيّما أصحاب رسول الله ﷺ لا يتصور أن يجمعوا على أن أمرًا ما مباح في دين الله أو حلال أو حرام أم بمجرد آرائهم بل لا بُد أن يكون لما اجمعوا عليه أصلاً في الدين[1].

---

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٥٣).

فائدة: قاعدة حكم الشيء حكم مثله، وهي من القواعد والموازين العقلية التي فطر الله عليها عباده:

والقياس مبني على قاعدة: أن حكم الشيء حكم مثله وهي من القواعد والموازين العقلية التي فطر الله عليها عباده، ولذلك يمارسه حتى الأطفال منهم. فإذا اكتشف تلميذ أن إجابته عن سؤال كانت مثل إجابة زميل له اعطي درجة أكبر من درجته، ذهب إلى أستاذة مستفسرًا وشاكيًا، ولا حجة له يعتمد عليها في احتجاجه وشكواه إلا ما فطره الله عليه من أن الأمرين المتماثلين لا يعطيان حكمين مختلفين هذه القاعدة العقلية الفطرية هي من الدعائم التي يقوم عليها كل علم من العلوم بما في ذلك العلوم الطبيعية.

فمما يفترضه علماء الطبيعة في علومهم قاعدة تسمى: اتساق الطبيعة! أي -أنه إذا وجد لشيء طبيعي صفة ما فإن كل الأشياء المماثلة له يجب أن تكون لها نفس الصفة، إذا تشابهت الظروف.

مثلًا: إذا اكتشفنا أن سائلًا ما في بلد ما ووقت ما يغلي في درجة ما قلنا إن كل سائل مثله يجب أن يغلي في تلك الدرجة، بغض النظر عن زمانه ومكانه فإذا وجدنا سائلًا يماثله لكنه يغلي في درجة أقل أو أكثر من درجته: جزمنا بأن هناك اختلافًا في ظرفيهما. كأن يكون أحدهما في درجة ضغط أقل أو أكثر من الآخر. وما القياس الشرعي إلا تطبيق لهذه القاعدة في مجال الوحي، الذي هو مصدر العلوم الدينية، كما طبقها عالم الطبيعة في مجال الكون الذي هو مصدر العلوم الطبيعية.

وإن المرء ليعجب لذلك من قول بعضهم: بأن علماء أصول الفقه تأثروا بالمنطق اليوناني، ليصل من ذلك إلى نتيجة مدمرة للدين، فحواها أنه وإن كان القرآن والسنة لا يتجددان: إلا أن أصول فهمهما تتجدد، وأنه إذا كان علماء أصول الفقه التقليدي قد بنوا فهمهم على المنطق اليوناني، لأنه هو المنطق الذي كان سائدًا آنذاك فعلينا نحن أن نأخذ بالمنطق الجديد الذي سائد في عصرنا.

وإن المرء ليعجب مرة أخرى: أين هو هذا المنطق الجديد الذي يقوم على قواعد للفهم مختلفة عن المنطق القديم، والذي نحن مدعوون للأخذ به، لنجدد من فهمنا لكتاب ربنا.

إن ما صح من علم المنطق الذي وضعه أرسطو قائم على قواعد فكرية لم يخترعها أرسطو وإنما هي من الموازين العقلية التي فطر الله فيها عبادة قبل أن يخلق اليونان وفطرهم عليها بعد أن ذهب اليونان، فأرسطو لم يأت بقواعد للفهم أو التفكير جديدة، وإنما وصفها واستحدث أسماء لها وجمع ما استطاع جمعه من أنواع الحجج القائمة عليها، لذلك تجد علماءنا يمثلون ما فعله الشافعي بالنسبة لأصول الفقه بما فعله أرسطو بالنسبة للمنطق، أو ما فعله سيبويه بالنسبة لنحو اللغة العربية.

فلا أحدًا من هؤلاء أتى بعلم لم يكن يعرفه الناس، وإنما كان فضلهم في جمعه وتصنيفه وتيسير تعلمه. ومؤرخو علم المنطق من الغربيين قد لا يرون هذا التمثيل مناسبًا لأنهم يقولون أن أرسطو كان مسبوقًا في وضع هذا العلم بمؤلفين من اليونان، بل ومن الصين والهند.

وقد كان الفيلسوف البريطاني روجر بيكون يسخر ممن يظن أن القواعد المنطقية هي من اختراع أرسطو، فنقول: نعم إن كثيرًا من علمائنا الذين كتبوا في أصول الفقه درسوا المنطق اليوناني، لكن تأثرهم به لم يعد التأثر بالمصطلحات والتقسيمات خصوصًا فيما يتعلق بالمسائل اللغوية أما جوهر القياس فلم يكن للمنطق فيه من تأثير.

وهذا الغزالي ولعله أكثر من درس المنطق، وأكثر من تأثر بالفلسفة من علماء الشريعة. ينتقد حتى تعريف الفلاسفة للقياس في أول كتابه المستصفى. عصرنا أيضًا لم يأت بقواعد منطقية جديدة لم يكن يعرفها الناس في العصور الخالية كما قد يتبادر إلى ذهن من يسمع عبارة المنطق الحديث وإنما توسع في تلك القواعد الفطرية فأضاف إليها ما كان أرسطو قد أهمله كما توسع في أنواع الحجج المبنية عليها ووضع لها رمزًا حتى صار المنطق علمًا صوريًا قائمًا بذاته، كعلم الرياضيات.

وبعد كيف يخطر ببال إنسان يقدر الله تعالى قدره أن يعتقد أنه يمكن أن ينزل كتابًا ويرسل رسولًا إلى الناس كافة، ثم يجعل فهم ما في كتابه وما يقوله رسوله معتمدًا على علم يأتي به اليونان أو يأتي به الأوربيون بعد مدة من الزمان؟ كيف يخطر ببال من يقدر الله تعالى حق قدره أن يعتقد أنه يمكن أن يرسل رسالة هي خاتمة الرسالات، ثم لا يجعل لها مضمونًا واحدًا، بل يجعل معانيها خاضعة لتقلبات الزمان والمكان ولا يخترعه الناس من علوم ولما يسنح لهم من أفكار؟ إن الله تعالى ما كان ليجعل من شرط لفهم رسالته الموجهة للعالمين

أجمعين إلا المقدرة العقلية المشتركة بينهم، وإلا معرفة اللغة التي اختارها سبحانه لتكون وعاء لحمل تلك الرسالة.

والقياس واحد من أهم هذه القدرات العقلية التي ركزها الله تعالى في الفطر البشرية، فهو وسيلة للوصول إلى الحقائق كما أنه وسيلة للوصول إلى الأحكام وهو من أكثر الموازين العقلية التي يلجأ إليها الناس في حياتهم اليومية، وفي فنونهم العلمية. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب (المسودة في أصول الفقه) رادًا من حصر القياس في الأحكام لا في إثبات الحقائق: «هذا كلام لا طائل تحته. بل القياس - قياس التأصيل والتعليل والتمثيل يجري في كل شيء وعمدة الطب ومبناه على القياس وإنما هو لإثبات صفات الأجسام؛ وكذلك عامة أمور الناس في عرفهم مبناها على القياس في الأعيان والصفات والأفعال. ومتى ثبت أن الأمر الفلاني معلل بكذا، ثبت وجوده حيث وجدت العلة، سواء كان عينًا، أو صفةً، أو حكمًا، أو فعلًا. وكذلك إذا ثبت أن لا فارق بين هذين إلا كذا، ولا تأثير له في الأمر الفلاني»[1].

فائدة: دلائل الكون على صدق الحقائق الدينية:

إن الحقائق الدينية لا توجد مقررة إلا في المصدرين الوحيدين، لكن في الكون دلائل على صدق تلك الحقائق:

---

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٥٣).

أ) ففي الكون الخارجي كما في داخل العقل البشري دلائل على أن للكون خالقًا موصوفًا بصفات الكمال، كما فيه دلائل على أن البعث أمر ممكن بل أنه أمر لا محالة كائن: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:٢-٣].

ب) رتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كثيرًا من الأحكام الشرعية على مظاهر طبيعية، وحقائق واقعية. فلا يمكن أن تمتثل تلك الأحكام إلا بمعرفة هذه المظاهر والحقائق. إن الشرع يحدد لنا أوقات الصلاة والصوم والحج لكننا لا نستطيع معرفة تلك الأوقات إلا بالنظر في الكون. فبالشرع نعرف وصف الأوقات وبالكون نعرف حقيقتها المطابقة لتلك الأوصاف.

جـ) وفي الكون أيضًا نجد تصديق ما يخبرنا الله تعالى به من وقائع المستقبل، فنزداد إيمانا بالله تعالى وثقة به سبحانه، كما نزداد معرفة بما أخبرنا به حين نراه قائمًا أمامنا نشهده بحواسنا! فإنه ليس من رأى كمن سمع: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]، ﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ

سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:١-٥]، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، وإذن، فكما أنه من الخطأ والجهل أن يقابل الإنسان بين الوحي والعقل؛ فكذلك من الخطأ والجهل أن يقابل بين ما هو مقرر في الوحي وما هو ماثل في الكون.

فيقول مثلًا: أنا أؤمن بما قال الله تعالى، وإن كان مخالفًا لما أثبته الحس. أو أنا أقدم ما أثبته العلم التجريبي على ما قررته النصوص الصحيحة. كل هذا خطأ وجهل، لأنه يقوم على افتراض باطل هو، إمكانية التعارض بين كلام الله والواقع الذي خلقه الله، مع أن التعارض بينهما يستحيل أن يكون تعارضًا حقيقيًا في أي أمر من الأمور، طبًا كان، أو زراعة أو فلكًا، أو غير ذلك، مما هو داخل في مجال العلوم الطبيعية التجريبية، إذ ما كان الله تعالى ليجعل الخلق على هيئة ثم يصفه بصفة تخالف تلك الهيئة. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابًا كبيرًا عظيمًا في الرد على الذين ادعوا إمكانية معارضة العقل للنقل، وقرر فيه أن صحيح المنقول موافق لصريح المعقول. ووضع في أوله قانونًا مقابلًا للقانون الذي وضعه علماء الكلام الذين قالوا بتقديم العقل على الشرع.

والقانون الذي قرره هو القانون الصحيح، وما قاله عن العقل يدخل فيه ما يشهد به الحس. قال رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا تعارض دليلان -سواء كانا سمعيين أو

عقليين، أو أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا- فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين، أو يكونا ظنيين؟ وإما أن يكونا أحدهما قطعيًا والآخر ظنيا، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما، سواء كانا عقليين أو سمعيين، أو أحدهما عقليًا والآخر سمعيًا. وهذا متفق عليه بين العقلاء، لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله، ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان، وأحدهما يناقض مدلول الآخر، للزم الجمع بين النقيضين، وهو محال، بل كل يما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية، فلا بُدّ من أن يكون الدليلان أو أحدهما يغر قطعي، أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين.

فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين. وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيًا دون الآخر، فإنه يجب تقديمه، لاتفاق العقلاء سواء كان هو السمعي أو العقلي، فإن الظن لا يرفع اليقين، وأما إن كانا جميعًا ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم، سواء كان سمعيًا أو عقليًا[1].

فائدة: الاستعداد الروحي وأثره على اكتساب العلم:

إن اكتساب العلم -أيًا كان نوع العلم- لا بُدّ من نظر عقلي ومن استعداد نفسي. وكل ما ذكرناه -حتى الآن- داخل فيما يساعد طالب العلم على صحة النظر الفكري والتأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) الدرء (ج:١) (ص:٧٩).

أما الاستعداد النفسي والروحي فإنه إن كان لازمًا لكل العلوم، وألزم ما يكون في العلوم المراد اكتسابها من الوحي الإلهي. فلا بُدّ لطالب هذا العلم إذن من الإقبال عليه بحالة نفسية تناسب مع جلال قدره. لكن هذه الحال إن كانت مختلفة عن الحال التي يقبل بها طالب العلم الطبيعي على الكون، فإن هناك تشابهًا عجيبًا بينهما.

إن طالب العلوم الطبيعي يقبل على الطبيعة معتقدًا أن الحق ما تدله هي عليه، لا ما يتخيله هو، أو يتصوره قبل استنطاقها؛ وكذلك طالب العلم الشرعي يقبل على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في تواضع وخشوع ليتعلم منهما، معتقدًا أنه لا مصدر لهذا العلم إلا فيهما.

وطالب العلم الطبيعي لا يخطر بباله أبدًا أن هناك أمرًا عقليًا مخالفًا لما يجده في الطبيعة، ولا ينشأن عنده أبدًا سؤال عن تقديم العقل على الطبيعة، أو تقديم الطبيعة على العقل، لأنه يعلم أن عقله لا يستقل بمعرفة حقيقة من حقائق الطبيعة، لا تأتيه منها عن طريق الحس، ويعلم أنه ما كان ليفهم ما يأتيه منها من مادة ويحولها إلى علم، إلا بوساطة العقل.

كذلك الحال بالنسبة لطالب العلم الشرعي، إنه يعلم أنه لو كان ما جاء به الرسول ﷺ مما يمكن أن تعمله العقول استقلالًا، لما كان لإرسال الرسل من داع. ولترك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا العلم للناس يكتسبونه بحواسهم وعقولهم، كما يكتسبون العلم بأمور الحياة الدنيوية.

لكن الله تعالى يقول -حتى لرسوله ﷺ وقد كان أذكى الناس عقلًا، وأشدهم بحثًا عن الهدى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، وكما أن عالم الطبيعة يجد فيها ما يحير العقل ولا يجد فيها ما ينكره، فكذلك كان علماؤنا يقولون عن الشريعة: تأتي لمحارات العقول ولا تأتي بمحالات العقول.

وعالم الطبيعة يقبل على دراستها موقنًا بأنه لا تناقض في حقائقها. فإذا أداه بحثه إلى شيء من التناقض أيقن أن الخطأ منه لا من الطبيعة، وذهب يراجع ما توصل إليه، راجيًا أن يكتشف موضع خطئه. وهذا الفصل بين إمكانية خطئه واستحالة وجود تناقض في الطبيعة نفسها، يجعل مشكلته دائمًا مشكلة فكرية نظرية، لا مشكلة نفسية كما كانت ستكون لو أنه بدأ يشك في أن الطبيعة نفسها متناقضة، وأنه لا أمل لذلك من سلك حقائقها عليهما وهو موقن بأن القرآن تنزيل من حكيم حميد، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأن من دلائل إعجازه أنه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وموقن كذلك بأن الرسول ﷺ معصوم لا ينطق عن الهوى، وأنه ما خرج من فيه ﷺ إلا الحق الذي لا ريب فيه.

لذلك يعتقد أن كل ما قد يبدو له من تناقض بين آية وآية، أو بين حديث وحديث، أو بين آية وحديث، إنما تناقض ظاهري راجع إلى نقص في علمه هو لا إلى تناقض حقيقي في ذينك المصدرين.

ولذلك فإنه لا يسبب له حرجًا ولا يدخل في قلبه شكًا، بل يبحث المسألة

بحثًا علميًا مجردًا، سائلًا الله تعالى أن يهديه إلى سواء السبيل. لكن يبقى هنالك فارق كبير بين العلم الذي يكتسبه الإنسان من مصدر دنيوي، والعلم الذي يكتسب من مصدر إلهي.

إن الله تعالى يعطي العلم بالدنيا -كما يعطي الدنيا نفسها- للبر والفاجر أعني أنه يعطيه منها علمًا حقيقيًا، يفيد منه ويستفيد في هذه الحياة. أما علم الدين الحقيقي. أعني العلم الذي هو ميراث النبوة. العلم الذي يداخل القلوب ويصلحها ويصلح العمل والسلوك، ويكون حاملة سراجًا هاديًا للناس فإنه لا يحل إلا قلبًا قد تهيأ بنور الإيمان ليتقبل نور القرآن، نورًا على نور.

وكلما ازداد الرد إيمانا، وازداد قلبه صفاء، وزاده الله تعالى بدارسة القرآن والسنة انتفاعًا، وفتح له من أسرار علميهما الحقيقي ما لا ينال بمجرد الدراسة والنظر. إن تقوى الله تعالى تحبب لمن وهبه الله إياها حب كلامه وكلام رسوله، وتجعله شغوفًا بهما، وتمنحه من القوة والصبر على دراستهما ما لا ينال بمجرد الاجتهاد الذي لا تصاحبه تقوى. بل إن تقوى الله تعالى لتقوي من حدة النظر العقلي نفسه، وتعينه على الوصول إلى مراقي منه لا يوصل إليها بمجرد الذكاء الفطري الذي لا يعينه توفيق إليهي.

إنك إذا تأملت في حال من تستطيع تأمل حالة من علمائنا الكبار. أئمة أهل السنة والجماعة، من لدن عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا لم يخالجك شك في أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون آفاق علمية سامقة بمجرد النظر

والاجتهاد -مع ما كان لهم منهما من النصيب الأوفى- وإنما وصلنا إلى تلك الدرجات العلى من العلم بدين الله بما وقر في قلوبهم من إيمان بالله ورسوله، وحب خالص لهما، وتوقير لهما لا يدانيه توقير[1].

فائدة: علاقة العقل بالشرع:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، والقضية هي علاقة العقل بالشرع هذه آية واحدة من آيات كثيرة في هذا الموضوع ما العلاقة بين العقل والشرع قلنا إن هذا الدين هو دين الفطر ومن أهم ما فطر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الناس عليه هو العقل فإذا كان الدين دين فطرة فلا بُد أن يكون موافقا للعقل الذي فطر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الناس عليه العقل مهم جدًّا للبشر فبالعقل يفهم الناس معنى الكلام حتى كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، هذا الكلام عن الكفار فربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شهد بأنهم عقلوه يعني فهموه لأنه إذا لم يفهمه لا يحاسب ولذلك فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يرسل رسولًا إلا بلسان قومه فإذا أرسله بلسان قومه عقلوا ما يقوله يعني فهموه وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، الكلام هنا موجه إلى العرب فهو أنزله قرآنًا عربيًا ليعقله

---

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٥٣).

هؤلاء العرب المخاطبون وغير العرب من الذين جاءوا بعدهم يعقلون الترجمة التي ترجم إليها كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يستطيعون أن يعقلوه في لغته الأصلية وبالعقل يميز الإنسان بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق العبادة، قلنا أولا بالعقل يفهم وثانيًا وهذا الأهم بالعقل يميز بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق العبادة، سيدنا إبراهيم في مجادلته لقومه وسيدنا إبراهيم كان كثيرًا ما يستعمل هذه الحجج العقلية قال: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧]، ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يعني لو كنتم عقلاء لو كنتم تستعملون عقولكم ما عبدتم شيئًا لا ينفعكم ولا يضركم فهذا دليل على أنه بالعقل يعرف الإنسان من الذي يستحق العبادة ومن الذي لا يستحق أن يعبد، وبالعقل يحكم الإنسان على الأشياء والتصرفات أهي حسنة أم قبيحة أم مناسبة أم غير مناسبة وكذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤]، ما فيه إنسان عاقل يفعل هذا إنسان يستعمل عقله يأمر الناس بالبر وينسى نفسه لأنه إذا كان يعتقد أن هذا البر شيء حسن فأولى به أن يأمر به نفسه ولا ينسى هذه النفس.

من أكثر العلماء الذين أهتموا بقضية العلاقة بين العقل والشرع أو بين السمع والعقل شيخ الإسلام ابن تيمية كتب في هذا كتب ورسائل كثيره وكتب منها كتابه المشهور (درء تعارض العقل والنقل) أو (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) وأنا أنقل لكم هنا كلامًا نفسيًا لبعض الرسائل وأركز عليه لأن

بعضه قد يحتاج إلى شرح قال: وأما أئمة أهل السنة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومن سلك سبيلهم من أئمة المسلمين فهؤلاء أتوا بخلاصة المعقول والمنقول إذ كانوا عالمين بأن كل أدلة السمعية والعقلية حق، هذا كلام يعني قليل من الناس ما يقولوه حتى من المتدينين أن كلًا من الأدلة السمعية والعقلية هي حق، الأدلة السمعية معناها التي في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ والعقلية هي التي يدل عليها كما يقول صحيح العقل ليست الآراء والأمزجة وكذا وكذا، لكن التي يدل عليها صحيح العقل وأنها متلازمة أن السمعية والعقلية متلازمان، يعني أن السمعي يؤدي إلى العقلي، والعقلي يؤدي إلى السمعي فهما، متلازمان فمن أعطى الأدلة اليقينية حقها من النظر التام علم أنها موافقة لما جاءت به الرسل ودلته على وجوب تصديق الرسل فيما أخبروا به، ومن أعطى الأدلة السمعية حقها من الفهم علم أن الله أرشد عباده في كتابه إلى الأدلة العقلية اليقينية التي بها يُعلم وجود الخالق وثبوت صفات الكمال له وهكذا يعني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر لنا في القرآن الكريم أدلة عقلية على أمهات مسائل الدين منها وجود الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكثيرًا ما يذكر هذا الشيخ في كتبه يقول إن كثيرًا من الناس مع الأسف يظنون أن القرآن لا يخاطب إلا من كان مؤمنًا به وأنه وحي من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن الحقيقة أن القرآن في كثير من آياته يخاطب الناس العُقلاء حتى قبل أن يؤمنوا وبهذه الأدلة العقلية يدعوهم إلى الدين وقد أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا كلام ابن تيمية ما زال».

وقد أخبر الله في كتابه بما دل به على أن كلًا من العقل والسمع يوجب

النجاة فقال تعالى عن أهل النار ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ [الملك:١٠] يعني السمع هنا مقصود به ما جاءت به الرسل، ﴿أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، لكن ما حصل هذا ولا ذلك ولذلك كنا من أصحاب السعير. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

فدل على أن مجرد العقل يوجب النجاة وكذلك مجرد السمع ومعلوم أن هذا أيضًا أن السمع لا يفيد دون العقل الذي هو الدين الذي جاء به الرسل لا يفيد دون العقل، فإن مجرد إخبار المخبر لا يدل إن لم يُعلم صدقه وإنما يعلم صدق الأنبياء بالعقل، ولولا ذلك لولا استعمال الناس لعقولهم لما عرفوا الذي يدعي النبوة وهو كاذب، والذي يدعي النبوة وهو صادق فهذا من أهم الأدلة على التلازم بين العقل والشرع، ولذلك أختم بان من الخطأ جدًّا التسمية الشائعة عند بعض الناس يصفون الذي يزيغ في بعض مسائل الدين يسمونه بالعقلاني هؤلاء ليسوا عقلانيين وإنما هم أصحاب هوى كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠][1].

---

(١) آية وقضية، قناة الرسالة الفضائية. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٨٦).

فائدة: مادة التفكير:

مادة التفكير: شيئان: حقائق وأحكام:

١-**الحقائق:** ما عليه الواقع وما توجد فيه.

٢-**والأحكام:** ما يراد كونه أو فعله. وهي ما تسمى حديثًا تقويم الشيء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] حقيقة + حكم ومنها القيم وهي: قيم أخلاقية - قيم جمالية - وغير ذلك[1].

فائدة: مصادر المعرفة ووسائلها:

مصادر المعرفة أو مصادر الحقائق أو المعرفة:

١-الكون المادي والاجتماعي.

٢-الوحي وقد يسميه بعضهم الخبر. ومصار الخبر: الوحي، البشر، الجن.

لهذا كان علماء المسلمين إذا فصَّلوا لا يجعلون الوحي قسمًا بل داخل ضمن الخبر. مع أن هناك مبادئ فطر الله الناس عليها ولا يحتاج فيها الإنسان إلى أدلة عليها، بل يعرفها بحكم ما وهبه الله من عقل مثل: الجزء أقل من الكل

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٨٦).

فالإنسان يدرك بعقله ولو كان صغيرًا. وسائل المعرفة: وهو الطريق الذي نحصل به تلك الحقائق:

١ - الحواس. ٢ - العقل[١].

فائدة: الطرق التي نحصل بها على المعرفة:

ما هي الطرق التي نحصل بها على المعرفة؟ (الحقائق والأحكام) لا بُدّ لنا من تقسيم المعارف إلى أنواع لنتمكن من دراسة ومعرفة كل نوع على حدة.

١ - **الحقائق الطبيعية**: وتدرس الحقائق الطبيعية عن طريق الحواس والعقل من غير عكس ومنهج المسلم في الحقائق الطبيعية هو المنهج العلمي التجريبي.

٢ - **حقائق الوحي وأحكامه في القرآن**: منهجنا فيه هو المنهج العلمي.

وقد اختلفوا في ذلك لأنهم اختلفوا في الطريق الموصل إلى تلك الحقائق، والإنسان عندما يفكر لا بُدّ أن يكون عنده حقائق وأحكام[٢].

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

(٢) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

فائدة: مادة الفكر في القرآن:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

قال الطبري في تفسير: مثنى: يقوم الرجل منكم مع آخر ويتصادقان على المناظرة، هل علمتم بمحمد ﷺ جنونًا قط. ثم ينفرد كل واحد منكم فيتفكر ويعتبر، هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم. وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف:١٨٤].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الروم:٨]. وقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

[المدثر:١٨] فأتى بالفكر[١].

فائدة: طبيعة التفكير:

التفكير هو عملية عقلية (عملي - عقلي). مادته: في الآيات الكونية - النفس الإنسانية - الأحوال - الكون - الدنيا والآخرة. فمادته: حقائق وهذه الحقائق نحولها إلى أشياء ذهنية ثم نفكر فيها غايته: الغاية حقائق أخرى نتوصل إليها من الحقائق الأولى.

ولولا هذا النظر لما وصلنا إلى هذه الحقائق. والحقائق الأولى هي التي تدلنا على الحقائق الثابتة.

ما هي الحقيقة التي بدأنا بها؟. وما هي الغاية التي نتوصل إليها؟. تذكر الآيات ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ.. كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

فالآيات تدعونا إلى أن نتفكر في الدنيا والآخرة حتى نصل إلى نتيجة والفكر الصحيح يؤدي إلى عاطفة سليمة وهذه العاطفة تؤدي إلى عمل صحيح والتفكر يؤدي إلى نتيجة وهي الإقلاع والابتعاد عمّا نهانا الله عنه وأن ما نهانا الله عنه ينبغي أن نبتعد عنه. وما أمرنا به ينبغي أن نأتمر به ولهذا مدح الله يعلمون

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

تفكيرهم عكس من لم يفكروا لم يعمل فكرة الذي أعطاه الله[1].

فائدة: ما هي الحقائق التي دعانا القرآن إلى التفكر بها:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٤]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الروم:٨] كأن الآية تقول: فكروا في الحقائق التي في أنفسكم، قال: أولم يتفكروا فيعلموا فحذف فيعلموا للدلالة عليها، ومعنى إلا بالحق: إلا للحق. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥] فإذا فكرتم: علمتم أنكم ما خلقتم عبثًا. والعبث هو الباطل ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١] من مجموع الآيات الماضية نستخلص عناصر التفكير، إذا مفهوم التفكير في الآيات السابقة:

١-**الموضوع**: مثل السماوات والأرض، النفس، الدنيا، الآخرة، الرسول ﷺ.

٢-**المشكلة**: كقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ والمثال أنه جنة.

٣-**التأمل والاعتبار**: حينما أفكر في الموضوع أنظر ما هي أحواله وما علاقته بالموضوعات الأخرى وما هي الصفات التي توصلني إلى النتيجة.

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

٤-النتيجة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١] وهذا ممكن أن يكون لأي فكر[١].

فائدة: بعض خصائص الفكر الإسلامي:

١-الغاية الوصول إلى الحق. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩] فربنا أعطانا شيئًا يساعدنا على التفكير.

٢-التنبيه على الأمور التي تعيق عن التفكر: فالقرآن يتكلم عن كثير من الناس فإنه يريدون الأشياء ولا يعقلونها.

٣-إطار للتفكر (يساعد الإنسان على التفكر). مثال على التفكير وليس فيه كلمة تفكر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ..﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

هنا أراد أن يعلم قومه كيف يفكرون، قال ابن كثير لم يكن ناظرًا وإنما كان مناظرًا، فهو أراد أن يعلم قومه كيف يصلون إلى الحق. ففي البداية قال هذا ربي قال هذا لأن قومه كانوا يعبدون الكواكب، فهو بدأ معهم كما يقولون. ثم قال: لا أحب الآفلين: أي لا أحب أن يكون الآفل إلهًا لي. والآفل هو الذي يغيب.

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

بعض علماء الكلام الذين تأثروا بالفكر اليوناني قال الأفول معناه الحركة فكل متحرك محدث وأرادوا أن يطبقوا هذا على قصة إبراهيم فما دام الكوكب متحركًا فهو حادث، وما دام حادثًا لا يصلح إلهًا.

ورد عليهم العلماء: أن إبراهيم رأى القمر بازغًا ولو كان متحركًا لقال لا أحب البازغين لكنه قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾. وفي النصارى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٦٨]، والغني لا يحتاج إلى ولد، لأن الولد يدل على النقص. فموضوع التفكير قوله: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ حيث قال في آية أخرى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾، والله خالق كل شيء، فكيف تقولون: إن له ولدًا. فموضوع التفكير: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾[1].

فائدة: المفهوم الشائع للفكر:

الفكر في المفهوم الشائع له معنى واسع جدًا. أما في القرآن فمعناه محدد فالفكر نتيجة التفكر، والقرآن ليس فكرًا وإنما هو وحي، ففيه فرق بين النصوص

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

الشرعية وبين الفكر الإسلامي: والقرآن والسنة وحي ولكن ما نصل إليه نحن المسلمون من نتائج مستعينين بالقرآن والسنة يسمى فكرًا [١].

فائدة: نظرية المعرفة:

والمقصود بها: البحث والرأي في مسائل تتعلق بالمعرفة كإمكانية المعرفة ومدى المعرفة البشرية، ويسمونها نظرية: لأنهم يرون أن الاختلاف فيها اختلاف في الرأي.

فمن الغربين مثلًا من يقول:

١-إن الوسيلة الأساسية للمعرفة هي الحواس والتجربة القائمة على هذه الحواس. ولذلك يسمون بالتجريبين.

٢-ومنهم من يرى أن وسيلة المعرفة الوحيدة هي العقل ولذلك يسمون بالعقلانيين [٢].

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

(٢) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

فائدة: وسائل المعرفة:

يخلط بعض الناس بين وسائل المعرفة ومصادر المعرفة فيقولون: مثلًا: إن وسائل المعرفة بالنسبة للإنسان المسلم هي الحواس والعقل والوحي، مع أن الوحي ليس وسيلة من وسائل المعرفة، وإنما هو مصدر من مصادرها، والمقصود بوسيلة المعرفة هي ما زودنا الله بها من الآلات لنصل بها إلى المعرفة، وأما المصادر فهي الجهة التي تأخذ منها هذه الوسائل المعرفة، فهنالك إذا وسائل معرفة، ومصادر معرفة، وأنواع معارف. والمقصود بأنواع المعارف: حقائق وقيم أو حقائق وأحكام، والحقائق تقسم إلى حسية ومعنوية وغيبية ومشهودة.

وسائل المعرفة في الإسلام: (في القرآن والسنة):

١ - قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

والوسائل المشتملة في هذه الآيات هي:

١- السمع (الأذن).

٢- البصر (العين).

٣- القلب. ٤- الفؤاد. ٥- اللب.

ما يستنتج من الآيات الماضية: أن الإنسان يولد جاهلًا ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

حقائق المعرفة التي ذكرت في هذه الآيات: الآذان للسمع، والأعين للبصر، والقلوب والأفئدة: للعقل والفقه. وهذا بحسب القرآن. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾.

هناك بعض وسائل المعرفة لم تذكر في هذه الآيات: كاللمس والشم والذوق، ولعل الحكمة في ذلك أن الوسائل المذكورة هي المهمة. وكل ما ذكر القرآن من وسائل المعرفة يذكر هذه الثلاث المتقدمة، والحاستين اللتين ذكرهما القرآن - السمع - البصر لم يعين بها المعرفة التي تأتينا مجردة عن القلب، وإنما المقصود بالسمع والبصر في الآيات القرآنية هو السمع والبصر المتعلقان بالقلب والمرتبطان به.

وإذا وقفنا على حدود المعرفة الحسية كالسمع فلا يكون هناك معنى ونحن إذا تحدثنا عن الوسائل لا نتحدث عنها مجردة وإنما يترجمها القلب إلى معان. دليل ذلك من القرآن ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة:١٧١]، فهو مثله كمثل الراعي لا تسمع منه إلا دعاء ونداءً، وقد

يتكلم الراعي مع البهائم فتجده يناديها، ولكنها لا تسمع إلا صوتً ولا تميزه. وكلمة العقل في القرآن لم ترد إلا فعل (عقل) وهذا هو أساسها في الحقيقة وهي مصدر عقل يعقل عقلًا: وهي تسمية للشيء بفعله أو بمصدره، لكن العرب تتجاوز ذلك فتسمى المكان باسم الفعل، فسميت الأذن سمع من سمع يسمع سمعًا. وفي القرآن لا يوجد هذا.

الآيات التي تتحدث عن البصر: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، والمعنى رآه كما هو بدون زياده أو نقصان وما طغى: وما زاد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ [الملك:٣-٤]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٤]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة:٧].

الآيات التي تتحدث عن السمع: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [المؤمنون:٧٨]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٩]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣].

في القرآن الكريم نوعان من الآيات المتعلقة بوسائل المعرفة:

نوع عن الآلات والآلات نوعان:

أ- الآذان ب-الأعين.

فالأذن محل السمع، والعين محل النظر. وهذه لا إشكال فيها. هناك آيات مسماها محل الإدراك وهو: القلب - الفؤاد - اللب - الصدر. وهذه الآلات محال وقد تكون شيئًا واحدًا عبر عنه بتعابير مختلفة.

والفقه، والفهم، والعلم، والمعرفة، والشعور، والوعي، وما تخفي الصدور، والنظر، والتفكر، هذه أفعال الآلات[1].

فائدة: العقل في لغة القرآن:

العقل في لغة القرآن ليس محلًا وليس آلة، وإنما هو فعل ويدل على هذا أن كلمة (عقل) لم ترد في القرآن إلا فعلًا ولم ترد مصدرًا ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾.

أما في الاستعمال الحديث: فيستعمل مكانًا ومحلًا للإدراك. إما بمعنى حسي ويكون مطابقًا للمخ، أو بمعنى غير حسي، إذًا في الاستعمال الحديث: العقل هو الآلة التي ندرك بها. أما في القرآن فالآلة التي ندرك بها هي القلب، والعقل هو فعل هذا القلب.

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

فالقلب هو الذي يعقل ويفهم ويشعر ويحب ويبغض، وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾، (فتكون لهم قلوب يفقهون بها)، أما في الاستعمال الشائع يفرقون بين العقل والقلب: يجعلون القلب محل العواطف من الحب والبغض.. الخ ويجعلون العقل محل التفكير.

ولكننا لا نجد هذه الازدواجية في استعمال القرآن الكريم فالقلب هو الذي يحب ويبغض، كما أنه هو الذي يتفكر وينظر وأما في الاستعمال العلمي الحديث فإنه يجعل المحل واحدًا كما في القرآن الكريم. لكن هذا المحل هو المخ. وأحيانًا يجعلون العقل مرادفًا للمخ. وأحيانًا يجعلونه شيئًا منفصلًا عنه (أي شيئًا غير حي).

وهناك جدل طويل بين العلماء الغربيين المختصين بالعلاقة بين العقل والمخ.إذا فالمحل واحد في القرآن هو القلب، وفي الاستعمال العلمي الحديث هو أيضًا واحد وهو العقل أو المخ. أما في الاستعمال الشائع فليس محلًا واحدًا.

والعلم الحديث - الطبي - يستعمل كلمة المخ أو الدماغ بدل كلمة القلب (في القرآن).يقول ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل: «وتلك الألفاظ تكون موجود مستعملة في الكتاب والسنة وكلام الناس لكن بمعان أخرى» فيحصل الاشتباه كلفظ العقل[1].

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

فائدة: لفظة العقل في لغة المسلمين:

التصريف: عقل - عاقل - معقول. فإن لفظ العقل في لغة المسلمين إنما يدل على عرض. إما مسمى مصدر عقل يعقل عقلًا، وإما قوة يكون منها العقل وهي الغريزة

وهم المتكلمون والفلاسفة، يريدون بذلك جوهرًا قائمًا بذاته، إذا: العقل في لغة القرآن والسنة عرض وليس جوهرًا، أما المخ فهو جوهر والجوهر: ما يقوم بذاته، العرض: ما لا يقوم إلا بالجوهر[1].

فائدة: الطريقة التي نصل بها إلى الحقائق:

كل معرفة تأتينا عن طريق السمع أو البصر أو القلب فهي معرفة معتبره شرعًا وما دام القرآن اعتبر الحس وسيلة للمعرفة فنتائج العلوم الطبيعية التي تعتمد على الحواس مع العقل فهي ثابتة شرعًا، إذا: العلم الشرعي يدخل فيه العلم التجريبي.

يقول ابن تيمية: «وأما كونه شرعيًا فلا يقابل بكونه عقليًا وإنما يقابل بكونه بدعيًا»، إذا: فما ثبت بالحس لا يمكن أن يناقض ما ثبت بالشرع.

ولكن كما قلنا: القرآن الكريم لا يستعمل السمع والبصر لإدراك

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٨٦).

المحسوسات فقط بل يدخل فيها إدراك المعقولات[١].

فائدة: عن أي طريق يأتينا الشرع (الوحي)؟

يأتي عن طريق السمع. فما يأتينا عن طريق حاسة السمع هو العلوم الشرعية. لكن القلب ينفرد بعلوم لا تأتينا عن طريق الحس وهي علوم فطرية غير مكتسبة وهي:

١-**التوحيد والدليل على أنه فطري:** «كل مولود يولد على الفطرة» وفي الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين»، وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

٢-**أصول العلوم العقلية كأصول المنطق:** وأهم شيء في المنطق أن الكلام المتناقض غير مقبول وباطل مثل نصف الشيء لا يمكن أن يكون أكبر منه.

٣-**أصول الأخلاق: كالشكر على نعم الله:** فهذا فطرى حيث لا يعلم الدين أصل الأخلاق وإنما يعلم الناس الالتزام بها[٢].

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٨٦).

(٢) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

فائدة: النتائج لوسائل المعرفة:

قلنا في نظرية المعرفة: إن وسائل المعرفة: الحس: السمع - البصر العقل: القلب. **نخرج من هذا بنتيجة:**

١) بما أن الإسلام يعتبر الحس وسيلة من وسائل المعرفة. فهو إذا يعتبر كل ما يأتينا عن طريق الحس علمًا، إذًا فالإسلام يعتبر ما نسميه العلوم الطبيعية التي مبناها على الحس علومًا شرعية؛ وذلك أن العلوم الشرعية نوعان: كما يقول ابن تيمية:

١- نوع بينه الكتاب والسنة وفصلاه، فلا تحتاج لأن نكتسبه بجهدنا.

٢- ونوع أرشدنا الدين إلى دراسته ومعرفته، **والنوع الأول:** مثل الحلال والحرام ومسائل العقيدة، وبعضها نعرفها، **والنوع الثاني:** مثل علوم التاريخ والفلك والعلوم العسكرية، وكل ما يحتاج المسلمون إلى دراسته يعتبر نوعًا كفائيًا؛ وكذلك الأمر بالنسبة لما يسمى بالعلوم العقلية.

وأيضًا بما أن الإسلام يعتبر العقل وسيلة من وسائل المعرفة إذا فكل ما يأتينا عن طريق العقل الصريح فهو علم مقبول شرعًا، فالعلوم العقلية جزء من العلوم الشرعية، ولذلك لا يصح أن يقابل العقلي بالشرعي، فإنه إذا صح عقلًا فهو صحيح شرعًا وإذا صح شرعًا فلا يكون في العقل ما يناقضه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول).

العقل المقصود هنا: هو العقل الصريح كما ذكرنا، لاكما يدعي أنه عقل،

ككثير من أصول المعتزلة والجهمية من الفرق الإسلامية أو أصول الماركسية والفلسفات الغربية التي يظن أصحابها أنها عقلية فإذا وجدوا خلافًا بينها وبين النصوص الدينية أولوا هذه النصوص بما يوافق أسسهم وإن كانوا من الفرق الإسلامية. واستدلوا بهذه المخالفة على أن ما ذكره الدين دعاوى مخالفة للعقل إن كانوا من أصحاب المذاهب الفلسفية[١].

فائدة: ما هي العلوم التي تأتينا عن طريق العقل؟

أو ما هي العلوم العقلية التي فطرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على معرفتها؟ للإجابة على هذا: الإنسان أول ما يولد جاهلًا ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]، فالفطرة ليست علمًا، فالإنسان يولد وكأن في قلبه بذرة لهذه العلوم فإذا ما نما فإن هذه البذرة تنمو بنمو العقل ما لم تصادف شيئًا يضادها. فكأن الإنسان إذا ترك وفطرته ينمو عقله بطريقة توحي إليه أن له خالقًا واحدًا هو الله سبحانه وأنه المستحق للعبادة[٢].

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

(٢) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

فائدة: لماذا يتعلم الإنسان اللغة بينما لا يتعلمها الحيوان؟

لأن الإنسان عنده استعدادًا من البداية، وإذا استغل هذا الاستعداد تعلمها. أما الحيوان فليس لديه استعداد لذلك. إذا الفطرة ليست علمًا، وإنما هي للخير فقط. أي أنها شيء إيجابي، ولكن مع هذا فالإنسان لديه استعداد للخير والشر، فأوضح تعبير لها أنها بذرة إذا حصلت الجو الصالح لها فإنها تنمو ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٩][1].

فائدة: مصدر الحقائق والقيم هو الوحي:

والوحي هو القرآن والسنة، وهذا لا يحتاج إلى دليل وإنما لما قامت هناك دعوى أنه يوحي إليه وأنه يستطيع أن ينزل عليه فلا بُدّ من إقامة دليل على أن القرآن وحي من الله. ما هو الدلي على أن القرآن وحي من الله؟

١) إعجاز القرآن البياني.

٢) أنواع أخرى من الإعجاز منها:

أ- التناسق وعدم التناقض.

ب- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

١- حفظه من الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل.

٢- المعجزات التاريخية (الإخبار بما يقع في المستقبل).

٣- المدة لنزول القرآن على مدى ثلاث وعشرين عامًا، فكلما كثرت المدة كان الكلام متناقضًا، وكلما قصرت كان خاليًا من ذلك.

٤- القدر (الكمية كبيرة).

٥- تنوع المواضيع.

والتناسق نوعان:

١- تناسق داخلي.

٢- تناسق خارجي وهو مدى انطباق المواضيع على الواقع.

إذا كان القدر كبيرًا فيكون احتمال التناقض مع الزمن أكبر وأهم من ذلك إذا طالت المدة، هل نجد الواقع كما قال، فلو إن إنسانا كتب كتابًا عن الأمراض فهل يكون مستمرًا صالحًا للتطبيق نحن لا نرى كتابًا صالحًا للتطبيق على مدى الأزمان غير القرآن. فهل القرآن الذي جمع في مصحف واحد منذ أكثر من ١٤٠٠ عام هل يوجد فيه تناقض. ليس هذا فحسب، بل نجد أن هناك ما لم يعرف في الواقع واكتشفوه في القرآن. فكيف إذا كان القائل أميًا معزولًا عن الأمة اليونانية، أو الرومية، ولم يكن يقرأ ولا يكتب، ولا يوجد فلاسفة، فالكفار ينبهرون لذلك مثل موريس بوكاي وغيره. ومن العجائب أن الإنسان ينكره أو يطعن فيه في حالة الشباب والطيش، فإذا زاد عقله وكبر سنه رجع إلى الإسلام،

وما سمعنا أن إنسانا رجع إلى المسيحية بعد ٤٠ سنة بل العكس فهذه النوعيات للعقول تدل أن القرآن وحي من الله.

والشريعة (الأحكام) فيها دليل على أن القرآن من الله.

جـ- الإعجاز العلمي.

د-كلام القرآن عن الله يختلف عن كلام أهل الأديان والفلاسفة فيما يقولونه عن الله فتجد التناقض عندهم ولا يصفون الله بما وصفه به القرآن، فالفلاسفة يجعلونه شيئًا مجردًا.

والنصارى بالغوا في بعض الرسل، واليهود ذموا الرسل حتى جعلوهم أدنى من الناس والقرآن جعلهم مثاليون وقدوة للبشر.

٦-خلق الرسول أي سيرته:

كيف يدل خلق الرسول على أن القرآن وحي من الله؟

أ- أن الرسول ﷺ عرف بالصدق والأمانة قبل أن يبعث يقول هرقل: «ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله». وقد لبث ٤٠ سنة قبل البعثة، فكيف يكذب بعد هذه المدة، وهذه حجة عقلية على أن صدق الرسول ﷺ يدل على أن القرآن وحي من الله، ولهذا كان الرسول يعرف ذلك عن نفسه ويعرف بين العرب بالصادق والأمين.

ب- وأيضًا الرسول ﷺ قد عاش في القرن السابع الميلادي وهو أمي لم يدخل مدرسة ولا تعلم. وفجأة يأتي بكتاب الله الذي فيه أخبار الأمم السابقة وما

حدث لها مع أنبيائها وكيف كانت النتيجة بالنسبة لهم.

جـ- فكل من يدرس سيرة الرسول ﷺ والظروف التي عاش فيها يعرف أنه لا يمكن له أن يأتي بكتاب مثل هذا من عند نفسه، وهو القائد والمنتصر في المعارك والموجه للأمة، ولم يتعرض لطلب الدنيا، وإنما همه القيام بواجب الدعوة إلى الله، فسيرته قبل البعثة وبعدها تدل على أنه صادق.

د- وأيضًا انتصاره على قريش في معركة الفتح حيث دخل مكة متواضعًا شاكرًا الله على نصره له

فسيرته تتمثل في:

١-صدقه ٢-الأمية ٣-الانتصار.

٧- مفهوم الألوهية والنبوة:

فجميع الكتب التي تنتسب للأديان الأخرى لا تجد فيها تصورًا كاملًا عن الخالق مثل ما تجده في القرآن، أما القرآن فقد وصف الله بصفات تليق به ونزهه عن كل نقص لا يليق به.

أما النبوة: فاليهود فرطوا في حديثهم عن الأنبياء حتى نسبوا إليهم أشياء يترفع عنها الكفار فقالوا: نوح شرب الخمر، ولوط زنا بابنتيه، ونحو ذلك من الاتهامات التي يتنزه عنها أضعف البشر، والنصارى رفعوا الرسول إلى درجة الروبية، والقرآن وصف الرسول بأرقى المقامات (بأنه عبد)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، لكن في الناحية الأخرى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾

[القلم:٤]، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فكل ما يتصف به البشر من صفات الكمال يتصف به الرسول ﷺ وهذا لا يوجد في الكتب التي تنتسب إلى الأديان الأخرى.

٨-الشريعة:

إذا قورنت بالشرائع التي قبلها والشرائع المعاصرة للرسول ﷺ فإن الشريعة الإسلامية ترتفع عليها، ومن ذلك العدالة.

المنهج الذي نسلكه مع إنسان ملحد لا يؤمن بالله (برهان وجود الخالق):

١-التنظيم المحكم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ...﴾ [البقرة:١٦٤]

ويسمى دليل العناية.

٢-دليل الخلق: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾.

هذه الآية موجهة للإنسان الذي لا يؤمن بوجود الخالق. فالله يقول له: وجودك يمكن أن يفسر بأحد ثلاثة أمور:

١- إما أن نقول: إنك جئت من العدم ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ فالعقل لا يقبل هذا.

٢- وإما أن نقول: إنك خلقت نفسك ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾. وهذا لا يقبله العقل لأنه مستحيل لأنه إذا أراد أن يخلق لا بُدّ أن يكون موجودًا.

٣- وهذا لم يذكره القرآن. فالأشياء البديهية التي يعرفها الإنسان يسأل

عنها القرآن سؤال استنكار فلا بُدّ من خالق، فالآية تريد أن تثبت أن الشيء الحادث كالإنسان لا بُدّ له من خالق.

ومنه عالم فلكي من علماء الغرب اسمه (فريد هويل) له نظرية (الكون المتسع) وملخصها: أن الكون الذي نشاهده تتباعد أجزاؤه فلا نراها بعد ملايين السنين. لكن التجارب التي أجروها دلت على أن هذا لا يحدث فأصبح فيه إشكال فهو قال: هنالك خلق مستمر كلما انتهت مادة جاء بدلها مادة أخرى وقال إنها تأتي من العدم. ولم يوافقه العلماء على هذا، وكثير منهم ظنوا أن نظريته هذه موافقة للدين لأنهم يظنون أن الذين يؤمنون بالله يقولون إن الأشياء تأتي من العدم بل نحن نقول الله خلقها هذا مجرد مثال لقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾.

أما المثال لقوله: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فهو ما قاله كارل: إن الإنسان يخلق نفسه؛ لأن الإنسان نتيجة إنسانين فكان إنسانا أتى بإنسان ثم كل واحد من الإنسانين جاء نتيجة إنسانين أيضًا، ويقول أيضًا: لا أحد يسألني عن الإنسان الأول فهو أيضًا أتى بمغالطة لأنك حين تسال عن الأول تفترض أنه لم يكن موجودًا، فإذا افترضته غير موجود فأنت غير موجود، لأنك جئت من الإنسان الأول على حد زعمه.

فنحن نقول: ما دام لا يأتي من العدم ولا يخلق نفسه، فلا بُدّ أن له خالقًا غير نفسه. وبعض الملحدين يقولون: نسلم بهذا الكون، ولكن لماذا تقولون إن الخالق هذا الموجود الموصوف بالصفات الموجودة في القرآن الكريم.

فالماديون يقولون: الطبيعة والمادة والمصادفة.

فنرد عليهم بأن نقول:

١- **الطبيعة والمادة:** ماذا تقولون فيها، ومن أين أتيا؟ للأسف لم يبق في العالم من يدافع عن الألوهية والدين إلا أهل الإسلام فقط.

٢- **ما المقصود بالطبيعة:** فإذا فسرها وعرفنا قصده، رددنا عليه بالأشياء السابقة وهي أن كل شيء لا بُدّ له من خالق.

٣- **ما المقصود بالمصادفة:** تقول المصادفة لا تخلق، وإنما هي أن يتقابل شيء بآخر من غير ميعاد.

٤- **ما المقصود بالمادة:** يقولون: إن الكون خلقنا منها، فليست منفصلة عنه، فكأنهم يقولون إن هناك كمية ثابتة من المادة أزلية لم تخلق منها، فتكون الأشياء كالإنسان والحيوان ثم يفنى ويرجع إلى أصله مره أخرى، .فنقول: ما لذي حدث عن طريق المصادفة، فقد حدث أن التقى الأكسجين بالهيدروجين ألا يدل هذا على أنهما قد صمما إذا التقيا وجد ماء، فالمصادفة وحدها لا تفيد شيئًا إذا لم يكن هذان الشيئان قد صمما من قبل[1].

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

فائدة: الرد على كون المادة أزلية:

إن الشيء إذا كان أزليًا لا بداية له، فلا بُدّ أن يكون أبديًا لا نهاية له ومعنى كونه أبديًا: أن يبقي على حاله لا ينقسم إلى أقسام فيحتفظ بصفاته ويبقى بذاته، فالأزلي لا يحدث في صفاته ولا ذاته تغيير، ونقول لهم: ما هي المادة التي لا يحدث لها تغيير في ذاتها ولا صفاتها؟ قالوا: هي الأجرام السماوية.

فنقول: إنه بفضل ما أعطانا الله من العلوم الحديثة كالفلك والفيزياء نعلم أن هذا ليس صحيحًا فالأجرام السماوية تتغير لأنها تنقص. ثم هذه الأجرام السماوية تصير مادة أقل منها وهي العناصر مثل: الأكسجين والنيتروجين والذهب والفضة، فهي الأشياء التي ليست مركبة فالذهب شيء خالص وهكذا، وقد ظنوا أن الأشياء المادية الأخرى تتكون من هذه العناصر كالماء فهو مكون من الهيدروجين والأكسجين، والهواء والخشب والأرض، فهذه ليست عناصر لأنها مركبة.

ومعنى كلمة عنصر: المكونات الأساسية للمادة. ثم بعد هذا: حدث أن اكتشفنا أن هذه العناصر مركبة من جزيئات يعني إذا فتتنا الذهب واستمرينا في ذلك في النهاية نصل إلى جزيء هو ذهب، والظن أنه آخر شيء. ثم اكتشفنا أن هذه الجزيئات مركبة من ذرات. فالذهب يمكن أن يكون من ذرات. فوجدوا أن الفرق بين عنصر وعنصر أحيانًا يكون في عدد الذرات أو في طريقة تركيبه، لكن عددها وطريقة تركيبها تجعل الشيء المكون منها مختلف.

فكل الفلسفات المادية الحديثة مبنية على أساس أن الذرة هي المادة

الأزلية، وكل الأشياء الأخرى مكونة لها. فإذا قيل لهم: كيف تكون هذا العالم؟ قالوا: هناك ذرات أزلية سابحة في فراغ يلتقي بعضها ببعض بالمصادفة ليس عن تدبير، فإذا التقت تكونت فيها جزئيات ثم جزيئات أخرى ثم يتكون من هذه الجزئيات عنصرًا بالمصادفة ثم آخر ثم يتكون من العنصر مركب ثم مركب آخر وهكذا. والرد عليهم: أن الذرة تنقسم وقد وصل العدد إلى أكثر من مائة (مكونات الذرة) وقد يقول إنسان: أن مكونات الذرة هي المادة الأزلية.

١- **يقول العلماء**: ليس عندنا دليلاً على هذا لأنه ربما نكتشف أنها مركبة فالعالم الطبيعي يقول: أنا لا أقول إنها أزلية لأني ما زلت أبحث فقد تكون مركبة.

٢- أن هذه المكونات تفقد شرط الأزلية وهو أن لا تفقد ذاتها ولا تتغير صفاتها، ومعلوم أنه لا فاصل بين المادة والطاقة أي القوة فكل منها يتحول إلى الآخر.

فبفضل ما أتانا الله من العلوم تيقنا أنه لا توجد مادة مشاهدة يقال إنها أزلية، لكن بعض الناس يشبه عليهم الأمر فيقولون الأشياء تتغير لكن المادة ثابتة، فالإنسان لا يبقي إنسانا لكنه يتحول إلى أملاح وهكذا، ولكن هناك فرق بين المادة باعتبارها مجرد مفهوم ذهني والمادة الواقعية ففي واقع الحياة ليس فيه مادة يمكن أن تشير إليها بأنها أزلية أما بالمعنى الذهني ففيه مادة.

ونحن نتحدث عن الأزلية الموجودة في الخارج لا في الذهن، والشيوعيون

لهم رأيان ينقض بعضهم بعضًا. فبعض مؤسسي الفكرة الشيوعية يقولون: إن المادة تنقسم إلى ما لا نهاية لها.

فإذا كان الأمر كذلك فليس فيه مادة أزلية. وماركس يقول: المادة التي لا صفات لها ولا خصائص أي المجردة هي من اختراع الفلاسفة (شيء ذهني) وهذا صحيح، فإذا جمعنا كلام كل منهما إلى الآخر فيخرج لنا أنه ليس فيه مادة أزلية فكلام كارل ماركس صحيح لأن الذي في الذهن ليس شيئًا موجودًا في الأعيان.

هذا برهان موجز على أن المادة ليست أزلية فلا بُدّ لها من وجود خالق أزلي له صفات نريد أن نعرفها، ومعرفتها مهمة في ذاتها وهي تبرهن على أن المادة لا يمكن أن تكون هي الخالق. فإذا كان خالقًا فهو أزلي وأبدي وليس كمثله شيء، ولكن كيف وصلنا إلى هل هذا الخالق يخلق بإرادة؟ أم أن المخلوقات تأتي عنه كما تأتي من الآثار الطبيعية؟ فالزرع ينبت من المطر لا بإرادته.

وما الدليل على أن هذا الخالق لا يلد وإنما يخلق بإرادة لأنه أزلي غني قيوم لا يحتاج إلى غيره، وإن الابن يكون من جنس أبيه، فلو كان يلد لصرنا من جنسه والسبب الطبيعي يحتاج إلى أسباب أخرى، كالجنين سببه الأب، لكن هل الأب يستقل به أو الأم؟

الجواب: لا فلا بُدّ من سبب آخر، فإذا جعلناه سبحانه سببًا ظنيًا فلا بُدّ أن نقول إنه محتاج إلى غيره تعالى عن ذلك، فلا بُدّ أن يكون صدور المخلوقات

عنه صدور إرادة لا صدور ولادة.

فإذا كان مريدًا أي خلق عن إرادة فلا بُدّ أن يكون عالمًا لأن الإرادة تقتضي العلم، فإذا كان مريدًا وعالمًا فيكون حيًا، فنستنتج كثيرًا من الصفات، وبعض الصفات يمكن أن تعرف بالعقل وإن كان قد ورد بها الشرع كصفة العلو[1].

فائدة: توجيهات قرآنية ومن السنة تتعلق بالمنهج العلمي:

١- الحث على طلب العلم ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ ..﴾.

٢- قلة العلم البشرى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٣- فضل العلم والعلماء «**فضل العالم على العابد..**»، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ..﴾.

٤- الدعوة إلى التفكر «أفلا يتذكرون، أفلا يتفكرون».

٥- ارتباط العلم بالإيمان والعمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ ..﴾.

٦- النهي عن القول بغير علم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ..﴾، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى ..﴾.

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٨٨٦).

٧- التثبت في الرواية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾.

٨- وسائل اكتساب المعرفة ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

٩- الإنسان يولد جاهلًا، وقد يعود جاهلًا: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

١٠- الجهل يشمل عدم العمل بالعمل «اللهم إني أعوذ بك أن اجهل أو يجهل علي»، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ..﴾.

١١- النهي عن التقليد ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

فائدة: مدارك العلوم:

عندما جئت إلى هذه الحياة مولودًا جديدًا لم تكن تعرف شيئًا ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]؛ ولكنك الآن تعرف أشياء كثيرة فهل سألت نفسك ذات يوم كيف حصلت على هذه العلوم؟

هل سألت نفسك قائلًا: ما الخصائص التي تجعل البشر يعلمون ويزدادون

---

(١) منهج التفكير الإسلامي، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٨٨٦).

علمًا بينما الجمادات والحيوانات لا تزداد علمًا؟ إذا كنت قد قرأت القرآن الكريم فلا بُدّ أنك وجدت الجواب في بقية الآية التي مرت بك الآن هذه البقية هي: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

إذن فالعلوم تأتينا عن طريق هذه الاجهزة التي منحنا الله تعالى اياها، وهي السمع والبصر والعقل، ولذلك فانه سبحانه أمرنا بحسن استخدامها وجعلنا مسؤولين عن ذلك ومحاسبين عليه فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦][1].

فائدة: ما هو العلم؟

العلم هو أن يكون التصور الذي في أذهاننا مطابقًا للواقع أو أن يكون تعبيرنا عن هذا التصور مطابقًا للواقع، فالعلم أصله في العقل، واللسان والقلم يعبران عمّا في العقل.

لكن كيف تنتقل صورة الواقع إلى أذهاننا فتكون علما؟

لقد أشرنا إلى أنها تنتقل إلينا عن طريق الحواس من سمع وبصر ولمس وشم وذوق فاذا قلت إنني أرى أمامي شجرة خضراء مورقة وارفة الظل، وكان أمامك في الواقع شجرة بالوصف الذي ذكرت كان ما تصورته وعبرت عنه عمّا،

---

(١) وحدة الموضوعات العامة من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٠٧).

وإذا لم تكن هناك شجرة كما وصفت لم يكن علما بل وهمًا.

والحواس إذن هي التي تنقل إلى أذهاننا صورة الواقع الخارجي ولكن الحواس لا تستطيع أن تفعل لك الا بمساعدة الدماغ والعقل، وسيشرح لك أستاذ العلوم أن العين مثلًا لا تنقل لك صورة الشجرة كماهي، وأن الأذن لا تنقل لك كلامًا وإنما تنقل موجات صوتية وأن عقلك هو الذي يجعلك ترى شجرة وتسمع كلاما. نزيد ما ذكرنا لك شرحًا وتفصيلًا فنقول ان العلوم ثلاثة أنواع:

١-صورة حسية تنقل إلينا عن طريق الحواس الخمس بمساعدة الدماغ.

٢-مبادئ عقلية فطرنا الله تعالى عليها وركبها في عقولنا وجعلها تنمو معنا حتى تبلغ تمامها من هذه المبادئ علمنا بأن القول ونقيضه لا يجتمعان، فإذا قلت لك -بل إذا قلت لطفل تعلم الكلام- (الشمس طالعة وليست طالعة) أو (أنا جوعان وشبعان) علمت وعلم أن هذا مستحيل.

كذلك إذا قلت لك (ان نصف الشيء أكبر منه) كأن نقول مثلًا (إن نصف التفاحة أكبر من التفاحة) أو أن شيئًا وجد من العدم بغير سبب أوجده قل هذا مستحيل.

فمن أين عرفت هذه الاستحالة؟ عرفتها لما ركز الله في عقلك من مبادئ، ولم تعرفها عن طريق الحواس ولا تحتاج أن تتعلمها من غيرك؛ بل إن الإنسان الذي لا يعرف مثل هذه المبادئ لا يمكن أن يتعلم شيئًا ونقول أن بعقله خللًا.

٣-أخبار يعلمها غيرنا مباشرًا وينقلها إلينا أقوالًا، فوسيلتنا لإدراكها هي السمع إذن، ولكن الأذن كما ذكرنا لا تنتقل إلينا الا موجات هوائية، لا تنقل لنا إلا أصواتًا والأصوات وحدها لا تكون كلامًا، وإنما تكون كذلك إذا كان لها عندنا بلغة لا يفهمها فإنه يسمع صوتك؛ ولكنه لا يعي ما تقول.

كذلك إذا حدثته بلغة يفهمها لكنه كان غافلًا عنك أو لم يكن له رغبة في معرفة ما تقول، فإنه يسمع صوتك ولكن لا يدرك قولك. ولذلك قال تعالى عن المشركين المعرضين عن القرآن الكريم: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، يقول تعالى إن مثل الكفار حين يتلو عليهم النبي ﷺ القرآن كمثل بهائم يتكلم معها راعيها، فكما أن البهائم لا تفهم كلام الراعي، وإنما الذي يصلها منه دعاء ونداء أي أصوات بلا معنى، فكذلك هؤلاء الكفار لا يسمعون القرآن سماعًا حقيقًا ولا يرون آيات الله رؤيا حقيقية فهم كمن انسدت فيه كل نوافذ المعرفة، فلا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ولا يتكلم[1].

فائدة: الأخبار نوعان:

أخبار بشرية: وهي التي تأتينا من بشر أمثالنا فهذه ينبغي ألا نتسرع في قبولها، بل ينبغي أن نزنها بموازين الحس والعقل التي زودنا الله تعالى بها، فإذا

---

(١) وحدة الموضوعات العامة من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٠٧).

قال لنا إنسان كلامًا يخالف ما علمناه واستقيناه لم نصدقه، وإذا قال كلامًا مناقضا لم نقبله، وإذا قال كلامًا معقولا لكنه لم يكن رجلًا ثقة لم نتسرع في قبول كلامه، بل تريثنا حتى تتجمع لنا أدلة أخرى تثبت صدقة أو ترجحه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]، وأما إذا كان المتكلم ثقة والكلام معقولًا قبلناه.

أخبار إلهية: وهي ما يوحيه الله تعالى إلى رسله ويوصله هؤلاء الرسل إلينا وهي تشمل بالنسبة لنا نحن المسلمين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وبما أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالق كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء وبما أنه سبحانه منزه عن صفات النقص من كذب وغش ونسيان وغفلة فان كل ما يقوله في كتابه أو على لسان رسوله هو الحق الذي لا ريب فيه، وهو العلم اليقيني الذي لا يحتاج إلى مراجعة وتثبت، لكن الذي يحتاج إلى مراجعة وتثبت أمران:

أولهما: نسبة القول إلى الرسول ﷺ وقد كفانا علماؤنا الأقدمون هذه المئونة فشيدوا صرحًا قويا لعلم الحديث، وميزوا بين ما صحت نسبته إلى الرسول ﷺ وما لم تصح نسبته أو ضعفت.

وثانيهما: الفهم الصحيح للنصوص فنحن مثلًا لا نشك في أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠]، ولكننا قد نشك في تفسير أحد المفسرين لهذه الآية فنحتاج لمراجعته والتثبت من صحته، وكذلك الأمر

بالنسبة لأحاديث الرسول ﷺ لا نرتاب في أن ما ثبتت نسبته إليه قول صحيح، ولكننا قد نحتاج لأن نراجع فهمنا لما قال الرسول ﷺ[1].

فائدة: العلم البشري والوحي الإلهي:

١- **العلم البشري**: ونعني به العلم الذي يمكن أن نحصل عليه بمداركنا البشرية (الحواس والعقل) مستقلة عن الوحي الإلهي. وهذا العلم نوعان:

أ) نوع -وهو أكثره- يتعلق بحياتنا الدنيوية، وهو علم هام جدًّا لأننا نستطيع بواسطته أن نتصرف في حياتنا الدنيوية، فنعرف كيف نزرع النبات وكيف نبني المنازل، وكيف نصنع الثياب، وكيف نخترع الآلات التي تسهل لنا الحياة، وكيف نتقي ما يضرنا من جوع وظمأ وبرد وحر ووحوش وهوام الخ... وكيف نجلب ما ينفعنا من أكل وشرب ولبس ودور ومواصلات... الخ.

وقد ظل هذا العلم ينمو باطراد تقريبًا مع تقدم الأيام، فما كان يعرفه الناس قديمًا عن التربة والمياه والبحار والنباتات والمعادن والعناصر لا يكاد يساوي شيئًا بالنسبة لمعارف القرن الحالي في هذه المجالات، وعليه فإن ما صنعه الناس في هذا القرن من آلات وشيده ومبان ومصانع وما انتجوه من طاقة وما استهلكوه من خيرات، هو أضعاف أضعاف ما فعل الناس في القرون الماضية.

---

(١) وحدة الموضوعات العامة من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٩٠٧).

ب) **أما النوع الثاني من أنواع العلم البشري** وهو أهم من النوع الأول فهو المتعلق بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وذلك أن الله تعالى فطر العباد على معرفته وتوحيده، وجعل لهذا التوحيد شواهد وأدلة في عالمنا الذي نعيش فيه. فنحن نستطيع إذن - حتى قبل مجيء الوحي أن نعرف أن لنا خالقًا واحدًا ينبغي أن نفرده بالعبادة ونستطيع أن نعرف بعض صفات هذا الخالق بما نشأ هذا من آثار صنعه.

٢-**الوحي الالهي**: وبما أننا لا نستطيع أن نعرف كل ما ينبغي أن نعرفه عن هذا الخالق سبحانه فلا نستطيع بعقولنا وحدها أن نعرف كل صفاته، ولا نستطيع أن نعرف كيف نعبده ونشكره، ولا نستطيع أن نعرف كيف نتصرف في حياتنا بطريقة تسعدنا وترضيه سبحانه، فإنه تفضل فأرسل إلينا رسلًا يبلغونا علما بهذه الأمور لا نستطيع أن نستقل بمعرفته فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم يأتوننا بعلم مفصل عن الله تعالى، وعن مكارم الأخلاق ومحاسن السلوك، وعن العبادات كيفياتها وأوقاتها وشروطها، وعن الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن ننظم بها حياتنا: ماذا نأكل وماذا نشرب وماذا ندع من ذلك، كيف تكون صلة الرجال منا بالنساء، وما هي حقوق الأقارب والجيران، وكيف ننظم حياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وإلى غير ذلك من علوم.

نحن في أشد الحاجة إليها لسعادتنا الدنيوية والأخروية، فالوحي الالهي اذن مكمل لعلومنا البشرية ومتمم لنقصها وهو أهم العلوم وأشرفها؛ لأن العلم البشري متعلق أكثره كما رأينا بشؤون الدنيا، فغايته أن يصلح حياتنا الجسدية،

ولكن الوحي الإلهي هو الذي يصلح حياتنا القلبية والروحية، والإنسان إنما يكون إنسانًا وإنما يسعد بسلامة قلبه ورقي روحه.

ولذلك قال تعالى ذاما أولئك الذين يكرسون كل جهدهم لمعرفة الدنيا ويجهلون الآخرة ومذكرًا لهم بأن هذه المعرفة ما ينبى عليها من تطور عمراني تكون في النهاية وبالا على أصحابها.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٦-٩][1].

فائدة: المنهج العلمي:

إننا لا نستطيع أن نحصل على شيء من العلوم إلا بحواسنا وعقولنا، ولكن هل تكفي هذه للحصول على العلوم؟ كلا بل لا بُدّ من اتباع نهج أو طريق يوصل إلى العلم الذي نريد الحصول عليه، هذا الطريق الموصل إلى العلم هو

---

(١) وحدة الموضوعات العامة من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٠٧).

ما يسمى بالمنهج العلمي. وبما أن العلوم مختلفة فإن مناهجها مختلفة كذلك والمنهج الذي يوصلنا إلى العلم هو أيضًا دليلنا وشاهدنا على ذلك العلم، ولذلك فإن الذي يميز العلم عن الافتراء والظن والخرص هو أن العالم بالشيء يستطيع أن يقدم الدليل الذي يشهد بصدق ما يقول، أما الذي يكذب أو يظن أو يخوض فلا يستطيع أن يقدم مثل هذا الدليل والبرهان، والعلوم مختلفة وهي تختلف باختلاف المعلومات والمدركات،

فمن الأشياء ما يدرك إدراكا مباشرًا كالمحسوسات من جبال وأنهار وأشجار وشمس وقمر وغيرها، ومنها ما نستنتج بعقولنا وجوده من وجود هذه المحسوسات. مثلًا أنت ترى القمر، وتراه بحجم معين فهذه معرفة مباشرة ولكنك تقول لنفسك انني لاحظت أن الشيء كلما يعد كلما صغر حجمه في عيني فحجم الطائرة وهي في الهواء يبدوا أصغر من حجمها عندما نراه راسية في المطار، إذن فيما أن القمر بعيد عنا فلا بُدّ أن يكون أكبر مما يبدو.

هذا شيء يمكن أن يستنتجه كل شخص عادي لكن إذا تطور عملك وعرفت مسافة بعد المقر عنا وحجمه البادي لنا فإنك تستطيع أن تستنتج حجمه الحقيقي من غير أن تضطرب إل السفر إليه في مركبة فضائية.

ومنها ما يدركه غيرك مباشرة أو استنتاجًا ولكنك لا تستطيع لظروف وخاصة بك أن تدركه مثل هذا الإدراك، فسبيلك إلى معرفته هو الخبر الذي ينقله إليك من أدركه مثلًا إذا حدث حادث وشهده بعض أصدقائك ولم تشهده أنت، فسبيك الوحيد لمعرفته هو وصف أصدقائك له؛ كذلك إذا حدث شيء في

الماضي فلا سبيل لنا نحن أبناء هذا القرن إلا نعرفه من الاخبار التي تركها لنا من شاهدوه (وقد نستطيع استنتاج ما حدث إذا كانت له آثار باقية). ولكن هناك أمور لا يستطيع البشر ادراكها وهي أمور الغيب من جنة ونار وملائكة، قال أن يعتمد وافي معرفتها على الأخبار الإلهية[١].

فائدة: مناهج الحصول على المعلومات:

وإذا كانت المعلومات مختلفة فإن مناهج الحصول عليها والأدلة والبراهيم الدالة عليها تختلف باختلافها.

فإذا كان الشيء مما يمكن ان نحسه فالطريق إلى معرفته هو الحس المباشر، والدليل الوحيد الذي نقبله على صدقة هو هذا الحس، مثلًا إذا قال لنا إنسان أن بالمكان الفلاني شجرة غريبة ساقها أسود وأوراقها حمراء وثمارها زرقاء، فلما ذهبنا إلى المكان الذي وصفه لم نجد شجرة بالوصف الذي ذكر، ولما سألنا عن دليله على وجودها قال انه رآها في المنام، أننا لن نقبل مثل هذا الكلام دليلاً عليه ينبغي أن يكون المشاهدة المباشرة.

وإذا كان الشيء مما يمكن أن يستنتج نظرنا في طريقة الاستنتاج، فإن كانت صحيحة قبلنا النتيجة واعتبرناها علمًا وإلا لم نقبلها.

---

(١) وحدة الموضوعات العامة من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٠٧).

وأما إذا كان الشيء مما تعتمد معرفتنا له على إخبار غيرنا فالمنهج الصحيح أن نتثبت من نوع الخبر والمخبرين ومن معقولية الخبر[١].

فائدة: العلوم التجريبية:

العلوم التجريبية علوم بشرية وسميت تجريبية؛ لأن الطريق الأساسي لحصولنا عليها هو التجربة الحسية، وأن كان كثير منها يأتينا عن طريق الاستنتاج العقلي مما عرفناه بالتجربة والعلوم التجريبية كثيرة، لكن أساسها علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء وسائرها بمثابة الفروع لهذه العلوم الأساسية: وكل علم من العلوم التجريبية - يشمل ثلاثة أشياء.

أ- حقائق عينية عرفناها بالمشاهدة أو بالاستنتاج اليقيني، كالقول بأن الأرض كروية وأن القمر لا يصلح للحياة التي ألفناها، وأن الشمس غاز ملتهب وأن الأسماك تتنفس داخل الماء، كل حقيقة بهذه المثابة دل عليها الحس المباشر، أو البرهان القاطع، فلا يمكن أن تخالف نصًا قرآنيًا أو حديثًا صحيحًا.

وإذا توهمنا الخلاف فإنما يكون ذلك بسبب سوء فهمنا للنص وعدم مخالفة أي من هذه الحقائق التي اكتشفها العلم لأي نص قرآني أو حديث صحيح، بل موافقة كثير منها لما قررته نصوص الكتاب العزيز هو من دلائل

---

(١) وحدة الموضوعات العامة من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٠٧).

إعجاز القرآن الكريم، وأنه كتاب من عند الله تعالى وكذلك السنة المطهرة؛ ذلك لأن هذا الأمر لا يصدق على أي كتاب غيره سواء في ذلك الكتب التي زعم أصحابها، أنها كتب مقدسة كالتوراة والإنجيل التي بين أيدي اليهود والنصارى اليوم أو كتب من تأليف البشر.

إن الحقائق التي تكتشفها لنا العلوم التجريبية تتضاعف كل مدة من الزمان، ولذلك فما من إنسان كتب كتابًا في أي علم من العلوم البشرية مضى عليه مائة عام إلا وأظهر التقدم العلمي بعد ذلك أن بعض ما قرره مؤلفه فيه لم يكن صحيحًا. لكن القرآن الكريم مضى على نزوله أربعة عشر قرنًا وتعرض لشتى أنواع العلوم، وقد تطور العلم التجريبي منذ نزول القرآن حتى الآن مئات المرات، ومع ذلك فلم يكتشف العلماء حقيقة واحدة تعارضه، وتعجبوا كيف قرر القرآن هذه الحقائق في ذلك الوقت والناس لم يعرفوها إلا في هذا العصر.

وفي ذلك يقول الطبيب الفرنسي موريس بوكاي رادًا على من زعموا أن القرآن من تأليف محمد ﷺ: «كيف يستطيع أي الرسول ﷺ إعلان حقائق علمية ما كان بإمكان إنسان غيره أن يكتشفها في ذلك الوقت، ويفعل ذلك من غير أن يخطئ أدنى خطأ، ثم يقول عن دراساته العلمية للقرآن الكريم».

إن النتيجة التي تؤدي إليها هي أنه لا يعقل أن يستطيع بشر يعيش في القرن السابع الميلادي تقرير حقائق في القرآن في موضوعات شتى لا تمت بصلة إلى عصره، وتكون مع ذلك موافقة لما لم يُعلم إلا بعد قرون متأخرة، الذي أراه أن

القرآن لا يمكن أن يفسر بأنه من صنع البشر[١].

ب- قوانين طبيعية:

وهي القوانين التي تحكم سير الكون الطبيعي، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له نوعان من السنن والأوامر:

النوع الأول: ما نسميه بالأوامر أو السنن الشرعية وهي التي يأمرنا الله تعالى بفعلها ويترك للناس الحرية أن شاءوا ونفذوا أمره ونالوا ثوابه وان شاءوا عصوا فعوقبوا على ذلك؛ وذلك كالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتطبيق الحدود الشرعية.

النوع الثاني: أوامر الله تعالى وسننه الكونية، وهي أمره للشيء بأن يكون، وإذا أمر الله شيئًا بأن يكون كان ولا خيار له في ذلك ولا رأي. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فكل شيء يحدث في هذا الكون يحدث بإرادة الله وقدرته وأمره، ولكن الله تعالى جعل لحوادث الكون طرقا مطردة تحصل بها، والمقصود باطرادها أن الأشياء المتماثلة تكون لها نتائج متماثلة، فإذا حدث شيء في حال معين ثم تكرر ذلك الحال حدث شيء مماثل لما حدث في الحال الأول.

---

(١) وحدة الموضوعات العامة من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٠٧).

مثلًا إذا وضعت ماء في إناء ثم وضعته على النار فغلى الماء بعد خمس دقائق، ثم كررت هذه التجربة بعد يومين أو عامين فوضعت المقدار نفسه من الماء في إناء مماثل للإناء الأول، وعلى نار مماثلة للأولى وفي ظروف مماثلة فإن هذا الماء سيغلي بعد خمس دقائق كما فعل الأول، فمن أهم ما يسعى العلماء التجريبيون لاكتشافه معرفة السنن الكونية الأساسية التي تحتم سير الأشياء المادية من هذه القوانين أو السنن.

فمثلًا القانون الذي يسمى قانون الجاذبية، والجاذبية قوة جذب تكون بين الأشياء المادية تزداد قوتها بزيادة الكثافة العادية للشيء وبزيادة قربه من الشيء الآخر. هل فكرت يومًا في ظاهرة سقوط الأشياء على الأرض بدلًا من ارتفاعها إلى السماء، أعني هل سألت نفسك يومًا ما لماذا لا تظل الكرة تصعد إلى فوق إذا ضربها اللاعب إلى أعلا بدلًا من أن تعود إلى الأرض؟

لماذا يقع الكوب على الأرض إذا فلت من يدك بدلًا من أن يصعد إلى السماء أو يظل معلقًا في الهواء؟ السبب في ذلك أن هناك قوة تجاذب بين هذه الأشياء وبين الأرض، ولكن بما أن كتلة الأرض أكبر من كتلة هذه الأشياء فإنها تجذبها إليها، كما أنه إذا أخذ رجل قوي طرف حبل وأخذ طفل ضعيف طرفه الآخر، وحاول كل منهما أن يجذب الآخر فإن الرجل سيجذب الطفل إليه؛ لأن قوة جذبه أكبر من جذب الطفل.

بقانون الجاذبية هذا نستطيع أن نفسر ظواهر كونية كثيرة غير سقوط الأشياء على الأرض، فيه نفسر مثلًا دوران القمر حول الأرض ودوران

الكواكب حول الشمس، وجود هذه القوانين أو السنن الالهية يدل على وحدانية الخالق وحكمته وعظيم قدرته واتقانه، ولذلك فإن دراسة العلوم إذا أحسن الإنسان الاستفادة منها تكون دراسة في التوحيد وطريقًا لمعرفة صفات الله تعالى، ولذلك أرشدنا الله تعالى إلى التأمل في مخلوقاته والاعتبار بها؛ لأن وجودها آية على وجوده وتصرفاتها وحركاتها شواهد على صفاته ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

نظريات علمية: النظرية رأي يراه عالم أو فكرة تخطر بباله يحاول أن يفسر بها الحقائق الغيبية أو القوانين الطبيعية، والفرق بين الحقائق العينية والقوانين الطبيعية من ناحية وبين النظريات من ناحية أخرى أن الأولى شيء موجود في الواقع، وأما النظرية فهي شيء يخترعه العالم نفسه ليفسر به هذه الحقائق الواقعية.

فالنظريات إذن ليست حقائق ولكن هذا لا يعني أنه لا فائدة فيها، بل هي مفيدة كما قلنا في تفسير الظواهر الكونية، وربما ساعدتنا على اكتشاف حقائق جديدة، لكن النظريات كلما أفلحت في تأكيد الحقائق المراد تفسيرها كانت أقرب إلى الصواب، بل إن صحتها قد تثبت بالتجربة والمشاهد، فلا تكون عندئذ نظرية بل تصبح قانونًا، وكلما ازداد عدد الحقائق التي تعجز عن تفسيرها كلما كانت النظرية أبعد عن الصواب، وربما ثبت بطلانها باكتشاف حقائق مناقضة لها.

لقد أخطأ كثير من الناس إذ خلطوا بين النظريات العلمية والحقائق

العلمية فاحذر من هذا الخلط، سيّما في حديثك عن علاقة العلم التجريبي بالدين الإسلامي، إن حقائق العلم التجريبي كما أوضحنا لا يمكن أن تصادم حقائق الدين، بل إنها تخدمها وتجاريها؛ لأن منزل الدين هو خاق الكون، ولذلك فان من المفيد أن تعتبر أحدهما بالأخرى، أما النظريات فقد تكون باطلة وتكون لذلك مخالفة لما قرره الشرع، وقد تكون ظنية الثبوت فينبغي أن لا نتسرع في التماس التأييد لها من نصوص الكتاب والسنة.

وقد وضع شيخ الإسلام ابن تيمية قاعدة جليلة في العلاقة بين نصوص الشرع ونتائج العقل أو بين الأدلة السمعية والأدلة العقلية قال: «إذا قيل تعارض دليلان، سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا، فالواجب أن يقال لا يخلو إما أن يكون قطعيين أو يكونا ظنيين، وأما أن يكون أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين أو كان أحدهما عقليًا والآخر سمعيًا» وهذا متفق عليه بين العقلاء.

ثم قال: «وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيًا دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء سواء كان هو السمعي أو العقلي فإن الظن لا يرفع اليقين، وأما أن كانا جمعيا ظنيين فان يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعيًا أو عقليًا». نستفيد من هذا الكلام النفيس عدة أمور منها:

أ- أن الحقائق الدينية القاطعة لا تختلف فيما بينها.

ب- أن الحقائق العلمية القاطعة لا تختلف فيما بينها.

جـ- أن الحقائق الدينية القاطعة لا تخالف الحقائق العلمية القاطعة.

د- أنه قد يحدث خلاف بين مسألة دينية ظنية وحقيقة علمية قاطعة، ففي هذه الحالة نقدم الحقيقة العلمية ونشرح بها المسألة الدينية.

هـ- أنه قد يحدث خلاف بين مسألتين ظنية وحقيقة دينية قاطعة ففي هذه الحالة نقدم الحقيقة الدينية، وأنه قد يحدث خلاف بين مسألة علمية ظنية ومسألة دينية، ففي هذه الحالة نقدم ما كان من المسألتين أرجح.

وليس للعلوم التجريبية -كما يظن كثير من الناس- منهج واحد متميز يمكن تطبيقه على كل المجالات التي تبحث فيها؛ لأن هذه المجالات مختلفة فمنها ما يشاهد بالحواس مباشرة، ومنها ما يشاهد بوساطة الآلات، ومنها ما لا يمكن مشاهدته ولكن يستدل على وجوده وصفاته بآثاره، ولكل من هذه المجالات طريقة تناسبها، أما الأشياء المشاهدة مباشرة أو بواسطة فنوعان إن أردت أن أعرف أثر الحرارة على قطعة من الحديد أو أثر التبريد على الماء، فبإمكاني أن أسخن قطعة من الحديد أو أبرد قدرا من الماء، ثم أنظر ماذا يحدث وبإمكاني أن أعيد هذه التجربة مرات كلما دعا الأمر لذلك.

٢- لكن إذا أردت أن أعرف كيف يحدث الكسوف أو الخسوف فكل ما أستطيع فعله هو مشاهدة هذه الظواهر عند حدوثها، لأنني لا أستطيع أن أحدث كسوفًا أو خسوفًا. ومما يميز العلوم التجريبية في هذه المجالات أمران متداخلان:

أولهما: أن العالم بها لا يكتفي بالتقدير العام للأشياء المعتمد على الحواس الإنسانية العادية، بل يحاول أن يصف الأشياء وصفًا رياضًا دقيقًا، فأنت وكل إنسان يستطيع أن يفرق بين الماء البارد والماء الحار، ولكن العالم يريد أن يعرف الفروق الدقيقة بين درجات الحرارة أو البرودة، وقل مثل ذلك عن سائر المقيسات والموزونات وعن النسب بين الأشياء، لذلك يقولون إن الرياضيات هي لغة العلوم وقد ظل علم الرياضيات يتطور مع تطور هذه العلوم التجريبية.

ثانيهما: أن العالم يحاول دائمًا استعمال الآلات الدقيقة ليستعين بها على قياس أو وزن مالا تقيسه الحواس البشرية، ولمشاهدة ما لا تشاهده هذه الحواس، بل ولإجراء كثيرًا من العمليات، وأداء كثير من الأعمال التي يصعب أداؤها بالأعضاء البشرية، أما الأشياء التي يستدل عليها بآثارها فان العالم التجريبي يحاول أن يكون استدلاله دقيقًا ومضبوطًا؛ ولذلك فانه يلجأ هنا أيضًا إلى الآلات وإلى لغة الرياضيات[1].

---

(١) وحدة الموضوعات العامة من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٠٧).

فائدة: خطوات المنهج في المنهج التجريبي:

الخطوة الأولى: في العلم التجريبي هي تحديد السؤال أو الشكل تحديدًا دقيقًا.

الخطوة الثانية: هي مشاهدة الواقع الخاص بالمشكلة التي يراد حلها أو إجراء التجارب إن أمكن إجراؤها.

الخطوة الثالثة: هي وصف نتائج التجربة والمشاهدة وصفًا دقيقًا.

الخطوة الرابعة: محاولة تفسير هذه النتيجة إما في ضوء القوانين والنظريات العلمية التجريبية وهو الغالب.

فائدة: مجالات الفلسفة العلمية:

يقولون إن الفلسفة العلمية تبحث في مجالين واسعين بالنسبة للعلوم:

المجال الأول: هو المجال المعرفي، وسموه (أبستمولوجي Epistemology).

والمجال الثاني: هو المجال (المتافيزيقي) في كل علم من العلوم في المجال المعرفي، يسأل فلاسفة العلوم عن الحقائق التي ادعى هذا العلم أنه توصل إليها، كيف توصل إليها ما هو منهجه الذي اتبعه لكي يصل إلى هذه الحقائق؟ وهل كان منهجًا موضوعيًا أم غير موضوعي؟ وهو من أهم الأسئلة.

ويقولون: إن القضايا التي تساق بالنسبة للعلوم هنا في الحقيقة تتداخل مع

المعرفة بشكل عام، وليس عن العلوم. وطبعًا عندما نتحدث عن العلوم هنا نقصد العلوم الطبيعية والاجتماعية، والتي يمكن أن تسمى بالعلوم التجريبية سواء كانت اجتماعية أو كانت علوم طبيعية، فهو كما قال صاحب المقال الذي ذكرت منه هذا الكلام أن ما يقولون وما نجده عند علماء المسلمين، مع أنهم يبحثون في أشياء ليست من العلوم التجريبية، وإنما من العلوم التشريعية، ومع ذلك تجد كثيرًا من الأسئلة تسأل هنا، وتسأل هناك.

بالنسبة للميتافيزيقا؛ حين يسألون؛ ينظرون في القضايا الفلسفية المحيرة التي تثيرها الحقائق التي توصل إليها علم من العلوم. فقبل أن أدخل في التفاصيل، مثلًا الفيزياء الكمية: هل لها علاقة بمسألة الحرية وعدم الحرية؟ لأن الفيزياء الكمية تدل بنوع من الدليل على أن قانون السببية ليس قانونًا جبريًا، وأن في الطبيعة نوعًا من الحرية، فهل هذه الحرية يمكن أن تكون سببًا للقول بحرية الإنسان أم لا؟

فالمعارف التي توصلوا إليها تثير قضايا فلسفية، قالوا: إن من أهم الموضوعات في الجانب الأول، الذي هو الجانب المعرفي قضية الاستقراء، كتب فيها فلاسفة العلوم كتابات كثيرة؛ لأن الاستقراء من الوسائل التي تعتمد عليها العلوم سواء كانت علوم طبيعية أو علومًا اجتماعية. فيتساءلون عن هذا الاستقراء هل هو فعلًا منهج صحيح للوصول للحقيقة أم لا؟

بالنسبة للميتافيزيقا؛ قال صاحب المقال الذي تكلم في أحد قواميس الفلسفة العلمية: إن من أهم موضوعاتها أيضًا موضوع السببية، وهذا الذي أذكر

لكم أمثلة منه في التشابه، أو نوع الأسئلة التي تسأل، سألها علماء المسلمين، ويسألها العلماء الغربيون[١].

فائدة: وحدة العقل البشري:

الغريب في هذا أنه أحيانًا تجد أنه بالرغم من الاختلاف الزمني، وبالرغم من أن هؤلاء عرب وأن هؤلاء غربيين، وبالرغم من أن الموضوع عند الغربيين يبحث في مسائل واقعية، والموضوع عند العرب يبحث في مسائل تشريعية أو اعتقادية، تجد شبهًا عجيبًا قال لي أحد زملائنا الإنجليز في قسم الفلسفة في جامعة الخرطوم، وكنا نتناقش كثيرًا في هذه المسائل، فقال لي: أنا أكثر شيء استفدته من مجيئي للعمل في جامعة الخرطوم هو أن هنالك وهمًا اسمه الشرق والغرب، وكأن هؤلاء يفكرون بطريقة وهؤلاء يفكرون بطريقة مختلفة تمامًا، وهذا ليس بصحيح.

والمستشرقون من أكثر من عمق هذا النوع من التفكير في أذهان الناس، كما أوضح هذا (إدوارد سعيد) في كتابه (الاستشراق). يعني أعطوا الناس صورة خرافية عن شيء اسمه الشرق، بل ذهب بعضهم حتى في العصر إلى هذا، فعندما كنت طالبا في الدراسات العليا، في جامعة لندن.

---

(١) وحدة الموضوعات العامة من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٩٠٧).

كان هناك رجل يقول: إن المنطق هو شيء غربي. وتلقف هذا -أو كان من تفكيره- من مستشرق مشهور اسمه (مونتغمري واط) قال: لا شيء في التناقض عند العرب! بل التناقض في الكلام عندهم يدل على أن فيه ثراء.

وكنت بالمصادفة أنظر في كتاب سيبويه فوجدت كلامًا غريبًا، قال: «إن العرب يتسامحون في التعبير وإن كان قبيحًا مادام ليس متناقضًا»! فالتناقض عندهم هو الشيء المذموم أما فيما عدا هذا فيتسامحون في التعبير، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل عدم التناقض من الأدلة على أن القرآن كلام الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وربما يكون هذا أيضًا هو السبب في أن الدين في أساسه واحد، لماذا يبعث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كل الأنبياء برسالة واحدة؟ لأن العقل البشري هذا شيء واحد[1].

فائدة: مجالات مباحث فلسفة العلوم أو أصول العلوم:

عندنا العلم الذي يمكن أن يدخل في فلسفة العلوم هو علم أصول الفقه والحقيقة أن في الغرب الآن فلسفات مختلفة للعلوم، تقرؤون فلسفة التاريخ، فلسفة التربية، فلسفة الأحياء، فلسفة الفيزياء، حتى للرياضيات فلسفة اليوم علاقة ما يسمى هنا بالفلسفة بالنسبة للعلم الذي يبحث فيه؛ يشبه إلى حد كبير

---

(١) قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والغربي، محاضرة ضمن سلسلة ندوات ومحاضرات لجنة التأصيل الإسلامي بالندوة العالمية للشباب الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٢١).

علاقة أصول الفقه بالفقه؛ لأن أصول الفقه تسأل مثل هذه الأسئلة العلمية.

هنالك مفاهيم معينة، سأضرب مثلًا بمفهوم السببية: تجدون في أصول الفقه أن المقدمات الأولى كلها مقدمات لغوية، وهذا مهم جدًّا لفهم العلم، فأحيانًا بدل ما يطلقون عليها كلمة الفلسفة، يستعلمون كلمة مثل كلمة الأصول، ففي كتاب اسمه Foundations of Physics (فاونديشين أوف فيزيكس) معناها الأصل، أو الأساس الذي تقوم عليه الفيزياء؛ كذلك ما سمي بعلم الكلام، فكما أن أصول الفقه فلسفة بالنسبة لعلم الفقه؛ فعلم الكلام فلسفة بالنسبة للعقيدة، لأنه يبحث في العقيدة هذه ما أدلتها؟ ما الدليل على أن هذا كذا وهذا كذا؟ يبحث في العقيدة وقضاياها؟

أيضًا الميتافيزيقيا تثيرها بعض القضايا المتعلقة بالعقيدة، ففلسفة كل علم من العلوم تبحث في تعريفه وموضوعه. ما هو موضوع هذا العلم؟ ما الذي يميزه من العلوم التي تبدو قريبة منه؟ يضربون مثلًا بالقانون، ما الفرق بين القانون والأخلاق؟ هذا يقول: لا تفعل، وهذا يقول: لا تفعل.

ما الذي يميز القانون عن علم السياسة؟ هذا أيضًا يقول: افعلوا كذا في الحياة، وافعلوا كذا ولا تفعلوا كذا. ما الذي يميز هذا عن هذا؟ هذا ما تبحثه فلسفة كل علم من العلوم، كذلك فلسفة التاريخ، مثلًا تسأل: هل هذه الحوادث التاريخية يتلو بعضها بعضًا، هكذا عشوائية أم أن هنالك قصدًا؟ أو هنالك شيء يمكن أن يفسر فيه هذا التتابع في الحوادث؟ الكفار كما تقرأ في القرآن، كانوا

يعتبرون الأمر: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف:٩٥]. يعني مسائل عفوية، ليس هنالك سبب، ليس هنالك تفسير للتاريخ. كذلك يسألون هذه الأسئلة في الفيزياء وفي الأحياء.

من الأشياء التي يهتمون بها بالنسبة للعلوم الطبيعية أيضًا صلة بعض هذه العلوم ببعض، فالذين يغرقون في المنهج المادي أو التفكير المادي يقولون: الأشياء التي يبحثها الدكتور المتخصص في علم النفس هي في الحقيقة معتمدة على علم الأحياء. فإذن علم النفس هذا يرجع إلى علم الأحياء، وعلم الأحياء يرجع إلى علم الكيمياء، والكيمياء ترجع إلى علم الفيزياء، فالفيزياء هي الأساس لكل العلوم[1].

فائدة: إسلامية العلوم:

سنجد في كتابات المسلمين -كما قلت لكم- هذا التشابه في البحث، لكن الشيء الذي يميز المسلم باعتباره باحثًا علميًا عن غير المسلم، أو العلم الإسلامي عن غيره، هو الإطار العام الذي يوضع فيه العلم، وهذه الملاحظة كانت من الأسباب التي دعتنا إلى أن ندعو ما يسمى بإسلامية العلوم، لأننا وجدنا أن المفهوم نفسه.

---

(١) قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والغربي، محاضرة ضمن سلسلة ندوات ومحاضرات لجنة التأصيل الإسلامي بالندوة العالمية للشباب الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٢١).

مثلًا مفهوم السببية تستعمل هنا وتستعمل هنا، لكن إذا وضعت الأسباب في إطار إسلامي فيه إيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير عندما تضعها في إطار ليس فيه الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. في الإطار غير المؤمن سيجعل الأسباب هذه هي الفاعل النهائي لا شيء بعدها. وفي الإطار الإيماني سيقول: لا، إن الأسباب هذه نفسها لها مسبب هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهكذا فرغم أن المفهوم يبدو متشابهًا هنا وهنا إلا أنها إذا وضعت في الإطار الكبير هذا تختلف.

عندما تحدثنا عن فلسفة إسلامية العلوم كنا نقول مثلًا: من أين تأخذ الحقائق؟ إذا لم تكن مؤمنًا بالله وأردت أن تكون علميًا، وليس خرافة، فلك مصدر واحد هو الكون. أما إذا كنت مؤمنًا فلك مصدر آخر هو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتقول: هذا خلق الله! فأنا معك آخذ منه، وهذا كلام الله هو أيضًا مصدر بالإضافة إلى خلق الله سبحانه، فصار عندنا مصدران.

إذا كنت أنا أدرس علم النفس فلن أحصر نفسي في الحقائق التي أصل إليها بالتجربة فقط، سأضيف إليها ما أجد في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ، وهكذا إذا كنت أدرس التاريخ، وأدرس علم الاجتماع. فالإطار إذا اختلف تختلف بعض المفاهيم[1].

---

(١) قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والغربي، محاضرة ضمن سلسلة ندوات ومحاضرات لجنة التأصيل الإسلامي بالندوة العالمية للشباب الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٩٢١).

فائدة: مفهوم السببية:

سأضرب لكم مثلًا أفصل فيه بعض الشيء؛ لأنه كان موضوع رسالة الدكتوراه عندي، وهو موضوع السببية، وهو كما ذكرت لكم، يقولون: إنه من الموضوعات الأساسية المركزية في كل العلوم. في الفلسفة عندما كنا طلابًا كان هنالك فلسفة شائعة جدًّا هي الفلسفة التحليلية، هي أن تحلل الألفاظ والمفاهيم تحليلًا لغويًا منطقيًا، وهو أشبه ما يكون بالتحليل الكيماوي لمادة من المواد، مثلًا تقول: الطين، ما هو الطين هذا؟ تقول: الطين يتكون من ماء ومن تراب، الماء يتكون من هيدروجين وأكسجين، والتراب يتكون من كذا وكذا، فمجموع هذه الأشياء تساوي الطين. قالوا: هذا أيضًا ينطبق على المفاهيم. خذ أي مفهوم من المفاهيم وحلله إلى الأفكار الأساسية الجزئية التي يتكون منها. فقد فعلوا هذا بالنسبة للسببية.

فقالوا: إن السببية تتكون من المفاهيم التالية:

أولًا: القبلية والبعدية. أليس كذلك؟ لا بُد أن يكون السبب سابقا للأثر.

والبعدية الزمانية يجب أن تكون قريبة الأثر، لا يكون أثر إذا كان بعيدًا عن السبب من الناحية الزمانية. ثم لا بُدّ أن يكون هنالك قرب مكاني، يعني إذا أنا ضربت هذه هنا (على الطأولة)، وحدث شيء في الغرفة الثانية لا تقول: إنه حدث بسبب الضربة هذه، لكن إذا كنت ضربت هذا؛ وأصبت هذه، فهنا قرب مكاني، فيكون هذا سبب لهذه. أيضًا فكرة الرباط أن هنالك علاقة بين السبب والمسبب لسبب ما، ولست أدري ما هو!؟ أنا قلت: إذن أبحث في الألفاظ

العربية الدالة على السببية، فوجدت شيئًا غريبًا أذهلني وأذهل المشرف.

إن الألفاظ الدالة على السببية في مجموعها، فيها كل هذه الأفكار الجزئية الأساسية التي حللت إليها السببية، فهذه مسألة لغوية فقط، حتى استغرب المشرف والمناقش بعده: كيف العرب عملوا هذا بمجرد السليقة؟ كيف هذا؟ أعطيكم التفاصيل: مثلًا عندنا فاء السببية كل لفظ من الألفاظ التي تدل على السببية له معنى آخر بالإضافة إلى الدلالة على السببية، وهذا المعنى الآخر هو جزء من المعاني تلك التي قلنا: إنها أولية تتكون من السببية.

خذ مثلًا فاء السببية: علام تدل فاء السببية من غير السبب؟ في النحو تدل على الترتيب والتعقيب، فاختيرت الفاء لتعبر عن السبب. لماذا لم يتختر الواو؟ لأنه ما فيه ترتيب، جاء محمد وأحمد وصالح، يمكن كل واحد من هؤلاء جاء منفردا، لكن إذا قلت: جاء محمد فأحمد فصالح فهذا فيه ترتيب. هذه فاء السببية.

ثم باء السببية: باء السببية لها معان كثيرة، منها ما يسميه النحاة بالإلصاق، وقالوا: إن الإلصاق هذا أحد معانيها التي لا تفارقها مهما استعملت في المعاني الأخرى التي منها السببية. فإذن حتى عندما تستعمل الباء للدلالة على السببية يكون فيها معنى الإلصاق، والإلصاق هو الذي قلنا: إنه هو القرب المكاني، حتى قالوا: هناك فرق بين أن تقول: أمسكت به، وأمسكته. إذا قلت: أمسكته، يمكن بـ(ريموت كنترول)، أو بأي أداة، لكن إذا قلت، أمسكت به معناه حصل تلاصق، أو علاقة بينك وبينه، فهذا الباء.

كلمة السبب: لماذا أيضًا اختيرت؟ السبب في الأصل هو الحبل، لكنه الحبل عندما يكون رابطًا بين شيئين. ما كان حبل يسمى سببًا. يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥]. وحبل البئر المتصل بالدلو يسمى حبلًا، فاختير السبب للعلاقة بينهما.

ثم أبنت شيئًا لا علاقة له بكلام التحليلات الغربية، هو أن العرب يستعملون كلمتين، السبب والعلة، فقلت: ما الفرق بينهما؟ وجدت شيئًا لست متأكدا هل هو باضطراد أم لا، لكن وجدت أنهم يتحدثون عن السبب إذا كانوا يبحثون عن الأثر، يريد أثرا فيبحث عن السبب الذي يؤدي إليه. إذا كان الأثر موجودًا، ويريد أن يعرف السبب يتحدث عن العلة، قال الشاعر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة

فلعلة لا يظلم فهو عنده عدم الظلم، ويريد أن يبحث عن سببه، فقال: فلعلة لا يظلم ومعرفة الحكم في الشرع تسمى تعليلًا، لا تسمى أسبابا، لأن الحكم موجود عنده، فنود أن نعرف علته، فيستعملون السبب هنا، ويستعملون العلة هنالك، فهذه في مجموعها دلت على كل المفردات الفكرية التي قسم إليها موضوع السببية[1].

---

(١) قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والغربي، محاضرة ضمن سلسلة ندوات ومحاضرات لجنة التأصيل الإسلامي بالندوة العالمية للشباب الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٢١).

فائدة: فاعلية الأسباب:

هنالك فيلسوفا أسكوتلنديا مشهورًا جدًّا من أكبر الفلاسفة، حتى بعضهم يقول: إنه أكبر فيلسوفًا في القرن الثامن عشر اسمه ديفيد هيوم (David Hume)، ديفيد هيوم هذا قال: إن ما يسمى السبب والمسبب؛ العلاقة بينهما ليست ضرورية، نحن نسمي هذا سببًا، وهذا أثرًا؛ لمجرد أننا نجد هذا يتبع هذا باضطراد، لكن ما عندنا دليل على ما نسميه بفاعلية الأسباب، إذا وضعت هذا في النار فاحترق يقولون: هذا الذي يحدث دائمًا، لكن ما عندك دليل على أن النار هذه فيها قوة هي التي أحرقته، ولذلك سمى نظريته في السببية، أو أسموها نظرية التتابع المضطرد لسبب آخر.

وسبب قولي هذا أنه كان يعتقد أنه لا حقيقة إلا ما دل عليه الحس، وهو من أكبر الفلاسفة الذين يسمونهم التجريبيين الذي يسمونهم Empiricist. فعنده كل كلام لا يشير إلى واقع محسوس فهو كلام فارغ، فيكون: أنا أرى الآن ما أرى مكمن القوة هذه، أرى هذا يتبع هذا، لكن لا أشاهد شيئًا اسمه القوة.

الغزالي قبل هيوم قال الكلام نفسه، لكن لأسباب أخرى، الغزالي كان يعبر عن رأي الأشاعرة، والأشاعرة قالوا: الله خالق كل شيء. طيب عندما نقول: النار أحرقت الورقة!؟، ما استطاعوا أن يجمعوا بين فكرة الخلق وفكرة الأسباب المخلوقة، فأنكروا الأسباب تقريبًا. قالوا لهم: لكن هذا شيء نحن نشاهده دائمًا، الإنسان يشرب ماء فيروى، إذا أكل حجارة ما يروى، فلماذا؟

ولذلك سميت فلسفتهم في السببية بالفلسفة العندية، يحرق عندها لا بها. أهل السنة قالوا لهم: لكن القرآن استعمل باء السببية: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل:٦٥]، ما قال عندها! فاستعمل باء السببية التي تدل على أن الأسباب لها فاعلية.

أخذ هذه الفكرة فيلسوف فرنسي اسمه (مالبرانش) Malebranche، أنا لا أعرف اللغة الفرنسية ربما أكون نطقت اسمه خطأ، الترجمة الإنجليزية لفلسفته: (أوكيشنلزم occasionalism) ومعناها مثل كلمة العندية تمامًا، قال نفس الكلام الذي قاله الأشاعرة. وبعض الناس يقولون: هو في الحقيقة ليس أصلًا في هذا، وإنما أخذه من الفكر الإسلامي. لكن بالنسبة لهيوم ما عندنا أدلة واضحة على أنه أخذ من المسلمين، وعندما قرأ المناقش، هو أيضًا أستاذ إنجليزي، قال: ما أظن إلا أن (هيوم) خطف هذا من الغزالي، لكن ما عندنا دليل تاريخي.

وبالمناسبة هذه أشياء كثيرة في الفكر الغربي، يعني إذا قرأت كتاب (مقال في المنهج) لـ(ديكارت) لا يساورك شك تقريبًا أن هنالك علاقة قوية جدًّا بينه وبين (المنقذ من الضلال) لأبي حامد الغزالي، لكن هل عندنا أدلة على أن هذا أخذ من هذا؟ ما ندري![1].

---

(١) قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والغربي، محاضرة ضمن سلسلة ندوات ومحاضرات لجنة التأصيل الإسلامي بالندوة العالمية للشباب الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٢١).

فائدة: هل الأسباب متعددة؟

من الأشياء التي قالها الفلاسفة الغربيون، فلاسفة العلوم، بالنسبة للأسباب، لا أذكرها لها مقابلًا في الفكر الإسلامي، قالوا: إن ما نعده سببًا مسألة اختيارية بحسب الغرض الذي نريده، وعندما يضربون أمثلة ترى أن كلامهم صحيح، يقولون مثلًا: إذا سقط حجر من عمارة على رأس إنسان وقتله، الفيزيائي يبحث في العلاقة بين الحجر والرأس، هذه مهمة الفيزيائي، لكن القانوني يبحث عن الذي رمى الحجر، فقالوا: القانوني يبحث عن سبب بشري، وهذا الذي له علاقة بالأسباب البشرية وكذلك يمكن أن يحدث لإنسان شيء فالطبيب البشري يهتم بالجسم ويحصر نفسه فيه ويجيء عالم النفس فيقول: لا، توجد أسباب أخرى دعته إلى هذا! فهذا يهتم بسبب، وهذا يهتم بسبب.

من الأسئلة التي سئلت في أصول الفقه والفكر الإسلامي عامة، ونفس الأسئلة أيضًا سئلت في الفكر الغربي، هل الشيء له سبب؟ عندما يحدث الشيء هل سببه واحد أم الأسباب متعددة؟ الذي قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: إنه أصلًا لا شيء واحدًا يستقل بفعل إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كل الأسباب الأخرى تحتاج إلى أسباب تعينها، وأسباب يجب أن لا تتوفر، فلا بُدّ أن تكون في الشيء شروط وموانع حتى يتحقق السبب الذي نريده.

وبالمناسبة، ابن رشد رد على الغزالي، وقال كلامًا في غاية الدقة، وأعجب به كثيرًا. الذين قرؤوه من الغربيين: أنا في رأيي أنه ظلم الغزالي، اعتبر أن الغزالي أنكر مبكرًا مبدأ السببية، والغزالي لن ينكر السببية، لكنه قال في كتابه ما يعد في

العالم سببًا، وما يعد أثرًا، والعلاقة بينهما ليست ضرورية! عندما يوضع إنسان في النار ولا يحترق!، كما حصل لسيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ابن رشد اعتبر الغزالي أنكر قانون السببية، وكذلك بعض الناس قالوا بالنسبة لهيوم.

فقال للغزالي: إذا أنكرت قانون السببية لا تستطيع أن تستدل على وجود الخالق! تكون هدمت السبب الأساسي الذي نعتمد عليه في الأدلة العقلية على وجود الخالق، هذه واحدة.

الشيء الثاني: هو الذي قلت لكم في غاية الدقة، قال: إن مفهوم السببية هذا أصلًا جزء من معاني الأشياء، لماذا؟ قال عندما تقول مثلًا: ماء، فما الذي يخطر ببال الإنسان؟ هل يخطر بباله أن شيئًا ينفعل بكذا؟ أو يفعل كذا؟ فقال ابن رشد: إن مفهوم السببية داخل مفهوم الأشياء ومعانيها وأسماءها، فلذلك لا يمكن أن ينكر[1].

---

(١) قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والغربي، محاضرة ضمن سلسلة ندوات ومحاضرات لجنة التأصيل الإسلامي بالندوة العالمية للشباب الإسلامي. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٩٢١).

مصادر محاضرات منهج التفكير

١-الحجج العقلية[١]:

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن الحجج العقلية على الإيمان بالله وبالرسول ﷺ، وبالقرآن الكريم وأنه كلام الله أنزله على النبي محمد ﷺ، وكذلك الإيمان بالبعث واليوم الآخر ومجازات الناس على أعمالهم.

٢-المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي[٢]:

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن أركان المنهج العلمي الموصل إلى الحقائق المتعلقة بأمر ما، ثم ذكر المصادر والمناهج في كل من العلوم الطبيعية والعلوم النقلية، ثم بين المنهج العلمي المتعلق بمعرفة الحقائق التي جاء بها الإسلام، إضافة إلى مصادر الحقائق الدينية الإسلامية وما المنهج المؤدي إلى معرفتها؟ كما تطرق إلى منهج اكتشاف حقائق الدين الإسلامي، ثم تحدث عن القرآن والسنة والصحابة والقياس والعقل، وختم المحاضرة بأثر الاستعداد الروحي في تحصيل العلوم.

---

(١) محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك.

(٢) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا.

٣-علاقة العقل بالشرع[١]

تحدث الشيخ في هذا الدرس عن علاقة العقل بالشرع من خلال الآية ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

٤- منهج التفكير الإسلامي[٢]:

هذه مجموعة محاضرات لمادة التفكير الإسلامي لطلاب الماجستير والدكتوراه في المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، وقد احتوت على موضوعات متعددة مثل الغرض من دراسة هذه المادة، مفهوم المنهج، مصادر المعرفة، الطرق التي نحصل بها على المعرفة، مادة التفكير في التفكير في القرآن، طبيعة التفكير والحقائق التي دعا القرآن إلى التفكير بها، وبعض خصائص الفكر الإسلامي، وغيرها.

٥-وحدة الموضوعات العامة[٣]:

وهذه أيضًا مجموعة محاضرات لمادة التفكير الإسلامي لطلاب الماجستير والدكتوراه في المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، احتوت على مجموعة من الموضوعات: مثل مدارك العلوم،

---

(١) برنامج في قناة الرسالة بعنوان آية وقضية.

(٢) محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه.

(٣) من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه.

ومفهوم العلم، والأخبار البشرية والأخبار الإلهية، والمنهج العلمي، ومناهج الحصول على المعلومات، والعلوم التجريبية، والنظريات العلمية وغيرها من الموضوعات الأخرى.

٦- قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي[1].

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن مجالات الفلسفة العلمية، المجال المعرفي والمجال (المتافيزيقي)، كما تحدث الشيخ عن وحدة العقل البشري؛ وكذلك مجلات مباحث فلسفة العلوم أو أصول العلوم، ثم ختم حديثه عن السببية، وفاعلية السببية، وهل الأسباب متعددة؟

---

(١) محاضرة في الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

فوائد مقالات موضوعات متنوعة

فائدة: تحليل التغيرات الاجتماعية بمظاهرها أو بالوسائل التي أدت إليها تحليل ناقص:

إن نظرة الناس إلى الحياة أو فلسفتهم هي التي تحدد نوع القيم التي يعتقدونَها، وقيم الناس هي التي تحدد لهم ماذا يحبون وماذا يكرهون، فيم يرغبون وعم ينفرون، ثم تأتي الوسائل لتحقيق الرغبات.

إذن فتحليل التغيرات الاجتماعية بمظاهرها أو بالوسائل التي أدت إليها تحليل ناقص؛ لأن الدوافع الإنسانية تأتي قبل الوسائل والمظاهر؛ ولأن إرادة التغيير دائمًا تسبق التغيير نفسه.

قلت: إن فلسفات الناس (وأنا استعمل كلمة فلسفة هنا بالمعنى العام لها الذي يشمل كل دين ونحلة وأيدولوجية ونظرة إلى الحياة) هي التي تحدد قيمهم، ولكن من المعروف أن هنالك قيمًا ضرورية لصلاح المجتمع ضرورة التنفس للكائن الحي، ومن المعروف أنه ما كل فلسفة تستطيع -وإن ادعت ذلك- غرس هذه القيم في النفوس، بل إن بعض الفلسفات بطبيعتها تساعد على إضعاف هذه القيم وإن دعت إليها بظاهر من القول.

وأقول: تساعد على إضعافها لا محوها؛ لأن هذه القيم لحسن الحظ فطرية، ولهذا فإن المجتمع الذي يترك على فطرته، ولا يتأثر بأي دين أو فلسفة

يكون أشد استمساكًا بها من مجتمع لم يعرف من الفلسفات إلا ما يعمل على هدمها. ومن هذه القيم الاساسية: الصدق، الأمانة، حب العدالة وكراهية الظلم، حب التحرر وكراهية الاستعباد.

هذه أمثلة للقيم التي قلت إنها ضرورية وأساسية، وأنت إذا تدبرت كل الفلسفات التي تحاول إصلاح المجتمع وجدتها -رغم تباينها- تفترض إيمان الناس بهذه القيم. فالذي يتحدث عن الاشتراكية والماركسية مثلًا ويصورها حلًا حتميًا لمشاكل الطبقات الكادحة، يفترض أن هذه الطبقات تكره الظلم الواقع عليها، بل ويفترض أن بعض الذين لا يقع عليهم الظلم مباشرة يكرهون الظلم لذاته، وهم مستعدون للعمل لإزالته مهما كلفهم هذا العمل من مشاق ولكن الماركسية لا تستطيع خلق هذه القيم في النفوس، ولا تستطيع انمائها بل إنها لتعيش إما على الرواسب الفطرية لهذه القيم أو على ما انتجته مذاهب وأديان أخرى، بيد أنه ما أن يستحكم الإيمان بالشيوعية من قلب إنسان حتى يأخذ إيمانه بهذه القيم في الذبول والاضمحلال[1].

فائدة: من القواعد الباطلة أن عدو العدو هو دائمًا صديق:

من القواعد الباطلة التي تتحكم أحيانًا في سلوكنا البشري ما يكون مضمرًا لا يفصح عنه الإنسان حتى لنفسه؛ لأنه ربما لا يكون هو واعيًا به، بل ربما أنكره إذا ما رآه مصرحًا به، لذلك كان كشف هذه القواعد السلوكية والإفصاح عنها

---

(١) القيم التي أشعلت الثورة جريدة الميثاق الإسلامي، العدد (٧٩)، ٢٥ جمادى الثاني ١٣٨٥هـ- الموافق ٢٠ أكتوبر ١٩٦٥م.

ومناقشتها من أحسن وسائل التقليل من شرها، وإقناع الناس بعدم الخضوع لها.

من هذه القواعد الباطلة أن عدو العدو هو دائمًا صديق، أو أن صديق العدو هو دائمًا عدو، كل منا يعرف بعقله ومن تجربته أن هذا ليس بصحيح؛ لأنه يعرف أن العدوين قد يشتركان في أمر يجعل كلًا منهما عدوًا له؛ ولأنه يعرف أن الأمر الذي يتعاديان بسببه قد لا يكون له علاقة بذلك الأمر الذي جعل كلًا منهما عدوًا له؛ ولأنه يعرف أن من يصادق عدوًا لنا قد يصادقه لأمر لا علاقة له بالأمر الذي جعله لنا عدوًا.

لكننا في حياتنا الواقعية كثيرًا ما نسير على هذه القاعدة التي نعلم بطلانها من الناحية العقلية والتجريبية، من أضرار هذه القاعدة الباطلة أنها تفقد الفرد أو الجماعة أو الدولة الاستقلال في اتخاذ المواقف، بل تجعل عدوها -من حيث لا تشعر- هو الذي يقرر لها مواقفها؛ لأن موقفها سيكون دائمًا هو الموقف المضاد لمن تراه عدوًا لها، فثناء إعلامه على جهة ما يدعو للارتياب في أمره وهجومه عليها يدعو للثقة بها والثناء عليها.

من أضرارها أن العدو إذا عرف هذا الضعف في من تُسيِّره هذه القاعدة الباطلة، أمكنه أن يستغلها أسوأ استغلال، فما عليه ليجعله يعادي جهة ما إلا أن يُظهر الود نحوها ولو كان في الباطن خصمًا لها، بل قد يكون هذا العداء الظاهر بترتيب معها، وما عليه لكي يجعلها ترتاب في أمر فرد أو جماعة أو دولة إلا أن يظهر الود نحوها والثناء عليها ولو كان في الباطن عدوًا لَها.

إنَّ العقلاء الجديرين بالنجاح في عملهم هم الذين يتخذون مواقفهم بمقياس مبادئهم وبمراعاة لمصالحهم، ولا يجعلون غيرهم يقرر لهم ذلك سلبًا أو إيجابًا. إن ديننا يحذرنا من أن يحملنا بغضنا لعدو على الاعتداء الظالم عليه، فكيف لا يمنعنا من أن نجور في حكمنا على غيره فنعاديه وهو يستحق الموالاة أو المناصرة، أو نواليه أو نناصره وهو يستحق المعاداة والمواجهة. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨][1].

فائدة: ميزة شيخ الإسلام عن غيره من العلماء:

ميزة الشيخ أنه سلط ما حباه الله به من أنوار الرسالة المحمدية، وما منحه من مواهب فطرية، وما حلاه به من فضائل خُلقية على مشكلات عصره الواقعية والعلمية، فكان قوله في معظمها هو القول الفصل الذي يشهد له صحيح الأدلة النقلية، وصريح الحجج العقلية، وضوح الصياغة البيانية وجمال القيم الخلقية العلمية.

من المفكرين الإسلاميين الذين سبقوا شيخ الإسلام ابن تيمية أو عاصروه من كان ذا معرفة واسعة بالفكر الفلسفي، وما اتصل به آنذاك من علوم رياضية وطبيعية وكيماوية وفلكية ومنطقية وغير ذلك، لكن بضاعتهم في العلوم الشرعية كانت مزجاة، لذلك تأثروا بكثير من نواحي الفكر اليوناني المخالفة للإسلام، بل إن منهم من جعل هذا الفكر أساسًا له، وحاول أن يفسر الإسلام في نطاقه،

---

(١) عدو العدو أصديق دائمًا هو؟ شبكة المشكاة الإسلامية، الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ - ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م.

فجره هذا إلى إنكار بعض أصول الدين أو تأويلها تأويلًا تعطيليًا.

ومنهم من كان ذا معرفة جيدة بالعلوم الشرعية من لغة وتفسير وحديث وفقه وأصول فقه، لكنه يجهل العلوم الفلسفية والكلامية وما اتصل بها جهلًا كاملًا، لذلك لم يستطع أن ينقدها، أو يبين زيفها ويقي الناس شرها. بل إن من هؤلاء العلماء الأفاضل من كان سبب فتنة لبعض الناس لأنه لم يميز بين ما في الفكر اليوناني من حقائق يؤيدها الدليل العقلي أو الحسي، وما فيه من عقائد فاسدة، وآراء باطلة ولا سيّما في مسائل الإلهيات، فحكموا على الجميع بالبطلان ومخالفة الإسلام.

وفي أمثال هؤلاء العلماء يقول أبو حامد الغزالي: «ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية، لا يبقى معها ريبة، فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها... إذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيها وإنما يسترب في الشرع. وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه»، وهو كما قيل: «عدو عاقل خير من صديق جاهل».

- ومنهم من جمع بين الاطلاع الواسع على هذه العلوم وكان مع ذلك من علماء الشريعة المرموقين، لكن علمه بسنة الرسول ﷺ وبأقوال السلف كان قليلًا. بل لم يميز بين صحيح الأحاديث والآثار وضعيفها. ولم يكن فهمه لمسائل العقيدة هو الفهم السلفي الصحيح الذي تدل عليه النصوص والآثار.

- ومنهم من تفرغ للعبادة والذكر والاهتمام بأحوال القلوب ومقومات

السلوك، ولم يُرد أن يشغل نفسه بالأمور العامة، ولا سيّما مجادلة أهل الباطل.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أعطاه الله تعالى نصيبًا وافرًا من كل خير أعطاه لهؤلاء المفكرين والعلماء، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا حاد الذكاء، سريع القراءة والكتابة والفهم. وكان بحرًا في علوم القرآن والسُّنّة، ذا اطلاع واسع على آثار الصحابة وما جاء بعدهم من الأئمة، متضلعًا في العلوم العربية حتى قيل إنه استدرك عدة مسائل على سيبويه، مطلعًا على أصول الفقه وفروعه وأقوال المذاهب اطلاع العالم المختص، وكان ذا معرفة دقيقة بالمذاهب الكلامية وأقوال الفرق، حتى لقد قال هو عن نفسه إنه جادل الفلاسفة وعمره أربعة عشر عامًا! وكان عالمًا بعقائد اليهود والنصارى ومذاهبهم، غواصًا في علوم عصره الرياضية والطبيعية والفلكية والتاريخية.

وكان إلى جانب هذا العلم الواسع وذاك الذكاء الخارق، رجل عبادة وزهد، وكان مع عبادته وزهده ذا اهتمام كبير بقضايا عصره العلمية والعملية، السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والاجتماعية والاعتقادية والتربوية وما شئت من قضايا. وكان مع جهاده بالقلم واللسان مجاهدًا بالسيف والسنان.

ميزة ابن تيمية أنه سلط ما حباه الله به من أنوار الرسالة المحمدية، وما منحه من مواهب فطرية، وما حلاه به من فضائل خلقية، سلط كل هذا على مشكلات عصره الواقعية والعلمية، فكان قوله في معظمها هو القول الفصل الذي يشهد له صحيح الأدلة النقلية، وصريح الحجج العقلية، ووضوح الصياغة

البيانية، وجمال القيم الخلقية العلمية[١].

فائدة: التفريق بين الفلسفات والبرامج:

إننا ينبغي أن نفرق بين الفلسفات والبرامج، فالفلسفات ليست تجميع بين مطالب وشعارات الناس وجعلها في قائمة واحدة ثم نقول إنها فلسفتنا فهذا ليس صحيحًا، كما أن البرامج ليست هي الفلسفة، فالفلسفة هي توضيح وجهة نظر في الحياة تكون دينًا للإنسان، لهذا كان يقول الرسول ﷺ كما في القرآن الكريم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦].

إذن الفلسفة هي تحديد وجهة نظر كاملة للحياة بصرف النظر عن نوعها، وتحديد وجهة النظر في الحياة تحدد السلوك العملي في الحياة. فالإجابة على أسئلةٍ مثل هل لهذا الكون إله؟ هل هذه الحياة نهاية النهايات... إلخ تحدد مبادئ أساسية في الحياة تؤثر على التطبيق العملي في الدنيا. لذلك مجرد تجميع المطالب والشعارات لا يغني؛ لأن فيصل التفرقة ليس المطالبة فقط بالشعارات ولكن الإيمان بها والعمل لها.

كثيرًا من الناس وخصوصًا المثقفين يعتقدون أن هذه الشعارات التي تمثل واقعنا ليست موجودة في الدين، فهم يقولون لماذا لا ندع الدين وننظر إلى مشاكلنا الواقعية ونحملها عن طريق فلسفة الخطأ والصواب. ولكن -كما يقول الميثاق المصري إن تجربة الخطأ والصواب لا تجدي إلا في إطار نظرية.

---

(١) لهذا كان اهتمامنا بفكر الشيخ، مجلة منار السبيل، شعبان ١٤١٤هـ - يناير ١٩٩٣م.

علينا أن نحدد الهدف ثم نسير عليه وترينا التجربة العملية صحة أو خطأ هذه الأشياء، أما البدء من لا شيء فغير ممكن وأي إنسان ليست له وجهة نظر إما أن يكون خطرًا على الحياة أو يكون ريشة في مهب الفلسفات التي تمر عليه لأنه لا يستطيع تكوين رأي.

أما الذي له وجهة نظر وفلسفة في الحياة فيملك مقياسًا يستطيع على ضوئه تبيان الأشياء والمجتمع السوداني يرينا أن الاتجاهات الإسلامية والماركسية هي التي تملك فلسفات في هذا البلد. أما مسألة الروح الإسلامية والتسامح... إلخ فهي أشياء لا تجدي إذا أُخذت مجزأة.

ومن مميزات جبهة الميثاق الإسلامي أنها تعتبر الإسلام أساسًا تبني عليه بنيانًا، فكل رأي وكل عمل نريده أن ينبع من الإسلام وعلى هذا يكون مقياس الحزب الإسلامي، ومن تجربة الجمهورية العربية التي يجب أن يطلع عليها المثقفون في هذا البلد من ضمن اطلاعهم على تجارب البلدان الأخرى نرى أن مسألة تجميع الشعارات ومحاولة تجميعها في فلسفة قد فشلت ثم محاولة الجمع بين النظرية الماركسية والاتجاه الإسلامي في فلسفة اشتراكية متميزة عن الإسلام وعن الفلسفة الماركسية قد فشلت أيضًا. كل هذا دليل على أهمية الإيمان بفكرة واحدة متكاملة[1].

---

(١) نظرات فكرية في السياسة السودانية، جريدة الميثاق الإسلامي، الأحد ٤ إبريل ١٩٦٥م.

فائدة: من الأساليب الركيكة الجديدة تم اكتشاف، تم تعين...

نظرت في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فوجدت أن كلمة تمّ لم ترد في القرآن كله إلا مرة واحدة، وأن كلمة تمت وردت ثلاث مرات، وأما الصيغ الأخرى: أتم، يتم، أتمم، تمامًا، متمّ التي ليست موضوع حديثنا فلم ترد كلها إلا أربعًا وعشرين مرة. ثم بدأت ألقي بالًا لورود هذه الكلمة فيما أقرأ من كتب الأقدمين وأشعارهم، فوجدت أن نسبة ورودها فيها قليلة جدًّا ربما كانت كنسبة ورودها في كتاب الله تعالى.

قلت في نفسي: ما الذي اكتشفناه نحن في قرننا المتأخر هذا في هذه الكلمة مما لم يكن يعرفه أهل هذه اللغة؟ هل وجدناها هي المعبرة عن معنى جديد هو من لوازم عصرنا؟ أم ماذا؟ ثم وجدت الإجابة أمرًا مؤسفًا. وجدت أننا صرنا نستعملها في أكثر الأحيان بدلًا عن صيغة نائب الفاعل المعروفة؛ فبدلًا من أن نقول: فُعل الشيء صرنا نقول تم فعله.

من أمثلة ذلك ما تسمعه أو تقرؤه في بعض الصحف والقنوات من مثل قولهم: تم إغلاق مكتب الحزب، تم اكتشاف دواء جديد، تم تعيين فلان للمنصب الفلاني، تمت ترقية فلان، لم يتم العثور على أسلحة الدمار الشامل، وهكذا. كان الاستعمال الغالب لهذه الكلمة بمعنى إكمال الشيء الناقص، ولذلك لم تكن تستعمل إلا مع الأسماء.

من أمثلة ذلك في كتاب الله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢]. ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ

هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص:٢٧]، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣].

ومما جاء في الحديث: فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا. ومما جاء في الشعر الجاهلي قول النابغة:

إني أتممـــم أيســـاري وأمـــنحهم مثنى الأيادي وأكسو الجفنة الأدما

قال ابن فارس: «تتميم الأيسار أن تطعمهم فوز قدحك فلا تنتقص منه شيئًا»، أما الاستعمال الحديث الركيك فلا علاقة له بإتمام شيء ناقص، وإنما صارت الكلمة تستعمل للتعبير عن فعل لم يسم فاعله.

كنت أظن أن كل هذا التغيير حدث خطأ وغفلة، غير أن بعض الشباب بالجامعة أخبرني آنذاك أن أستاذ الإعلام في البلد التي جاء منها كان ينهاهم عن استعمال صيغة نائب الفاعل ويصفها بأنها سخيفة. وينصحهم بدلًا من ذلك بأن يستعملوا صيغة تم فعله. قلت له: إن أستاذكم هذا لأحمق؛ لأنه لم يفعل شيئًا غير أن طوَّل العبارة. فإذا كانت الصيغة التي استسخفها لا تسمي الفاعل فصيغته أيضًا لا تسميه. كل ما هنالك أنها تستبدل بالكلمة الواحدة ثلاث كلمات. فبدلًا من أن تقول مثلًا: فُهم المقال، وبيعت السلعة، وعُوقب المجرم، تقول تم فهم المقال، وتم بيع السلعة، وتمت عقوبة المجرم. بل قال لي أحدهم إنها تقليد للصيغة الإنجليزية التي يوصف الفعل فيها بأنه كامل أو تام.

فيبدو أن أحد عباقرة المقلدة قال: لماذا لا يكون لنا كما لهم فعل تام،

فاقترح أن تضاف كلمة تم للتعبير عن هذا التمام، مع أن كلمة تام لا تستعمل في العبارة الإنجليزية، وإنما يوصف بها الفعل في كتب النحو. إذا أردت أن ترى ركاكة هذا الأسلوب أو التركيب الجديد فانظر ما يحدث لو أنك عبرت به عن معاني الآيات التالية: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير:١-١٣].

كنت ستقول حماني الله وإياك: إذا الشمس تم تكويرها، وإذا النجوم تم انكدارها، وإذا الجبال تم تسييرها، وإذا العشار تم تعطيلها، وإذا الوحوش تم حشرها، وإذا البحار تم تسجيرها، وإذا النفوس تم تزويجها، وإذا الموؤودة تم سؤالها بأي ذنب قتلت، وإذا الصحف تم نشرها، وإذا السماء تم كشطها، وإذا الجحيم تم تسعيرها، وإذا الجنة تم إزلافها. فهل يقول مثل هذا إنسان بقيت له أثارة من حس جمالي، أو سليقة عربية؟ كلاَّ. ولذلك فإن أكثر الناس استعمالاً لكلمة تم بهذا المعنى لا يلتزم بها في كل حال، بل يجد نفسه مضطرًا للجوء إلى الصيغة الفصيحة، كيف إذن نصحح هذا الخطأ الذي رسخ في أذهاننا سنين عدة؟

إن أول خطوة هي أن نكون مقتنعين بخطئه وقبحه، ثم إذا كان الواحد منا كاتبًا فعليه أن يراجع ما كتب ليحذف منه كل ورود لكلمة تم بهذا المعنى الغالط، وإذا كان مصححًا في صحيفة أو دار نشر فعليه أن يفعل مثل ذلك. ثم

على الأساتذة ولا سيّما مدرسي اللغة العربية أن ينبهوا طلابهم إلى هذا حتى لو كانوا هم أنفسهم من الذين يرتكبون هذا الخطأ[١].

فائدة: العلاقة بين المواطنة والهوية:

المواطنة انتساب جغرافي، والهوية انتساب ثقافي. المواطنة انتساب إلى أرض معينة، والهوية انتساب إلى معتقدات وقيم ومعايير معينة. فما العلاقة بينهما؟ نذكر فيما يلي أمثلة للعلاقات بينهما، وللمشكلات التي تثيرها هذه العلاقات، فنقول: الهوية لازمة للمواطنة؛ لأن المواطنين لا بُد لهم من نظام سياسي، وعلاقات اقتصادية واجتماعية، وقوانين تضبط هذه العلاقات. وكل هذا إنما يبنى على معتقدات وقيم ومعايير؛ أي على هوية معينة. ليس الوطن الذي ينتسب إليه المواطنون هو الذي يحدد لهم نوع الهوية التي إليها ينتسبون.

فالوطن الواحد قد تتعاقب عليه نظم مختلفة بل ومتناقضة. فالروس كانوا مواطنين روسًا، حين كانوا ينتمون إلى الاتحاد السوفييتي، وحين كان نظامهم الاقتصادي اشتراكيًا، وكان نظام حكمهم دكتاتوريًا، وهم الآن مواطنون روس بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، وبعد حلول الرأسمالية محل الاشتراكية، والديمقراطية محل الدكتاتورية.

فالهوية إذن هي النظارة التي يرى من خلالها المواطنون ما هو مناسب

---

(١) تم...تم... تم أسلوب جديد ركيك، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٢٣٣)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٢٣٣).

أو غير مناسب، صالح أو غير صالح لوطنهم. فإذا اختلفت النظارات اختلف تقويم الناظرين إلى ما ينظرون إليه، وإن اتفقوا على الحقائق الحسية. وإذا صح هذا فإن المواطنين مهما كان إخلاصهم لوطنهم وحرصهم على مصلحته لا يمكن أن ينظروا إلى تلك المصلحة باعتبارهم مواطنين فقط، بل لا بُد أن ينظروا إليها بحسب هوياتهم. لكن بعض الناس يتوهمون أنه بإمكان المواطنين في بلد ما أن يحلوا مشكلاتهم بمجرد انتمائهم الوطني.

فيقولون مثلًا: لماذا لا نجلس باعتبارنا سودانيين فقط أو سوريين فقط، أو يمنيين، أو خليجيين، أو مصريين، وننسى انتماءاتنا الدينية والأيديولوجية لنحل مشكلة من مشكلاتنا الاقتصادية؟ نعم هنالك مشكلات يمكن أن يحلها الناس حتى باعتبارهم بشرًا، ودعك من أن يكونوا مواطني دولة من الدول، ولكن ما كل المشكلات كذلك، وإلا لما انتمى الناس أصلًا إلى ثقافة من الثقافات، بل نظروا إلى كل مشكلة باعتبارهم بشرًا لا غير.

خذ مثلًا مشكلة (مرض الإيدز): إن الناس سيتفقون باعتبارهم بشرًا وبغض النظر عن انتماءاتهم الوطنية بأنه شيء ضار؛ لأنه خطر على حياتهم وحياة أولادهم، وهم باعتبارهم بشرًا حريصون على الحياة. هل يتفقون على طريقة معالجته؟ ليس بالضرورة؛ فقد يقول المتدينون مسلمين كانوا أو يهودًا أو نصارى إن العلاج الحاسم إنما يكون بالكف عن أية ممارسة جنسية قبل الزواج.

وقد يذهب المسلم إلى القول: إن هذا يستدعي فصل الرجال عن النساء،

وإلزامهن بزي معين لا يكون مثيرًا للرجال. ولكن أناسًا من غير المتدينين قد يرون في مثل هذه الاقتراحات حدًا من الحرية، وهي في نظرهم أمر ضروري ضرورة العفة التي ينشدها المتدينون؛ ولذلك يرون الاكتفاء بالبحث عن علاج طبي لا سلوكي.

وخذ قضية أخرى يواجهها كل البشر: (كيف تكون العلاقة الجنسية بينهم؟) هل تكون إباحية يقضي كل فرد منهم حاجته مع من شاء كيف شاء؟ هل يتزوجون؟ وهل يكون الزواج بواحدة أم أكثر؟ وهل هنالك حد لهذا الأكثر؟ هذه قضايا لا يحلها الناس بمجرد انتمائهم الوطني؛ لأنه ليس في هذا الانتماء ما يهديهم إلى خيار من هذه الخيارات، أو يفرضه عليهم. لا بُد للمواطنين إذن من هوية، من ثقافة تكون هي المنظار الذي ينظرون به إلى الواقع، والمعيار الذي يقترحون به الحلول لمشكلاته، ولكن ماذا إذا كان المواطنون في البلد الواحد منقسمين إلى ثقافات، وهويات مختلفة؟

هنالك عدة احتمالات: أحسنها من حيث الاستقرار وعدم التنازع: هو أن تكون إحدى هوياتهم هذه هي الغالبة من حيث عدد المنتسبين إليها. قيّدتُ الحسن بالاستقرار السياسي، وعدم التنازع ولم أقُل التطور العلمي، أو الاقتصادي، أو العسكري؛ لأن الهوية التي استقر أمرهم عليها قد لا تكون بطبيعتها مساعدة على ذلك.

وإذا لم تكن هنالك هوية غالبة بهذا المعنى فقد يكون المنتمون إلى إحدى الهويات أقوى من غيرهم؛ فيفرضون على البلد هويتهم، وينظمون أمره

على أساسها. هذا سيكون بالطبع على حساب بعض الحريات، لكن هذه الأدلجة المفروضة بالقوة قد تكون مساعدة على تطور البلاد اقتصاديًا وعلميًا وعسكريًا، كما كان الحال في الاتحاد السوفييتي، وكما هو الآن في الصين، وكوريا الشمالية.

وإذا لم يحدث هذا ولا ذاك، وكانت الهويات والثقافات المتعددة متساوية في قوتها فأمام مواطنيها خيارات: فإما أن يحلُّوا نزاعهم بتقسيم وطنهم، كما حدث للهند حين خرجت منها باكستان، ثم خرجت بنجلادش من باكستان، وكما خرجت أرتيريا من أثيوبيا، وكما انقسمت تشيكوسلوفاكيا، ويوشك أن تنقسم الآن أكرانيا.

وإما أن يبحثوا عن صيغة يتعايشون بها رغم اختلافاتهم؛ فماذا يا ترى يمكن أن تكون هذه الصيغة؟ يرى بعضهم أن أحسن طريقة لتعايش مثل هذه الهويات المختلفة: هو أن تختار نظامًا علمانيًا محايدًا بينها، وديمقراطيًا يعطي كل واحد منها حق الوصول إلى السلطة، إذا ما اختارته الأغلبية. لكن المشكلة أنه لا يوجد نظام للحكم محايد بين هويات مختلفة اختلافًا أساسيًا، ويستحيل عقلًا أن يوجد. لا يمكن أن يكون النظام الاقتصادي في البلد الواحد رأسماليًا واشتراكيًا، ولا يمكن أن يكون اقتصاد السوق رأسماليًا يبيح الربا، وإسلاميًا يحرمه ويفرض الزكاة، لا يمكن أن يكون النظام السياسي إسلاميًا يلتزم بشرع الله باعتبار أن الحكم التشريعي له سبحانه، وديمقراطيًا يعطي هذا الحق للبشر يشرعون ما شاءوا؛ فالعلمانية هي نفسها إذن هوية من الهويات، فأنّى تكون محايدة بينها؟

ومن المتفق عليه بين منظِّري الديمقراطية من الغربيين، ودعك من عوام السياسيين من أمثال بوش: أن الديمقراطية لا تصلح ولا تكون سببًا للاستقرار إلا في إطار متفق عليه بين معظم المواطنين، ثم تكون خلافاتهم الثقافية خلافات فرعية داخل هذا الإطار العام الجامع. وأما إذا كانت الخلافات أساسية، وحول الإطار نفسه فإن الديمقراطية لن تحل إشكالًا، ولن تحقق استقرارًا؛ لأنه لا أحد من المتنازعين سيقبل حلًا لمجرد أن الأغلبية التي يختلف معها قالت به[1].

فائدة: ما الحل فيما إذا كان المواطنون في البلد الواحد منقسمين إلى ثقافات، وهويات مختلفة؟

الحل في مثل هذه الحال: هو أن يجتمع المختلفون، ويبدؤوا بتقرير المبدأ الذي هم متفقون عليه: أنه من مصلحتهم جميعًا أن يبقوا في وطن واحد، ثم ينظروا إلى الكيفية التي يحققون بها هذا الهدف، من غير تقيد سابق بديمقراطية، ولا علمانية، ولا غير ذلك من النظم والأيديولوجيات الشائعة، بل يقولون: هذه أوضاعنا، وهذه خلافاتنا؛ فلنبحث عن حل أصيل لها ومتناسب معها، وهو حل يستلزم ولا بُد قدرًا من التنازلات والمساومات، وقد يكون شيئًا جديدًا يستفيد من الدين ومن التجربة الديمقراطية، أو العلمانية، أو غيرها، ولا يأخذ أيًا منها بكامله.

---

(١) المواطنة والهوية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٢٨٤)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص:٣٨٤).

هذا ما حاول فعله واضعو الدستور الأمريكي؛ فبالرغم من أن الولايات المتحدة تعد اليوم مثالًا للديمقراطية؛ إلا أن الذين وضعوا دستورها لم يكونوا ملتزمين بتجربة ديمقراطية معينة، ولا بمبادئ ديمقراطية معينة، بل كان بعضهم يخشى مما أسموه بدكتاتورية الأغلبية التي قد تؤدي إليها الديمقراطية. ولذلك جاء دستورهم شيئًا جديدًا لا يمكن أن يوصف بالديمقراطي إذا ما قيس بالمبادئ الديمقراطية الصارمة.

من ذلك أنه من الممكن بل حدث أن يكون الرئيس الفائز في الانتخابات أقل أصواتًا من منافسه. ومنها فكرة الكليات الانتخابية التي لا تقيد أعضاءها برأي ولايتهم، بل تجيز لكل واحد منهم أن يصوِّت لمن يراه صالحًا من المرشحين للرئاسة بغض النظر عن الأصوات التي نالها في الولاية. لكن حتى هذا لم يحل الإشكال حلًا كاملًا؛ فما زال الشعب الأمريكي منقسمًا في قضية العلاقة بين الدين والدولة، وما زالت الكتب فيها تكتب، والبحوث تُنشر، والقضايا ترفع، وهذا يعني أن التعددية ليست شيئًا حسنًا في ذاته وبإطلاق. التعددية تكون حسنة إذا ما كانت إيجابية، وهي لا تكون كذلك إلا إذا كانت ضمن إطار ثقافي جامع؛ أي ضمن هوية جامعة.

فتعددية الهويات المختلفة المتناقضة: هي مشكلة يجب أن تعالج وليست واقعًا يحافظ عليه، أو يتباهى به، كما يفعل كثير من الناس الآن في السودان وغيره؛ وذلك لأنه لا يسهل مع مثل هذه التعددية تحقيق استقرار سياسي، ولا يسهل معها من ثَمَّ تطور اقتصادي، أو علمي أو تقني. هذا هو المتوقع عقلًا،

وهو الذي تدل عليه تجارب الأمم قديمها وحديثها[١].

فائدة: التعدديات والأمة الواحدة:

الولايات المتحدة تتباهى بأنها أمة واحدة رغم أنها تكونت من مواطنين من أجناس متعددة، وديانات متباينة، ولغات مختلفة، وثقافات متناقضة. نعم! لكنها لم تصر أمة واحدة إلا حين صهرت هذه المكونات كلها في بوتقة، وأخرجت منها شيئًا واحدًا متجانسًا.

يمكن لذلك أن نقول: إن التعدديات نوعان: تعددية صحن السَلَطة الذي يحتفظ كل مكون من مكوناته بلونه وطعمه وملمسه: فهذا طماطم، وهذا جرجير، وهذا عجور، وهكذا. وتعددية القِدر الذي توضع فيه كل المكونات، من لحم، وخضار، وملح، وبهارات لتطبخ إدامًا واحدًا ذا طعم واحد، وربما لون واحد.

هذا الأخير هو الذي يقال: إن الولايات المتحدة فعلته، إنها كما يحلو لهم أن يقولوا بوتقة (Melting Pot) جعلت من مكوناتها أمة أمريكية واحدة. يقول كاتب أمريكي: لقد كانت الأمركة عملية انسجام قسري كانت الولايات المتحدة فيها بمثابة البوتقة لا النسيج ذي الألوان والصور المختلفة. لم يكن

---

(١) المواطنة والهوية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٢٨٤)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٣٨٤).

ينظر إلى المجتمع الأمريكي على أنه قطعة من روسيا؛ قطعة من إيطاليا، وقطعة من بولندا مزج بعضها ببعض، كلا! بل إن القوميات المختلفة جُعلت أمريكية كما ينقى المعدن الخام ليصير ذهبًا خالصًا. الأمركة نقتهم وأزالت خبثهم.

إن أصحاب موكب حركة البوتقة لم يكونوا يحتفلون بالتسامح، ولكن بالخضوع لمفهوم ضيق للقومية الأمريكية، بتصوير الأجانب بأُناس في أزياء غريبة، ينغمسون في قدر كبير، ويخرجون منه نقيين بهندام جميل، ولهجة أمريكية خالصة، ومنظر أمريكي؛ أي أمريكان إنجليز كيف يقال: إن أمريكا تؤمن بالتعددية، وهي زعيمة الغرب الذي ما زال يسعى لقتل الثقافات الأخرى، ولأن تكون ثقافته هي المهيمنة على العالم؟ اقرؤوا في هذا إن شئتم كتاب (إدوارد Cultural Imperialism الاستعمار الثقافي) سعيد بل إنهم ليعدون ثقافتهم جزءًا من قوتهم التي يسمونها بالقوة الناعمة أواللينة Soft Power.

في تقرير جديد للجنة استشارية من لجان الكونغرس فيه تقويم لسياسة الحكومة الأمريكية، ونقد لها جاء قولهم: كنا نتحدث حتى الآن على افتراض أن الهوية شأن داخلي في وطن من الأوطان، لكن الواقع ليس كذلك. فالعلاقة بين الوطن والهوية لا تكاد تكون علاقة مطابقة.

وهذا يسبب مشكلات كثيرة منها: أنه كما أن تعدد الهويات في الوطن الواحد قد يؤدي إلى تمزيقه؛ فإن اتحاد الهويات في أوطان متعددة قد يؤدي إلى توسيع للحدود الوطنية، بضمّ بعض الأقطار إلى بعض، أو بالتعاون الوثيق بينها

الذي يجعلها كالوطن الواحد، كما هو الحال الآن في الاتحاد الأوروبي. لكن هذا التوحيد أو التمزيق لا يحدث في الغالب إلا بطريقة عنيفة.

وفي هذا يقول المؤرخ الإنجليزي (لويس ناميير): «إن الدول لا تتوحد أو تُحطم، والحدود لا تُمحى أو يعاد رسمها بالحجج وصوت الأغلبية. إن الأمم تحرر وتتوحد أو تمزق بالحديد والدم، لا بالتطبيق الكريم لمبدأ الحرية».

بما أن مصالح المواطنين في أرض معينة لا تكاد تكون محصورة في حدود أرضهم، ولا سيّما في عصرنا هذا الذي تشابكت فيه المصالح بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم؛ فإن مفهوم الدولة الوطنية بدأ يتضاءل، وتحل محله تحالفات أو اتحادات بين دول متعددة. ولكن هذه التحالفات لا تنجح إلا إذا كانت مبنية على هويات مشتركة.

خير مثال على ذلك (الاتحاد الأوروبي) الذي لم يجد مشكلة في ضم كل قطر ذي هوية أوروبية نوعًا ما، لكنه يتلكأ في قبول (تركيا) ذات الهوية المختلفة، بالرغم من أنها دولة علمانية، وبالرغم من أنها غيرت في كثير من قوانينها لتوافق البلاد الأوروبية.

بما أن التطور الهائل في وسائل الاتصال جعل من كرتنا الأرضية ما يشبه الوطن الواحد فقد ازداد حجم المشكلات التي تهم الناس باعتبارهم بشرًا، وبغض النظر عن أوطانهم وهوياتهم. من أوضح الأمثلة على ذلك مشكلة (الخروق) التي بدأت تحدث في طبقة الأوزون، والتي تسببت في ارتفاع درجة

الحرارة في الكرة الأرضية.

وقد كان من نتائج كثرة ازدياد المشكلات المشتركة بين الناس أن كثرت المنظمات العالمية كثرة ليس لها مثيل في تاريخ البشرية. لكن بعض الدول القوية صارت تحاول إخضاع البشرية كلها إلى قيم نابعة من هويتها، أو خادمة لمصالحها؛ بحجة أنها قضايا إنسانية عامة لا ثقافية خاصة.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك: ما سمي بـ(الإعلان العام لحقوق الإنسان) الذي يقول كثير من نقاده حتى من الغربيين: إن كثيرًا من بنوده لا ينطبق عليه وصف الحق الإنساني، والذي يرى بعضهم أن كثيرًا منه تعبير عن ثقافة معينة هي الثقافة الغربية. بل إن بعض الجهات المؤثرة صارت تستغل الأمم المتحدة نفسها لإلزام الأمم كلها بقرارات نابعة من قيمها، ومنها قضية المرأة.

نخلص من هذا كله إلى أنه على المسلمين في بلد: كالسودان أن لا يُخدَعوا بما يقول لهم مثلًا الزعيم (قرنق) من أن علينا جميعًا أن نجتمع باعتبارنا سودانيين فحسب، وأن نجعل الدين أمرًا شخصيًا؛ لأن الأديان تفرقنا والوطن يجمعنا. إن قرنق لا يتحدث هنا باعتباره سودانيًا فحسب، بل ولا باعتباره جنوبيًا فحسب، وإنما يتحدث باسم الحضارة الغربية وقيمها. إن تخلّي المسلمين عن دينهم في حياتهم العامة ليس استمساكًا بوطنية لا هوية فيها كما يدعي (قرنق)، وإنما هو إحلال للهوية الغربية محل الهوية الإسلامية[1].

---

(١) المواطنة والهوية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص:٢٨٤)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص:٣٨٤).

فائدة: الآثار الضارة والنافعة لانفصال جنوب السودان:

من الآثار الضارة للانفصال إلى جانب ما أشرنا إليه: أن البترول الذي كان السودان يعتمد عليه في نموِّه في السنوات الأخيرة سيكون معظمه حظ دولة الجنوب الجديدة.

يقول بعض المختصين: نعم؛ لكن مخزون الشمال من البترول هو أكبر من مخزون الجنوب. ويقال لهم: إنه حتى لو كان الأمر كذلك فإن استخراج هذا المخزون ربما استغرق مدة من الزمن، وأن السودان الموحد كان سيكون أغنى بإضافة الجديد من المكتشفات البترولية إلى القديم.

وهنالك مشكلة مياه النيل التي ستكون قسمتها الجديدة ضارة بمصر أكثر من ضررها بالسودان. ما الذي سيحدث لإخواننا المسلمين الجنوبيين؟ إنهم يخشون أن يجدوا أنفسهم في دولة عَلمانية معادية للإسلام تضيِّق عليهم وإن كانت لا تستطيع أن تمنعهم من ممارسة دينهم؛ ولذلك فإنهم -خوفًا من هذا المصير- صوتوا لانفصال لا يريدونه، لكنهم خشوا من أن يُعتبَروا بمثابة المعادين أو الخائنين لدولة الجنوب الجديدة.

إن دولة الجنوب الجديدة لن تكون إذن دولة عَلمانية لا شأن لها بالدين سلبًا أو إيجابا؛ لكنها ستكون دولة معادية للدين الإسلامي في سياساتها الداخلية والخارجية؛ فقد أعلن بعضهم أنهم سيعترفون بإسرائيل، وبمحكمة الجنايات التي تطالب بتوقيف الرئيس عمر البشير، وأنهم -كيدًا في إخوانهم السُّنيين-

سيفتحون الباب للدعوة الشيعية.

ولن يقف الأمر عند هذا الحد فإنهم والأمريكيين يصرِّحون الآن بأنهم سيهدفون إلى إحداث تغيير جذري في بِنيَة الدولة الشمالية؛ يعنون تغييرًا في توجهها الإسلامي.

إذا كان الأمريكيون قد خططوا لفصل الجنوب عن الشمال بهدف تغيير جذري في بِنية الدولة الشمالية، فإنهم لم يقفوا عند حد التخطيط؛ بل أتْبَعوا ذلك بمساعدات هائلة قدَّموها للجنوبيين جعلت منهم قوة عسكرية تضاهي القوات السودانية المسلَّحة أو تزيد عليها.

وهذا هو الذي أطال أمد الحرب وضاعف تكاليفها المالية والبشرية. إن انفصال الجنوب من أقوى الشواهد على أضرار حال التمزق الذي تعيشه الأمة العربية؛ ذلك لو أنها كانت أمة واحدة، بل لو كان بينها من الائتلاف ما بين الدول الأوروبية لما جَرُؤ أحد على اقتطاع جزء منها. تلك مضار الانفصال؛ فهل له من منافع؟ أول منافعه التي يعترف بها بعض إخواننا السودانيين المحللين - بغضِّ النظر عن رأيهم في الانفصال-: أن السودان سيكون بعده أكثر انسجامًا؛ إذ إن نسبة المنتسبين إلى الإسلام فيه ستقارب ثمانية وتسعين بالمئة. وبهذا ستنهار كل الذرائع التي كان يتعلل بها العَلمانيون وأشباههم في رفضهم للدولة الإسلامية. إن السودان ما كان يمكن أن يكون دولة إسلامية مع اتحاد بين شماله وجنوبه. كيف يكون كذلك مع وجود أُناس غير مسلمين في المناصب التشريعية

والقضائية والتنفيذية كما هو الحال الآن؟ وإذا لم يَجُزْ التخلي عن الأرض كما يقول بعض إخواننا ولا سيّما مَنْ هم خارج السودان؛ فهل يجوز شراء الأرض بالدين؟[1]

(١) وانفصل الجنوب، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٦٢٠).

مصادر مقالات متنوعة

١ - الصحفيون وتحريف الكلام[١]:

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن تحريف بعض الصحف العربية كلامك بزعم أنه تلخيص لما ذكرت، فتكاد تُصعق. الأفكار ليست أفكارك، والكلام ليس كلامك والأسلوب ليس أسلوبك. وتجلس حزينًا أسفًا أن مئات الناس سيقرؤون هذا الكلام المنشور فينسبون إليك أفكارًا تنكرها، وأسلوبًا تستهجنه، وكلامًا لا تشك في بطلانه.

٢ - القيم التي أشعلت الثورة[٢]:

تحدث الشيخ في هاتين المقالتين عن ثورة أكتوبر في السودان والعوامل التي أدت إلى حكم العسكر.

٣- بهدوء عن الدستور[٣]:

تحدث الشيخ في هذا المقال عن اقتراح دستوري لحل قضية العلاقة بين

---

(١) جريدة المسلمون السعودية، العدد (٤٤٣).

(٢) الحلقة الأولى، جريدة الميثاق الإسلامي، العدد (٧٩)، ٢٥ جمادى الثاني ١٣٨٥هـ - الموافق ٢٠ أكتوبر ١٩٦٥م، الحلقة الثانية، جريدة الميثاق الإسلامي، العدد (٨٠)، ٢٨ جمادى الثاني ١٣٨٥هـ - الموافق ٢٤ أكتوبر ١٩٦٥م.

(٣) جريدة الوفاق صفحة، الأربعاء ١٧ محرم ١٤١٩هـ - الموافق ١٣ مايو ١٩٩٨م.

الدين والدولة في السودان، اكما ذكر الأدلة على أن الدستور المكتوب ليس إسلاميًا.

٤- دارفور[١]:

تحدث الشيخ في هذا المقال عن أن كثيرًا من الدول الغربية تطالب الحكومة السودانية بأن تجرد تلك القبائل العربية (المسماة بالجانجويد في دارفور) من السلاح، وتقول أن وراء الحرب محاولة لما يسمى بالتطهير العرقي، وتهدد بأنها ستتدخل إذا لم تستجب لطلبها.

٥-طالب يذكر[٢]:

تحدث الشيخ في هذا المقال عن شيخه الراحل الأستاذ عبد الله الطيب غفر الله له، ويذكر الشيخ أنها ذكريات في أمور شتى لا تخلو من طرافة أرسلها بغير تكلف، وغني عن القول بأنني إذا ما رويت عنه كلامًا فلا أذكره بألفاظه نفسها كلها -أنَّى لي ذلك وقد طال العهد؟- وإنما أذكر فحواه وبعض ألفاظه.

٦-عبد الناصر دكتاتور[٣]:

في هذا المقال يتحدث الشيخ عن عبد الناصر ويصفه بأنه ديكتاتور، ويذكر أن هذا ليس سبًا لعبدالناصر، ولكنه وصف له بما هو أهله، ويقول إن لم يكن

---

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، ١٨ ذو الحجة ١٤٢٥هـ - الموافق ٧ فبراير ٢٠٠٥م.

(٢) طرائف من مناقب شيخه العلامة عبد الله الطيب المختار الإسلامي، ١٦ شعبان ١٤٣٧هـ - الموافق ٢٣ مايو ٢٠١٦م.

(٣) جريدة الميثاق الإسلامي، جمادى الأولى ١٣٨٥هـ - الموافق فبراير ١٩٦٥م.

عبدالناصر ديكتاتورًا فليت شعري من الديكتاتور؟ وما معنى الديكتاتورية؟ وإن لم يكن هذا الطاغية المتكبر مجرمًا فلتُمح من الوجود كلمة «آثم» لأنه لا مدلول لها إذا جُردت من أوضح مدلولاتها، ويذكر الدلائل على ذلك.

٧- عدو العدو أصديق دائمًا هو؟[١]

يتحدث الشيخ في هذا المقال عن قاعدة من هذه القواعد الباطلة وهي أن عدو العدو هو دائمًا صديق، أو أن صديق العدو هو دائمًا عدو، ويذكر الشيخ أن كلا منا يعرف بعقله ومن تجربته أن هذا ليس بصحيح. لأنه يعرف أن العدوين قد يشتركان في أمر يجعل كلًا منهما عدوًا له، ولأنه يعرف أن الأمر الذي يتعاديان بسببه قد لا يكون له علاقة بذلك الأمر الذي جعل كلًا منهما عدوًا له، ولأنه يعرف أن من يصادق عدوًا لنا قد يصادقه لأمر لا علاقة له بالأمر الذي جعله لنا عدوًا. لكننا في حياتنا الواقعية كثيرًا ما نسير على هذه القاعدة التي نعلم بطلانها من الناحية العقلية والتجريبية.

٨- فليكن اجتماعكم القادم بالمكسيك[٢]:

كتب الشيخ هذا المقال بمناسبة انعقد مجلس الأمن في شأن قضية دارفور بنيروبي، وكانت هذه إحدى المرات النادرة التي يجتمع فيها خارج مقره بنيويورك. انعقد ليكون قريبًا من السودان وليضغط على حكومته والمتمردين عليها لكي يصلوا إلى حل.

---

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ - ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م.

(٢) الشبكة العنكبوتية.

٩- لهذا كان اهتمامنا بفكر الشيخ[١]:

تحدث الشيخ في هذا المقال عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكر أن ميزة الشيخ أنه سلط ما حباه الله به من أنوار الرسالة المحمدية، وما منحه من مواهب فطرية، وما حلاه به من فضائل خُلقية على مشكلات عصره الواقعية والعلمية، فكان قوله في معظمها هو القول الفصل الذي يشهد له صحيح الأدلة النقلية، وصريح الحجج العقلية، ووضوح الصياغة البيانية وجمال القيم الخلقية العلمية.

١٠- نذر الشر تقترب[٢]:

كتب الشيخ هذا المقال بمناسبة ما كتبته صحفية اسمها جولي فلنت مقالاً بجريدة الإندبندنت البريطانية قالت فيه: «إنه على مجلس الأمن أن يقرر أن حكومة السودان لم تف بمتطلبات قراره بشأن دارفور، ويجب عليه أن يسمي المجرمين بأسمائهم»، وهم: نائب الرئيس علي عثمان محمد طه، ووزير الحكم الفدرالي نافع علي نافع، ووزير الدفاع بكري حسن، ورئيس المخابرات صلاح جوش. يجب أن يمنعوا هم وأسرهم من السفر الدولي، وأن تجمد أرصدتهم، وأن تكون لجنة عالمية للتحقيق في جرائم الحرب.

---

(١) مجلة منار السبيل، شعبان ١٤١٤هـ - الموافق يناير ١٩٩٣م.

(٢) الشبكة العنكبوتية، ٩ ذو القعدة ١٤٢٥هـ - الموافق ١٩ ديسمبر ٢٠٠٤م.

١١ - نظرات فكرية في السياسة السودانية[١]:

في هذا المقال تحدث الشيخ عن أهمية المطالبة بأن تكون للأحزاب فلسفة تسير عليها، وكذلك التفريق بين الفلسفات والبرامج، ثم ختم مقاله بالرد على تصور كثير من الناس وخصوصًا المثقفين الذين يعتقدون أن هذه الشعارات التي تمثل واقعنا ليست موجودة في الدين. فهم يقولون لماذا لا ندع الدين وننظر إلى مشاكلنا الواقعية ونحملها عن طريق فلسفة الخطأ والصواب.

١٢ - يوميات الميثاق عن الصحافة والصحفيين[٢]:

تحدث الشيخ في هذا المقال عن بعض الصحف التي تخلط بين واجبها الأساسي كأداة عادلة أمينة لاطلاع المواطنين على الحقائق التي يبنون عليها آرائهم، وبين مهمتها الثانوية كوسيلة للترويج لآراء المحررين واتجاهاتهم. ومن ثم فأنت ترى معظم الأخبار مسوقة بطريقة تؤيد وجهة النظر التي تعبر عنها كلمة المحرر.

١٣ - أخرجوهم فإنهم مسلمون[٣]:

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن سبب إخراج المسلمين من كوسوفا وأن هذا هو كان هدف الطائفة الحاقدة من الصرب ممثلةً في رئيسها الدكتاتور المغرور المستكبر الكذاب ميلوسيفتش ومن معه هو إخراج المسلمين جميعًا

---

(١) جريدة الميثاق الإسلامي، ٤ إبريل ١٩٦٥م.

(٢) جريدة الميثاق الإسلامي، العدد (٩٠)، ٩ شعبان ١٣٨٥هـ - الموافق ٢ ديسمبر.

(٣) مجلة البيان (١٣٩)، ربيع الأول ١٤٢٠هـ - يوليو ١٩٩٩م.

من كوسوفا، بل ومن أوروبا كلها إن أمكن، بل ومحوهم من على ظهر الأرض إن استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

١٤- تم.....تم.....تم أسلوب جديد ركيك[١]:

تحدث الشيخ في هذا المقال عن أسلوب تم...تم...تم وأنه أسلوب ركيك وأن نصحح هذا الخطأ الذي رسخ في أذهاننا سنين عدة، إن أول خطوة هي أن نكون مقتنعين بخطئه وقبحه، ثم إذا كان الواحد منا كاتبًا فعليه أن يراجع ما كتب ليحذف منه كل ورود لكلمة تم بهذا المعنى الغالط، وإذا كان مصححًا في صحيفة أو دار نشر فعليه أن يفعل مثل ذلك. ثم على الأساتذة ولا سيّما مدرسي اللغة العربية أن ينبهوا طلابهم إلى هذا حتى لو كانوا هم أنفسهم من الذين يرتكبون هذا الخطأ

١٥- عبر من فتنة دار فور[٢]:

وفي هذه المقالة تحدث الشيخ عن بعض العبر والدروس من الفتنة التي حصلت في دارفور في السودان.

١٦- المواطنة والهوية[٣]:

في هذا المقال يبين الشيخ العلاقة بين المواطنة والهوية فيذكر ان المواطنة انتساب جغرافي، والهوية انتساب ثقافي والمواطنة انتساب إلى أرض معينة،

---

(١) مجلة البيان (١٩٩)، ربيع الأول ١٤٢٥هـ - إبريل / مايو ٢٠٠٤م.
(٢) مجلة البيان (٢٠٤)، شعبان ١٤٢٥هـ - سبتمبر/ أكتوبر ٢٠٠٤م.
(٣) مجلة البيان (٢١١)، ربيع الأول ١٤٢٦هـ - مايو ٢٠٠٥م.

والهوية انتساب إلى معتقدات وقيم ومعايير معينة، ثم يذكر العلاقة بينهما فيقول حفظه الله: الهوية لازمة للمواطنة؛ لأن المواطنين لا بُد لهم من نظام سياسي، وعلاقات اقتصادية واجتماعية، وقوانين تضبط هذه العلاقات، وكل هذا إنما يبنى على معتقدات وقيم ومعايير؛ أي على هوية معينة.

١٧ - وانفصل الجنوب[1]:

تحدث الشيخ عن انفصال جنوب السودان عن شماله، وذكر حفظه الله أن هذا من أقوى الشواهد على أضرار حال التمزق الذي تعيشه الأمة العربية؛ ذلك لو أنها كانت أمة واحدة، بل لو كان بينها من الائتلاف ما بين الدول الأوروبية لما جَرُؤ أحد على اقتطاع جزء منها.

---

(١) مجلة البيان (٢٥٨)، جمادى الأولى ١٤٣٢هـ - إبريل ٢٠١١م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
الدكتور جعفر شيخ إدريس	٩
نسبه ومولده	٩
نشأته وأثر الوالدين عليه	١٠
حادث في الصغر	١١
حلقات المساجد	١٣
دراسة الشيخ للمذهب المالكي	١٣
شيوخه	١٤
مرحلة الدراسة الجامعية والتعليم العالي	١٥
الدكتور جعفر ومحمود محمد طه	١٥
مع الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ	١٦
كيفية قراءة الدكتور جعفر	١٩
استفادة الشيخ من إقامته في بلاد الغرب وما أضافه خلال مكوثه هناك إلى رصيده الدعوي والمعرفي	٢١
الشيخ جعفر والترابي	٢٥
فراسة الشيخ جعفر (زرقاء اليمامة)	٢٧
مواقف الدكتور جعفر ورؤيته لقضايا مختلف	٣٢
الدكتور جعفر يرفض أن يكون فقيه العامة	٣٢
مقتطفات من حوار مع صحيفة الشرق الأوسط الجمعة ٧ ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ٣٠ يناير ٢٠٠٤، العدد (٩١٩٤)	٣٦
مقتطفات من حوار جريدة المسلمون العدد٣١٢، ١٠/ ٧/ ١٤١١)	٤٠

مقتطفات من حوار جريدة الرياض حاوره عليّ الشثري ٤٦
مقتطفات من حوار في قناة المجد حول إشكاليات الديمقراطية والبدائل الإسلامية ٥٨
مقتطفات من حوار في قناة المجد حول قرار شيراك والحرية الدينية ٦٩
حوار في قناة طيبة الفضائية السودانية بعنوان ذكرياتي ٨٤
مقتطفات من حوار في جريدة الرياض حاوره عبد الحي شاهين في ١٤/ ٦/ ٢٠٠٢م.. ٩٩
مقتطفات من حوار في مجلة الدعوة السعودية في ٣٠/ ١/ ١٤١٠ بعنوان ندوة الحوار وأهميته في بناء المجتمع الإسلامي وشارك الدكتور جعفر شيخ إدريس كل من الدكتور حمد الصليفيح والدكتور ابراهيم القعيد والدكتور سعيد بن زعير وادارها الدكتور عبد القادر طاش ١٠٧
حوار صحيفة الاستجابة السودانية صفر ١٤١٢هـ..... ١١٠
حوار مجلة منارات العدد (٢٢) أجرى الحوار الدكتور محمد الخرعان..... ١١٨
حوار مع مجلة الأمل التي تصدرها رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا وأجرى الحوار الدكتور أحمد سيف الدين تركستاني عام ١٩٨٦م ١٣٣
فوائد مقالات الدعوة ١٤٦
فائدة: العبودية هي جوهر الإنسانية ١٤٦
فائدة: كيف نصل للمجتمع الإنساني في التصور الإسلامي ١٤٨
فائدة: ما هو الشرط أو السبب الذي إذا ما حققناه كان التزامًا بالإيثار والصدق والأمانة وسائر القيم لأنه نتيجة طبيعية له؟ ١٥٠
فائدة: التفاضل بين المجتمعات لا يكون بقدر ما فيها من حرية ١٥٢
فائدة: الحوار وشروطه ١٥٥
فائدة: مشكلة في الحوار مع العلمانيين في العالم الإسلامي ١٥٦
فائدة: أشكال المداهنة في الحوار ١٥٧
فائدة: المقصود بالاخر والاعتراف به ١٥٩
فائدة: الله تعالى لم يحرم الخمر لمجرد أنها تقود إلى الاعتداء الحسي ١٦١
فائدة: دعوى اهل الشذوذ أن ميلهم هذا أمر ولدوابه فهو في (جيناتهم) وطبعهم..... ١٦٢
فائدة: مطالبة أهل الشذوذ السماح لهم بالاستعلان إنما هي مرحلة تليها مرحلة الاستعلاء ١٦٢

فائدة: من طبيعة فاحشة الشذوذ الاباحية المطلقة، وعدم التقيد بقرين واحد، أو عدد محدود من القرناء ١٦٣
فائدة: المقارنة بين الإسلام والنظريات الأخرى حول الإنسان ١٦٣
فائدة: الصلة بين ظاهر الإنسان وباطنه ١٦٥
فائدة: الصيام وتفاضل الأزمان ١٦٧
فائدة: الله تعالى حبا البشر بخصائص تجعلهم أعلى درجة من سائر المخلوقات ١٦٩
فائدة: الجسم والروح كائنان مختلفان لكل منهما خصائص ووظائف غير خصائص الاخر ووظائفه. لكنهما متصلان ومتعاضدان من عدة وجوه ١٧٠
فائدة: الإنسان يولد خيرًا ١٧٠
فائدة: الله تعالى يرضى للناس أن يختاروا حياة الفطرة المتمثلة في عبادته ويعينهم بوسائل شتى ليكون هذا خيارهم. ١٧٠
فائدة: الجسم البشري والهندسة الجينية ١٧٣
فائدة: تأثير الإعلام الغربي على عقيدة المسلم ١٧٦
فائدة: المقصود بالمرجعية ١٨٢
فائدة: غايات نبيلة ندب الله المسلمين إليها ١٨٤
فائدة: أثر دراسة العلوم الدينية منعزلة عن المعارف والأفكار والمؤسسات العصرية .. ١٨٥
فائدة: الدعوة إلى تقليد الغرب ١٨٦
فائدة: المخرج من الدعوة إلى التقليد الغبي لكل ما هو غربي ١٨٨
فائدة: شبهات المكذبين بعذاب القبر ١٨٩
فائدة: عالم النبوة ١٩٤
فائدة: هل من حق الاديب والفنان أن ينتقد قيم المجتمع ومعتقداته ويدعو إلى نبذها .. ١٩٦
فائدة: الاعلام والعولمة ضد الهوية والخصوصية ٢٠٠
فائدة: المنهج الديني الصحيح في معاملة غير المسلمين ٢٠٧
فائدة: أهمية المحافظة على حسن سمعة المسلمين ٢١٠
فائدة: المنهج الصحيح للدعوة إلى الله ٢١١
فائدة: من المنهج الصحيح الموازنة بين آثار الشيء الحسنة والسيئة ٢١٤
فائدة: الداعية وهداية الناس ٢١٨

فائدة: الداعية لا يحزن ولا ييأس من عدم استجابة الناس لدعوته ٢٢١
فائدة: محمد ﷺ نبي الرحمة ٢٢٢
فائدة: رحمة رسالة محمد ﷺ بقلوب العباد ٢٢٣
فائدة: الإيمان بالخالق سبحانه لا يكتمل إلا بالإيمان بحقائق أخرى هي من لوازم
الإيمان بربوبيته وألوهيته ٢٢٧
فائدة: الفساد الحسي في الطبيعة سببه الفساد السلوكي في حياة الناس ٢٣٦
فائدة: التدهور في الحياة الاخلاقية سببه البعد عن القيم الدينية ٢٣٨
فائدة: فوائد الشبكة العالمية للإسلام ٢٣٩
فائدة: ما المقصود بأن الإسلام صالحٌ لكل زمان ومكان؟ ٢٤٠
فائدة: بعض الدروس المستفادة من صلح الحديبية ٢٤١
فائدة: من الخطأ العظيم أن تُحصَر الدعوة إلى الله تعالى في قلة من المختصين ٢٤٣
فائدة: آيات الصيام ومنهج الدعوة إلى الله ٢٤٤
فائدة: الأقرب إلى الحق هو الأقرب إلى اليسر ٢٤٦
فائدة: وسائل الاتصال الحديثة آية دالة على صدق النبوة المحمدية ٢٤٦
الفائدة: وسائل الاتصال الحديثة فرصة لنشر الدعوة ٢٤٧
فائدة: وسائل الاتصال الحديثة تمثل تحد للدعوة الإسلامية ٢٤٨
فائدة: وسائل الاتصال الحديثة وسيلة يتخذها غير المسلمين ولا سيّما الغربيين لنشر
معتقداتهم وتصوراتهم المخالفة للإسلام ٢٥٠
فائدة: معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة اليهم ومجادلتهم.. ٢٥٢
فائدة: الثقافات الأخرى غير الإسلامية مهما كانت لا تخلو من بعض الخير ٢٥٨
فائدة: لماذا الإسلام دين الحق والخير والجمال ٢٥٩
فائدة: متى يكون الجمال محمودًا؟ ٢٦١
فائدة: مفهوم الحرية في عصرنا ٢٦٢
فائدة: لا مجال للتخلص من العبودية للبشر إلا بالعبودية لخالق البشر ٢٦٣
فائدة: غير المسلمين في عصرنا هذا -وإن كانوا جميعًا غير مسلمين- لكنهم ليسوا
سواء في قربهم وبعدهم من حقائق الدين، وليسوا سواء في معاملتهم للمسلمين . ٢٦٥
فائدة: الاعتبار بالواقع طبيعيًا كان أم اجتماعيًا منهج إسلامي أصيل ٢٦٨

فائدة: كيف يكون الحوار بين أبناء الوطن الواحد دعوة إلى العلمانية؟ ٢٧٠
فائدة: دعوى أن الله تكفل بحفظ القرآن الكريم ولم يَعِدْ بتكفله بحفظ السنة المطهرة .. ٢٧١
فائدة: دعوى تأويل النصوص لتتناسب مع ثقافة العصر ٢٧٤
فائدة: الدين ديان: ٢٧٦
فائدة: ما الذي نستفيده نحن المسلمين في عصرنا هذا من التمييز بين الدين المنزل من السماء، والدين الذي نمارسه في واقعنا ونسميه إسلامًا؟ ٢٧٩
فائدة: الإسلام الذي يريده الغرب ٢٨١
فائدة: علاقة الأخلاق بالنظم في الإسلام وغيره من النظريات الأخرى ٢٨٤
فائدة: الاستدلال الخاطئ بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ على الحرية الدينية بالمفهوم الغربي ٢٨٨
فائدة: السبب في اعتبار الردة جريمة يعاقب عليها القانون الإسلامي ٢٨٩
فائدة: من هي الجماعة الوسط؟ ٢٩٤
فائدة: الممكن أوسع دائرة من المعهود ٢٩٥
فائدة: أقسام المعهود ٢٩٦
فائدة: أثر الخلط بين الممكن والمعهود والمستحيل ٢٩٨
فائدة: من فوائد الكشوف والمخترعات العلمية الحديثة ٢٩٩
فائدة: الفرق بين الاتِّباع العلمي والتبعية الجاهلية ٣٠٠
فائدة: المقصود باليُسْر في الإسلام ٣٠٤
فائدة: العلم ينصر حقائق دين الإسلام ٣١١
فائدة: الاتساق التشريعي في القرآن ٣١٣
فائدة: الفرق بين الاتساق التشريعي في الإسلام وبين تشريعات الايدولوجيات البشرية ٣١٦
فائدة: علاقة الدين بالأخلاق ٣١٨
فائدة: خبراء الاقتصاد في الغرب يدعون إلى تبني النظام المصرفي الإسلامي ٣٢١
فائدة: اختلاف مقادير الأزمان بالنسبة لبعضها ٣٢٢
فائدة: اختلاف مقادير الأزمان بالنسبة لما يحدث فيها من أحداث كثرةً وقِلَّةً ٣٢٥
فائدة: لماذا الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر ٣٢٧
فائدة: الأسباب التي تجعل الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر ٣٢٩

فائدة: ليست الأمة الأكثر قراءة هي بالضرورة الأكثر ثقافة ٣٣٢
فائدة: معنى كلمة الثقافة بحسب الاستعمال الحديث ٣٣٢
فائدة: المسالمة والمداهنة ٣٣٥
فائدة: العلاقة بين الخلق والشرع ٣٣٦
فائدة: شبهات المعترضين على حكم الله تعالى ٣٤١
فائدة: لا يحزن المؤمن حين يرى في الناس في بعض الأماكن أو بعض الأزمان إعراضًا عن دين الله أو ضعفًا في الاستمساك به ٣٤٣
فائدة: التبعية الجاهلية ٣٤٧
فائدة: الصراع بين الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية ٣٥١
فائدة: دعوى التناقض بين الانتماء إلى الوطن أو الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة أيًا كانت ٣٥٢
مصادر مقالات الثقافة الإسلامية والدعوة إلى الله ٣٥٤
أولًا: مقالات كتبت في مجلات وصحف متنوعة ٣٥٤
ثانيًا: مقالات نشرت في مجلة البيان ٣٦٥
فوائد محاضرات الدعوة ٣٧٩
فائدة: لا تناقض بين العمل للأهداف الكبيرة ومعالجة القضايا الجزئية ٣٧٩
فائدة: أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي الحكم العدل ٣٨٠
فائدة: الأُمة التي ليست لها حكام ولا علماء فليست بأُمة ٣٨١
فائدة: استعمال القرآن الكريم للغة التجارة ٣٨٢
فائدة: الأقوال والأعمال تدل على ما في القلوب ٣٨٤
فائدة: مفهوم التربية الدينية أو الإرشاد الديني ٣٨٨
فائدة: كيف نصلح الإنسان؟ ٣٩٠
فائدة: حقيقة الإنسان التي إذا حققها صار إنسانًا ٣٩٦
فائدة: ثمرة تطبيق شرع الله ٤٠٢
فائدة: مقارنة الإسلام بالأديان الأخرى ٤٠٣
فائدة: تفريط كثير من المسلمين في الالتزام بالإسلام ٤٠٦
فائدة: معنى الآية الكريمة لو أراد الله أن يخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ٤٠٨

فائدة: أصل الخِلقة ٤١٢
فائدة: أسباب غفلة المسلمين عن دينهم ٤١٥
فائدة: حقيقة الإنسان ٤١٦
فائدة: تصور بعض النظريات لحقيقة الإنسان ٤١٦
فائدة: نوع الحقيقة التي إذا ما عرفها الإنسان وتصورها وأقر بها أثمرت القيم الإنسانية المنشودة ٤٢٢
فائدة:العلاقة بين الفرد والمجتمع ٤٢٨
فائدة:التصور الإسلامي العام لمسألة التغير ٤٣١
فائدة: القرآن الكريم كلام الله تعالى ٤٣٥
فائدة: الدعوة الإسلامية في الغرب ٤٣٩
فائدة: أكثر ما في القرآن من حجج عقلية هو في باب العقيدة ٤٤٣
فائدة: أهمية العقيدة ٤٤٤
فائدة: خطأ افتراض أن هذا الكون مكتف بنفسه ٤٥٠
فائدة: مبدأ النسبية ٤٥١
فائدة: المفهوم السلبي للحرية ٤٥٢
فائدة: عدم مأخذا لدين مأخذ الجد ٤٥٤
فائدة: فوائد الشبكة العالمية ٤٥٤
فائدة: الخلل الذي أصاب الأُمة الإسلامية في هذا العصر ٤٥٥
فائدة:شرك العوام، وشرك المثقفين والحكام ٤٦٤
فائدة: التفريق بين صحة العقيدة والتخصص في علم العقيدة ٤٦٥
فائدة: التفريق بين علم العقيدة وكتب العقيدة ٤٦٦
فائدة: الفرق بين منهج العقيدة، ومنهج العمل ٤٦٧
فائدة: عوامل البقاء في الحضارة الإسلامية ٤٩٦
فائدة:الحكمة من قتل المرتد ٤٧٠
فائدة: ضرورة استمساك المسلم بدينه ٤٧١
فائدة: الإسلام والعقلانية ٤٧٢
فائدة: العقلانية الشكلية والعقلانية الحقيقية ٤٧٣

فائدة: نظرة الإسلام إلى الإنسان ٤٧٥
فائدة: الدعوة للإسلام هي الدعوة إلى الحق الموافق للفطرة ٤٧٧
فائدة: الإسلام يميز تمييزًا واضحًا بين الحكم على المعتقدات ومعاملة المعتقدين ٤٧٨
فائدة: السلام يساعد الناس على أن يحققوا مصالحهم المشتركة ٤٨١
فائدة: العلم الطبيعي يعطي المسلمين الآن فرصة لقبول دينهم أكثر مما يعطي أي دين آخر ٤٨٢
فائدة: من أكثر ما يصد الناس عن الحق أن يروا أهل الحق ضعفاء ٤٨٣
فائدة: الأصولية والأصوليون ٤٨٥
فائدة: القرآن لا يكتفي بذكر الأدلة على الحقائق وانما يعطيك ما سيترتب على الايمان بهذه الحقائق ٤٨٦
فائدة: منزلة العقل في القرآن ٤٨٨
فائدة: مفهوم الدين ٤٨٩
فائدة: تجديد الفكر، الإسلام تجديد الفكر الإسلامي ٤٩٠
فائدة: مفهوم العلم تجديد الفكر الإسلامي ٤٨٩
فائدة: تجديد الفكر الإسلامي لا يقتضي تسخيره لأهواء الحكام وأهواء العوام..... ٤٩٣
فائدة: الفهم الخاطئ لتجديد الدين تجديد الفكر الإسلامي ٤٩٧
فائدة: المنهج الإسلامي في النظر إلى الواقع ٥٠٠
فائدة: الخصائص التي يمتاز بها الناظر المسلم ٥٠٠
فائدة: الحزن حالة سلبية ٥٠٦
فائدة: أسباب انحطاط الأُمة الإسلامية ٥٠٦
فائدة: حال الأُمة الإسلامية بعد سقوط الخلافة ٥٠٧
فائدة: لماذا يصبح بعض من يدرس من المسلمين في البلاد الغربية مظهر من مظاهر تخلف الأمة؟ ٥١٠
فائدة: الأُمة الإسلامية قد تضعف ولكن لا تموت وتزول ٥١٢
فائدة: جميع العلوم مرتبطة بفلسفات لها فروض لا توجد في الكتب التي تدرسها ٥١٣
فائدة: العلوم الاجتماعية والإنسانية ليست مضرة باعتبارها علومًا وإنما المضر أن تؤخذ كما هي بأخطائها ٥١٤

فائدة: المنهج الصحيح في دعوة الغربيين إلى الإسلام ٥١٥
فائدة: أهمية الأخلاق في التعامل بين الناس ٥١٥
فائدة: الحكمة من الابتلاء ٥١٦
فائدة: عدم استجابة المدعوين لا يعني فشل الدعاة والمصلحين في دعوتهم ٥١٧
فائدة:هل الإنسان يولد ومعه علم؟ ٥١٨
فائدة:وجود الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٥٢٢
فائدة:ثبوت سيرة الرسول ﷺ، وأنه من حيث ثبوتها لا نجد شيئًا تاريخيًا أثبت منها بعد القرآن الكريم ٥٢٥
فائدة: ليس من اللائق أن يقال أن المشايخ يعيشون في جهل بسبب عدم معرفتهم ببعض العلوم الطبيعية ٥٢٧
فائدة: مناقشة الملاحدة عن وجود الخالق ٥٢٨
فائدة: التخيل شيء وإدراك المعنى شيء آخر ٥٣٤
فائدة:هل القرآن كله عن الحقائق الغيبية؟ ٥٣٦
فائدة: أثر الشيعة على الدعوة للإسلام في الغرب ٥٣٧
فائدة: سبب التأثر بالأفكار المنحرفة أو انكار بعض الحق الذي يقرره المخالفون لنا .. ٥٣٨
فائدة: المنهج السليم في مجادلة أهل الباطل ٥٤٠
فائدة: هل الرد على شبهات أهل الالحاد والضلال أمر مشروع؟ ٥٤٢
فائدة:وجود الأدلة والحجج العقلية في القرآن التي تدل على أن الله سبحانه هو الخالق الواحد الذي يستحق العبادة وحده دون سواه وأن محمدًا ﷺ رسول الله ٥٤٤
فائدة: عقائد الشيعة وعلاقتها بالكتاب والسنة ٥٥٥
فائدة: أهمية معرفة اللغة في المنهج العلمي المناسب لإدراك حقائق الدين الإسلامي .. ٥٦٠
فائدة:حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ أن المباشر من الكتاب والسُنّة ٥٦٢
فائدة:من حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ المباشر من الكتاب والسُنّة أن فهم القرآن يحتاج إلى مهارة في اللغة العربية، لم تعد متيسرة للناس في عصرنا..... ٥٦٦
فائدة: من حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ المباشر من الكتاب والسُنّة أنه يحتاج إلى معرفة بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، وهي أمور لا يستطيع المتأخر معرفتها معرفة مباشرة من قراءته للقرآن الكريم ٥٦٨

فائدة: من حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ المباشر من الكتاب والسُنّة أن الأحاديث النبوية فيها -كما في القرآن الكريم- ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، وفيها ما هو حوادث عين، وما هو أحكام عامة، وغير ذلك ٥٦٩
فائدة: من حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ المباشر من الكتاب والسنة أن الأخذ المباشر يؤدي إلى اختلاف أكثر مما هو موجود الآن..... ٥٧٠
فائدة: القرآن هو المصدر الأساس للحقائق الدينية، فهو أيضًا -بما أن بعضه يفسر بعضًا ويبينه- الوسيلة المعنية على اكتشاف حقائق ذلك المصدر ٥٧٢
فائدة: السنة المطهرة هي وسيلة للكشف عن حقائق القرآن الكريم، وبما أن بعضها يفسر بعضًا فهي أيضًا وسيلة لكشف المعاني التي تضمنها هذا المصدر السني.. ٥٧٤
فائدة: منزلة أقوال الصحابة ٥٧٨
فائدة: الحقائق والمبادئ الإسلامية للتعايش السلمي مع الأديان غير الإسلامية:
فائدة: الحاجة إلى التعايش السلمي في عصرنا ٥٨٠
فائدة: من مبادئ الشريعة الإسلامية تحصيل المصالح وتكثيرها وتعطيل المفاسد وتقليلها ٥٨٣
فائدة: ما المصلحة الدينية في نظر الإسلام وما علاقتها بالشؤون السياسية..... ٥٨٨
فائدة: الآثار السياسية للتصور الإسلامي للإنسان ٥٨٩
مصادر محاضرات الدعوة ٥٩٦
فوائد بحوث ودراسات وكتب الثقافة ٦١٠
فائدة: المنهج السليم في فهم الموضوعات الواردة في القرآن الكريم ٦١٠
فائدة:الإكراه في الدخول في الإسلام مستحيل ٦١١
فائدة:الله وحده المسيطر على القلوب ٦١٢
فائدة: الإسلام دين الأخلاق ٦١٣
فائدة:التعايش السلمي بين الناس ٦١٤
فائدة:تعريف الإرهاب ٦١٨
فائدة: العلاج الإسلامي لمشكلة الإرهاب ٦٢٠
فائدة:نسبية الثقافة ٦٢٨
فائدة:عالمية حقوق الإنسان ٦٣٠

فائدة: كيف يقرر المسلم ما إذا كانت الحقوق التي في إعلان الأمم المتحدة متوافقة مع دينه أم غير متوافقة؟ ٦٣٣
فائدة: مناهج الوصول للحقائق المختلفة ٦٣٥
فائدة: الرواية هي المنهج العلمي الوحيد المعتمد لمعرفة سُنّة الرسول ﷺ ٦٣٦
فائدة:عدم العصمة لا يقتضي حتمية وجود الخطأ في كل ما يروي غير المعصوم، وإنما يقتضي احتمال وجود الخطأ ٦٣٩
فائدة: لماذا كتاب البخاري أحاديثه صحيحة ٦٤٠
فائدة: الأسلوب المناسب للحديث للغربيين عن تراثنا الفكري ٦٤٤
فائدة: الحقائق التي يحتاج البشر إلى معرفتها هي الحقائق التي جاءت بها الرسل ٦٤٦
فائدة: منهج الدعوة والمجادلة ٦٤٨
فائدة: ما يميز صاحب الفكر الغربي الخالص ٦٤٩
فائدة: ليس ظهور التيار العلماني في الغرب نتيجة الأخذ بالعلوم التقنية ٦٥١
فائدة: أهمية دراسة البيئات الثقافية التي يراد دعوتها للإسلام ٦٥١
فائدة: أهمية الدعوة إلى الإيمان بوجود الخالق ٦٥٣
فائدة: مراعاة العبارات والمفاهيم في الحديث عن الإسلام بلغة غير العربية ٦٥٤
فائدة: الأسباب التي تجعل الغربيين يعتبرون أن الإسلام دين مُعاد للغرب، وأن انتشاره خطر على البشرية ٦٥٥
فائدة: كل نظرية سياسية أو اقتصادية أو تربوية، بل كل رأي في تنظيم جانب من حياة الإنسان يكمن وراءه تصور معين للإنسان ٦٥٧
فائدة: من هو الإنسان؟ ٦٥٨
فائدة: الفطرة في القرآن وفي السُنّة ٦٦٣
فائدة: الخير الذي فطر عليه الإنسان ٦٧٠
فائدة: غاية التربية والتعليم في الإسلام ٦٧٣
فائدة: الاعلان الدولي لحقوق الإنسان ٦٧٦
فائدة: التصور الإسلامي للحقوق ٦٧٩
فائدة: الحرية الدينية في الدساتير الديمقراطية ٦٨٠
فائدة:عقوبة المرتد والمعترضون عليها ٦٨٢

فائدة: مفهوم أهل السُّنّة والجماعة ٦٨٨
فائدة: بين التسامح وعدم الالتزام ٦٩٠
فائدة: الموقف من الحضارة الغربية ٦٩١
فائدة: التركيز على العقيدة لا يعني إهمال الجوانب الأخرى ٦٩٢
فائدة: خطأ قول من قال أخذ الإسلام كاملًا ١٠٠٪ أو لا شيء ٦٩٩
فائدة: الحذر من كيد الأعداء ٧٠٠
فائدة: أسباب الاتفاق والتعاون بين الناس ٧٠٣
فائدة: مبادئ تساعد على التعاون بين الناس ٧٠٧
فائدة: الكراهية ليست شيئًا مذمومًا في نفسه ٧١١
فائدة: الدين الإسلامي محفوظ ولا يستطيع أحد القضاء عليه ٧١٤
فائدة: أقسام الثقافة ٧١٦
فائدة: الثقافة الإنسانية هي الإسلام ٧١٨
فائدة: التعريف الإسلامي للثقافة ٧١٩
فائدة: خصائص المثقف المسلم ٧٢٢
فائدة: المفهوم الإسلامي للمثقف ٧٣٠
فائدة: حاجة الطلاب إلى مادة الثقافة الإسلامية ٧٣٠
الفائدة الخامسة: خصائص منهج الثقافة الإسلامية ٧٣٣
فائدة: تصورات غير صحيحة لمادة الثقافة الإسلامية ٧٣٧
فائدة: النظرية الإسلامية للتغيير الاجتماعي ٧٣٩
فائدة: النِّعَم فضل من عند الله ٧٤٢
فائدة: كيف يتم هلاك الأمم؟ ٧٤٤
فائدة: أنواع السعادة التي يَعِد بها القرآن الناس ٧٤٦
مصادر كتب وبحوث ودراسات الدعوة ٧٤٨
فوائد مقالات الحضارة ٧٥٤
فائدة: ما الذي يمنع الدول الغربية من الإقدام على التدخل العسكري لنصرة المسلمين في البوسنة؟ ٧٥٤
فائدة: الحضارة الغربية والموقف منها ٧٥٥

فائدة: العلمانية ليست محايدة ٧٥٧
فائدة: سمات الحضارة ٧٥٨
فائدة: الديمقراطية وسيلة لا محتوى لها ٧٦١
فائدة: الإيمان المطلق بالعمل بقرار الأغلبية لا يكون في الواقع ممكنًا ٧٦٦
فائدة: الديمقراطية لا تصلح إذا لم يصلح الشعب ٧٦٧
فائدة: النظرية الاقتصادية الرأسمالية ٧٦٩
فائدة: متى تكون الديمقراطية تتناقض مع الإسلام ٧٧٢
فائدة: متى يستفاد من الديمقراطية ٧٧٥
فائدة: مخططات الغرب لمواجهة الإسلام ٧٧٦
فائدة: المجتمعات الغربية والرذيلة ٧٨١
فائدة: على أي أساس يضع المواطنون في بلد ما دستورهم ويصدرون قوانينهم إذا كانوا منقسمين إلى أديان مختلفة ٧٨٦
فائدة: من عيوب الفكر الغربي ٧٩٣
فائدة: هل يكون النظام ديمقراطيًا حقًا ويكون مع ذلك فاسدًا ٧٩٣
فائدة: هل الوهابية هي جذور الإرهاب ٧٩٨
فائدة: نظرة دعاة التغريب إلى الغرب ٨٠٠
فائدة: الاهتمام بما يحدث في الغرب من مشكلات هو اهتمام بمستقبلنا ٨٠١
فائدة: القيم ليست أمور نسبية ٨٠١
فائدة: أسباب تمزق المجتمعات الغربية كما يراها فوكوياما ٨٠٢
فائدة: الآثار الناتجة من تمزق المجتمعات الغربية كما يراها فوكوياما ٨٠٤
فائدة: سبب تخوف فوكوياما على المجتمعات الليبرالية في الغرب ٨٠٦
فائدة: ليس من حقّ منظمة الأمم أن تصدر قرارات في مسائل تتعلق بالمعتقدات والقيم التي يختلف فيها الناس اختلافًا كبيرًا ٨٠٧
فائدة: الحضارة الغربية ودعوى الحرية ٨١٠
فائدة: متى تقوم هيئة الأمم بدورها المنوط بها ٨١٤
فائدة: دعوى أن العلمانية محايدة لكل الأديان ٨١٧
فائدة: موقف المسلمين من العلمانية ٨١٩

فائدة: نظرية النسبية في الفلسفة والعلوم والأخلاق ٨٢٢
فائدة: تأثر المسلمين بنظرية النسبية في الفلسفة والعلوم والأخلاق ٨٢٥
فائدة: بطلان دعوى أن الشذوذ الجنسي شيء ولد به الشواذ في جيناتهم الوراثية ٨٢٩
فائدة: الجينات لا سلطان جبريًا لها على سلوك الإنسان، بل ولا على كل ما يتعلق حتى بحياته البدنية ٨٣٠
فائدة: لا تقاس الحريات بكميتها إنما تقاس بمدى نفعها وضررها ٨٣١
فائدة: الجوانب الحسنة في الحضارة الغربية ٨٣٢
فائدة: اعتقاد الغربيين أن ما ألفوه من قيم وتقاليد هو الأمر الطبيعي ٨٣٣
فائدة: الصراع بين الحضارات إنما هو في جوهره صراع بين معتقدات لا بين طبقات ولا عرقيات ٨٣٣
فائدة: الحضارة والثقافة والعولمة ٨٣٤
فائدة:إلى متى سيستمر هذا التفوق وهذه الهيمنة الغربية؟ ٨٤٢
فائدة: ما الذي يؤهل الحضارة الإسلامية لأن تكون حضارة عالمية؟ ٨٤٥
فائدة: الرد على فوكوياما في دعوته إلى تبني القيم الغربية؛ لأنها هي القيم العصرانية الصالحة لأن تكون عالمية، وأننا إذا لم نأخذ بها فلا أمل لنا في تحديث مجتمعاتنا ٨٥٠
فائدة: أسباب التقدم المادي ٨٥٤
فائدة: خوف الغرب من الإسلام وراء سياستهم المتناقضة في اعتدائهم على غزو الشعوب والدول المسلمة كالعراق ٨٦١
فائدة: مفهوم الديمقراطية التي يتعامل بها الغرب مع الشعوب الأخرى ٨٦٢
فائدة: داء التبعية وأثره على الأمة الإسلامية ٨٦٦
فائدة: الأسباب التي جعلت الغرب يسمون المسلمين الملتزمين بدينهم بالوهابية ٨٦٩
فائدة: نقد المفكرين الغربيين للديمقراطية ٨٧٢
فائدة: الديمقراطية في الحقيقة ليست هي حكم الشعب ٨٧٢
فائدة: الديمقراطية الليبرالية ٨٧٨
فائدة: موقفنا من النظم التي تسمى بالديمقراطية ٨٨٠
فائدة: خطأ زعم ما يقوله بعض العلمانيين في بلادنا الإسلامية من أن العلاقة بين الدين

والدولة أو بين الدين والسياسة لم تعد قضية في البلاد الغربية ٨٨٢
فائدة: السبب في كراهية الغرب للإسلام وخوفهم منه ٨٨٦
فائدة: الاختلاف في مفهوم الديمقراطية ٨٩١
فائدة: علاقة الديمقراطية بالإسلام ٨٩٢
فائدة: العلاقة بين الداروينية والمعتقدات الدينية ٩٠١
فائدة: دلالة التصميم على وجود الخالق ٩٠٤
فائدة: الدين الخرافي ٩٠٦
فائدة: المفهوم الغربي للوسطية ٩٠٧
فائدة: المعتقدات الفاسدة عند الغرب هي السبب الجوهري في معاداتهم للدين الإسلامي وللمسلمين ٩٠٩
فائدة: الرد على من زعم أن الإسلام انتشر بالسيف ٩١٢
فائدة: دعوى نسبية الحقائق إلى العالم المتحضر ٩١٧
فائدة: حينما يفتتن بعض أبناء المسلمين بالغرب ٩١٩
فائدة: الغربيون يعتبرون الدين الإسلامي هو الخطر على حضارتهم وليس الإرهاب وحده ٩٢١
فائدة: العناصر المشتركة التي تمثل القيم الغربية في العصر الحاضر ٩٢٥
فائدة: طبيعة القيم الغربية ٩٣٣
فائدة: ما موقف المسلمين تجاه تحدي الحضارة الغربية للدين الإسلامي؟ ٩٣٥
فائدة: العلاقة بين المصالح والمفاسد كثيرًا ٩٣٩
فائدة: الديمقراطية بالمفهوم الغربي هي ديمقراطية علمانية ليبرالية لا مكان فيها لمن لا يلتزم بهذه القيم ٩٤٢
فائدة: المعتقد الحق هو الذي يحدث التلاحم الحقيقي بين الناس ٩٤٤
فائدة: أسباب خوف الغرب من الإسلام ٩٤٤
فائدة: من سنن الله تعالى أنه كثيرًا ما يؤيد دينَ الحق بأناس لا يؤمنون به ٩٤٩
فائدة: خطأ الاعتقاد بأن ما يراه الغربيون هو من لوازم العصر ومن مقتضيات الحضارة ٩٥٥
فائدة: الربط بين الحق والقوة المادية -في أصله- اعتقادًا كفريًا ٩٥٦
فائدة: هل الديمقراطية خير نظام توصلت إليه البشرية ٩٥٩

فائدة: تحول المجتمعات الغربية إلى فكرة المجتمع المتماسك وأثره على الليبرالية السياسية ٩٦١
فائدة: لماذا الدول الغربية تتسامح مع المسلمين الذين يعيشون فيها ٩٦٣
فائدة: الإسلام الذي يسمح به الغرب للمسلمين هو إسلام في حدود النظام العلماني... ٩٦٦
فائدة: ليس في الديمقراطية معيار يحدِّد به نوع القرار حسنًا كان أم سيئًا، وإنما الذي يقرر ذلك هو الجهة التي تتخذ القرار حسب معتقداتها وتصوراتها ومصالحها.. ٩٧٠
فائدة: العلاقة بين الديمقراطية والليبرالية: أيهما الأساس ٩٧١
فائدة: من حجج الملحدين بأن الإيمان بالخالق ليس له فائدة وأن الأديان هي سبب الشرور والحروب ٩٧٣
فائدة: من شبهات الملحدين الزعم بأن الأدلة العقلية على وجود الخالق أدلَّة باطلة ... ٩٧٧
فائدة: الفهم القاصر للخالق سبحانه في الخلط بين المخلوقية والسببية ٩٨١
فائدة: الداروينية والإلحاد ٩٨١
فائدة: الرد على من قال أن القوانين الفيزيائية -ولا سيّما قانون الجاذبية- كافية وحدَها لإخراج الكون من العدم إلى الوجود ٩٨٣
فائدة: قلة الثقافة العلمية بين المتخصصين في العلوم الشرعية ٩٨٤
فائدة: المفهوم العربي الإسلامي للأخلاق ٩٨٦
فائدة: ما العلاقة بين الإيمان ومكارم الأخلاق كالصدق والأمانة والوفاء؟ ٩٨٧
فائدة: مفهوم الدين بالمعنى العربي الواسع ٩٩٤
فائدة: المفهوم العلماني للدين ٩٩٥
فائدة: المعنى الثيوقراطي للدولة الدينية ٩٩٥
فائدة: المفهوم الإسلامي للدولة الدينية ٩٩٦
فائدة: أصناف الليبرالية ٩٩٨
فائدة: فكرة العقد الاجتماعي ١٠٠٢
فائدة: أنواع الحريات التي يتحدث الناس ١٠٠٨
فائدة: ليس في الديمقراطية مبدأ خُلُقيًا يُلزِم البلد الديمقراطي بأن يحب لغيره ما أحب لنفسه ١٠١٤
فائدة: هل يؤيد الغرب ما تطالب به الثورات في العالم العربي من الانتقال إلى نُظُم

سياسية ديمقراطية؟ ١٠١٦
مصادر مقالات الحضارة ١٠١٩
فوائد محاضرات الحضارة الغربية ١٠٥١
فائدة: سعادة الإنسان وتحقيق المجتمع الإنساني في مفهوم النظرية الفردية ١٠٥١
فائدة: سعادة الإنسان وتحقيق المجتمع الإنساني في مفهوم النظرية الماركسية ١٠٥٢
فائدة: ما هو الإنسان؟ وكيف نصل للمجتمع الإنساني في التصور الماركسي؟ ١٠٥٧
فائدة: مفهوم الأصولية في الإسلام وعند الغربيين ١٠٦١
فائدة: هل تحارب الأصولية من أجل الديمقراطية؟ ١٠٦٢
فائدة: هل تحل الديمقراطية مشكلتنا في العالم الإسلامي؟ ١٠٦٦
فائدة: الموازين التي نزن بها الحضارة المعاصرة ١٠٦٧
فائدة: مكونات الحضارة الغربية ١٠٦٧
فائدة: ماذا نأخذ من الحضارة الغربية وماذا ندع؟ ١٠٧٣
فائدة: الفلسفة المادية الإلحادية هي التصور الغالي على الناس في الغرب المثقفين والمفكرين والعلماء في أي ناحية من نواحي الحياة سواء كان في العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ١٠٧٦
فائدة: الخلط بين نظرية دارون في التطور وبين فكرة التطور ١٠٨٤
فائدة: الواجب على الطلاب المسلمين الذين يدرسون في الغرب ١٠٨٥
فائدة: أثر مرض الإيدز في خلخلت بعض المعتقدات الغربية ١٠٨٧
فائدة: معنى الديمقراطية ١٠٨٨
فائدة: ما مزالق الإيمان بالديمقراطية بمعنى حكم الشعب؟ ١٠٨٩
فائدة: معنى الحضارة ١٠٩٩
فائدة: ما الحضارات التي تتصارع الآن؟ ١١٠٠
فائدة: تعامل الغرب مع المسلمين، ولا سيّما العرب منهم بعد أحداث سبتمبر؟ ١١٠٤
فائدة: معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب ١١٠٦
فائدة: البعث الإسلامي الحضاري؟ ١١٠٨
فائدة: هل تكفي القوة الصلبة وحدها لتمكين دولة كالولايات المتحدة من فرض نفوذها على الدول الاخرى؟ ١١١٢

فائدة: واقع القوة اللينة (الثقافة) الغربية في عصرنا ١١١٥
فائدة: ماذا يستفيد الغرب من التبعية الثقافية العمياء له؟ ١١١٧
فائدة: المرتكزات التي اعتمدت عليها مسوغات اعتداء الحضارة الغربية على الآخرين ١١١٩
فائدة: هل مسوغات اعتداء الحضارة الغربية على الآخرين مقبولة؟ ١١٢٢
فائدة: الاستعمار الغربي الجديد ١١٢٣
فائدة: ماذا نفعل نحن المسلمين والعرب بخاصة إزاء هذه الأفكار الجديدة التي بدأت تكون واقعًا جديدًا؟ ١١٢٧
مصادر محاضرات الحضارة ١١٣٣
فوائد كتب ودراسات الحضارة ١١٣٨
فائدة: دعاة التأسي بالغرب في العالم الإسلامي ١١٣٨
فائدة: أسس المذهب المادي ١١٣٨
فائدة: نقض عبارة لا موجود إلا المادة ١١٤٠
فائدة: نقض دعوى أزلية المادة ١١٤٤
فائدة: خطأ عبارة أن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم ١١٤٩
فائدة: كل ما نسميه عقلًا أو نفسًا أو روحًا أو فكرًا إنما هو شكل من أشكال المادة (إذا كان المقصود بهذا أن العقل والنفس والروح والفكر أشياء مادية محسوسة أو معلومة القدر والعدد) كلام غير صحيح ١١٥٣
فائدة: دعوى بأن المادية مذهب علمي ١١٥٣
فائدة: هل الإنسان هو سيد نفسه ومالك مصيره فهو وحده المسئول عن أن يشرع لنفسه في السياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر نواحي حياته؟ ١١٥٤
فائدة: نسبية الثقافة ١١٥٦
فائدة: بطلان دعوى ضرورة التزام المسلمون وغيرهم بما جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ١١٥٧
فائدة: الحداثة والعالمية ١١٥٩
فائدة: كيف يقرر المسلم ما إذا كانت الحقوق التي في إعلان الأمم المتحدة متوافقة مع دينه أم غير متوافقة؟ ١١٦٠
فائدة: مقتضيات العصر وأهواء العصر ١١٦٢

فائدة: مكونات الحضارة الغربية ١١٦٤
فائدة ماذا نأخذ من الحضارة الغربية وماذا ندع ١١٦٨
فائدة: كيف نواجه الحضارة الغربية؟ ١١٧٣
فائدة: المنهج العلمي الذي كان اتبعه علماؤنا السابقون الذين تعرضوا لنقد مخالفيهم من المسلمين وغير المسلمين ١١٧٨
فائدة: التيارات في الفكر الغربي ١١٨٠
فائدة: ما هي الحركة التنويرية؟ ١١٨١
فائدة: ما علاقة الديمقراطية بالحركة التنويرية؟ ١١٨٤
فائدة: ماهي الرأسمالية؟ ١١٩٣
فائدة: علاقة الديمقراطية بالرأسمالية والليبرالية؟ ١١٩٩
فائدة: الفكر الغربي؟ ١١٩٩
فائدة: هل تحكم (نظرية المؤامرة) في تفكير المسلمين من أسباب نشوء سوء التفاهم مع الغرب؟ ١٢٠٣
فائدة: العلاقة المستقبلية بين الإسلام والغرب ١٢٠٣
فائدة: لو حدث انهيار للحضارة الغربية كما يراهن على ذلك بعض المسلمين فمن المستفيد إذا حدث ذلك؟ ١٢٠٥
فائدة: إيجابيات الحضارة الغربية ١٢٠٦
فائدة: دور المناهج التربوية في ترسخ بعض القيم السلبية في شخصية الطفل المسلم؟ . ١٢٠٧
فائدة: افتقاد عالمنا الإسلامي إلى أدبيات الخلاف، لا تؤهله لإقامة حوار حضاري مع الآخرين؟ ١٢٠٨
مصادر كتب الحضارة ١٢١٠
فوائد مقالات العلوم الطبيعية ١٢٢٢
فائدة: إطلاق القول بتغير الحقائق العلمية إطلاق غير صحيح، بل هو خطأ محض ١٢٢٢
فائدة: حقائق العلوم التجريبية كلها حقائق شرعية ١٢٢٢
فائدة: ما لم يأت عن طريق الحس والعقل فلا يعد علمًا ١٢٢٤
فائدة: أنواع الحقائق التجريبية التي يقرها الشرع ١٢٣٠
فائدة: سبب حصول الخلط في فهم الحقائق أو في تصورها هو عزو المعاني إلى الألفاظ

التي لا تحملها ١٢٣٢
فائدة: من أسوأ أنواع الخلط اللفظي ما حدث للفظي (العلم) و(المعرفة) في لغتنا العربية الحديثة ١٢٣٢
فائدة: ترجمة العلم بمعناه العام إلى المعنى الخاص (ساينس) والمعرفة إلى (نولج) أدى إلى خلط تصوُّري عظيم ولا سيّما في العلاقة بين العلم والدين ١٢٣٤
مصادر مقالات العلوم الطبيعية والإنسانية ١٢٤٠
فوائد محاضرات العلوم الطبيعية ١٢٤٢
فائدة: هل للعلم منهجًا واحدًا متفقًا عليه بين كل العلماء الذين يدرسون الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية دراسة علمية؟ ١٢٤٢
فائدة: أطر العلم الأيديولوجية ١٢٤٦
اختلاف العلماء داخل الأُطر الفلسفية ١٢٥٤
فائدة: مسوّغات إسلامية العلوم ١٢٥٨
فائدة: العلاقة بين العلوم التجريبية أو الحسية والعلوم العقلية من ناحية والدين من ناحية أخرى ١٢٦٧
فائدة: من الخطأ الذي وقع فيه الغربيون وشايعهم فيه كثير من الذين تأثروا بهم أنهم قالوا إن الموجود هو هذا العالم الذي نراه، هذا العالم المشهود ١٢٦٩
فائدة: أسباب الاهتمام بالمشكلة المسماة بمشكلة الموضوعية في العلوم، سواء كانت إنسانية أو كانت طبيعية ١٢٧٣
فائدة: المراد بالموضوعية في العلوم، سواء كانت إنسانية أو كانت طبيعية ١٢٧٤
فائدة: الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ١٢٧٦
فائدة: هل تعليم العلوم الإنسانية والطبيعية الموجودة والمبنية على الإطار الإلحادي، في البلاد الإسلامية كما هي يجلب مضارًا ووبالًا على الأمة الإسلامية ١٢٧٧
فائدة: هل تعتبر نظرية النظم المتفتحة الآن في الغرب في منهجية العلوم الاجتماعية منسجمة كثيرًا مع التصورات الإسلامية، أم أن هذا ما أخذه الاجتماعيون عن نظريات علوم الفيزياء والأحياء وغيرها؟ ١٢٨١
فائدة: متى يكون أبناؤنا الذين يدرسون في الغرب سببًا في تخلف المسلمين؟ ١٢٨٤
فائدة: هل مناهج العلوم الإنسانية في الغرب أساسها ليس بصحيح، لأنها لا تخضع

لمعايير ثابتة؟ ١٢٨٥
فائدة: العلوم نوعان: علم تكفل الله ببيانه لأن البشر لا يستطيعون معرفته بعقولهم المستقلة ولا بحواسهم، وعِلْمٌ دعانا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمعرفته وأعطانا القدرة على أن نعرفه، فلا يشترط أن نعرفه من القرآن الكريم ١٢٨٦
فائدة: تأثير علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ وغيرها من العلوم الاجتماعية والإنسانية في عقول الناس أكثر من العلوم الطبيعية ١٢٨٨
فائدة: الخلط بين نظرية دارون في التطور وبين فكرة التطور ١٢٩٠
فائدة: ما المراد بقولهم بأن المادة لا تفنى ولا تستحدث؟ ١٢٩١
مصادر محاضرات العلوم الطبيعية ١٢٩٤
فوائد كتب ودراسات العلوم الطبيعية ١٢٩٦
فائدة: من هو الإنسان؟ ١٢٩٦
فائدة: الفطرة في القرآن وفي السُّنَّة ١٢٩٧
فائدة: الخير الذي فطر عليه الإنسان ١٣٠١
فائدة: فلسفة التربية الإسلامية ١٣٠٥
فائدة: لماذا الاهتمام بمناقشات الملحدين مع أنهم في العالم يعدون قلة قليلة من الناس؟ ١٣٠٧
فائدة: ظاهرة الإلحاد في العصر الحديث ١٣٠٩
فائدة: أسباب انتشار الإلحاد في العصر الحديث ١٣١١
فائدة: الوسائل التي نجح العلمانيون بها في إيهام كثير من الناس بأن الحقائق العلمية تبطل الدعاوى الدينية وتؤيد النظريات ١٣٢٢
فائدة: الملحدون مشركون ١٣٢٣
فائدة: الأدلة على وجود الخالق ١٣٢٨
فائدة: نظرية الانفجار العظيم ١٣٤٨
فائدة: هل يتنافى القول بفاعلية الأسباب مع الإيمان بالخالق ١٣٤٩
فائدة: المنهج العلمي لفهم نصوص الكتاب والسُّنَّة ١٣٥٣
مصادر كتب ودراسات العلوم الطبيعية ١٣٥٦
فائدة: الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح لا يعصم من الخطأ ١٣٥٨

فائدة: وصف أصحاب المناهج المنحرفة بالعقلانيين مصطلح غير سديد ١٣٥٨
فائدة: الاقتناع بالدليل العقلي يعتمد على أمرين ١٣٦٠
فائدة: ما هو العقل؟ ١٣٦٢
فائدة: معني العقل في القرآن ١٣٦٣
فائدة: فطر الله الناس على مبادئ عقلية ثم أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دينه الهادي للناس موافقًا لتلك المبادئ العقلية التي فطرهم عليها ١٣٦٧
فائدة: قاعدة ارتكاب أخف الضررين ١٣٦٩
فائدة: قاعدة ارتكاب أخف الضررين قاعدة شرعية وهي أيضًا قاعدة عقلية ١٣٧٢
فائدة: ليست مهمة العقل محصورة في النقد ولا سيّما النصوص الدينية، وإنما النظر فيما ثبت أنه حق، وليزداد فقهًا بها، وليفسر بعضها ببعض وليستنتج منها النتائج، ولينزله ١٣٧٤
فائدة: معايير العقلاء هي معايير فطر الله الناس عليها؛ فهم عالمون بها قبل ورود الشرع، والشرع يأتي مقرًا بها ومؤكدًا لها ومستعملًا لها في دعوته الناس إلى الحق، وفي الحِجَاج معهم ١٣٧٦
فائدة: من المعايير المشتركة بين جميع العقلاء من البشر القوانين المنطقية ١٣٧٨
فائدة: من معايير العقلاء شهادة الحس ١٣٨٢
فائدة: دعوى الملاحدة في عدم إيمانهم بوجود الخالق سبحانه أنه لا يؤمن إلا بما يرى وأن هذا أمر يقتضيه المنهج العلمي ١٣٨٦
فائدة: دعوى بعض الفلاسفة المعاصرين بأن ما لا تمكن مشاهدته بحال من الأحوال فليس بموجود ١٣٨٨
فائدة: من معايير العقلاء السنن الكونية ١٣٩٠
فائدة: ما علاقة الأسباب بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ الكونية ١٣٩٥
فائدة: من معايير العقلاء النفع والضر ١٣٩٦
فائدة: الجمال من أهم المعايير المتفق عليها بين العقلاء ١٣٩٨
فائدة: من معايير العقلاء القيم الخلقية ١٤٠٠
فائدة: علاقة القيم الخلقية بالأوامر والنواهي الإلهية ١٤٠١
فائدة: السلفيون هم أجدر من غيرهم بوصفهم بأنهم عقلانيين إذا كان المقصود

بالعقلانية قبول مقتضيات العقل ١٤٠٦
فائدة: الفلسفة الإسلامية ١٤١٢
فائدة: مصادر الفلسفة الإسلامية الحقة ١٤١٣
فائدة مفهوم العلم ١٤١٤
فائدة: هل العلم ممكن؟ ١٤١٤
فائدة: العلوم المغروسة بذورها في فطرة الإنسان ١٤١٥
فائدة: كيف نعلم؟ ١٤١٦
فائدة: وسائل المعرفة ١٤١٧
فائدة: مصادر المعرفة ١٤١٨
فائدة: الأدلة على الوحي ١٤٢٠
فائدة: المنهج العلمي ١٤٢٤
فائدة: لماذا كثير من الناس يستنكر استعمال تعبير (المنهج العلمي) في المجال الديني. ١٤٢٥
فائدة: شُبهات فهم ١٤٢٦
فائدة: الرد على دعاة المنهج الذاتي الذين يقولون بأن الكلام كلام الله والفهم فهم البشر ١٤٢٧
فائدة: النسبية الخرافية ١٤٣٠
فائدة: ما هي الثقافة التي يقال أنها تجعل فهم النصوص نسبيًا ١٤٣٤
مصادر مقالات منهج التفكير ١٤٣٧
فوائد محاضرات منهج التفكير ١٤٤٢
فائدة: مناهج البحث ليست هي المشكلة، لكن المشكلة في الفلسفة التي توضع فيها هذه المناهج ١٤٤٢
فائدة: جميع العلوم ماعدا الكمبيوتر تدرس في إطار فلسفة معينة ١٤٤٣
فائدة: خطأ تدريس العلوم بطريقة تقريرية سواءً كانت علوم طبيعية أو علوم اجتماعية . ١٤٤٦
فائدة: بطلان القول بأن علاقة الكون نفسه بشيء خارج الكون لا ينطبق عليه قانون السببية ١٤٤٧
فائدة: التصور الخاطئ في الاعتقاد بأن الموجود هو الموجود المادي فقط ١٤٤٨
فائدة: إذا تعارض ما في القرآن مع ما يأتي من العلم الخارجي ١٤٥٧
فائدة: من الأخطاء التي يقع فيها البعض في الرد على الملحدين والماديين ١٤٦٠

فائدة: ليس هناك -من حيث المبدأ- تضاد بين ما يُذْكَر في القرآن الكريم وما يوجد في الواقع؟ ١٤٦٤
فائدة: الطريقة في معرفة الحقائق تؤثر في هذه الحقائق ١٤٦٧
فائدة: خصائص الإطار العام للعلوم الذي يشيع عند الغربيين وعندنا تبعًا لهم ١٤٧٤
فائدة: كيف يمكن تحديد الحقائق التي يجب أن نبني عليها المنهج الديني الإسلامي؟ ١٤٨٥
فائدة: العقل الصحيح من الدين ١٤٨٦
فائدة: مفهوم العقل يدخل في المبادئ الأخلاقية ١٤٨٧
فائدة: يمكن أن يكون بيننا وبين غير المسلم العاقل تفاهم لأن العقل لا يتناقض مع الدين الإسلامي ١٤٨٨
فائدة: من عدم للعقل أن تنسب إلى الدين كلامًا لا دليل عليه من الدين ١٤٩٠
فائدة: أركان المنهج العلمي الموصل إلى الحقائق ١٤٩١
فائدة: مصادر الحقائق والمعارف ١٤٩٢
فائدة: ما مصادر الحقائق الدينية الإسلامية وما المنهج المؤدي إلى معرفتها؟ ١٤٩٥
فائدة: منهج اكتشاف حقائق الدين الإسلام ١٤٩٨
فائدة: منزلة العقل في المنهج العلمي المناسب لإدراك حقائق الدين الإسلامي ١٥٠٠
فائدة: معارضة الشرع بالعقل سواء قال بها المدافعون عن الشرع أو قال بها المدافعون عن العقل، هو خلط لا مسوغ له ١٥٠٢
فائدة: الحقائق والأحكام التي يجمع عليها ١٥٠٤
فائدة: قاعدة حكم الشيء حكم مثله، وهي من القواعد والموازين العقلية التي فطر الله عليها عباده ١٥٠٥
فائدة: دلائل الكون على صدق الحقائق الدينية ١٥٠٨
فائدة: الاستعداد الروحي وأثره على اكتساب العلم ١٥١١
فائدة: علاقة العقل بالشرع ١٥١٥
فائدة: مادة التفكير ١٥١٩
فائدة: مصادر المعرفة ووسائلها ١٥١٩
فائدة: الطرق التي نحصل بها على المعرفة ١٥٢٠
فائدة: مادة الفكر في القرآن ١٥٢١

فائدة: طبيعة التفكير ١٥٢٢
فائدة: ما هي الحقائق التي دعانا القرآن إلى التفكر بها ١٥٢٣
فائدة: بعض خصائص الفكر الإسلامي ١٥٢٤
فائدة: المفهوم الشائع للفكر ١٥٢٥
فائدة: نظرية المعرفة ١٥٢٦
فائدة: وسائل المعرفة ١٥٢٧
فائدة: العقل: في لغة القرآن ١٥٣٠
فائدة: لفظة العقل في لغة المسلمين ١٥٣٢
فائدة: الطريقة التي نصل بها إلى الحقائق ١٥٣٢
فائدة: عن أي طريق يأتينا الشرع (الوحي)؟ ١٥٣٣
فائدة: النتائج لوسائل المعرفة ١٥٣٤
فائدة: ما هي العلوم التي تأتينا عن طريق العقل؟ ١٥٣٥
فائدة: لماذا يتعلم الإنسان اللغة بينما لا يتعلمها الحيوان؟ ١٥٣٦
فائدة: مصدر الحقائق والقيم هو الوحي ١٥٣٦
فائدة: الرد على كون المادة أزلية ١٥٤٣
فائدة: توجيهات قرآنية ومن السنة تتعلق بالمنهج العلمي ١٥٤٦
فائدة: مدارك العلوم ١٥٤٧
فائدة: ما هو العلم؟ ١٥٤٨
فائدة: الأخبار نوعان ١٥٥٠
فائدة: العلم البشري والوحي الإلهي ١٥٥٢
فائدة: المنهج العلمي ١٥٥٤
فائدة: مناهج الحصول على المعلومات ١٥٥٦
فائدة: العلوم التجريبية ١٥٥٧
فائدة: خطوات المنهج في المنهج التجريبي ١٥٦٥
فائدة: مجالات الفلسفة العلمية ١٥٦٥
فائدة: وحدة العقل البشري ١٥٦٧
فائدة: مجلات مباحث فلسفة العلوم أو أصول العلوم ١٥٦٨

فائدة: إسلامية العلوم ١٥٧٠
فائدة: مفهوم السببية ١٥٧٢
فائدة: فاعلية الأسباب ١٥٧٥
فائدة: هل الأسباب متعددة؟ ١٥٧٧
مصادر محاضرات منهج التفكير ١٥٧٦
فوائد مقالات موضوعات متنوعة ١٥٨٢
فائدة: التفريق بين الفلسفات والبرامج ١٥٨٨
فائدة: من الأساليب الركيكة الجديدة تم اكتشاف، تم تعين ١٥٩٠
فائدة: العلاقة بين المواطنة والهوية ١٥٩٣
فائدة: ما الحل فيما إذا كان المواطنون في البلد الواحد منقسمين إلى ثقافات، وهويات مختلفة؟ ١٥٩٧
فائدة: التعدديات والأمة الواحدة ١٥٩٩
فائدة: الآثار الضارة والنافعة لانفصال جنوب السودان ١٦٠٣
مصادر مقالات متنوعة ١٦٠٦
الفهرس ١٦١٣